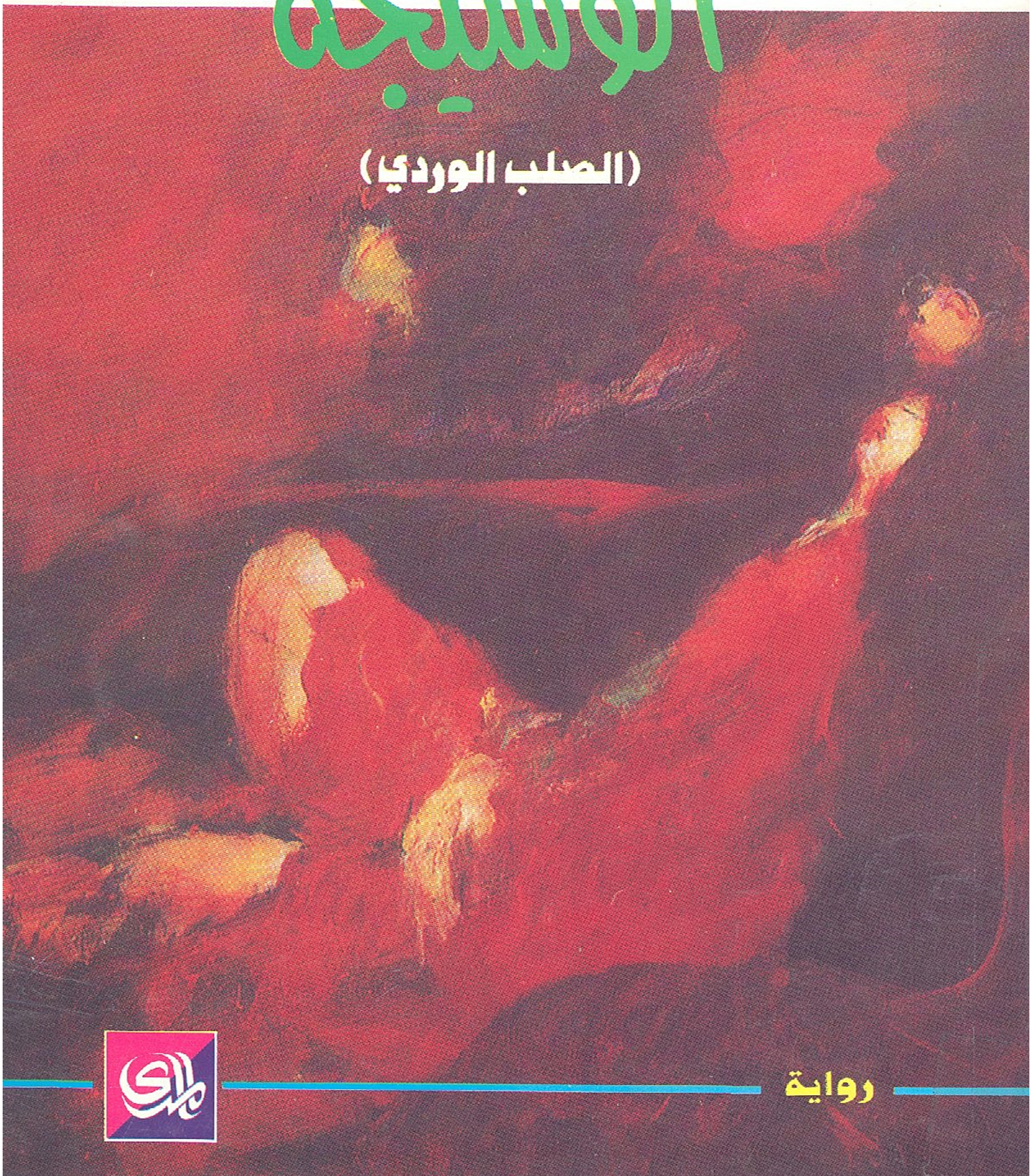
هنري ميلر

ترجمة: عدنان حسن

الوشيجة

(الصلب الوردي)



رواية

إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية



هذه الرواية

* جذل فظ ورقيق .

الصنداي تلغراف

* تمتلك مشاهد الجنس في الكتاب طاقة عربيدة وقوة هزلية لم يتم تجاوزها ومن النادر أن تضاهى في أعماله الآخرى .

الملحق الآدبي للتايمز

* رواية متألقة ، مربكة ، عميقة ... تمتلك نوعاً من البهاء الصاخب الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن ذهن ومخيلة فنان أصيل .

الديلي تلغراف

* ليس هناك من كاتب حي آخر يمتلك مثل هذه القدرة القاهرة على الإبهاج والإغضاب وسلب اللب والإخافه وأخيراً القدرة على الاستعباد .

اكسفورد ميل

* إن الآدب الامريكي اليوم يبدأ وينتهي بمعنى ما أنجزه هنري ميلر .

لورنس دوريل

دار المدى للثقافة والنشر

الوشيجة

(الصلب الوردي)

منشورات

٧	المدى	رواية

Authe : Henry Miller
Title :Nexus (The Rosy Crucifixion)

Al Mada : Publishing Company
First Published in 1996
Copyright © Al mada

اسم المؤلف :هنري ميلر
عنوان الكتاب :الوشيجة (الصلب الوردي)
المترجم :عدنان حسن
لوحة الغلاف :جبر علوان
الناشر :دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع :١٩٩٦
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

هنري ميلر

ترجمة: عدنان حسن

الوشيجة

(الصلب الوردي)

المدى

رواية

الفصل الاول

ووف! ووف! ... ووف! ووف!

نباح في الليل . نباح ، نباح . أصرخ ولا أحد يجيبني . أزعق ولكن لا صدى لصوتي . أيهما تريد ، شرق زيركس أم شرق المسيح ؟

وحدي - مع أكزيما الدماغ .

وحدي أخيراً . عجباً! الشيء الوحيد الذي لم أكن أتوقعه . ليتني كنت مع الله وحدي . ووف! ووف! ووف!

أستجمع صورتها وأنا مغمض العينين . انظر - ها هي تطفو في الظلام ، قناعاً ينبثق من زبد الموج ، إنه ثغر تيلا دورروس ، مثل قوس قزح . الأسنان البيضاء ، العينان مظللتان بالمسكرة ، الأجفان تظللها زرقة باهتة لزجة ، والشعر أسود كالأبنوس ينساب بوحشية . تلك الممثلة المنحدرة من جبال الكاربات ، من سقوف ڤيينا ، كأنها ڤينوس الناهضة من سهول بروكلن .

ووف! ووف! ووف! أنادي ، لكن ندائي يصل إلى العالم كله مثل همسة .

اسمي اسحق دست . أنا موجود في سماء دانتي الخامسة . أردد مثل سترندبرغ* في هذيانه : «ما المشكلة ؟ سواء كان المرء هو الواحد الأوحد أم

---

* اوغست سترندبرغ (١٨٤٩ - ١٩١٢) كاتب مسرحي سويدي يعتبر رائد المدرسة الطبيعية في المسرح (م)

كان له ندٌ ، ما المشكلة في ذلك ؟ » .

لماذا ترد هذه الأسماء الرهيبة إلى ذهني فجأة ؟ إنهم زملاء الدراسة في المدرسة العتيدة التي تعلمت فيها : مورتون شناديغ ، وليام مارڤن ، ايزرايل زيغل ، برنارد بستنر ، لويس شنايدر ، كلارنس دونوهيو ، وليام آڤرند ، جون كورتز ، بات ماك كافري ، وليام كورب ، ارثر كونفيسار ، سالي ليبوڤيتش ، فرانسيس غلانتي ؛ لا أحد منهم يرفع رأسه . لقد ضربوا بالعوارض فتشوهوا كالمجذومين

أين أنتم أيها الرفاق ؟ هل أنت عزيزي أوغست الذي ترفع رأسك في الظلمة ؟ نعم إنه سترندبرغ ذو القرنين النافرين من جبهته ، الزوج المخدوع الكبير* في زمن من الأزمان السعيدة... متى ؟ على أي كوكب ؟ درجت على التنقل من جدار إلى جدار محيياً هذا وذاك . كل الأصدقاء : ليون باكست ، وِستلر ، لوڤيس كورنيث ، بروغل الأكبر ، بوتشيللي ، بوش ، غيوتو ، شيمابيو ، أوتريللو ، غوغان ، بيرانيزي ، أوتامارو ، هوكوساي ، هيروشيغي ، بييرو ، دلافرانشيسكا ، غرونفالد ، هولباين ، لوكاس كراناخ ، ڤان غوغ ، حائط المبكى ، وكذلك غويا وتورنر ، لكل واحدٍ منهم شيء يصعب فراقه ، لا سيما تيلا دوروس ذات الشفتين الفصيحتين الشهوانيتين القاتمتين كبتلات الورد .

الجدران عارية الآن . وحتى لو كانت مكتظة بروائع الفن فلن أميز شيئاً بسبب الظلام الذي أطبق عليها . إنني مثل بلزاك أعيش مع اللوحات الخيالية ؛ حتى (البراويظ) تكون من وحي الخيال .

أنا إسحق دَسْت . ولدت من التراب وإليه أعود . من التراب وإلى التراب . أضف ملحقاً للوصية كرمى للأزمنة الغابرة!

آنا ستاسيا ، الملقبة باسم هيغور بورا ، وتلك المدعوة بيرثا فيليغري من بحيرة تاهور تيتيكاكا ، والمحكمة الامبريالية للقيصرات . إنها مؤقتاً في برج

* Le Cocu Magnifique بالفرنسية في الأصل (م) .

المراقبة . ذهبت إلى هناك من تلقاء نفسها لتكتشف إن كانت على صواب أم لا .

شاؤول ينبح في هذيانه معتقداً أنه إسحق دست .

حبسنا الثلج في مهجع ذي حمام منفرد وسريرين . يومض البرق بشكل متقطع . الكونت بروغا ، هاوي الدمى المتحركة ، يتكئ على المكتب المحاط بالتماثيل الجاوية والتبتية . إن له نظرة شزراء كنظرة المجنون الذي يعب من قصعة ستيرنو . أما جمته المصنوعة من جدائل أرجوانية فتعلوها قبعة صغيرة من البوهيم مستوردة من غاليريه دوفايل . وخلف ظهره تقبع تشكيلة من الكتب المنتقاة أودعتها ستاسيا لدينا ، قبل أن تترك العمل وتدخل مشفى الأمراض العقلية . يمكن قراءة العناوين من اليمين إلى اليسار على النحو التالي : العربدة الإمبريالية ـ خداع الفاتيكان ـ فصل في الجحيم ـ الموت في البندقية ـ اللعنة ـ بطل من هذا الزمان ـ المعنى التراجيدي للحياة ـ قاموس الشيطان ـ أغصان تشرين الثاني ـ ما فوق مبدأ اللذة ـ ليسيستراتا ـ ماريوس الابيقوري ـ الحمار الذهبي ـ جود الغامض ـ الغريب المحيِّر ـ بيتر ويغل ـ الأزهار الصغيرة ـ Virginilus puerisque ـ الملكة ماب ـ الإله الكبير بان ـ رحلات ماركو بولو ـ أغاني بيليتس ـ حياة يسوع المجهولة ـ ترستram شاندي ـ جرة الذهب ـ الغوشيرا السوداء ـ الجذر والزهرة .

ثمة ثغرة واحدة فقط وهي غياب كتاب روزانوف : ميتافيزياء الجنس . لقد وجدت العبارة التالية مكتوبة بخط يدها على قصاصة ورق سمانة ، والتي لا بد أنها قد أخذتها من أحد تلك المجلدات ، تقول العبارة حرفياً : « يا لذاك المفكر الغريب ، ن . فيديروف ، روسي من الروس ، الذي لا بد أنه سيجد من الفوضوية المعادية للدولة شكلاً خاصاً به وحده » .

لو أني عرضت هذا المقتطف على كرونسكي لبادر من فوره مسرعاً نحو مشفى المجانين ليقدمه دليلاً على أن ستاسيا هي بكامل قواها العقلية .

متى كان ذلك ؟ البارحة ؟ نعم ، البارحة حوالي الساعة الرابعة صباحاً أثناء المسير إلى محطة فرعية للبحث عن مونا التي يفترض أنني أتجسس

عليها وهي تتمشى على الثلج برفقة صديقها المصارع جيم دريسكول . لو رأيتهما لتبادر إلى ذهنك أنهما يبحثان عن البنفسج في مرج ذهبي . فلا يعبآن بالثلج أو الجليد ولا بالهبَّات القطبية الآتية من صوب النهر ، ولا هما خائفان من الله ولا من إنسان . إنهما يتجولان ضاحكين ، مثرثرين ، مدندنين ، طليقين مثل قبرات المروج .

اصغِ! اصغِ! فالقبرة تغرد عند بوابة السماء!

صرت ألاحقهما عن بعد ، وكنت على وشك أن أتأثر بلا مبالاتهما المطلقة . وفجأة استدرت نحو اليسار باتجاه شقة اوزيسكي أو إلى حجراته كما قصدت أن أقول .

كانت الأنوار مشتعلة ، والبيانولا تصدح بمعزوفة / مقطوعات مختارة/ من أعمال دونانيي كتأكيد إضافي على ذلك .

ـ « تحية لك يا قملتي الجميلة » ، هكذا قلت في نفسي . ثم تابعت المسير . كان السديم يغطي الأفق من جهة قناة غوڤانوس ، إذ ربما كان السديم ناجماً عن ذوبان عائمة جليدية .

عند وصولي إلى البيت ، وجدتها تطلي وجهها بالكريما .

قالت لي متسائلة بلهجة اتهام :

ـ « قل لي بحق الله أين كنت ؟ »

ـ « وهل مضى زمن طويل على عودتك إلى هنا ؟ »

ـ « منذ ساعات »

ـ « غريب . كنت سأقسم يميناً أنني قد تركت هذا المكان منذ عشرين دقيقة فقط . ربما كنت مسرنماً* . إنه شيء مضحك . ولكن لدي انطباع بأنني قد شاهدتك وجيم دريسكول تتمشيان متأبطين ذراعي بعضكما » .

ـ « ڤال** ، لا بد أنك مريض »

---

* المسرنم : هو النائم والسائر بآن معاً (م)

** من الآن فصاعداً سوف يغلب استعمال اسم ڤال بدلاً من هنري (م)

ـ «لا ، بل مجرد إنسان مخبول ، أقصد مهلوَس» .

تضع يدها الباردة على رسغي وتحاول جس نبضي . كل شيء طبيعي ظاهرياً . تحتار في الأمر . لماذا أختلق مثل هذه القصص ؟ لمجرد تعذيبها ؟ ألا يوجد ما يكفي لإثارة القلق بدءاً من ذهاب ستاسيا إلى مشفى الأمراض العقلية وانتهاءً بتراكم أجرة البيت ؟ هل ينبغي أخذ المزيد من العبرة ؟ أمشي نحو المنبه وأشير إلى العقارب ـ إنها السادسة . فتقول لي :

ـ «أعرف ذلك»

ـ «إذاً ـ لم تكوني أنت التي رأيتها بأم عيني منذ دقائق قليلة ؟ »

تنظر إلي كما لو أنني على حافة الجنون . أرد عليها مستقسقاً :

ـ «لا شيء يدعو للقلق يا عزيزتي » . «كنت أشرب الشمبانيا طوال الليل . أنا واثق الآن من أنك لست التي رأيتها ـ بل جسدك الوهمي »

تمر لحظة صمت .

ـ «على كلٍ ، إن ستاسيا بخير . لقد قابلت أحد الأطباء المقيمين وتحدثت إليه مطولاً » .

ـ «نعم ، قبل أن أفعل أي شيء فكرت في الإسراع لرؤيتها والاطمئنان إلى تحسُّن صحتها وجلبت لها بعض الشارلوت الروسية* »

ـ «ينبغي أن تأوي إلى الفراش ، يا ڤال ، إنك مرهق»

سادت لحظة صمت .

ـ «إذا كنت تود معرفة سبب تأخري فسوف أحكي لك . لقد تركت ستاسيا لتوي وكنت قد أخرجتها منذ ثلاث ساعات» .

صارت تقهقه ـ أم تراها كانت تقوقئ ؟

ـ «سأحكي لك كل شيء في الغد ـ إنها حكاية طويلة»

فقلت لها مثيراً ارتباكها :

ـ «لا تقلقي! لقد سمعت كل شيء عن الموضوع منذ فترة قريبة»

---

* الشارلوت : نوع من الحلوى تصنع من الخبز والفاكهة والكريما .

أطفأنا الأنوار واندسسنا في الفراش وأنا أهمس لها :

ـ «يا بيرثا فيليغري من بحيرة تيتيكاكا» .

كنت في أغلب الأحيان ، وبعد جلسة مع اشبنغلر أو ايلي فاور ، أرمي بنفسي على السرير بكامل ثيابي ، وبدلاً من التسلي بالحديث عن الحضارات القديمة كنت أجد نفسي داخلاً في عالم متاهي من الاختلاقات ، إذ أن أياً من هذه الاختلاقات لم يكن قادراً على الإتيان بالحقيقة ، حتى لو كان الأمر يتعلق بمسألة بسيطة كالذهاب إلى التواليت مثلاً...

إن ستاسيا ذات النفس الصادقة في جوهرها قد اكتسبت هذه العادة لكي تسبب لمونا شيئاً من الفرح . حتى في تلك الحكاية الوهمية حول كونها ابنة غير شرعية من بنات رومانوف ، ثمة ذرة من الحقيقة .

فبالنسبة لها لا يمكن خلق اكذوبة دون إلباسها ثوباً كاملاً ، على عكس ما تفعل مونا . وعلاوة على ذلك ، إذا واجهها المرء بالحقيقة فإنها لا تطلق نوبة هستيرية أو تغادر الغرفة متعثرة على أرجلها الخشبية . لا ، بل إنها ترسم على جبهتها ، بكل بساطة ، تقطيبة عريضة سرعان ما تتحول تدريجياً إلى ابتسامة فرح على وجه طفل ملائكي . ثمة لحظات أصدق فيها ستاسيا وأشعر كأنني أصل معها إلى غاية ما . ولكن ما أن أشعر أن الوقت قد حان حتى تنقض عليها مونا مثل حيوان يحمي صغاره . ومن أغرب نقاط الضعف في نقاشاتنا الحميمة ـ حيث أننا صرنا نطيل هذه النقاشات ـ هي على ما يبدو جلسات الصراحة . وإحدى تلك الثغرات التي لا حصر لها هي تلك الثغرات المتعلقة بالحديث عن الطفولة . كيف كانتا تلعبان ، أين ، مع من ، كل ذلك يبقى لغزاً تاماً . إذ يبدو وكأنهما قد قفزتا إلى طور النسوة من المهد مباشرة . فلا ذكر لصديق طفولة أو مزحة مثيرة استمتعتا بها ؛ كما أنهما لا تتطرقان إلى الحديث عن شارع كانتا تفضلانه أو حديقة كانتا تلعبان فيها أو لعبة تستمتعان بها .

سألتهما سؤالاً تافهاً : «هل تعرفان التزلج ؟ هل تجيدان السباحة ؟ هل

سبق لكما أن لعبتما لعبة «البحيصة» . نعم ، إنهما في الواقع تجيدان كل هذه الأشياء واكثر ـ لم لا ؟ أما في الوقت الحالي فإنهما لا تسمحان لنفسيهما بالانزلاق إلى الماضي . فلا يحدث فجأة ـ كما يحدث في المناقشات الحامية ـ أن تستعيد إحداهما ذكرى تجربة غريبة أو مثيرة تتعلق بالطفولة . ومن حين لآخر ، قد تذكر إحداهما ـ أو الأخرى ـ أنها ذات مرة كسرت ذراعها أو لوت كاحلها ، ولكن أين ومتى ؟ ومرة تلو المرة أحمل نفسي عناء إرجاعهما إلى الماضي بلطف وتهذيب كما يقود المرء حصاناً إلى اصطبله ولكن عبثاً...

التفاصيل تضجرهما . تتساءلان ما أهمية أن يعرف المرء مكان وزمان الحادثة ؟ عظيم جداً ـ ها قد غيرت الموضوع ليصبح الحديث عن روسيا أو رومانيا على أمل الكشف عن ومضة أو بريق من الاهتمامات الخاصة بكل واحدة منهما .

إني أفعل ذلك بكل مهارة أيضاً مبتدئاً بطريق تسمانيا أو باتاغونيا . ثم أشق طريقي بشكلٍ ملتوٍ وبالتدريج نحو روسيا ورومانيا وفيينا وسهول بروكلن . وكما لو أنه لم يراودهما أدنى شك بلعبتي فإنهما تبدءان فجأة بالحديث عن الأماكن الغريبة بما فيها روسيا ورومانيا ، ولكن كما لو كانتا تسترجعان شيئاً ما قد حكاه لهما شخص غريب تم التقاطه من كتاب أسفار .

ستاسيا التي تمتلك قليلاً من التصنع يمكنها حتى أن تتظاهر بأنها تعطيني تأكيداً على كلامي . فقد تأخذ في اعتبارها أن تنسج حدثاً مزوراً عن دوستويفسكي وهي واثقة من أن لي ذاكرة ضعيفة ، أو أنه حتى لو كانت ذاكرتي قوية فمن غير الممكن أن أكون قادراً على تذكر آلاف الحوادث التي تكتظ بها مجلدات دوستويفسكي ـ وكيف لي أن أتحقق من أنها لا تسمعني دوستويفسكي الأصلي ؟ ولأن لي ذاكرة رائعة لرائحة الأشياء المقروءة ، فمن المستحيل بالنسبة لي ألاّ أميز اللمسة الدوستويفسكية المزيفة . في كل الأحوال ، ولإخراجها من المعمعة ـ أعمد إلى التظاهر بأنني أستذكر الحدث الذي تسرده . أهز رأسي علامة الموافقة ، أضحك ، أشبك يدي ، أفعل أي شيء

ترغب به إلا أن أدعها تعرف أنني أعرف أنها تزيف . ومن حين لآخر ، أذكرها ـ بنفس الروح التمثيلية ـ بشيء تافه تكون قد موّهته ، أو بتحريف قد ابتدعته ؛ لا بل إنني كنت أجادل حوله مطولاً إذا تظاهرت هي بأنها قد روت الحدث بأمانة . كل ذلك يحدث بينما تكون مونا جالسة تصغي بانتباه غير مدركة للحقيقة من الزيف ، ولكنها مسرورة مثل العصفور لأننا نتحدث عن معبودها ، إلهها ، دوستويفسكي .

أي عالم من البهجة والسرور ، عالم الأكاذيب والزيف هذا ، عندما لا يوجد شيء أفضل لكي نفعله ، أولا شيء للمراهنة عليه أوالتنافس من أجله ؟ ألسنا مدهشين ، نحن الكذابين ، المائعين ، الدمويين ؟ أحياناً تدعي مونا أن « دوستويفسكي المسكين هو نفسه ليس معنا! » وكأنه ابتدع كل اولئك المجانين ، وكل تلك المشاهد المخبولة التي تفيض بها رواياته ، أقصد أنه ابتدعها تحقيقاً لمتعة خاصة به ، أو لأنه كان بالفطرة أحمق وكذاباً . لم يخطر ببالهما ولو مرة واحدة أنهما ربما كانتا الشخصيتين البلهاوتين في كتاب تسطره الحياة ، بحبر لا مرئي ، وبالتالي ليس غريباً أن كل شخص تقريباً ـ ذكراً كان أم أنثى ـ تعجب به مونا هو « أبله » ، أو أن كل شخص تمقته هو « أحمق » . وحتى الآن عندما يحلو لها أن تمتدحني فإنها دائماً تدعوني أحمق : « فال ، يا عزيزي الأحمق » . وتقصد بذلك أنني عظيم ومعقد بما فيه الكفاية ـ حسب تقديرها على الأقل ـ لكي أنتمي إلى عالم دوستويفسكي . في بعض الأحيان تمضي أبعد من ذلك إلى حد القول بأنني دستويفسكي آخر . لكن ما يثير الشفقة هو أنني لا أستطيع في مثل هذه اللحظات أن أطلق نوباتي الصرعية . وهذا بحد ذاته يمنحني ـ في الواقع ـ قوة التحمل الضرورية . وما يحدث لسوء الحظ ـ أو ما يبطل السحر ـ هو أنني أنحطُّ بسرعة وعلى نحوٍ تام إلى مستوى « برجوازي » . بمعنى آخر ، أصير كثير الفضول ، كثير التفاهة ، وقليل القدرة على الاحتمال . إن دوستويفسكي تبعاً لمونا ، لم يبدِ أدنى اهتمام بالحقائق (حيث أن واحدة من تلك الحقائق القريبة تجعل المرء يجفل أحياناً) .

لا ، فلنصدقها ـ فقد كان دوستويفسكي دائماً في الغيوم أو أنه كان مدفوناً في الأعماق . وهو لم يفكر أبداً في العوم على السطح . لم تكن لديه أية فكرة عن القفازات أو الكمامات أو المعاطف الواقية . كما أنه لم يكن يحدق بفضول في محافظ النساء بحثاً عن الأسماء والعناوين . لقد عاش في المخيلة فقط .

كان لستاسيا الآن رأيها الخاص حول دوستويفسكي وطريقته في الحياة واسلوبه في العمل . بالرغم من أن أهواءها متقلبة فقد كانت مع ذلك أقرب قليلاً إلى الواقع . كانت تعلم أن الدمى تصنع من الخشب أو من الورق وليست محض خيال .

ولم تكن متأكدة سوى من أن دوستويفسكي كان له جانبه « البرجوازي » . والشيء الذي كانت تستسيغه بشكل خاص لدى دوستويفسكي هو العنصر الشيطاني . فبالنسبة لها ، كان الشيطان حقيقة واقعة . أما مونا ، فقد كانت تبدو غير متأثرة بالشر عند دوستويفسكي ، إذ كان بالنسبة لها عنصراً آخر من صنع « مخيلته » . لم يكن في الكتب من شيء يخيفها ، الأمر الذي ربما كان يفسر اختراقها للنار دون أن تتأذى . أما بالنسبة لستاسيا . فعندما ينتابها مزاج غريب تصبح حتى مشاركتها في الإفطار محنة حقيقية . كانت تمتلك أنفاً حساساً للشر يمكنها من استكشاف وجوده حتى في الأطعمة الباردة . بالنسبة لستاسيا ، إن الشيطان كائن كلي الوجود ، دائم التربص بضحيته . فهي ترتدي التميمة لترد عن نفسها قوى الشر ، وكانت تصنع إشارات خاصة عند دخولها بيتاً غريباً أو أنها تردد تعويذات بلغات غريبة ، حيث أن كل هذه الأمور كانت تثير ابتسامة مونا المتسامحة والتي كانت تعتبر ستاسيا « لذيذة بسبب كونها بدائية وخرافية بهذا الشكل » ، وكانت تردد القول : « إنه الدم السلافي يجري في عروقها » .

أما الآن وقد قامت السلطات بوضع ستاسيا في عهدة مونا ، فقد صار لزاماً علينا أن ننظر إلى الوضع بصراحة أكثر ، وأن نؤمن لهذه المخلوقة المعقدة نمطاً من الحياة اكثر استقراراً وهدوءاً .

تبعاً لرواية مونا المؤلمة ، فإن ستاسيا قد أطلق سراحها من الحجر الصحي بعد ممانعة كبيرة . أما ما الذي حكته لهم عن صديقتها ـ إضافة لما حكته عن نفسها ـ فالشيطان وحده يحلم بمعرفته . فعلى مدى أسابيع وباستخدام اكثر المناورات دهاءً ، نجحت في تجميع عناصر اللغز المعقد الذي كانت قد قامت بتركيبه عن مقابلتها مع الطبيب المعالج . ولولا وجود هدف آخر لقلت انهما تنتميان إلى المصح العقلي . ولحسن الحظ أنني كنت قد تلقيت وعلى نحو غير متوقع نسخة أخرى من الحكاية من كرونسكي . لست أدري لماذا شغل نفسه ، هو الآخر ، في القضية . ومما لاشك فيه أن مونا قد أعطت اسمه للسلطات المختصة باعتباره طبيب العائلة . ومن المحتمل أنها قد استدعته في منتصف الليل بصوتها المتهدِّج بفعل النشيج ، وتوسلت إليه أن يفعل شيئاً ما من أجل صديقتها الحبيبة . على أي حال ، لقد تجاهلت أن تخبرني أن كرونسكي هو الذي أمَّن إخراج ستاسيا من المصح ، وأن ستاسيا لم تكن تحت رعاية أحد ، وأن كلمة واحدة منه (إلى السلطات) كانت كفيلة بإزالة الالتباسات . لقد كانت النقطة الأخيرة من قبيل التباهي وقد تقبلتها أنا على هذا الأساس . إن الحقيقة المحتملة هي أن أجنحة المشفى كانت قد امتلأت بالمرضى . كنت في قرارة نفسي قد عزمت على زيارة المشفى ذات نهار جميل لأطّلع على ما حدث بالضبط (للتسجيل فقط) . لم أكن مستعجلاً في ذلك .

شعرت أن الوضع الراهن لم يكن سوى مقدمة أو إنذار بما سيأتي . في غضون ذلك كنت أندفع صوب القرية كلما شعرت برغبة في التبول . كنت أجوب المكان مثل كلب شارد . وعندما أصل إلى عمود كهرباء أرفع ساقي الخلفية وأتبول عليه .

ووف! ووف! ووف!...

وهكذا كنت أجد نفسي في أغلب الأحيان واقفاً خارج الآيرون كولدرون عند الدرابزون الذي يسوِّر قطعة الأرض المعشوشبة الرثة التي يغطيها الثلج الأسود حتى الركبتين أراقب الآتين والذاهبين . كانت الطاولتان الملاصقتان

للنافذة هما طاولتا مونا . صرت أراقبها بينما كانت تتأرجح إلى الأمام والخلف في ضوء الشمعة ، بينما كانت تنقل الأطعمة إلى الخارج كانت السيجارة ملتصقة بشفتيها والابتسامات تعلو محياها وهي ترد التحية للزبائن أو ترد على طلباتهم .

ومن حين لآخر تأخذ ستاسيا مكانها قرب الطاولة وظهرها مستند دائماً إلى النافذة ومرفقاها على الطاولة ورأسها بين يديها . لقد اعتادت أن تداوم على الجلوس هناك حتى ينصرف آخر زبون . ثم تنضم إليها مونا حيث يمكن من الحكم على التعابير المرتسمة على وجه مونا أن تستنتج دائماً أن نقاشاً حاراً كان يجري بينهما . في بعض الأحيان تضحكان معاً بحرارة ، فلو قدر لأحد الأشخاص المفضلين لديهما أن يحاول الانضمام إليهما ، لكان عليه (أو عليها) أن ينصرف مثل ذبابة خرجت من قارورة . أما ما يمكن لهاتين المخلوقتين العزيزتين أن تتحدثا عنه بهذا الانهماك الشديد ؟ وبهذه الفكاهة المفرطة ؟ أجبني على هذا السؤال وسأكتب لك تاريخ روسيا في جلسة واحدة .

في اللحظة التي انتابني الشك في أنهما تستعدان للانصراف ولّيتُ هارباً وصرت أتسكع متمهلاً مكتئباً من حانة إلى حانة إلى أن بلغت حي شيريدان . في إحدى زوايا الحي المضاءة دائماً مثل صالون من الطراز العتيق كان يقع محل/ ميني دوشباغ/ الأثير لدي ، حيث كنت أعرف أنهما ستعرجان إلى هناك تباعاً .

كنت أنتظر لأتأكد من أنهما قد اتخذتا مقعديهما في الحانة . ثم ألقيت نظرة على ساعة الحائط فخمنت أن واحدة منهما على الأقل ستعود إلى هذا العرين في غضون ساعتين أو ثلاث . كان من دواعي ارتياحي لدى إلقائي آخر نظرة باتجاههما أن ألاحظ أنهما كانتا مركز الانتباه الوحيد تماماً .

ومن دواعي ارتياحي ـ ما هذه الكلمة! ـ أن أعرف أنهما تنعمان بحماية المخلوقات العزيزة التي كانت متفهمة لهما ومستعدة دائماً وأبداً لمؤازرتهما . وكان من دواعي التندر أيضاً أن مجرد إعادة بسيطة للملابس كانت كافية

لجعل أي خبير من خبراء برتيلون يجد صعوبة في تمييز الفتيان عن الفتيات لدى دخول الشارع الفرعي . كان الفتيان مستعدين دائماً للموت من أجل الفتيات و العكس بالعكس .

ألم يكونوا جميعاً في نفس المبولة الزنخة التي تودع فيها كل نفس طاهرة كريمة ؟ هكذا كان الأعزاء ـ أفراد العصابة جميعاً . في الواقع ، كانوا احباباً . أما هن فكن رفيقات الهوى كما كانوا يعتبرونهن Gwacious . كان كل فرد في المجموعة ـ لا سيما الفتيان ـ فناناً بالفطرة . حتى تلك المخلوقات الصغيرات الخجولات اللواتي كن مختبئات في زاوية من الزوايا لكي يقضمن أظافرهن .

هل كان الاحتكاك مع الجو الذي يسوده الحب والتفاهم هو السبب في أن ستاسيا قد طلعت بفكرة مفادها أن الأمور ليست كلها على ما يرام بيني وبين مونا ؟ أم أن ذلك يعزى إلى الصفعات القوية التي تلقتها في لحظات الصدق والصراحة ؟

ـ «لا ينبغي عليك أن تتهم مونا بأنها تخدعك وتكذب عليك»

هكذا قالت لي في إحدى السهرات . لا يمكنني أن أتصور كيف حدث أن كنا وحدنا . ربما كانت تتوقع وصول مونا بين لحظة وأخرى .

قلت لها : «وبماذا ترتأين أن أتهمها ؟»

ـ «مونا ليست كذابة وأنت تعرف ذلك . إنها تختلق ، تحرِّف ، تبتدع... لأن ذلك أكثر إمتاعاً . وهي تعتقد أنك تحبها على نحو أفضل عندما تعمد هي إلى تعقيد الأمور . إنها تكن لك احتراماً فائقاً لدرجة تمنعها من الكذب عليك»

لم أبدِ أية محاولة للرد .

قالت لي وقد رفعت من حدة صوتها : «أ لا تعرف ذلك ؟»

ـ «بصراحة ، لا»

ـ «أتقصد أنك (تبلع) كل الحكايات الخرقاء التي تسمعك إياها ؟»

ـ «إذا كنت تقصدين أنني اعتبرها جميعاً بمثابة لعبة صغيرة تعوزها البراءة ، فالجواب بالنفي»

ـ « ولكن لماذا تفترض أنها تريد خداعك إذا كانت تحبك بهذا الشكل . أنت تعلم أنك تعني بالنسبة لها كل شيء ، نعم ، كل شيء »

ـ « ألهذا السبب تغارين مني ؟ »

ـ « أغار ؟ أنا أغضب لأنك تعاملها بهذا الشكل ولأنك تبالغ في طيشك وفظاظتك... »

رفعت يدي متسائلاً :

ـ « ما الذي ترمين إليه بالضبط ـ ما هي اللعبة ؟ »

ـ « اللعبة ؟ اللعبة ؟ »

ثم انتصبت واقفة بطريقة توحي كأنها قيصرة من القيصرات أصابها السخط والذهول إلى درجة جعلتها تغفل تزرير فستانها وعقدة قميصها الفالتة .

قلت لها : « اجلسي ، وخذي سيكارة أخرى! »

رفضت الجلوس وأصرت على التأرجح ذات الأمام وذات الوراء ، فقلت لها :

ـ « الآن ، ما الذي تفضلين سماعه وتصديقه ؟ إن مونا تحبني كثيراً لدرجة الكذب عليّ ليلاً نهاراً ؟ أم أنها تحبك كثيراً لدرجة لا تمتلك معها الجرأة على إخباري بالموضوع ؟ أم أنك تحبينها حباً جماً بحيث لا تستطيعين تحمل رؤيتها تعيسة ؟ أو اسمحي لي أن أسألك أولاً ـ هل تعرفين ما هو الحب ؟ قولي لي ـ هل سبق لك من قبل أن وقعت في حب إنسان ؟ كل ما أعرفه أنه كان لديك كلب تحبينه ـ أو هكذا قلت لي ـ كما أعرف أنك مارست الحب مع الأشجار . وأعلم أنك تحبين أكثر مما تكرهين ـ ولكن هل تعرفين ما هو الحب ؟ إذا صادفت شخصين أحبا بعضهما على نحو جنوني ، فهل إن حبك لأحدهما سيزيد من ذاك الحب أم سيدمره ؟ أو بعبارة أخرى ، فربما يتضح الأمر أكثر : إذا اعتبرت الأمر مجرد موضوع شفقة ، وحصل أن شخصاً أظهر لكِ عطفاً حقيقياً وحباً حقيقياً ، فهل سيختلف الأمر بالنسبة لك سواء كان ذاك الشخص ذكراً أم انثى ، متزوجاً أم غير متزوج ؟ أقصد هل ستكونين على استعداد لتقبُّل ذاك الحب أم هل تريدينه لأجلك حصراً ؟ »

ساد صمت ، صمت ثقيل .

تابعت كلامي قائلاً :

ـ «وما الذي يجعلك تعتقدين أنك تستحقين الحب ، أو يجعلك تعتقدين أنك محبوبة ؟ أو إذا كنت تعتقدين ذلك ـ هل أنت قادرة على مبادلة ذاك الحب ؟ اجلسي ـ لماذا لا تجلسين ؟ تعلمين أن بإمكاننا ـ في الواقع ـ أن نصل إلى الحقيقة . لدي رغبة في المحاولة» . فرمقتني بنظرة غريبة مجفلة .

ـ «تقولين إن مونا تعتقد أنني أحب الكائنات المعقدة . سأكون نزيهاً معك وأحيطك علماً بأنني لا أحب الكائنات المعقدة . خذي نفسك مثالاً . فأنت صنف بسيط جداً من الكائنات قلباً وقالباً ـ أليس كذلك ؟ أو متكاملة كما يقولون . أنت تعيشين بأمان مع ذاتك ومع العالم الواسع برمته ، بحيث ـ ولمجرد الاطمئنان ـ تضعين نفسك موضع المراقبة والملاحظة . كوني مباشرة ، اضحكي إذا كنت ستضحيكن . فالأشياء تبدو غريبة عندما تقلبينها رأساً على عقب . هذا فضلاً عن أنك لم تذهبي إلى المصح العقلي من تلقاء نفسك ـ صحيح ؟ إنها مجرد حكاية من حكايات مونا ، بالطبع . أما أنا فقد ابتلعت الصنارة والخيط والطعم لأنني لم أكن راغباً في تخريب صداقتكما . والآن ها قد خرجت بفضل جهودي وتريدين أن تظهري امتنانك ـ صحيح ؟ أنت لا تريدين أن تريني تعيساً ، سيما وأنني أسكن مع شخص عزيز (عزيزة) عليك» .

صارت تقهقه بالرغم من حقيقة إحساسها بالسخط . قالت :

ـ «اسمع ـ إذا كنت قد سألتني عما إذا كنت أغار منك بنفس القدر الذي أكره به الاعتراف بذلك ، فسأرد عليك بالايجاب ، انا لست خجلة من الاعتراف بأن ما يهينني هو الاعتقاد بأن شخصاً مثلك يمكنه إثارة غيرتي ، فأنت آخر من أختاره ليكون غريماً لي . أنا لا أحب الـ Morphodites أكثر من حبي لذوات الأظلاف والحوافر . أنا من ذوي الأحكام المسبقة أنا برجوازية ـ إذا شئت القول . لم يسبق لي أن أحببت كلبا ، كما أنني بالمقابل لم أكره كلباً .

لقد قابلت أناساً من نوع الدجالين المسلين ، الأذكياء ، الموهوبين ، الظرفاء ، ولكن لا بد من القول إنني لم أكن حريصة على العيش معهم . أنا لا أتكلم بالأخلاقيات ، أنت تعي هذه النقطة ، بل أتكلم بالمرغوبات والمكروهات . ثمة أشياء محددة تجبرني على سلوك الطريق الخاطئ» .

ـ « إنه لمن سوء الحظ إذا اردنا الاعتدال أن تشعر زوجتي بالانجذاب نحوك : شيء مضحك ـ أليس كذلك ؟ هذا كلامي حرفياً تقريباً . إنه لعنة من الله ـ أقصد أنها لم تستطع اختيار رجل حقيقي . فإذا كان لا بد لها من خيانتي مع شخص حتى لو كنت أحتقره! أما أنت!... فأجد نفسي عاجزاً عن الدفاع . إنني أصاب بالذعر لمجرد التفكير بسماع أحد يقول لي : «ماهو العيب فيك» . لأنه لا بد من وجود عيب في الرجل ، على الأقل هكذا يفسره العالم ، إذا حدث أن كانت زوجته تميل إلى امرأة أخرى . لقد قمت بألعن المحاولات لاكتشاف العيب الكامن فيَ ، إذا كان لا بد من وجود أي عيب» . ولكنني لم أتمكن من وضع اصبعي عليه . ناهيك عن أنه إذا كانت المرأة قادرة عل حب امرأة أخرى إلى جانب رجل ترتبط به ، فليس من عيب في ذلك ـ أليس كذلك ؟ ولا يقع عليها اللوم إذا حدث لها أن كانت تتمتع بمستودع طافح بالعاطفة ـ أليس كذلك ؟ على كلٍ ، لنفترض أن زوج هذه المخلوقة غير العادية انتابته الشكوك حول مقدرة زوجته الاستثنائية على الحب ، ماذا بعد ؟ ولنفترض أن للزوج سبباً يدعوه للاعتقاد بأنه ثمة خليط من الزيف والصدق فيما يتعلق بهذه الموهبة غير العادية في الحب ؟ هذا يعني أنها لكي تهيئ زوجها وتكيفه حسب الظرف ، كما هو مفترض ، يجب عليها أن تكافح على نحو ماكر وبارع لكي تسمم ذهنه ، أن تبتدع أو تلفق أكثر الحكايات خراقة ـ وكلها بريئة طبعاً ـ حول تجاربها وخبراتها مع صديقاتها الفتيات قبل زواجها . ولا تعترف بشكل مفضوح بأنها نامت معهن ، ولكنها توحي بذلك تلميحاً ـ دائماً تلميحاً ـ إلى أنه كان من الممكن حدوث ذلك . وفي اللحظة التي يبدي الزوج فيها خوفه أو ذعره ، تعمد إلى نكران أي شيء من هذا القبيل وتصر

على أن كل ما روته هو من نتاج المخيلة... هل تتابعين كلامي ؟ أو أن الأمور تتعقَّد أكثر من اللزوم » .

جلست قبالتي وقد اكتسى وجهها وقاراً مفاجئاً . جلست على حافة السرير وصارت تنظر إليَّ نظرات حادة . وفجأة ارتسمت على وجهها ابتسامة شيطانية وبدأت تخاطبني بقولها :

ـ « إذاً ، ها هي لعبتك! الآن تريد أن تسمم ذهني » .

ثم بدأت تنشج والدموع تنهمر من عينيها .

شاء الحظ أن تصل مونا في هذه اللحظة فبادرت بقولها :

ـ « ماذا تفعل لها ؟ » ثم طوقت ستاسيا البائسة بذراعها وصارت تمسد لها شعرها وتهدئ روعها بكلمات لطيفة .

مشهد مؤثر . في كل الأحوال لم يحرك هذا المشهد مشاعري نظراً لما فيه من التصنع .

النتيجة أن ستاسيا يجب ألا تذهب إلى بيتها ـ بل يجب أن تبقى وتقضي معنا سهرة ممتعة . نظرت ستاسيا إليَّ نظرة استفهام وهي تقول :

ـ « طبعاً ، طبعاً » فقلت لها :

ـ « أنا لا أطرد كلباً في مثل هذه الليلة »

لكن أغرب ما في المشهد كان انصراف ستاسيا وهي ترتدي مئزراً ناعماً مقلماً ، ولم يكن ينقصها سوى أن تضع غليوناً في فمها حتى تكتمل الصورة .

لنعد إلى فيودور... فقد كان يغضبني أحياناً جدالهما الفارغ حول دوستويفسكي . وأنا شخصياً لم أكن أدعي فهم دوستويفسكي ـ أو كله على الأقل . (فأنا أعرفه كما يعرف المرء واحداً من أبناء شعبه) . كما أنني لم أقرأ كل ما كتبه حتى هذا الوقت . لقد فكرت في أن أدخر آخر لقمات المطالعة القليلة لفراش الموت . لست متأكداً ـ على سبيل المثال ـ إن كنت قد قرأت (حلم الرجل المضحك) أم سمعت أحداً يحكي عنه . كما أنني لست واثقاً إن كنت أعرف من هو مارسيون أو ما هي المارسيونية . ثمة أشياء كثيرة حول

دوستويفسكي ـ كما حول حياته ـ أرى نفسي مقتنعاً بتركها لغزاً : إنني أفضل التفكير بدوستويفسكي على أنه محاط بهالة من الألغاز المستعصية على الحل . على سبيل المثال ، ليس بوسعي أن أتصوره مرتدياً قبعة كتلك التي أعطاها سويدنبرغ لملائكته لكي يرتدوها . وعلاوة على ذلك ، فأنا دائم التلهف لسماع ما لدى الآخرين من أقوال عنه ، حتى لو كانت آراؤهم لا تعني لي شيئاً . في يوم من الأيام عثرت على مذكرة كنت قد دونتها في دفتر مذكراتي من المحتمل أنني كنت قد اقتطفتها من برديائيف . تقول المذكرة :

ـ «بعد دوستويفسكي لم يعد الإنسان كما كان من قبل» .

إنها لفكرة مبهجة من أجل إنسانية متوعكة . إذ من المؤكد أن لا أحد غير برديائيف يكتب أنه :

...«كان لدى دوستويفسكي موقف معقد من الشر . فإلى أي حد كان هذا الموقف يبدو مضللاً . من ناحية أولى ، إن الشر هو الشر وينبغي فضحه والقضاء عليه . ومن ناحية أخرى ، إن الشر هو خبرة روحية للإنسان ، إنه دور الإنسان ، فكلما مضى الانسان في طريقه ازداد ثراءً عن طريق الشر . لكن من الضروري فهم هذه الناحية فهماً دقيقاً . إذ ليس الشر بحد ذاته هو مصدر الإثراء ، بل تلك المقاومة الروحية التي يحرضها لأجل التغلب عليه . إن الإنسان الذي يقول : (سوف أستسلم للشر في سبيل الاغتناء) ليس بمقدوره أن يغتني . إنه يفنى . لكن الشر هو الذي يضع حرية الإنسان تحت الاختبار» .

دعونا نعيد الاقتباس من بردياثيف بما أن في ذلك ما يقربنا من السماء ولو خطوة واحدة . يقول بردياثيف :

ـ «ليست الكنيسة هي مملكة الله ، لقد ظهرت الكنيسة في التاريخ ومارست فعلها في التاريخ . ليس المقصود بتكوين العالم ظهور سماء جديدة وأرض جديدة . مملكة الله هي تكوين العالم وليست مجرد تكوين الفرد ـ الانسان ـ لا بل إنها تكوين ما هو اجتماعي كوني ، وتلك بالضبط نهاية هذا

العالم ، عالم الباطل والبشاعة ، وهي الأساس لعالم جديد ، عالم الخير و الجمال . عندما قال دوستويفسكي بأن الجمال سوف ينقذ العالم ، كان يضع في حسبانه تكوين العالم ومجيء مملكة الله وهذا هو الأمل الأخروي» .

من نافلة القول أنه لم يسبق لي أن كانت لدي آمال أخروية أو خلافها . لقد محاها دوستويفسكي جميعاً . أو ربما كان عليَ أن أعدل ذلك بقولي إنه [أبطل تلك الطموحات الثقافية المتأتية عن تربيتي الغربية] . بعبارة أخرى ، إن الشطر الآسيوي المنغولي الكامن في داخلي قد بقي سليماً وسيبقى سليماً إلى الأبد . وليس لهذا الجانب الآسيوي مني أية علاقة بالثقافة أو بالشخصية ؛ إنه يمثل الكائن ـ الجذر الذي يعود نسغه إلى فرع سلفي سرمدي من شجرة النسب في هذا الحوض الذي لا قرار له والذي ابتلع كل العناصر العمائية chaotic المكونة لطبيعتي الخاصة وللإرث الأمريكي كما يبتلع المحيط كل الأنهار التي ترفده .

من الغرابة بمكان أنني قد فهمت دوستويفسكي ، أو بالأحرى ، فهمت شخوصه والمشاكل التي كانت تؤرقهم على نحو أفضل ، نظراً لكوني أمريكياً ، أكثر مما كنت سأفهمه لو كنت أوروبياً . إن اللغة الانكليزية ـ كما يبدولي ـ هي أكثر ملاءمة لترجمة دوستويفسكي (إذا كان لا بد من قراءته مترجماً) من اللغات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو أية لغة أخرى غير سلافية . كما أن الحياة الأمريكية ، بدءاً بمستوى قاطع الطريق وانتهاءً بالمثقف ، تنطوي على صلات هائلة متناقضة في ظاهرها مع الحياة الروسية اليومية المتعددة الجوانب أيام دوستويفسكي . وهل هناك أدلُ على ذلك من نيويورك التي تنمو في تربتها المختلطة الألوان كل فكرة خليعة خسيسة معتوهة تماماً كما تنمو الاعشاب البرية ؟ يكفي المرء هنا أن يفكر بالشتاء وماذا يعنيه الجوع والوحدة واليأس في هذه المتاهة من الشوارع الرتيبة المحشوة بالأفكار الرتيبة ، الرتيبة واللانهائية بآن معاً .

على الرغم من أن الملايين لم يقرأوا دوستويفسكي ولا حتى سمعوا

باسمه ، فإن الملايين منهم يعيشون هنا في أمريكا بعيداً عن دوستويفسكي نفس تلك الحياة الغريبة المجنونة التي عاشتها مخلوقات دوستويفسكي في روسيا مخيلته.. وإذا كانوا في الأمس القريب يُعتبرون ذوي كيان بشري ، فإنهم في الغد سوف يمتلكون شخصية وسمة مشوشتين بشكل خارق أكثر من أي مخلوق آخر من مخلوقات بوش BOSCH .

إنهم بين ظهرانينا لا يثيرون الانتباه بمظهرهم البدائي . والبعض منهم في الحقيقة يتابعون ملاحقة دعوتهم ـ كأن يبشرون بالانجيل أو يكفنون الجثث أو يخدمون المجانين تماماً كما لو أن شيئاً لم يحدث . فهم ليست لديهم أية فكرة عن حقيقة أن «الإنسان لم يعد كما كان من ذي قبل» .

الفصل الثاني

آهٍ لتلك الرعشة الرتيبة التي تنتاب المرء عندما يسير في الشوارع في صباح شتوي ، حيث العوارض الحديد للأرصفة مسمَّرة إلى الأرض ، وحيث يرتفع الحليب في القوارير مثل ساق القطر . يوم شمالي قطبي لا يجرؤ فيه حتى أغبى حيوان على أن يخرج أنفه من وكره . كما أنه من غير اللائق أن تستوقف غريباً وتبادره الكلام أو تطلب منه صدقة في مثل هذا اليوم . في هذا البرد القارس تزمجر الرياح الجليدية في الشوارع المقفرة الكئيبة ، لذا فمن غير المتوقع أن تصادف شخصاً بكامل قواه العقلية يقف لمجرد البحث عن قطعة نقود في جيوبه . إن صباحاً كهذا يصفه صيرفيٌ مرتاح البال بأنه « رائق ومنعش » ليس من حق المتسول فيه أن يكون جائعاً أو محتاجاً للرعاية . فالمتسولون خلقوا لأيام الأحد الدافئة المشمسة التي يتوقف فيها حتى الإنسان السادي لينثر فتات الخبز من أجل الطيور .

في مثل هذا اليوم كنت أقوم بتجميع الكمية المطلوبة من الموديلات للدعاية لها ، والاتصال بأحد زبائن والدي مع معرفتي المسبقة بأنني لن أتلقى أية طلبية . لم يكن لدي أي دافع إلى ذلك سوى الانسياق وراء رغبة جامحة في التحدث . في مثل هذه المناسبات كان ثمة شخص وحيد أختاره خصيصاً لأقوم بزيارته ، لمجرد أن أقضي نهاري معه ، حيث يتم ذلك على نحو غير متوقع .

أضف إلى ذلك ، أن هذا الشخص كان من النادر أن يطلب بذلة قماشية ، وإذا حدث أن فعل ذلك ، كان علينا أن ننتظره طيلة سنوات لتسديد قيمة الفاتورة ، ومع ذلك فقد كان زبوناً . كنت أتظاهر للعجوز بأنني أعرّج على جون ستايمر لكي أجعله يشتري البذلة التي كنا دائماً نفترض أنه سيحتاجها لاحقاً . (كان ستايمر هذا يحكي لنا دائماً أنه في يوم من الأيام سيصبح قاضياً) . إن الشيء الوحيد الذي لم أفش به للعجوز هو طبيعة تلك الأحاديث التي كنت أتبادلها مع هذا الرجل والتي لم تكن لها أية علاقة بالخياطة أو الخياطين .

ـ « أهلاً ، لماذا تود رؤيتي ؟ » هكذا كان يستقبلني دائماً . ثم يضيف قائلاً : « لا بد أنك مجنون إذا كنت تعتقد أنني بحاجة إلى مزيد من الألبسة فأنا لم أسدد لك ثمن البذلة الأخيرة التي اشتريتها ـ صحيح ؟ متى كان ذلك ـ أليس منذ خمس سنوات ؟ » .

وكان بشق النفس قد رفع رأسه عن كتلة الأوراق التي يدفن أنفه فيها . كان المكتب يعج برائحة كريهة بسبب إدمانه على الفساء حتى في حضور المختزل . كما كان يمسك دائماً بأنفه ، و إلا فإن الداخل عليه سيظنه شخصاً آخر ، فهو محامٍ ككل المحامين ، وبينما يكون رأسه مدفوناً في كومة المعاملات يبادر قائلاً :

ـ « ماذا تطالع هذه الأيام ؟ »

ولكن قبل أن أتمكن من الرد عليه يضيف قائلاً :

ـ « أرجو أن تنتظر في الخارج لبضع دقائق . فأنا عالق في ورطة... ولكن إياك أن تهرب ... أود التحدث إليك» .

ثم غاصت يده في جيبه وأخرجت قسيمة بقيمة دولار واحد ، قال لي :

ـ « خذ ، أحضر لنفسك قهوة واشربها اثناء انتظارك . ثم عد إليَّ في غضون ساعة... سنتناول طعام الغداء معاً... ما رأيك ؟ »

في الغرفة المقابلة كان نصف دزينة من الزبائن ينتظرون من يصغي إليهم . أما هو فقد كان بدوره يرجو كلاً منهم على حدة أن يطيل الانتظار

قليلاً ، حيث كانوا ينتظرون هناك في بعض الأحيان طوال النهار .

في طريقي إلى الكافتيريا صرفت القسيمة لأشتري صحيفة . إن إلقاء نظرة سريعة على الأخبار يعطيني إحساساً فوقياً بانتمائي إلى كوكب آخر .

فضلاً عن حاجتي إلى استجماع قواي من أجل المقابلة مع جون ستايمر . وبينما كنت أتصفح الصحيفة تذكرت مشكلة ستايمر الكبرى ـ الاستمناء . فقد أمضى عدة سنوات وهو يحاول التخلص من هذه العادة الرذيلة . قفزت إلى ذهني فقرة أخرى من نقاش كان قد دار بيننا . تذكرت أنني كنت قد نصحته بالتردد على ماخور جيد وكيف أنه قابل اقتراحي بوجه عابس قائلاً :

ـ « ماذا ؟ أنا ـ الرجل المتزوج ، أتعاطى مع شلة من العاهرات القذرات ؟ »

فبادرت إلى الرد عليه بقولي :

ـ « إنهن لسن جميعاً قذرات! »

أشد ما كان يمرضني وأنا أتذكر هذا الموضوع في تلك اللحظة تلك الطريقة الاستجدائية الجدية التي كان يتوسل بها إليّ ـ قبيل افتراقنا ـ لكي اطمئنه إلى أنني أفكر بمساعدته بأي شكل من الأشكال . قلت له :

ـ « أقلع عن هذه العادة...! »

ها قد انقضت ساعة من الوقت ، لكن الساعة بالنسبة له مثل خمس دقائق . أخيراً نهضت واتجهت نحو باب الغرفة . كنت أرغب في الخروج إلى الفناء البارد الجليدي ، لكن أشد ما أثار دهشتي أنني رأيته بانتظاري . كان جالساً ويداه المشبوكتان مستندتان على طاولة المكتب وعيناه مثبتتان على نقطة في الفضاء الأبدي . كانت رزمة النماذج القماشية التي تركتها على الطاولة مفتوحة . أخبرني أنه قد قرر طلب بذلة لنفسه .

قال لي : « لست مستعجلاً عليها ، فأنا لست بحاجة إلى ألبسة جديدة » .

قلت له : « لا تشترِ إذاً! فأنت تعلم أنني لم آتِ إلى هنا لكي أبيعك بذلة »

فرد عليّ بقوله : « أنت تعلم أنك الإنسان الوحيد الذي أرغب في إجراء

حوارٍ صريح معه . كلما رأيتك تنفرج أساريري... بماذا جئت لتنصحني هذه المرة ؟ أقصد على طريق الأدب ـ ما هو آخر كتاب... اوبلوموف* ـ أليس كذلك ؟ إنه لم يترك فيّ أثراً كبيراً . »

توقف برهة لا لكي يسمع ما سأقوله رداً عليه ، بل لكي يستجمع عزمه .

قال لي : « منذ آخر مرة كنت فيها هنا وأنا واقع في علاقة غرامية . هل يفاجئك ذلك ؟ نعم ، إنها فتاة شابة ، صغيرة وشبقة حتى أخمص قدميها . إنها تنشفني . لكن ليس هذا ما يضايقني... بل زوجتي إنها تعذبني بالطريقة التي تعاملني بها . أريد الخروج من جلدي » .

لاحظ العبوس بادياً على وجهي فأضاف قائلاً :

ـ « دعني أقل لك ـ أليس الأمر مدعاة للسخرية ؟ »

رن جرس الهاتف . كان يصغي بانتباه بعد أن كان رده مقصوراً على كلمتي نعم ولا و« أعتقد ذلك »... ثم صرخ في السماعة فجأة :

ـ « لا أريد شيئاً من نقودك القذرة . دعه يتدبر شخصاً آخر ليرافع عنه » .

« تصور! إنه يحاول أن يرشوني » ثم خبط السماعة قائلاً :

ـ « وقاضٍ أيضاً ـ والمبلغ كبير أيضاً » ثم لطم أنفه بقوة :

ـ « حسناً ، أين كنا ؟ »

نهض واقفاً . قال لي : « ما رأيك بأن نأكل لقمة ؟ هل بوسعك التحدث بشكل أفضل بوجود الطعام والخمرة... ما رأيك بذلك ؟ »

استوقفنا سيارة أجرة أقلّتنا إلى مطعم ايطالي كان قد اعتاد التردد عليه . كان المحل باهظ الأسعار ، تفوح منه روائح الخمور ونشارة الخشب . ولكن من حسن الحظ أن زبائنه قلائل . بعد أن طلب الطعام قال لي :

ـ « ألا تعتقد أنني أكثر من الحديث عن نفسي ؟ أظن أنها نقطة الضعف عندي . حتى عندما أقرأ كتاباً جيداً أجد صعوبة في تجنب التفكير بمشاكلي

* اوبلوموف هو عنوان أشهر روايات الكاتب الروسي إيفان غونتشاروف (١٨١٢ ـ ١٨٩١) (م)

وبنفسي . ليس معنى هذا أنني اعتقد بأنني بالغ الأهمية ـ أنت تدرك ذلك ـ إنه مجرد هوس ، هذا كل ما في الأمر . »

ثم تابع قائلاً : « أنت مهووس أيضاً ، ولكن بطريقة أكثر صحية ، وأنا ، كما ترى ، مشغول بنفسي وأكره نفسي . إنه قرف حقيقي . ربما لم أتمكن من الشعور بنفس الطريقة نحو كائن بشري آخر . إنني أتعرف إلى نفسي شيئاً فشيئاً ، كما أن فكرتي عن حقيقتي وعما يجب أن أبدو به أمام الآخرين ـ هذه الفكرة هي التي ترعبني بالذات . أنا أمتلك صفة ايجابية واحدة فقط وهي أنني نزيه . هذه الصفة بحد ذاتها ليست من مسؤوليتي أيضاً... فهي خصلة فطرية محضة... نعم ، أنا نزيه مع الزبائن... ونزيه مع نفسي أيضاً » .

قاطعت حديثه بقولي :

ـ « ربما كنت نزيها مع نفسك كما تقول ، ولكن من الأفضل لو كنت أكثر كرماً ـ أقصد مع نفسك . إذا لم يكن بمقدورك أن تعامل نفسك باحترام فكيف تتوقع من الآخرين أن يفعلوا ذلك ؟ »

فأجابني على نحو مباغت : « ليس من طبعي أن أفكر بمثل هذه الأفكار » .

« أنا طهراني Puritan ولكن بشكل معكوس . أنا واحد منحط بكل تأكيد والمشكلة هي أنني لست منحطاً بما فيه الكفاية ، هل تذكر أنك سألتني ذات مرة إن كنت قد قرأت الماركيز دوساد* . حسناً ، لقد حاولت ولكنه يسبب لي الملل . فربما كان مغرقاً في فرنسيته لدرجة تحول دون تذوقي له . ولا أعرف لماذا يسمونه ماركيز الإلهي ـ هل تعرف أنت ؟ »

في هذه اللحظة كنا قد تذوقنا الشيانتي وارتفعت السباغيتي إلى آذاننا وكان للنبيذ تأثيره المنعش . لقد تمكن صاحبنا من شرب الكثير منه دون أن يفقد توازنه وكانت تلك إحدى مشكلاته : إنها عجزه عن فقدان ذاته تحت تأثير المشروب . وكما لو كان يؤله أفكاري بدأ يعلق على كونه مبالغاً في

* الماركيز دوساد هو اللقب الذي كان يعرف به الكاتب الفرنسي الفونس فرانسوا (١٧٤٠ ـ ١٨١٤) المشهور بوصفه للانحرافات الجنسية (م)

ذهنويته بقوله أن «الذهنوي هو الذي يقدر حتى على جعل قضيبه يفكر ، وها إنك تضحك مرة إخرى ، لكنه شيء مأساوي . إن الفتاة التي حدثتك عنها تعتقد أنني مضاجع كبير... ولكنني لست كذلك . بل إنها هي (...............)* . أنا أضاجع بدماغي كما لو كنت أقوم باستجواب ، ولكن باستعمال قضيبي بدلاً من ذهني . شيء سخيف ـ أليس كذلك ؟ نعم ، إنه كذلك . لأنني كلما ضاجعت أكثر زاد تركيزي على ذاتي . منذ اللحظة التي أجد نفسي معها . أسأل نفسي عمن يوجد على الطرف الآخر . لا بد أن ذلك بسبب الآثار السيئة لعادة الاستمناء ـ هل تتابعني ؟ إذ أنني بدلاً من أن أفعلها بنفسي يقوم شخص آخر بفعلها نيابة عني . إنه أفضل من الأستمناء ،

لأنك تصير أكثر استقلالاً . أما الفتاة فإنها تقضي وقتاً ممتعاً بالطبع ؛ إذ أنها تصبح قادرة على فعل أي شيء ترغب فيه معي . وهذا الضبط ما يسبب لها الدغدغة والإثارة . لكن ما لاتعرفه هي ـ ومن الممكن أن يخيفها لو أخبرتها به هو أنني لا أكون موجوداً معها . أنت تعرف عبارة ـ كلي آذان صاغية . حسناً ، بالمقابل ، أنا كلي ذهن . ذهن ذو قضيب متصل به ـ إذا جاز لي أن أعبر بهذا الشكل . كيف تشعر أنت عندما تفعل ذلك... ما هي ردود أفعالك... وكل ما يتعلق بذلك» .

ذهلت لهذه الملاحظة الغريبة فأجبته متسائلاً :

ـ «هل تقصدني أنا شخصياً أم تقصد إنساناً آخر ؟»

ـ «لا ، طبعاً ، لا أقصد شخصاً آخر ، إنما أقصدك أنت بالذات» .

ثم ، وقد صار صوته حاداً ومشاكساً ، أضاف قائلاً :

ـ «أخبرتني ذات مرة أنك ترغب في الكتابة . حسناً ، متى تتوقع أن تبدأ ذلك ؟» توقف برهة ليتناول لقمة كبيرة من الطعام ، ثم استأنف الكلام وهو لا يزال يزدرد :

---

* لأسباب رقابية سوف نستعيض عن الشتائم والكلمات البذيئة بعدة نقاط ضمن قوسين مع اعتذارنا الشديد من قراء هنري ميلر (المترجم)

ـ «لماذا تظن أنني أتحدث إليك بهذه الطريقة ؟ لأنك مستمع جيد . ليس تماماً... فأنا بمقدوري أن أفشي إليك بأسراري لأنني أعلم أنك لست مبالياً بشكل حيوي . لست أنا ـ جون ستايمر ـ ما يشغل بالك بل ما أخبرك به أو الطريقة التي أخبرك بها . لكنني شخصياً مهتم بك تحديداً . وهذا هو الخلاف تماماً» .

صار يمضغ الطعام بصمت طال للحظات... ثم تابع قائلاً :

ـ إنك معقَّد مثلي تماماً . أنت تعرف ذلك ـ أليس كذلك ؟ إن لدي فضولاً لمعرفة ما يجعل أمثالك يتكتكون . لا تنزعج . فأنا لست بصدد أن أسبر أغوارك لأنني أعرف سلفاً أنك لن تعطيني الإجابات الصحيحة . أنت ملاكم الظل بينما أنا محامٍ . إنها مهنتي ـ مسك القضايا ـ أما أنت فلا يمكنني أن أتصور ما الذي تتعامل به ، اللهم إلا الهواء» .

في هذه اللحظة كان مصغياً مثل حيوان رخوي . وفي الحال طفق يتحدث قائلاً :

ـ «لدي رغبة صادقة في دعوتك للمجيء معي بعد الظهر . فأنا لن أعود إلى المكتب ، بل سأذهب لمقابلة تلك الفتاة التي حدثتك عنها . لماذا لا تأتي معي ؟ يمكنك النظر إليها بسهولة وأنا أرغب في ملاحظة ردود أفعالك» . سكت برهة ليرى كيف سأتقبل أقتراحه ثم أضاف قائلاً : «إنها تسكن خارج المدينة في حي لونغ ايلاند على مسافة مشوار بالسيارة . ربما كانت تستحق الذهاب . وسنأخذ معنا نبيذاً وقليلاً من الستريغا... فهي تحب المشروبات... ما قولك ؟»

وافقت على الاقتراح . مشينا إلى المرآب حيث كانت تقبع سيارته . أمضينا بعض الوقت في إزالة الجليد عنها ومن ثم تشغيلها وتحميتها . ولم نكن قد قطعنا مسافة طويلة عندما بدأ يصدر عن السيارة صوت طقطقة متتابعة ، مما اضطرنا لأن نضيع حوالي ثلاث ساعات قضيناها بين المواقف في الكراجات وورشات الإصلاح ، قبل أن نخرج من طوق المدينة . وكنا قد تجمدنا من البرد . وكان علينا أن نقطع مسافة ستين ميلاً مع هبوط الظلام .

اضطررنا عدة مرات للتوقف على جانبي الاوتوستراد لكي نتدفأ . وقد اتضح لي أن ستايمر كان معروفاً أينما توقفنا ، وكان دائماً يتلقى معاملة تنم عن الاحترام . كان قد شرح لي في الطريق كيف تمكن من مصادقة كل شخص من الذين قابلناهم على حدة ، حيث ظل يردد قائلاً : «أنا لا أستلم قضية إن لم أكن واثقاً من أنني سأكسبها » .

حاولت أن أجره للحديث عن الفتاة ، لكن ذهنه كان مشغولاً بأشياء أخرى ، وبفضول زائد ، فقد كان الخلود هو الموضوع المهيمن على تفكيره . كان مقتنعاً بأن الحياة الواحدة قصيرة جداً ، ولا تكفي لحل مشاكل المرء ، إذ كان يقول :

ـ « إنني لم أبدأ حياتي الخاصة بعد . وها أنا أشارف على الخمسين من عمري . لا بد للمرء أن يعيش مئة وخمسين أو مئتي عام ، ثم ربما أمكن له عندها أن يصبح في مكان آخر . المشاكل الحقيقية لا تبدأ بالظهور قبل أن تجرب الجنس وكافة المصاعب المادية . في الخامسة والعشرين كنت أعتقد أنني قد توصلت إلى كل الأجوبة . أما الآن فأشعر أنني لا أعرف شيئاً عن أي شيء . ها نحن الآن ذاهبان لملاقاة فتاة شبقة ـ فأي معنى لذلك ؟ »

أشعل سيجارة وأخذ منها نفساً أو نفسين ثم رماها وأخرج من جيب صدريته سيجاراً فخماً .

ـ «لا بد أنك ترغب في معرفة شيء عنها . إليك هذه المعلومة أولاً : ليتني امتلك الجرأة لكي أخطفها وأذهب بها إلى المكسيك رأساً . عندها ستُحل كافة المشاكل ـ حسب اعتقادي . ولكن هذا بالضبط هو عيبي : إنني لا أمتلك الجرأة الكافية . أنا جبان خلوق ـ هذه هي الحقيقة ـ ناهيك عن أنني أعلم أنها تجرني من ساقي . ففي كل مرة أتركها ، أتساءل عمن سينام معها حالما أختفي عن انظارها . ليس معنى ذلك أنني غيور ، بل كل ما في الأمر أنني أكره أن يستغبيني أحد ، أنا مغفل بالطبع ، وفي كل شيء عدا القانون ، أنا أحمق خالص» .

تابعنا السفر . وقد بقي يعزف على هذه النغمة لبعض الوقت . من المؤكد أنه كان يحب تسفيه نفسه ، فاتكأت إلى الوراء مصغياً إليه بابتهاج . ثم تحول إلى نغمة جديدة :

ـ «هل تعلم لماذا لم أصبح كاتباً ؟»

أجبته مستغرباً ، لأنه لم يسبق له أن طرح مثل هذه الفكرة ، قلت له :

ـ «لا» . قال لي :

ـ «لأنني اكتشفت بسرعة أنني لم يكن لدي ما أقوله . فأنا لم أعش بالمختصر المفيد ـ ولم أغامر بشيء ـ ولم أكسب شيئاً . لا أدري ماذا يقول ذلك المثل الشرقي ؟ (من يخَفِ العصافير لا يرش البذار) .

أعتقد أنه هو المثل الذي ينطبق علي . أولئك المجانين الذين تنصحني بقراءتهم ـ كلهم قد اكتسبوا خبرة الحياة مع أنهم لم يبرحوا بقعة الأرض التي ولدوا عليها . لأن الأحداث ، لكي تحدث ، لا بد لها من مناخ ملائم . فإذا انعدم المناخ ، فيجب أن تعمل على خلقه . هذا إذا كنت عبقرياً . أنا لم أخلق شيئاً . أنا ألعب اللعبة حسب الأصول . والجواب على ذلك في حال عدم معرفتك بالأصول ـ هو الموت . نعم إني بنفس مواصفات الموتى تماماً ، ولكن ما أتبجح به الآن هو التالي : كلما كنت أكثر موتاً صرت أفضل مقدرة على المضاجعة . تخيلها لنفسك ، إذا كان بمقدورك ذلك! في آخر مرة نمت معها ـ لمزيد من الإيضاح ـ لم أضطر لخلع ملابسي ، بل قمت باعتلائها مرتدياً معطفي وحذائي وكل ملابسي .

كان الأمر طبيعياً تماماً وذلك تبعاً للحالة الذهنية التي كنت فيها ـ كما أنني لم أسبب لها أية مضايقة على الأقل . وكما قلت لك فقد صعدت وإياها إلى السرير باللباس الكامل وقلت لها :

ـ «لماذا لا نتمدد هنا ونتضاجع حتى الموت ؟ فكرة غريبة ؟ لا سيما وأنها تصدر عن محامٍ محترم ذي أصل وفصل» . على أي حال ، لم أكن قد انتهيت من هذه العبارة عندما وجدت نفسي أقول :

ـ «انت مغفل! أنت ميت تماماً . فلماذا الإدعاء ؟ كيف ترى ذلك ؟ »
عندها أسلمت نفسي تماماً ـ أقصد للمضاجعة .

هنا خطرت ببالي فكرة مزعجة . فتساءلت هل سبق له أن تخيل نفسه يمتلك قضيباً ليستعمله ؟ قال بصوت مرتفع :

ـ «هذه الفكرة بالضبط هي ما يؤرقني . فالشيء الذي لا أتوهمه ، على الأقل ، هو أن أحيا حياة خالدة بقضيب منتصب معلق إلى دماغي . وهذا لا يعني أنني أريد أن أحيا حياة الملائكة ، بل أريد أن أكون نفسي ، جون ستايمر ، مع كل تلك المشاكل الدموية التي هي مشاكلي أنا . إني بحاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير في الأمور... ربما ألف سنة أو أكثر . إني أبدو أحمق ـ أليس كذلك ؟ ولكني هكذا جبلت . الماركيز دوساد كانت لديه أحمال من الوقت . وقد استنبط كثيراً من الأشياء باعترافي . ولكني لا أوافقه على استنتاجاته . على كلٍ ، ما كنت أود قوله هو أنه ليس من دواعي الخوف أن تمضي وقتك في السجن... إذا كان لديك ذهن نشيط . الشيء المخيف هو أن تجعل من نفسك سجيناً . هكذا نجد أن معظمنا سجناء من صنع ايدينا ، والقلة القليلة من الرجال هم الذين يشذون عن هذه القاعدة . عندما تنظر إلى حياتك بعين صافية تجدها كلها عبارة عن مسخرة ـ مسخرة كبيرة . تصور رجلاً يضيع وقته في الدفاع عن الآخرين أو إقناعهم . إن مهنة القانون برمتها ضرب من الجنون . ولن تجد أحداً يتحمس مثقال ذرة لأن تكون لنا قوانين . لا ، لا . إنها لعبة الحمقى التي تم تبجيلها واعطاؤها اسماً طناناً . ربما في الغد قد أجد نفسي جالساً الى منبر ـ قاضياً دفعة واحدة . هل سأفكر بنفسي مرة أخرى ، لأنني أحمل لقب قاضٍ ؟ هل سيكون بمقدوري أن أغير شيئاً ؟ لا... وحياتك... بل سألعب لعبة القضاة مرة أخرى . لهذا السبب قلت لك إنني كنت مهزوماً منذ البداية . وأنا مدرك لحقيقة أننا جميعاً نمثل أدوارنا ، وأن كل ما يستطيع الواحد منا فعله سلفاً ، هو أن يمثل دوره بأقصى ما لديه من مقدرة . حسناً ، أنا لا أحب دوري ولا تروق لي فكرة القيام بتمثيل دور ما . حتى لو كانت

الأدوار قابلة للتبادل فيما بينها... هل تتابعني ؟ أعتقد أنه قد حان الوقت لتوزيع جديد للأدوار ولانطلاقة جديدة . يجب أن تزول المحاكم . يجب أن تزول القوانين . الشرطة يجب أن تزول والسجون يجب أن تزول .

إن المهنة (المحاماة) برمتها جنون في جنون . لهذا السبب تراني أضاجع برأسي . لا بد أنك تفعل الشيء نفسه أيضاً ـ إذا كنت ترى ما أراه » .

ثم تابع الكلام مبقبقاً مثل المفرقعات النارية . بعد برهة من الصمت أخبرني بوصولنا إلى المكان المقصود :

ـ « لا تنسَ أن تجعل نفسك كأنك في بيتك . افعل أي شيء ترغب في فعله ، قل أي شيء تود قوله . لن يمنعك أحد . إذا رغبت في محاولة معها بوجودي ، فلا بأس ، ولكن إياك أن تعتاد على ذلك! »

كان الظلام يلف المنزل ، فانسحبنا إلى بهو الدار . وجدنا ورقة ملصقة على الطاولة الموجودة في غرفة الطعام من (بيل)... الكبيرة . لقد ملت الانتظار ولم تصدق أننا سنأتي ولذلك ولت هاربة .

تساءلت قائلاً : « أين هي إذاً ؟ »

ـ « ربما ذهبت إلى المدينة لقضاء الليلة مع صديق لها »

لا بد من القول إنه لم يكن يبدي انزعاجاً كبيراً . بعد عدة نخرات ، وبينما كان يغمغم بكلمات من قبيل « هذه القحبة »... و« تلك القحبة » مضى إلى الثلاجة ليرى ما فيها من بقايا أطعمة . قال :

ـ « سنبيت الليلة هنا ، لقد تركت لنا بعض الفاصولياء وفخذ خنزير ـ هل يكفيك هذا ؟ »

بينما كنا نمسح الفضلات ، أخبرني بوجود غرفة مريحة في الطابق العلوي تحتوي على أسرة مزدوجة . قال لي :

ـ « الآن بإمكاننا أن نجري حواراً ممتعاً » . كنت على أتم الاستعداد للذهاب إلى الفراش ، ولكن ليس في سبيل حديث من الأحاديث الودية . أما بالنسبة لستايمر فلم يكن هناك من شيء قادر على تعطيل آلية ذهنه ، لا الصقيع

ولا المشروب ولا التعب بحد ذاته ، كان قادراً على ذلك . كنت على وشك أن أغط في سبات عميق لدى ملامستي للوسادة . لولا أن ستايمر كان قد فتح النار بطريقته المعتادة . فجأة وجدت نفسي في كامل استيقاظي ، كما لو كنت قد تناولت جرعة مضاعفة من البنزدرين ، فقد كهربتني كلماته الأولى التي ألقاها بنبرة ثابتة موزونة :

ـ « كما يبدو لي أن لا شيء يدهشك . حسناً ، إليك بهذه الشحنة إذاً » .

وهكذا بدأ حديثه :

ـ « إن أحد أسباب كوني محامياً هكذا هو أنني مجرم إلى حد ما . أنت من الصعب أن تصدق أن بمقدوري أن أخطط لموت شخص آخر... صحيح ؟ حسناً ، أنا قادر على ذلك ، لقد قررت التخلص من زوجتي ، أما كيف ، فهذا بالضبط ما لا أعرفه الآن . لم أعد أتحمل أكثر من ذلك . لقد مضت عشرون سنة ولم أسمع منها كلمة عقلانية واحدة . لقد دفعتني إلى آخر خندق وهي تعلم ذلك . إنها تعرف كل شيء عن بيل . لم يعد هناك سر حو ل الموضوع ، وكل ما تحرص عليه هو ألا يتسرب الخبر . لعنة الله عليها! إن زوجتي هي التي حولتني إلى مستمنٍ . فلقد أسقمتني منذ البداية تقريباً ، إذ أن فكرة النوم معها كانت كافية لإصابتي بالسقم . صحيح أننا قد نطلق بعضنا ولكن لماذا أعيل كتلة من الصلصال طيلة حياتي الباقية ؟ منذ أن وقعت في حب بيل همد تفكيري وتخطيطي . صار هدفي الوحيد هو الخروج من البلاد إلى مكان بعيد والبدء من جديد . ما الذي تنقصني معرفته ؟ إنه ليس القانون حتماً . أنا بحاجة إلى العزلة والقيام بأقل جهد ممكن » .

أخذ نفساً عميقاً . لم أبدِ أي تعليق ، كما أنه لم يتوقع ذلك مني .

ـ « لأكن صريحاً معك ، لقد كنت أتساءل إن كان بمقدوري إقناعك بالأنضمام إليَّ : سأصرف عليك طالما أنك لا تقبض نقوداً . هل هذا مفهوم ؟ لقد فكرت في الموضوع أثناء سفرنا إلى هنا . تلك الورقة من بيل ـ أنا الذي أمليت البرقية . لم أكن أفكر بتغيير الأشياء عندما بدأنا ـ صدقني ـ أرجوك!

لكن كلما تحدثنا ، شعرت أنك أنت بالضبط الشخص الذي أرغب في أن يكون إلى جانبي لو قمت بأي تغيير مفاجئ» . تردد لحظة ثم أضاف قائلاً :

ـ « كان عليَّ أن أحكي لك عن زوجتي ، لأن العيش مع إنسان ضمن أربعة جدران مع كتمان سر من هذ النوع فيه الكثير من الإرهاق » .

أخيراً وجدت نفسي مضطراً للقول بلهجة خطابية :

ـ «لكنني متزوج ولي زوجة... ومع أنني لا أتعاطى معها كثيراً ، فإنني لا أجد نفسي مضطراً للهرب معك» .

قال ستايمر بهدوء : «أنا فاهم ، لقد خطرت ببالي تلك الفكرة أيضاً » .

ـ « أيضاً ؟ »

ـ « بإمكانك أن تطلب الطلاق بسهولة ، دون الحاجة إلى دفع نفقات الزوجة المطلقة ، ما رأيك بذلك ؟ » فأجبته بقولي :

ـ «لست مهتماً بالموضوع ، حتى لو كان بمقدورك أن تؤمن لي امرأة أخرى ، فأنا عندي خططي الخاصة» .

ـ «لا... مطلقاً ، أنت غريب تماماً ـ ولكن ليس إلى هذا الحد . لأكن صادقاً معك... إنك لست من النوع الذي أرغب في أن أكون برفقته دائماً . زد على ذلك أن هذا النوع من الغموض اللعين كان أشبه بكابوس» .

كان مصغياً إليّ بهدوئه المعهود ، ففي الوقت الذي كنت مجبراً على قول خلاف ذلك ، كنت أود معرفة ماذا كان يتوقع مني ، وما الذي كان يأمل بالحصول عليه من علاقة كهذه .

لم يراودني أدنى شعور بالخوف من أنني أنقاد إلى مثل هذه المغامرة المجنونة بشكل طبيعي . لكنني فكرت أن من دواعي اللياقة فقط ، أن أدعي انتشاله من تلك المغامرة . زد على ذلك ، أنه كان لدي فضول لمعرفة الدور الذي كان يأمل أن أقوم به .

ـ «من الصعب معرفة من أين نبدأ ـ فرضاً ـ أقول بفرض أننا وجدنا مكاناً صالحاً للاختباء بعيداً عن أنظار الآخرين ، كأن يكون في كوستاريكا

مثلاً ، أو نيكاراغوا ، حيث المعيشة سهلة والمناخ مقبول . وبفرض أنك وجدت فتاة تحبها ـ ليس من الصعب تخيل ذلك ـ أليس كذلك ؟ حسناً ، إذاً ، أنا أعرف أن ليس بمقدوري ذلك . ولكن لقد تجمعت لدي الأفكار ـ بل الكثير من الأفكار وبإمكاني سردها على مسامعك . فأنا لم أصبح محامياً جنائياً من أجل لا شيء . أما بالنسبة لك فأنت لم تقرأ دوستويفسكي وكل أولئك الروس المجانين من أجل لاشيء أيضاً ؟ هل بدأت بتدوين المذكرات ؟ انتبه! إن دوستويفسكي قد مات ، قضي أمره... ومن هنا نبدأ ، من دوستويفسكي . لقد كان يتعامل مع الروح ، أما نحن فسوف نتعامل مع الذهن » .

كان على وشك أن يتوقف هنيهة عندما قلت له :

ـ تابع! تابع! إنه موضوع شيق كما يبدو! »

استأنف كلامه قائلاً : ـ « حسناً ، سواء كنت تعرف ذلك أم لا ، لم يبق شيء في العالم يمكن أن يسمى روحاً . وهذا ما يفسر جزئياً كونك تجد من الصعوبة بمكان أن تبدأ الكتابة . كيف يمكن للمرء أن يكتب حول بشرٍ لا أرواح لهم ؟ على كلٍ ، أنا استطيع ذلك . لقد عشت مع هؤلاء الناس ، عملت لأجلهم ؛ درستهم وحللتهم . لا أقصد بهؤلاء زبائني فقط . من السهل أن تنظر إلى المجرمين باعتبارهم خالين من الأرواح . ولكن ماذا لو قلت لك إنه لا وجود إلا للمجرمين أينما ذهبت وأينما تطلعت ؟ لا يحتاج المرء لاقتراف جريمة لكي يصبح مجرماً . لكن ما ورد في ذهني هو ... انا اعرف انك قادر على الكتابة . هذا علاوة على أنني لا أفكر مطلقاً في أن يقوم شخص آخر بتأليف كتبي . بالنسبة لك ، لكي تلم بالمعلومات التي جمعتها ستحتاج إلى أن تعيش عدة حيوات . فلماذا ضياع الوقت . نعم ، ثمة شيء ما نسيت أن أذكره... ربما يسبب لك ذعراً ، وهو أنه سواء نشرت الكتب أم لم تنشر ، فالأمر سيان بالنسبة لي . كل ما أريده هو أن تخرج تلك الكتب من جسمي لا أكثر . فالأفكار ملكية عامة ولا أعتبرها ملكاً خاصاً لي » .

أخذ شربة ماء مثلج من الابريق الموجود قرب السرير . ثم تابع الكلام قائلاً :

ـ «ربما صدمتك كل هذه الأفكار نظراً لخراقتها . لا تحاول اتخاذ قرار فوري . فكر في الأمر ملياً! انظر اليه من كافة الزوايا . فأنا لا أريدك أن تقبل الفكرة وتضع قدميك في الماء البارد لمدة شهرين . إذا تابعت على نفس المنوال فإنك لن تحوز على الشجاعة الكافية لإحداث تغيير مفاجئ . ولا عذر لك في إطالة بقائك على اسلوبك الحالي في الحياة . فأنت تستجيب للقانون لا أكثر ولا أقل» .

تنحنح لكي يصفي حنجرته ، كما لوكان قد تضايق من ملاحظاته هو ، ثم بادر إلى القول على نحو واضح ومستعجل :

ـ «لست الرفيق المثالي بالنسبة لك ، فلدي كل النقائص التي يمكن تصورها . وكما قلت لك مراراً وتكراراً ، انني حققت استقلالاً ذاتياً تاماً . لكنني لست حسوداً أو غيوراً أو حتى طموحاً بالمعنى المألوف . بغض النظر عن ساعات العمل ـ لا أقصد أن تقحم نفسك في الأرض ـ لا بدلك أن تكون وحدك في معظم الأوقات ، حتى لو تشاركنا في نفس الغرفة . لا يهمني أين نسكن بقدر ما يهمني أن يكون المكان بلداً غريباً . ومن الآن فصاعداً سيكون هذا المكان المفضل بالنسبة لي هو القمر . إنني أعلن طلاقي من رفيقي الانسان . ربما لم يتكمن أي شيء من إغرائي بالمشاركة في اللعبة . لا شيء في نظري ذا قيمة يمكن إنجازه في الوقت الحاضر ، وربما لن أنجز شيئاً مفيداً ، ولكنني سأكون راضياً على الأقل عن فعل ما أؤمن به .

انظر! ربما لم أوفق في التعبير بوضوح ، عما أقصده بهذه المهنة الدوستويفسكية . إنها بحاجة إلى مزيد من التعمق ، إذا كانت لديك المقدرة على تحمّلي . وبرأيي أن العالم قد دخل ـ بموت دوستويفسكي ـ في طورٍ وجوديٍ جديد تماماً . لقد لخص دوستويفسكي العصر الحديث ، كما لخص دانتي العصور الوسطى . العصر الحديث ـ وهو اسم مغلوط بالمناسبة ـ كان

مجرد مرحلة انتقالية ، نوبة تنفس ، استطاع الانسان خلالها أن يضبط نفسه على موت الروح . إننا بالضبط نعيش حياة جنونية هزلية . فالمعتقدات والآمال والمبادئ والقناعات التي قامت عليها حضارتنا كلها مضت ولن تعود . على الأقل في الوقت الحالي . ومن الآن فصاعداً ، وحتى أمدٍ طويلٍ ، سنعيش على الذهن ، وهذا يعني الدمار ـ دمار الذات . إذا سألتني عن السبب فإنني سوف أجيبك بقولي لأن الانسان كان مقدراً له أن يموت بكل كيانه . ولكن طبيعة هذا الكيان مفقودة ، منسية ومدفونة . إن الهدف من الحياة على الأرض هو أن يكتشف المرء كيانه الحقيقي وأن يعيش هذا الكيان . لكننا لن ندخل في ذلك باعتبار ان ذلك متروك للمستقبل البعيد . اما المشكلة في هذه الأثناء هذا بالضبط ما أريد الخوض فيه . اسمح لي أن أعبر لك عنه باختصار قدر المستطاع .

كل ما كبتناه أنا وأنت ونحن جميعاً منذ بدء الحضارة قد قدر له أن يبقى حياً . لقد قدر لنا أن نتعرف على أنفسنا من أجل ماهيتنا . وهل نحن سوى نتاج نهائي لشجرة لم تعد قادرة على حمل ثمارها ، وبالتالي فقد نزلنا إلى تحت الأرض مثل البذور لكي ينبت منا شيء جديد ، شيء مختلف . لم يحن الآوان لذلك . إنها طريقة جديدة للنظر إلى الأشياء . شهية جديدة إلى الحياة ـ بمعنى آخر . وكما هو الحال كذلك . فإننا نمتلك خيال الحياة ، إذ أننا أحياء في الحلم فقط . الذهن الموجود فيه هو الذي يرفض الهلاك . فالذهن قوي المراس ، لغز عصي على الفهم يفوق في تعقيده أكثر أحلام اللاهوتيين وحشية . وقد لا يوجد شيء سوى الذهن ـ ليس الذهن الذي نعرفه بالتأكيد ـ إنما الذهن المطلق الذي نسبح فيه . الذهن الذي يخترق الكون بأسره . اسمح لي أن أذكرك بأن دوستويفسكي كان ذا بصيرة نفاذة ليس إلى روح الانسان فقط ، بل إلى ذهن وروح الكون أيضاً . وهذا هو السبب في استحالة التخلص منه ، حتى على الرغم ، كما قلت لك ، من أن ما يمثله معرض للتلف والفناء » .

وهنا كان عليَّ أن أقاطعه ، فقلت له :

ـ « عفواً! ولكن ما الذي كان يمثله دوستويفسكي برأيك ؟ »

- «لا يمكنني الإجابة على ذلك بكلمات قليلة ، ولا أحد يستطيع ذلك .

لقد منحنا الإلهام ، أما موضوع الاستفادة من هذا الالهام فيعود أمره لكل واحدٍ منا على حدة . البعض يضيعون انفسهم في المسيح . يمكن للمرء أن يضيّع نفسه في دوستويفسكي أيضاً . إنه يقود إلى نهاية الطريق : ألا يعني ذلك أي شيء بالنسبة إليك ؟ »

- « نعم ولا »

قال ستايمر : « بالنسبة لي ، إنه يعني في الوقت الحاضر عدم وجود أية إمكانية من تلك الإمكانيات التي يتصورها الناس . إنه يعني أننا مخدوعون تماماً بكل شيء . لقد استكشف دوستويفسكي الميدان ، فوجد كل الطرق مسدودة من كافة النواحي . كان رجل استطلاع بالمعنى العميق للكلمة ، وكان يحتل الموقع بعد الآخر عند كل نقطة خطيرة مهددة ، ووجد أن لا سبيل لنا للخروج مما نحن فيه . وأخيراً ، أتخذ من الكائن الأسمى (الله) ملاذاً له .

قلت له : « إن دوستويفسكي هذا يبدو مغايراً تماماً لدستويفسكي الذي أعرفه أنا . إنه ذو مسحة تشاؤمية » .

- « لا ، إنها ليست تشاؤمية على الإطلاق ، إنها واقعية بالمعنى السوبر - ماني . إن آخر ما يمكن أن يؤمن به دوستويفسكي هو تلك الحياة الآخرة التي يمنحنا إياها الكهنوت . كل الأديان تعطينا برشامة مغلفة بالسكر لكي نبتلعها ، إنهم يريدوننا أن نبتلع ما لا نقدر وما لا نريد ابتلاعه - ألا وهو الموت . لن يتقبل الإنسان فكرة الموت ولن يتصالح معها أو يساومها ، أما أنا فقد خرجت عن هذه القاعدة . إنك تتحدث عن قدر الإنسان . لقد فهم دوستويفسكي - أفضل من أي إنسان آخر - أن الإنسان لن يقبل الحياة دون تساؤل إلى أن يتهدده الانقراض . كانت عقيدته وقناعته العميقة تتركز على أن الإنسان يمكنه أن ينال حياة أبدية إذا تمناها من كل قلبه وكيانه ، إذ لا يوجد أي مبرر للموت ، للفناء ، أياً كان هذا المبرر . نحن نموت لأننا نفقد الإيمان بالحياة . لأننا نرفض الاستسلام للحياة استسلاماً كاملاً ، وهذا بحد

ذاته يقودني إلى الحديث عن الحاضر ، عن الحياة كما نعرفها اليوم . أليس من الواضح أن أسلوبنا في الحياة برمته إنما هو تكريس للموت ؟ إننا ، بجهودنا اليائسة لحفظ أنفسنا وحفظ ما ابتدعناه ، نجلب الموت لأنفسنا . نحن لا نستسلم للحياة ؛ إنما نكافح لكي نتفادى الموت . وهذا لا يعني أننا فقدنا الإيمان بالله بل يعني أننا فقدنا الأيمان بالحياة ذاتها . وكما يقول نيتشه : [أن تعيش في خطر ، فهذا معناه أن تحيا عارياً ودونما حياء] . وهذا يعني أيضاً أن يضع المرء ثقته في قوة الحياة ، وأن يكف عن مصارعة السراب الذي يدعى الموت ، سراب المرض ، سراب الخطيئة ، سراب الخوف... وهكذا دواليك . إنه عالم من السراب! ذاك هو العالم الذي خلقناه لأنفسنا . يكفي أن تفكر بالعسكريين وحديثهم المستمر عن العدو ، وبالكهنة وحديثهم المتواصل عن الخطيئة واللعنة . فكر بأهل القانون وحديثهم عن الغرامات والحبس . فكر بمهنة الطب والأطباء وحديثهم عن الأمراض والموت . إن اساتذتنا هم أكبر الحمقى على الإطلاق ؛ إذ يكفي أن تفكر باستظهارهم الببغاني وعجزهم الفطري عن تقبل أية فكرة ما لم يكن قد مضى على ولادتها مائة أو ألف عام . أما أولئك الذي يحكمون العالم فهم اكثر الناس بعداً عن النزاهة ، وأكثر الناس نفاقاً ، وهم أكبر المخدوعين وأكثر المخلوقات قابلية للفهم . إنك تدعي الاهتمام بمصير الانسان . لكن المعجزة التي حدثت هي أن الإنسان قد عزز لديه كل الأوهام بما في ذلك وهم الحرية ذاتها . لا ، لا ، الطريق مسدود أينما اتجهت . كل جدار ، كل حاجز ، كل عائق يقف في طريقنا هو من صنع أيدينا . لا حاجة بنا للتمسك بأهداب الله أو الشيطان أو الحظ ؛ فسيد المخلوقات جميعاً يأخذ سِنة من النوم ، بينما نحن غارقون في حل اللغز . لقد سمح لنا أن نحرم أنفسنا من كل شيء إلا الذهن ، وفي الذهن وجدت قوة الحياة ملاذها . لقد تم تحليل كل شيء إلى درجة العدم . أما الآن فإن فراغ الحياة قد يكتسب معنى ويؤمن لنا ، بالتالي ، دليلاً وهداية» .

عندما وصل في حديثه إلى نقطة النهاية بقي شاخصاً دونما حركة ، نهض واتكأ على مرفقه . ثم تابع قائلاً :

ـ «الوجه الآخر للذهن! لا أعرف كيف أو أين التقطت هذه العبارة ، لكنها تسحرني بشكل مطلق . من الممكن أن تكون عنواناً شاملاً للكتب التي أفكر في تأليفها . كما أن كلمة (مجرم) بحد ذاتها تهزني من الأعماق . إنها اليوم عديمة المعنى ، لكنها لا تزال... ماذا سأقول ؟ أخطر الكلمات في قاموس الإنسان . وفكرة الجريمة بحد ذاتها فكرة مرعبة . إن لها جذوراً عميقة متشابكة . ذات يوم كانت هذه الكلمة العظيمة ثورية بالنسبة لي . عندما أنطق بكلمة (مجرم) أجد نفسي مرتبكاً . أعترف أنني في بعض الأحيان لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمة ، أو إذا كنت اعتقد انني أعرف ، فأنا مجبر على النظر إلى الجنس البشري برمته على أنه وحش ذو رأس هيدري* لا يمكن وصفه ، ويسمى (مجرماً) . وأحياناً أصوغها لنفسي بطريقة أخرى ، كأن أقول إن الإنسان هو قاتل نفسه ـ وهو كلام يخلو من المعنى في أغلب الأحوال... ما أحاول قوله هو أن ثمة مجرماً من هذا القبيل . فالجنس البشري كله ملوّث ، متعفن . ليس بمقدورك أن تزيل العنصر الإجرامي الكامن في الإنسان بإجراء عملية جراحية على المجتمع . فهذا العنصر الإجرامي ذو طبيعة سرطانية ، وكل ما هو سرطاني لا براء منه . الجريمة ليست مجرد شيء معاصر للقانون والنظام ، إنها سابقة لهما . وهي ليست في وعي الإنسان بحد ذاته ، ولن تزول أو تستأصل حتى يولد وعي جديد . هل أنا واضح في كلامي ؟ السؤال الذي طرحته على نفسي مرات ومرات هو كيف تسنى للإنسان أن ينظر إلى نفسه أو إلى رفيقه الإنسان على أنه مجرم ؟ ما الذي دفعه إلى تناقل مشاعر الذنب ؟ لا بل ما الذي دفعه إلى جعل الحيوانات تشعر بالذنب ؟ بمعنى آخر ، كيف قيض له أن يسمم الحياة من منبعها ؟ من

---

* نسبة إلى الهيدرا في الميثولوجيا الاغريقية ، وهي الأفعى عديدة الرؤوس التي قام بقتلها هرقل العظيم (م)

المناسب جداً أن نلقي اللوم على الكهنة . لكنني لا أثق بأن لهم تلك السلطة علينا . فإذا كنا ضحايا ، فهم أيضاً ضحايا مثلنا . لكننا ضحايا ماذا ؟ ما الذي يعذبنا نحن الشبان والعجائز على حد سواء ، الحكماء منا والأبرياء ؟ إنه باعتقادي ما نحن بصدد اكتشافه الآن وقد تعرضنا للحشر تحت الأرض . سوف نسلم أنفسنا للمشكلة الكبرى دونما تلكؤ ، فقد حكم علينا بالعري والحرمان . وسوف نستسلم للأبدية إذا دعت الحاجة . وليس هناك من شيء ذي أهمية ـ ألا ترى ذلك معي ؟ ربما لا ترى ذلك ، ربما كنتُ بالغ الوضوح ، استأنف ولكنني لا أستطيع التعبير عن ذلك على نحوٍ كافٍ باستخدام الكلمات . على كلٍ ، هذا هو منظورنا للعالم » .

هنا نهض من فراشه وأخذ جرعة ، ثم سألني إن كان بمقدوري أن أتحمل هراءه ، فأجبته بالإيجاب ، فتابع قائلاً :

ـ « إنني ، كما ترى ، قد بلغت النهاية تماماً . وفي الحقيقة لقد بدأت أرى ذلك بوضوح بالغ . وأنا الآن مستعد تماماً للعمل ، وأكاد أشعر أنني قادر على تأليف كتبي بنفسي . فلو أني لم أعش لنفسي ، لكنت بالتأكيد قد عشت حيوات أناس آخرين . ربما سأبدأ حياتي الخاصة عندما أبدأ الكتابة . أنت تعلم أنني كنت محقاً بصدد فكرة أن أكون أكثر كرماً مع نفسي .

إنها فكرة تبعث على الارتياح ؛ فأنا من الداخل مليء بالعوارض الفولاذية ولا بد لي من الانصهار ، من التحول إلى ليف وغضروف ولمف وعضلة . إن الاعتقاد بأن كل واحد يمكنه أن يصير صلباً بهذا الشكل لشيء يدعو إلى السخرية ، وهذا بحد ذاته يتأتى عن قضاء الحياة كلها في حالة صراع » .

توقف قليلاً ليأخذ نفساً ، ثم استأنف الكلام قائلاً :

ـ « أنت تعلم أنه لا يوجد شيء في العالم يستحق القتال من أجله سوى سلام الذهن . فكلما انتصرت في هذا العالم هزمت نفسك . لقد كان المسيح محقاً عندما قال إنه يجب على المرء أن ينتصر على العالم أو أن ينتصر على الدنيا . هذه هي العبارة كما أظن . وأن تفعل ذلك فهذا يعني بالضبط أن

تكتسب وعياً جديداً ، نظرة جديدة إلى الأشياء . وهذا هو المعنى الوحيد الذي يمكن أن نلبسه للحرية . لا يمكن لأي امرئ أن ينال الحرية وهو من هذا العالم . مت للعالم وستجد حياة خالدة أبدية . أنت تعلم ، كما أظن ، أن مغامرة المسيح كان لها كبير الأهمية بالنسبة لدوستويفسكي . قد يكون دوستويفسكي هو الوحيد الذي نجح في اعتناق فكرة الله من خلال إدراك الإنسان ـ الإله . لقد أنْسَنَ مفهوم الله ، قرّبه إلينا ، جعله أكثر قابلية للاستيعاب ، وفي نهاية المطاف ـ وهذا هو وجه الغرابة ـ جعله أكثر ألوهية . وهكذا نجد مرة أخرى أنه لا بد من العودة إلى الحديث عن المجرم . لقد كانت الخطيئة الوحيدة ، أو قل الجريمة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يرتكبها بنظر يسوع المسيح هي الخطيئة بحق الروح القدس ، أو لنقل إنها نكران الروح ، أو قوة الحياة إذا شئت . فالمسيح لم يكن يعرف شيئاً اسمه المجرم . كان يتجاهل كل هذا الهراء وهذه المعمعة وتلك الخرافة النتنة التي أسرج بها الإنسان نفسه على مدى ألف عام . (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر!) . وهذا ليس معناه أن المسيح كان يعتبر كل البشر مخطئين . لا ، بل يعني أننا جميعاً مشبعون ، متشربون ، ملوثون بفكرة الخطيئة . وكما يفهم من هذا الكلام ، فإننا قد خلقنا الخطيئة والشر بمنأىً عن مفهوم الذنب . وهذا لا يعني أن للخطيئة والشر وجوداً واقعياً من تلقاء ذاتهما : الأمر الذي يجرني بحد ذاته للحديث عن المأزق الحالي . فعلى الرغم من كل الحقائق التي أعلنها المسيح فإن العالم ملوث ومشبع بالخطايا . كل واحد يتصرف كمجرم تجاه رفيقه الإنسان . وهكذا إذا توقف هذا الاقتتال ـ هذه المجزرة العالمية ـ فإننا سنقع في قبضة القدرة الشيطانية التي تحكمنا . لقد صار لزاماً علينا أن نحولها إلى قوة ديناميكية صحية لا تحررنا وحدنا فقط ـ إذ ما هي أهميتنا نحن ـ بل تحرر قوة الحياة المكبوتة في داخلنا ، وعندها فقط سنبدأ الحياة . أن نحيا فهذا يعني لا أقل من حياة أبدية . الانسان هو الذي ابتكر الموت ، وليس الله . الموت ليس أكثر من علامة من علامات هشاشتنا » .

وهكذا استمر في الكلام على هذا المنوال . فلم يغمض لي جفن حتى الفجر تقريباً وعندما استيقظت كان قد انصرف . وجدت على الطاولة قسيمة بقيمة خمسة دولارات مع رسالة مقتضبة مفادها أن علي أن أنسى كل ما تفوه به لأنه عديم الأهمية . وأضاف يقول في رسالته تلك :

ـ « أوصيك على بذلة جديدة من نفس المقاس على أن تختار لي نوع القماش » .

وبالطبع ، لم أستطع نسيان ذلك ، كما كان يظن ، في الواقع أنني بقيت عدة أسابيع لا أفكر بأي شيء آخر سوى « إنسان الجريمة » أو على حد تعبيره « الإنسان القاتل لنفسه » .

ومن العبارات الكثيرة التي خرج بها وأسقمتني إلى أقصى الحدود تلك المتعلقة بالإنسان « الذي وجد ملاذه في الذهن » . فلأول مرة ، كما أعتقد اتساءل عن وجود الذهن باعتباره شيئاً مستقلاً ، كما أن فكرة الذهن بحد ذاتها قد سحرتني كلياً ، فقد بدت لي أكثر ثورية من أي شيء سمعته من ذي قبل » .

ومن قبيل الفضول ـ على الأقل ـ أن إنساناً من منزلة ستايمر لا بد أن يكون مهووساً بفكرة النزول إلى تحت الأرض وبفكرة الالتجاء إلى الذهن ـ وكلما فكرت في الموضوع شعرت بأنه كان يحاول أن يجعل من الكون مصيدة فئران كبيرة ومباغتة . بعد شهور قليلة ، وعندما أرسلت له مذكرة أطلب فيها مقاساته علمت أنه قد توفي على أثر نزيف في الدماغ ، فلم يفاجئني الخبر مطلقاً . إذ من المؤكد أن ذهنه قد لفظ كل الاستنتاجات التي فرضها عليه . لقد استمنى نفسه ذهنياً حتى الموت . عند هذه النقطة كففت عن التفكير بالذهن باعتباره ملاذاً . الذهن هو كل شيء ، الله هو كل شيء ، ثم ماذا ؟

الفصل الثالث

عندما يصل وضع ما الى درجة من السوء ينعدم عندها أي حلٍ ممكن ، لا يتبقى للمرء سوى القتل أو الانتحار أو كلاهما معاً . وإذا فشل المرء في الاثنين معاً ، يصبح مهرجاً . إنه لشيء مذهل : كم يمكن للمرء أن يصير نشيطاً عندما لا يوجد شيء يصارعه سوى اليأس ؛ إذ تتراكم الأحداث من تلقاء ذاتها ويتحول كل شيء إلى دراما ؛ أو قل : إلى ميلودراما .

بدأت الأرض تهتز تحت قدمي لمجرد تأكدي شيئاً فشيئاً من أن أي مظهر من مظاهر الغضب أو التهديد أو إبداء الحزن أو العطف أو الندم أو أي شيء مما قلته أو فعلته لم يكن ذا أدنى أهمية بالنسبة لها . فلو حصل ذلك لأي مخلوق يسمى إنساناً ، فإنه ، بلا شك ، سوف يبلع كبرياءه أو حزنه ويخرج من الحلبة . لكن شيئاً من هذا لن يحصل مع بيلزيبوب الصغير هذا . لم أعد انساناً . صرت مخلوقاً تحول إلى الحالة الوحشية . صار الذعر المستمر وضعاً طبيعياً بالنسبة لي . كلما شعرت أنني غير مرغوب فيه ، ازداد التصاقي . وكلما أثخنت بالجراح وتعرضت لإهانة ، تقت إلى العقاب . كنت دائم التضرع لحدوث معجزة ، لكنني لم أفعل شيئاً من شأنه أن يحقق هذه المعجزة . والأنكى من ذلك أنني كنت عاجزاً عن توجيه اللوم إليها أو إلى ستاسيا أو أي شخص آخر بما في ذلك نفسي ، على الرغم من تظاهري بذ سك في أغلب الأحيان . ولم

أستطع ، على الرغم من رغبتي الطبيعية أن أدفع نفسي باتجاه تصديق أن ذلك قد حدث بالتأكيد . بقي لي القدر الكافي من الفهم للتحقق من أن شرطاً كهذا الذي كنا فيه قد سبقته مرحلة طويلة من الإعداد . وعلاوة على ذلك فقد استعدت الطريق المؤدية إلى ذلك والتي أعرفها على الأغلب خطوة خطوة . لكن عندما يصاب المرء بالإحباط إلى درجة اليأس المطلق ، ما فائدة أن يعرف أين ومتى حصلت الخطوة الأولى القاتلة ؟ إن ما يهمني الآن هو الحاضر فقط . كيف يتملص المرء من نقيصة ؟ صرت ألطم رأسي بالجدار المرة تلو المرة في محاولة للإجابة على هذا السؤال . فلو كان بمقدوري ، لأخرجت دماغي ووضعته في العصارة . ليس مهماً ماذا فعلت أو فكرت أو حاولت ، أو أنني لم استطع الخروج من المأزق . هل كان الحب هو الذي يقيدني ؟ كيف لي أن أجيب على هذا السؤال ؟ كانت عواطفي مشوشة للغاية ، كانت كاليدوسكوبية* للغاية .

ويبدو ذلك كما لو كنت تسأل ميتاً إن كان جائعاً . ربما أمكن صياغة السؤال بشكل مختلف ؛ كأن يكون : «هل يمكن للمرء أن يستعيد ما فقده ؟» إن الإنسان العاقل ، الانسان الذي يتمتع بالفطرة السليمة ، لا بد أن يجيب على ذلك بالنفي . أما الأحمق فسيقول في جميع الأحوال : نعم . ومن يكون الأحمق سوى مؤمن ، مقامر ضد كل الشواذ ؟ «لا يمكن استرجاع شيء فقدناه» ومن قال ذلك ؟ اله في داخلنا ، آدم الذي نجا من النار والطوفان ، وكل الملائكة . فكروا للحظة أيها الهازئون! لو كان الافتداء مستحيلاً ، أما كان الحب نفسه قد اختفى من الوجود ؟ حتى حب الذات ؟ ربما كان هذا الفردوس الذي سعيت يائساً لاستعادته ليس هو نفسه... ففي لحظة الخروج من الدائرة السحرية تعمل خميرة الزمن بسرعة مدمرة .

ما هو ذاك الفردوس الذي فقدته ؟ وكيف كان شكله ؟ وهل كان الفردوس يعني مجرد القدرة على تحقيق لحظة من لحظات السعادة القصوى ،

---

* نسبة الى الكاليدوسكوب وهو جهاز يحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون عندما تتغير أوضاعها تعطي أشكالاً هندسية مختلفة الألوان (م)

إنْ عاجلاً أم آجلاً ؟ هل كان ما ألهمتني إياه هو الإيمان (لا أقصد إيماني بنفسي) . أم هل كان ذلك أننا كنا ملتصقين مثل توأمين سياميين ؟ كم تبدو الأمور بسيطة وواضحة في الوقت الحالي ؟ كلمات قليلة كافية لسرد الحكاية بأكملها : «لقد فقدت القدرة على الحب . لفتني سحابة من الظلمة . أعماني الخوف من فقدانها . كان موتها أسهل وقعاً عليَّ . همت في الظلام الذي ابتدعته ضائعاً مشوشاً كما لو أن شيطاناً كان يلاحقني في معمعان حيرتي ؛ كنت في بعض الأحيان أترجل على أطرافي الأربعة وبيدي العاريتين كنت أخنق وأبتر وأحطم كل ما يهدد عريننا بالخطر . في بعض الأحيان كنت ألتقط دمية ، في لحظة غضب ، لأعود في أحيان أخرى فألتقط جرذاً ميتاً . في إحدى المرات لم تقع يدي سوى على قطعة جبن بائتة . كنت أرتكب القتل ليل نهار . وكلما قتلت ازداد أعدائي والمغيرون علي . كم هو شاسع عالم السراب! كم هو عصيٌّ على النضوب والنفاد! لماذا لم أقتل نفسي ؟ لقد حاولت ذلك ، لكنني فشلت في المحاولة . وجدت أن اختزال الحياة إلى خواء هو الأكثر فاعلية . أن تعيش بالعقل وحده فتلك أضمن طريقة لجعل الحياة خواء . أن تصبح ضحية لآلية لا تتوقف لحظة واحدة عن الدوران والصرير والطحن . إنها آلة العقل .

«الحب والكراهية ، القبول والرفض ، الاحترام والاحتقار ، الاشتياق والنفور ، هذا هو داء العقل» . لا أظن أن سليمان ذاته قد استطاع أن يعبر عنه أفضل من ذلك .

تقرأ في الضاما بادا : «إذا تخليت عن النصر والهزيمة ، فإنك سوف تنام ليلتك بلا خوف» . ولكن ، إذا!

إن الجبان من أمثالي هو الذي يفضل دوامة العقل التي لا تتوقف . فهو ـ مثله في هذا كمثل السيد الماكر الذي يقوم على خدمته ـ يعرف أن الآلة لا بد أن تتوقف في لحظة من اللحظات ، وأنه سينفجر مثل نجم ميت . هو ليس موتاً... إنما هو العدم . يقول سرڤانتس في وصف الفارس الجوال (دون كيخوته) : «إن الفارس الجوال يجول في كل أرجاء الدنيا ، يدخل أعقد

المتاهات ، يحقق المستحيل في كل خطوة يخطوها ، يتحمل لهيب الشمس في الصحارى المقفرة والرياح العاصفة والجليد في الشتاء القارس ، فلا السباع ترهبه ولا الشياطين تخيفه ولا التنين ، لأن البحث عن المخاطر ومن ثم قهرها هو كل ما يهمه من هذه الحياة وهو صنعته الحقيقية» .

إنه لغريب . كم من الصفات المشتركة تجمع ما بين الأحمق والجبان والفارس الجوال . فالأحمق ـ رغم كل شيء ـ يؤمن بمواجهة المستحيل والجبان يتحدى كل الأخطار ، يجازف في كل المخاطر ، لا يخاف شيئاً على الاطلاق سوى ضياع ما يكافح مستميتاً للاحتفاظ به . إنه لإغراء كبير أن تقول إن الحب لم يجعل من أحدٍ جباناً . ربما في حالة الحب الحقيقي ، ولكن ، لا ، من منا قد عرف الحب الحقيقي ؟ من هو ذاك المحب الواثق المؤمن بأنه لن يبيع نفسه للشيطان في سبيل ألا يرى محبوبه يتعرض للتعذيب أو الذبح أو الإهانة ؟ من هو القوي الجبار الذي لن ينزل من عليائه لكي يبوح بحبه ؟ في الحقيقة ، إن عدداً هائلاً من الناس قد تقبلوا قسمتهم وانزووا بعيداً في عالم الصمت والعزلة وصاروا يجترون قلوبهم ، فهل نعجب بهم أم نشفق عليهم ؟

أعظم العشاق لم يكن قادراً على التطواف مهللاً يصيح :

« كل شيء على ما يرام في هذا العالم! » . يقول أحد الذين يثيرون إعجابي في معرض حديثه عن الحب الصافي (وهو بالمناسبة غير موجود على الاطلاق إلا في مخيلتنا) : «لا يكون العاطي مدركاً لكونه عاطياً ولا لما يعطيه ولا لمن يعطي ، ويكون إلى حد ما غير مدرك ما إذا كان يقابل بالتقدير من المعطى أم لا » . أما أنا ، فأقول من كل جوارحي : « حسناً » لكنني لم أصادف كائناً بشرياً قادراً على التعبير عن حب كهذا . ربما كان من الممكن لاولئك الذين لم يعودوا بحاجة إلى الحب أن يطمحوا إلى مثل هذا الدور . فأن تكون متحرراً من رباط الحب... يا لها من سعادة ما بعدها سعادة ـ هل هذا الشيء متاح لأمثالنا نحن المخلوقات البشرية الضعيفة ، المغرورة ، التافهة ،

الجشعة ، الحسود ، الغيور ، العنيدة والحقود ؟ بكل صراحة ، لا . إن ذلك ممكن لنا ـ نحن سلالة الجرذان ـ في خواء الذهن .

وهو بالنسبة لنا قدر مشؤوم ـ قدر لا ينتهي عند حد . ومع اعتقادنا بأننا لا نحتاج إلى الحب ، نكف عن إعطاء الحب ، ونكف عن أن نكون محبوبين . ولكن حتى نحن ، بالرغم من ضعفنا المثير للازدراء نمارس شيئاً من هذا الحب الحقيقي الأناني من حين لآخر . من منا لم يقل لنفسه في غمرة هيامه الأعمى بإنسانة بعيدة عن متناوله : «ما المشكلة في ألا تكون ملكاً لي! كل ما يهمني هو أنها موجودة لكي أعبدها وأهيم بها إلى الأبد» . وحتى بالرغم من تعذر الدفاع عن مثل هذه الفكرة المبالغ فيها ، فإن العاشق الذي يبرر لنفسه هكذا يكون واقفاً على أرضية صلبة . فهو قد عرف لحظة من الحب ، إذ لا يوجد حب آخر ، مهما يكن صافياً وكيفما كان ثباته ، يقدر على مجاراته .

وعلى الرغم من كون هذا الحب زائلاً ، سريع الزوال ، فهل يمكننا القول عندئذ أن حالة من الفقدان قد وقعت . إن الخسارة الوحيدة الممكنة الحدوث ـ وكيف يتسنى للعاشق الصادق أن يعرف ذلك! ـ هي انعدام تلك العاطفة المشبوبة التي يستثيرها الآخر . وأي يوم كئيب ، موحش ، مشؤوم ، ذاك اليوم الذي يتأكد فيه العاشق فجأة من أنه لم يعد ممسوساً بحبه العظيم ، أو لنقل أنه قد برأ منه! عندما يشير إليه ولو على نحوٍ لا واعٍ على أنه «حالة جنون» . إن الشعور بالارتياح الناجم عن مثل هذه اليقظة يمكن أن يؤدي بالمرء إلى الاعتقاد بكل إخلاص أنه قد استعاد حريته ، ولكن بأي ثمن! يا لها من حرية بائسة . أليست كارثة أن نعاود التحديق في العالم بنظرة يومية وبحكمة يومية ؟ أليس مفجعاً أن تجد نفسك محاطاً بكائنات مألوفة وعادية ومبتذلة ؟ أليس مخيفاً الاعتقاد بأن على المرء أن يستمر ـ كما يقولون ـ ولكن مع وجود حجر في بطنه وحصاة في فمه ؟ أن تجد الرماد ولا شيء سوى الرماد ، حيث كانت الشمس اللاهبة والعجائب والأمجاد ـ العجائب فوق العجائب ، والمجد تلو المجد . وكل ما خلق بحرية كما لو أنه من ينبوع

سحري ؟ إن كان ثمة أي شيء يستحق أن يسمى إعجازاً ـ أليس هو الحب ؟ فأية قدرة أخرى ، أية قوة غامضة أخرى بإمكانها أن تزين الحياة بمثل هذا الجلال الذي لا سبيل إلى نكرانه ؟ الانجيل مليء بالمعجزات التي يتاح لكل فردٍ أن يجربها مرة في حياته ، المعجزة التي لا تحتاج إلى تدخل أو وساطة أو تشغيل هائل للإرادة ، المعجزة المفتوحة للجبان والأحمق جنباً إلى جنب مع البطل والقديس ، هذه المعجزة هي الحب . فالحب وليد اللحظة الراهنة وهو دائم الحياة . إذا كانت الطاقة قابلة للفناء فالحب كذلك بهذا القدر أو ذاك . الحب مثل الطاقة التي لا تزال لغزاً كاملاً ، فهو موجود دائماً وفي المتناول دائماً . فكما أن الأنسان لم يخلق مثقال ذرة من الطاقة ، فهو لم يخلق الحب أيضاً ـ الحب والطاقة كانا وسيبقيان إلى الأبد . ربما كانا من حيث الجوهر شيئاً واحداً أو الشيء نفسه ، ولم لا . ربما لم تكن هذه الطاقة العجيبة التي تتحدد بحياة الكون والتي هي الله بالفعل ، كما قال أحدهم ، ربما لم تكن هذه القوة السرية الكلية الاجتياح سوى تظاهرة من تظاهرات الحب .

إن أقصى ما يثير الرعب لدينا وينبغي أن نأخذه بالحسبان ، هو ما إذا كان يوجد أي شيء في كوننا لم يتأثر بهذه القوة اللا ملموسة ـ فما بالك بالحب ؟ ما الذي يحدث عندما يختفي الحب ـ ولو ظاهرياً ؟ لا يقل الأمر دماراً بالنسبة لواحد عن الآخر . وكما نعرف أنه حتى أضعف جزيء من جزيئات المادة له القدرة على إحداث طاقة انفجارية . إذا نفخت الحياة في جثة ـ كما نعلم ـ فإن الروح تعاود فعلها في الجسد . لو نهض العازر* من قبره ، لو نهض المسيح من قبره لأمكن إعادة إحياء الكون الذي يكف الآن عن الوجود ، وهو بدون شك سيعاد احياؤه عندما يحين الوقت لذلك . بمعنى آخر ، عندما يتغلب الحب على الحكمة .

كيف يمكننا ، إذن ، إن كان ذلك ممكناً ، أن نتكلم عن أو حتى نفكر بفقدان الحب ؟ فبالرغم من نجاحنا مؤقتاً في إقفال الباب ، فإن الحب سيجد له

* العازر : رجل أعاده المسيح إلى الحياة بعد دفنه لمدة أربعة أيام (م)

منفذاً للدخول . بالرغم من أننا نصير باردين وقساة كالمعادن . لن نستطيع البقاء إلى الأبد في حالة من اللامبالاة والعطالة . إذ لا شيء يموت في الواقع . الموت دائماً مختلق ومزيف . فالموت ببساطة هو بمثابة إغلاق للباب . ولكن ليس للكون من أبواب . بالتأكيد لا يوجد باب من الأبواب لا يمكن فتحه أو اختراقه بقوة الحب . وهذا ما يعرفه الأحمق في قرارة نفسه معبراً بذلك عن حكمته بشكل دونكيشوتي . وهل من شيء آخر يقدر عليه الفارس الجوال الباحث عن المخاطر ليقهرها ، إن لم يكن رسولاً للحب ؟ وهو الذي يعرض نفسه دائماً للهوان والأذى ، ما الذي يفر منه إن لم يكن غزو الحب ؟

في أدب التوحد ثمة رمز وحيد ودائم ، يمكن التعبير عنه رياضياً ، كما روحياً ، تدور حوله كل الأشياء ، إنه عبارة (ناقص حب)* . ولأن الحياة يمكن أن تعاش ، وهي تعاش كالمعتاد ، على الجانب الناقص أكثر مما تعاش على الجانب الزائد ، يكافح الناس إلى الأبد وبتفاؤل لا حدود له في اللحظة التي يختارون فيها حذف الحب من تفكيرهم . ذاك الألم الممضّ الذي لا قرار له ـ ألم الفراغ الذي تنسكب فيه كل الخليقة والذي سيبقى فراغاً ، هذا الألم في سبيل الله ، كما يقال ، ماذا يكون إن لم يكن وصفاً لحالة انعدام الحب في الروح ؟ لقد دخلت الآن فيما يشبه شرط الوجود هذا مجهزاً بسكة وعجلة . تراكمت الأحداث من تلقاء ذاتها ، ولكن على نحوٍ مباغت . لقد كان العزم الذي أنزلقُ به الآن إلى الأسفل والوراء خارج نطاق العقل ـ هذا العزم كان فيه شيء من الجنون . إن الأشياء التي احتاجت إلى عصور من الزمن لبنائها ، كانت تتعرض للهدم في غمضة عين . لقد انهار كل شيء دفعة واحدة . وبالنسبة لآلة الفكر ليس ذا أهمية بالغة أن يتم التعبير عن المشكلة ، إنْ بلغة الناقص أم بلغة الزائد . عندما يسقط الكائن البشري في المنزلق يصبح الأمر سيان ، أو يكاد يكون كذلك . فالآلة لا تعرف الأسف ولا الندم ولا الذنب . إنها تظهر علائم الاضطراب فقط . عندما تنقطع عنها التغذية الكافية . لكن

* بالانكليزية Minus love (م) .

الكائن البشري المزود بآلة العقل المخيفة لا يمنح مثقال ذرة من الرحمة أبداً ، بغض النظر عن مدى القدرة على تحمل الوضع ، فهو قد يقر بعجزه عن استيعابه . ولطالما بقي فيه رمق من الحياة ، فإنه سيقدم نفسه ضحية لأي شيطان يقع عليه اختياره بغية امتلاكه . وإذا لم يجد شيئاً أو أحداً يضايقه ، يخونه ، يحتقره ، أو يشوه سمعته ، فإنه سيضايق ويخون ويحتقر ويشوه سمعة نفسه بنفسه . فأن تعيش في خواء العقل يعني أن تعيش «هذا الجانب من الفردوس» ولكن بشكل مطلق وكلي للغاية إلى درجة يبدو معها حتى عنفوان الموت مثل رقصة القديس فيتوس . ومهما تكن الحياة اليومية كئيبة ، موحشة ، وزنخة ، فإنها لا تقترب من الصفة المؤلمة لهذا الفراغ اللا محدود الذي ينجرف إليه المرء وينزلق فيه بوعي متوفِّز .

في الواقع اليومي الملموس توجد الشمس إلى جانب القمر ، البرعم إلى جانب الورقة الذابلة ، النوم إلى جانب اليقظة ، الحلم إلى جانب الكابوس أما في خواء العقل فلا يوجد سوى حصان ميت يعدو بساقين لا حراك فيهما ، شبح يتمسك بعدمية لا قرار لها .

وهكذا ، مثل حصان ميت لا يمل صاحبه من جلده بالسوط ، بقيت أعدو إلى أقصى أطراف الكون ، فلا أجد السلام أو الهناء أو الراحة في أي مكان . لقد صادفت في هذه الجولات المديدة سرابات غريبة! كم كانت تشابهاتنا غريبة! فحتى حينه لم تكن بيننا أية صلة . كان الغشاء الجلدي الرقيق الذي يفصلنا بمثابة درع مغناطيسي تعجز أعتى التيارات عن اختراقه . إن كان ثمة فرق هائل بين الأحياء والأموات فهو أن الأموات قد كفوا عن الاستغراب . لكن الأموات ، كالأبقار الهائمة في الحقول ، يمتلكون متسعاً من الوقت للخوار . فهم يتابعون خوارهم وأرجلهم تغوص في البرسيم إلى أن يغيب القمر . وبالنسبة للموتى ، فإن لهم أن يسبروا أكواناً بعد أكوان . إنها الأكوان التي تخلو من أي شيء سوى المادة ، المادة الخالية من الجوهر ، المادة التي تحرثها آلة العقل كما لو كانت ثلجاً طرياً .

ما زلت أذكر الليلة التي مت فيها من الدهشة . جاء كرونسكي وأعطاني بعض البرشامات البيضاء البرينة . فابتلعتها بعد انصرافه . فتحت النوافذ على مصاريعها ، قذفت إلى الخارج بأغلفة البرشامات ونمت عارياً متخشباً كالميت . في العراء كان الثلج يزوبع غاضباً والرياح الثلجية تصدر صفيرها في أركان الغرفة الأربعة ، كما لو أنها تخرج من مروحة كهربائية . نمت آمناً كالبرغشة . بعد زوال الفجر بوقت قصير فتحت عيني ، حملقت حوالي لأكتشف أنني لم أكن في الآخرة الكبرى . فحتى حينه كنت قادراً ، بشق النفس ، على أن أقول إنني لا أزال في عداد الأحياء أما ما الذي مات فيَّ ، فهذا ما لا أعرفه . إن الشيء الوحيد الذي عرفه هو أن كل شيء يصلح لصنع ما يسمى «حياة المرء» قد تلاشى وكل وما تبقى حولي هو تلك الآلة ـ آلة العقل .

تراجعت إلى الوراء مثل جندي نال أخيراً ما كان يصلي لأجله .

على الآخرين صنع الحرب* "Aux autres de fair la guerre" . من سوء الحظ أنه لم يكن قد تحدد لجثتي اتجاه معين . إلى الوراء ، إلى الوراء ، كنت أتحرك في أغلب الأوقات بسرعة قذيفة المدفع .

على الرغم من أن كل شيء كان يبدو مألوفاً ، فإنني لم أهتدِ إلى نقطة الولوج . عندما تكلمت كان صوتي يُسمع كأنه شريط تسجيل يعاد إلى بدايته . كان كياني برمته خارج البؤرة Et haec olim meminisse iu-vabit وكنت مستبصراً على نحوٍ كافٍ في مثل هذا الوقت ، لكي أحفر هذا البيت الخالد من الإنيادة على علبة التواليت المعلقة فوق سرير ستاسيا . ربما أكون قد وفقت في وصف المكان . ليس هذا مهماً ، فألفُ وصفٍ يعجز عن تبيان حقيقة هذا الجو الذي كنا نعيش فيه ونتحرك في خضمه . لأنني قد عشت هنا خارج جنوني مثل سجين تشيلون ، مثل ماركيز الإلهي ، مثل سترندبرغ المجنون ؛ قمراً ميتاً توقف عن الكفاح لإظهار وجهه الحقيقي . جل ما أذكره أن الظلمة كانت تلف المكان كالعادة . إنها ظلمة القبور الباردة . وبينما كنت

---

* بالفرنسية ، في الأصل (م) .

أستعيد رباطة جأشي أثناء تساقط الثلج . تولَّد لديَّ انطباع بأن العالم بأكمله في الخارج سيبقى مفروشاً إلى الأبد بلباد أبيض هش . كانت الأصوات التي تنفذ إلى دماغي المشوش تكتمها بطانة الثلج الأبدية . كنت أقطن سيبريا العقل ، دون شك . .اتخذت لنفسي من الذئاب وبنات آوى رفاقاً ؛ لم يقطع عواءَهم التافه سوى رنين أجراس العربات الجليدية أو قعقعة سيارة الجيب المتجهة نحو بلاد الأطفال الذين لا أمهات لهم .

جرت العادة أن أبصرهما قادمتين مع حلول ساعات الصباح الباكرة تتأبطان ذراعي بعضهما ، طريتين كالأقحوان ، متوهجتي الوجنتين بفعل الصقيع والإثارة المتأتية عن يومٍ حافل بالأحداث . وبين الحين والآخر يأتي جابي الضرائب ، يطرق الباب بصوت مرتفع ردحاً من الزمن ، ثم ينصرف ذائباً في غياهب الثلج . أو قد يحدث أن يقوم أوزيسكي المجنون بالنقر على درفة الشباك بلطافة . ويتابع الثلج انهماره المتواصل ، وقد يتساقط أحياناً على شكل زوابع محشوة بإبر تنفذ وخزاتها إلى تحت الجلد .

قمت بشد حزامي بينما كنت منتظراً . فلم أكن أمتلك لا صبر القديسين ولا حتى صبر السلاحف ، بل بالأحرى كنت أمتلك الصبر البارد والمترقب الذي يتحلى به المجرم .

اقتل الوقت! اقتل الفكر! اقتل لسعات الجوع . إنها عملية قتل طويلة مستديمة... إنه التصعيد .

لو أنني ، لدي استراقي النظر من خلال الستارة الباهتة ، تعرفت على صورة ظليلة لصديق من أصدقائي ، لربما كنت سأفتح الباب نظراً لحاجتي الماسة إلى نفس من الهواء العليل ، وليس بدافع السماح لمخلوق بشري لطيف بالدخول . نفس الحوارية الافتتاحية المعهودة . صرت متعوداً على ذلك ، لدرجة أنني أعتدت تكرارها لنفسي كلما ذهبتا خارج المنزل .

إنها دائماً من نوع افتتاحية روي لوبيز .

ـ « ماذا تفعلين بنفسك ؟ »

- « لا شيء »

- « أنا ؟ لا بد أنك جننت! »

- « ولكن ما الذي تفعلينه طوال النهار ؟ »

- « لا شيء »

ثم يأتي دور « النبش » الذي لا مفر منه بحثاً عن السجائر وقطعة من الألبسة الداخلية الفضفاضة ، ثم التزاحم على كعكعة بالجبن أو على كيس من الكعك الحلو . في بعض الأحيان أقترح لعب الشطرنج ، وسرعان ما يتم إخراج السجائر ، يليها إخراج الشموع فالأحاديث .

عندما أكون وحيداً تهاجمني أمتع الذكريات واكثرها خراقة ؛ ذكريات عن الأشخاص والأماكن والأحاديث . أما الأصوات والتكشيرات والملامح والأعمدة والشرفات والكورنيشات والمروج والسواقي والجبال فهي تجتاحني على شكل موجات لا متزامنة ، مثل خثرات الدم المتساقطة من سماء صافية . لقد كانوا حاضرين بكل تفاصيلهم ، ضجعائي المجانين ، الأكثر بؤساً وغرابة وبؤساً مما يمكن لأي مخلوق أن يكونه . فكلهم مشردون ، كلهم زائرون من عوالم سحرية ، غرباء زرافات ووحدانا .

وحتى اللحظة كم كانوا أوفياء ومحبوبين! مثل ملائكة منبوذين إلى حين ، كانوا يخفقون بأجنحتهم بحذر تحت أقنعتهم الرثة .

في أغلب الأحيان كنت أقع على أحد أولئك النكرات في غياهب الظلام عند منعطفات الشوارع المقفرة تماماً إلا من الرياح تعوي فيها عواءً مجنوناً . فقد يبادرني التحية ليطلب ولاعة يشعل بها سيجارته أو ليستجدي قليلاً من النقود . وقد يحصل أن نتشابك بالأذرع بسرعة عجيبة ، وننغمس على الفور في معمعان تلك اللغة الغريبة التي لا يتداولها سوى المنبوذين والملائكة والمشردين . وفي أغلب الأحوال ، يساعد اعتراف الطرف الآخر - الغريب - ببساطة وصراحة على وضع العجلة على سكتها (فالقتل والنهب والاغتصاب والفرار من الجندية يشار اليها كلها عرضاً وكأنها بطاقات شرف)

- « أنت فاهم ، كان عليَّ أن... »

- « طبعاً »

- « كانت الفأس ملقاة هناك والحرب مستعرة والعجوز في حالة سكر دائم وأختي في حالة تسكع... وفوق كل ذلك كنت أود الكتابة هل تفهم ؟ »

- « بالطبع »

- « ثم إن النجوم ، نجوم الخريف ، الآفاق الغريبة الجديدة ، عالم جديد للغاية ، حتى اللحظة لا يزال قديماً للغاية . المسير ، الاختباء ، نهب المؤن ، التسول ، البحث ، التضرع ، انسلاخ الجلد بعد الآخر . كل يوم اسم جديد ، نداء جديد ، دائماً أهرب من نفسي... هل تفهم ؟ »

- « بالطبع »

- « لقد جننت ، لقد جننت »

- « شيء طبيعي »

وهكذا يستل الفأس الحادة جداً ، الشديدة اللمعان ويبدأ عملية التقطيع . فهاهنا رأس وهناك ذراع أو ساق ، ثم أصابع اليدين والقدمين . تقطيع ، تقطيع ، تقطيع يشبه تقطيع السبانخ ، أما هم ، فإنهم بالطبع كانوا يبحثون عنه . وعندما يجدونه سيحقنونه بالعصير فهو يخدم العدالة . ومقابل كل مليون إنسان يتم ذبحهم كالخنازير يتم إعدام وحش بائس بمفرده إعداماً إنسانياً .

هل أنا أفهم ؟ تماماً .

ومن يكون الكاتب إن لم يكن مجرماً أو قاضياً أو جلاداً ؟ ألم أكن موهوباً في فن الخداع منذ طفولتي ؟ الست مثخناً بالأورام والعقابيل ؟ ألم أكن ملطخاً بكل ذنوب وخطايا الكاهن القروسطي ؟ وأي شيء اكثر طبيعية وقابلية للفهم واكثر انسانية وتسامحاً من هذه الاهتياجات الرهيبة لشاعر معزول ؟ لقد برح هؤلاء الهائمون عالمي الخاص مثلما ولجوه دونما أسباب واضحة . إن التجول في الشوارع بمعدة فارغة يجعل المرء متوفزاً ونزقاً ، إذ يدرك المرء غريزياً أي منعطف عليه أن ينعطف ، ويقع غريزياً على أي شيء يبحث عنه ،

فهو لا يفشل أبداً في التعرف على أي واحد من أبناء جنسه المتسكعين الجائعين عندما يضيع كل شيء تقفز الروح الى المقدمة . لقد أشرت اليهم على أنهم ملائكة مقنَّعون . وهم كانوا كذلك . لكني كنت في العادة أصحو على الحقيقة بعد رحيلهم فقط . ونادراً ما يظهر الملاك وهو يجر وراءه سحابة من المجد ، وبين الحين والآخر يتوقف الساذج المتحمس عن التحديق فجأة في أي من المفاتيح المطابقة للقفل ، فينفتح الباب . كان الباب الذي يدعى (الموت) هو الذي يبقى مفتوحاً متأرجحاً بشكل دائم . فاكتشفت أن ليس هناك موت ولا قضاة ولا جلادون ـ اللهم إلا في مخيلتنا . ولكم كافحت يائساً فيما بعد للعودة إلى الوضع السابق دون أن أفلح في ذلك .

كان الراجا يجرد نفسه من ملابسه حتى العري الكامل . ولا يبقى سوى الأنا ، ولكنه أنا Ego منتفخ ومتورم مثل ضفدع قميء . بعدئذ يغمرني جنونه المطلق . إذ لا شيء يمكن إعطاؤه أو أخذه . ولا شيء قد أضيف أو حذف . لم يزد شيء أو ينقص شيء آخر .

إننا نقف على الشاطئ نفسه أمام المحيط الجبار نفسه ، أوقيانوس الحب ، إنه دائب الحركة* إلى ما شاء الله ، بنفس القدر ، في الغصن المزهر المكسور ، في صوت الشلال ، في انقضاض الطير الجارح ، كما في المدفعية المدوية لشاعر ملهم . نتحرك بعيون مغمضة وآذان مسدودة ، نضرب بعنف على الجدران فيما الأبواب بانتظار من يفتحها بلمسة واحدة ، نلوب بحثاً عن السلالم ناسين أن لنا أجنحة ، نصلي كما لو كان الله أصم أو أعمى ، كما لو أنه يسبح في الفضاء ، فلا عجب أن الملائكة بين ظهرانينا ولا نتعرف إليهم .

ـ « لا بد سيأتي يوم نتمنى فيه أن نتذكر هذه الأشياء »

---

* In perpetuum باللاتينية في الأصل (م)

الفصل الرابع

وهكذا بينما كنت أطوف في الظلام أو أقف لساعات منتصباً مثل مشجب القبعات في زاوية الغرفة ، كان يتفاقم شعوري بعمق المطب الذي وقعت فيه . صارت الهستيريا شيئاً مألوفاً مثلما أن الثلج لم يذب . في الوقت الذي كنت أدبر أكثر المخططات شيطانية لكي أدفع ستاسيا نحو الجنون فعلاً ، وبالتالي أتمكن من التخلص منها جيداً ، كنت أحلم أيضاً بأكثر الخطط حمارية للقيام بجولة جديدة من المغازلات .

كنت أشاهد في واجهة كل محل أمرّ من أمامه مجموعة من الهدايا التي وكنت أود شراءها لأجلها ؛ فالنساء يعبدن الهدايا وخاصة النفيسة منها . كما أنهن يرغبن في التوافه الصغيرة ، كلٌ حسب مزاجها . أمضيت يوماً كاملاً متردداً بين الأقراط الأثرية الثمينة جداً والشمعة السوداء الكبيرة ، ولم أعترف لنفسي بأن الشيء النفيس بعيد عن متناول يدي .

لا ، فلو كنت قادراً على إقناع نفسي بأن الأقراط ستفرحها لكنت قادراً أيضاً على إقناع نفسي بذلك . لأنني كنت أعرف في الصميم أنني لن أستقر على قرار . كان الأمر مجرد مضيعة للوقت . حقاً ، لقد كان من الأفضل لو أنني أمضيت الوقت في الجدال حول قضايا ذات مستوى أعلى ، من قبيل ما إذا كانت الروح قابلة للتلف أم لا ، لكن بالنسبة لآلة الذهن فإن كل مشكلة من

المشاكل لا تقل أهمية عن الأخرى . لقد كنت بهذه المعنويات قادراً على إثارة الحاجة إلى المشي مسافة خمسة أو عشرة أميال لكي أستدين دولاراً واحداً وأشعر بالنصر تماماً ، كما لو أنني نجحت في اختلاس مبلغ ضئيل من المال أو حتى نكلة واحدة من فئة الخمس سنتات .

أما ما كنت آمل في إمكانية عمله بدولار واحد فليس ذلك مهماً . المهم هو المحاولة التي كنت لا أزال قادراً على القيام بها . وهذا يعني من وجهة نظري الفاسدة للأمور أنني لا أزال أحتفظ بقدم في هذه الدنيا . وحتى حينه كان من المهم فعلاً أن أذكر نفسي بمثل هذه الأشياء من حين لآخر وألاّ أبقى مثل طالب شديد الانكباب على الدراسة . وكان من المفيد أيضاً أن أسدد لهما (لستاسيا ومونا) صدمة قوية في لحظة من اللحظات ؛ كأن أقول لهما عندما تأتيان إلى البيت في الساعة الثالثة صباحاً خاليتي اليدين :

ـ «لا تزعجا نفسيكما ، سأذهب وأشتري لنفسي ساندويشة»

وزيادة في التأكيد ، كنت في بعض الأحيان أتناول ساندويشة وهمية . ولكن لم يرق لي أن أدعهما تظنان أنني لم أكن بدون مورد تماماً . لقد أقنعتهما مرة أو مرتين أنني قد تناولت لحماً مشوياً ، وقد فعلت ذلك لمجرد إثارتهما طبعاً (إذ ما الذي كنت اشتغله لأتناول شرحات اللحم في حين كانتا تقضيان الساعات جالستين في كافتيريا بانتظار من يقدم هما لقمة طعام ؟) .

ومن حين لآخر كنت ألقي عليهما التحية قائلاً :

ـ «هل هكذا تدبرتما أمركما بشيء تأكلانه ؟» كان هذا السؤال بحد ذاته يسبب لهما الإرباك دائماً ، فأقول لهما :

ـ «كنت أظن أنكما تمران بمجاعة» . فتسارعان إلى أعلامي بأن الجوع لم يكن يهمهما في شيء . وكانتا متأكدتين من عدم وجود أي مبرر للجوع من ناحيتي ، وأنني قد فعلت ذلك لمجرد إغاظتهما . فلو كانتا في مزاج طيب لعملتا على تضخيم الموضوع . ما هذه الشيطنة الجديدة التي كنت أخطط لها ؟ هل كنت قد شاهدت كرونسكي مؤخراً ؟ ثم يبدأ الحديث الضبابي حول

الأصدقاء الجدد والحانات المكتشفة والسفرات الجانبية إلى هارلم ، والستوديو الذي كانت ستاسيا بصدد استئجاره... إلى آخر ما هناك . ولقد نسيتا أن تحكيا لي عن صديق ستاسيا ، الشاعر بارلي ، الذي كانتا قد عرجتا عليه في الليلة المنصرمة .

في إحدى السهرات دأبت ستاسيا على استذكار الأحداث الماضية . وقد كانت هذه الذكريات حقيقية وصادقة حسبما استنتجت فيما بعد . كانت ذكريات عن الأشجار التي كانت تستند إليها في ضوء القمر ، عن المليونير الشاذ الذي وقع في حبها بسبب ساقيها المشعرتين ، عن الفتاة الروسية التي حاولت أن تقيم معها علاقة حب ، والتي نبذتها بدورها نظراً لشدة فظاظتها . إضافة لكونها على علاقة مع امرأة متزوجة . ولذر الرماد في عيون الزوج كانت تعمد إلى السماح له بمضاجعتها دون أن تلاقي أية متعة في ذلك ، بل إنها كانت تستمتع بزوجته التي كانت تحبها ، وكانت تعتقد أن هذا بالضبط ما ينبغي فعله . قالت : « لا أدري لماذا أحكي لكما هذه الأشياء اللهم إلا... ؟ » وفجأة تذكرت السبب . إنه بارلي .

كان بارلي من صنف غريب . وهي لم تستطع أن تفهم سر الجاذبية التي كانت قائمة بينهما . فقد كان يدعي دائماً أنه يريد أن يبطحها ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . على أية حال ، لقد كان بارلي شاعراً جيداً ، وكانت متأكدة من ذلك . ومن حين لآخر ، حسب قولها ، كانت تعمد إلى نظم قصيدة في حضرته ، ثم تعلق على ذلك بقولها :

ـ « كان بمقدوري الاستمرار في الكتابة بينما كان هو يستمنيني » .

ثم تلتها بضحكات شبه مكبوتة .

ـ « ما رأيكم بذلك ؟ »

سارعت إلى الرد عليها بقولي :

ـ « يبدو ذلك وكأنه صفحات من كتاب كرافت إبينغ » . ثم تبع ذلك مناقشة مطولة حول مزايا كرافت ابينغ وفرويد وفوريل وشتيكل وفاينغر ،

لينتهي بملاحظة من ستاسيا مفادها أنهم جميعاً يرتدون قبعات عتيقة . ثم تساءلت قائلة :

ـ « هل تعرفان ما الذي سأفعله كرمى لكما ؟ سأدع صديقكما كرونسكي يعاينني »

ـ « ماذا تقصدين بأن يعاينك ؟ »

ـ « أن يعاين أعضائي »

ـ « كنت أظنك تقصدين رأسك »

ـ « بإمكانه أن يفعل ذلك أيضاً » قالت ذلك بكل برودة أعصاب .

ـ « وإذا لم يجد فيك علة تكونين عبارة عن منحرفة متعددة الوجوه ـ أليس كذلك ؟ »

لقد أبهجها هذا التعبير المستعار من فرويد إلى أقصى حد ، وأحبته ستاسيا كثيراً ، في الواقع ، وأقسمت بأنها سوف تضمنه في قصيدة تحمل نفس العنوان ، ونزولاً عند رغبتها تم استدعاء كرونسكي للقيام بالفحوصات اللازمة .

عندما وصل كان في مزاج طيب ، فقد كان يفرك كفيه ويطقطق أصابعه ، قال : « ما المشكلة هذه المرة ، يا سيد ميلر ؟ هل يوجد لديكم فازلين ؟ إنه عمل محرج . هذا إذا كنت أعرف شغلي . إنها ليست فكرة رديئة مع ذلك ؛ إذ أننا على الأقل سنعرف إن كانت خنثى أم لا . وربما قد نكتشف ذيلاً ضامراً » .

كانت ستاسيا قد نزعت بلوزتها وصارت تستعرض نهديها الجميلين ذوي الحلمتين المرجانيتين . قال كرونسكي وهو يمسدهما :

ـ « لا عيب فيهما ، والآن اخلعي البنطلون! »

هنا اعترضت ستاسيا بصوت عالٍ : « ليس هنا! »

قال كرونسكي : « أينما تشائين ، ليكن ذلك في التواليت »

قالت مونا : « لماذا لا تجري المعاينة في غرفتها ؟ فالأمر ليس عملية عرض واستعراض »

قال كرونسكي وقد رمقهما بنظرة قذرة :

ـ « لا ؟ لقد خطرت ببالي تلك الفكرة »

ثم مضى إلى الغرفة المجاورة ليحضر حقيبته السوداء . قال لي :

ـ « لجعل الأمور أكثر رسمية جلبت معي أدواتي مباشرة »

صاحت مونا : « إنك لن تسبب لها الأذى ؟ »

فرد عليها : « لا ، إلا إذا قاومت ـ هل وجدتم الفازلين ؟ إذا لم يوجد الغازلين فليكن زيت الزيتون أو الزبدة »

تجهم وجه ستاسيا ، فتساءلت قائلة :

ـ « وهل كل هذا ضروري ؟ »

قال كرونسكي : « هذا عائد لك وتبعاً لمدى حساسيتك . فإن استلقيتِ ساكنة وتصرفت من تلقاء ذاتك فلن تكون هناك أية صعوبة ، وإذا راق لي الأمر سأولج شيئاً آخر »

صاحت مونا : « لا ، لن تفعل ذلك ، لقد استدعيناك باعتبارك طبيباً . فنحن لسنا في ماخور » .

قال كرونسكي باستعلاء :

ـ « كان من الأفضل لكم لو كان بيتاً من بيوت الهوى لكانت على الأقل... تعالي تعالي... دعينا ننهي الأمر! »

أخذ ستاسيا من يدها وأدخلها إلى الغرفة الصغيرة المجاورة للتواليت . أرادت مونا أن ترافقها للاطمئنان عليها ، لكن كرونسكي لم يلق بالاً إلى ذلك »

قال كرونسكي : « هذه زيارة عمل » ثم فرك يديه بحرارة وقال :

ـ « أما بالنسبة لك يا سيد ميلر » وتوجه إليَّ بنظرة ملغوزة قائلاً :

ـ « لو كنت مكانك لعملت مشواراً صغيراً » فتوسلت مونا قائلة :

ـ « لا ، ابق! أنا لا أثق به »

وهكذا بقينا أنا ومونا نعد الخطو جيئة وذهاباً في الغرفة دون أن نتبادل كلمة واحدة . مرت خمس دقائق ثم عشر... وفجأة صدر زعيق حاد من الغرفة المجاورة :

ـ «النجدة! النجدة! إنه يغتصبني!»

اندفعنا إلى داخل الغرفة ، فتأكدنا من ذلك لدى رؤيتنا كرونسكي وقد انزل سرواله واحمر وجهه مثل الشمندر ، كان يحاول اعتلاءها .

فانقضت مونا عليه كالنمرة وسحبته عن السرير ، ثم انتفضت ستاسيا عن الفراش وقذفت بنفسها فوقه باطحة إياه أرضاً وطفقت تخرمشه وتلكمه بكل ما أوتيت من قوة . وقد وجد الشيطان الصغير نفسه مرتبكاً بشدة بفعل المفاجأة ، إذ وجد صعوبة في الدفاع عن نفسه . ولولا تدخلي أنا لاقتلعتا عينيه .

صرخت ستاسيا : «انت ابن قحبة!» وتبعتها مونا : «سادي!»

وهكذا حسبت أن صاحبة الدار ستنزل إلينا ومعها ساطور نظراً لتلك الضجة والجلبة . وأخيراً أفلت كرونسكي منهما ، وبدأ يترنح على قدميه وسرواله ما زال عند كعبيه ، فقال : «لماذا هذا الشجار ؟»

ـ «إنها طبيعية كما كنت أتوقع ، في الواقع إنها طبيعية أكثر مما يجب . وهذا بالضبط ما أثارني . ما العيب في ذلك ؟»

فقلت له بنبرة إيقاعية منقلاً نظراتي من واحدة إلى أخرى :

ـ «يه ، ما العيب في ذلك ؟»

فصاحتا : ـ «اقذفه من هنا!»

قال كرونسكي وقد أعطى صوته نكهة مهدئة :

ـ «ترويا ، هونا عليكما!» ، «لقد طلبتما مني أن أعاينها ، وكنتما تعرفان أن فيها عيباً جسدياً . أنا أعتقد أن رأسها هو الذي يحتاج إلى المعاينة وليست أعضاؤها . وبإمكاني أن أقوم بذلك أيضاً ، لكن ذلك يتطلب وقتاً . وما الذي تريدون مني أن ابرهنه ؟ أجيبوا على ذلك إن كنتم قادرين! هل تودون معرفة شيء ما بحد ذاته ؟ لقد تمكنت من حبسكم أنتم الثلاثة» .

ثم أطبق أصابعه في وجوهنا وقال : «هكذا» ثم عاود إطباق أصابعه .

ـ «من أجل ماذا ؟ فساد أخلاقي . هذا كل ما في الأمر . لم تبق لكم ساق تقفون عليها . ولا واحد منكم»

صمت لحظة ليرى وقع ذلك علينا أو أي رد فعل يصدر عنا .

ـ « أنا لست حقيراً إلى درجة تجعلني أقوم بفعلة كهذه ؛ فأنا صديق طيب أكثر من اللزوم ـ ألست كذلك يا سيد ميلر ؟ ولكن لا تحاولوا أن ترموني خارجاً بسبب قيامي بالدور على أكمل وجه »

كانت ستاسيا واقفة عارية ، متخشبة ، وسروالها الداخلي على ذراعها ، وأخيراً صارت شبه صاحية وبدأت تنزلق في بنطلونها . وبينما هي تقوم بذلك انزلقت قدمها فسقطت أرضاً . اندفعت مونا فوراً لنجدتها لكي لا تقع جانباً . صاحت ستاسيا :

ـ « دعوني وحدي! بإمكاني أن أنجد نفسي ، فأنا لست طفلة »

ثم نهضت عن الأرض ووقفت منتصبة للحظة ، وأحنت رأسها إلى الأمام وصارت تنظر إلى نفسها وفي أعضائها الجنسية بالذات ، ثم انفجرت ضاحكة ، في فورة ضحك جنونية . قالت وهي لا تزال تضحك بشدة :

ـ « هكذا ، إذاً ، أنا طبيعية ، ما هذه النكتة . طبيعية بسبب وجود ثقب كبير يكفي لإدخال شيء ما فيه . هاتوا ، اعطوني شمعة وسوف أريكم كم أنا طبيعية »

ثم بدأت بأداء أكثر الإيماءات دعارة وصارت تلوي حوضها وتتلوى وكأنها في قمة الرعشة الجنسية . صاحت :

ـ « شمعة! هاتوا واحدة كبيرة ، ثخينة وسوداء! سأريكم كم أنا طبيعية »

قال كرونسكي بحدة :

ـ « نعم ، كفي عن ذلك! لا حاجة بك لإجراء استعراض أمامنا » .

بدت كلمة (استعراض) وحدها وكأنها تتملقها أكثر من غيرها فصاحت قائلة :

ـ « هذا هو استعراضي . إنه مجاني هذه المرة ؛ إذ جرت العادة أن أقبض مالاً مقابل أن أجعل نفسي حمارة ـ أليس كذلك ؟ » والتفتت نحو مونا وهمست : « أليس كذلك ؟ أو هل أخبرتهما كيف نؤمن جمع النقود ؟ »

فتوسلت إليها مونا :

ـ « أرجوك ، ستاسيا ، أرجوك! » وامتلأت عيناها بالدموع .

لم يكن هناك من شيء يمكنه إيقاف ستاسيا . انتزعت شمعة من على المكتب الصقتها بين فخذيها وصارت تمايل حوضها باهتياج شديد ، ثم صرخت قائلة :

ـ « ألا يستحق هذا خمسين دولاراً ؟ من يدفع أكثر سأدعه يمصني ، فأنا لا أحب المص بأي شكل من الأشكال ، وحتى لو كان القائم بالمص شاذاً »

هنا صاحت مونا قائلة :

ـ « اسكتي! اسكتي! سأهرب بعيداً من هنا! »

هدأت قليلاً ، فسقطت الشمعة على الأرض ، في هذه اللحظة ارتسمت على محياها تعابير جديدة . وبينما كانت ترتدي بلوزتها بهدوء بالغ ، وتوجهت إليَّ قائلة :

ـ « ها أنت ترى ، يا قال ، إنْ كان لا بد من وجود إنسان يتعرض للأذى أو الإذلال فهو أنا وليس زوجتك العزيزة . أنا لا أمتلك حساً أخلاقياً لا أملك سوى الحب فقط ، وإذا احتجت إلى المال فأنا مستعدة دائماً لتأدية استعراض جديد . وبما أنني حمقاء فلا يهمني هذا الأمر في شيء » .

صمتت قليلاً ثم التفتت إلى خزانة الملابس في الزاوية الأخرى من الغرفة ثم فتحت درجاً وسحبت منه مغلفاً : « هل ترى هذا ؟ » قالت ذلك وهي تلوح بالمغلف في الهواء . « إن فيه شيكاً قد أرسله لي حراسي وهو يكفيني لدفع أجرة الشهر القادم » ثم بادرت إلى تمزيق المغلف إلى نتف صغيرة وهي تقول : « ولكننا لا نحتاج إلى ذاك النوع من المال... ـ صحيح ؟ نحن نعرف كيف نجمع نقودنا بأنفسنا ـ بالقيام باستعراضات ، بالتظاهر بأننا سحاقيات ، سحاقيات مزيفات ، لقد مرضت من ذلك . لماذا لا نتظاهر بأننا مجرد كائنات بشرية ؟ »

هنا تطوع كرونسكي للرد عليها :

- «أنت كائن بشري طبعاً . إنك اكثر الكائنات البشرية ندرة . في مكان ما وعلى امتداد الزمن حدث أن تعرضت للفساد - ولكن كيف حصل هذا - فذاك ما لا أعرفه . والأنكى من ذلك أنني لا أرغب في معرفته ؛ إذ لو أنني فكرت في أنك ستصغين إليَّ لألححت عليك بالخروج من هنا وترك هذين الاثنين» . ثم رمقني ومونا بنظرة احتقار وقال :

- «اتركيهما يحلان مشاكلهما بنفسيهما ، فهما ليسا بحاجة إليك ، وأنت بالتأكيد لست بحاجة إليهما . أنت لا تنتمين إلى مكان مثل نيويورك . إنك بصراحة لا تليقين بأي مكان... ولكن ما أريد قوله هو ما يلي :

لقد أتيت هنا كصديق . أنت بحاجة إلى صديق . أما بالنسبة لهذين الاثنين فهما لا يعرفان معنى هذه الكلمة . ربما كنت الأكثر صحة وعافية من بين الثلاثة... كما أن لديك شيئاً من العبقرية ، إضافة إلى ذلك...»

ظننت أنه سيتابع إلى ما لا نهاية . وفجأة تذكر بصوت عالٍ انه سيقوم بزيارة ضرورية ، ثم قرر الرحيل بشكل مفاجئ . في وقت متأخر من تلك الليلة - حيث قررنا الخروج من البيت - حدث شيء مثير للفضول . فبعد العشاء تماماً وفي معمعمان النقاشات المثيرة نفذت السجائر . كانت قد طلبت مني أن أفتش في حقيبتها ؛ إذ درجت العادة على أن توجد سيجارة منسية في قعر الحقيبة . نهضت من مكاني وذهبت إلى خزانة الملابس حيث كانت الحقيبة ، ولما فتحتها لاحظت وجود مغلف مرسل الى مونا بخط يد ستاسيا وفي خلال ثانية كانت مونا واقفة بجانبي . ولو لم تبدِ ذاك الذعر لكنت قد تجاهلت وجود المغلف . وبما أنها عجزت عن ضبط نفسها ، فقد خطفت المغلف من يدي ، فقمت بدوري بنتشه من يدها . ثم قامت بمحاولة أخرى لخطفه فحصلت مشادة بيننا أدت إلى تمزيق المغلف وسقوطه على الأرض . فسارعت ستاسيا الى التقاطه وتسليمه إلى مونا . قلت لهما مكرراً بدون وعي كلمات كرونسكي : «لماذا كل هذا الشجار ؟»

فأجابتا معاً وبآن واحد : «هذا ليس شغلك» .

لم أقل شيئاً . لكن فضولي ازداد إثارة إلى أبعد حد ، مما خلق لدي حدساً بأن الرسالة ستنكشف فيما بعد . فكان من الأفضل أن اتظاهر بعدم الإكتراث بالموضوع . في نفس تلك الليلة ، وبينما كنت ذاهباً إلى التواليت اكتشفت نتفاً من المغلف عائمة في حفرة المرحاض ، فضحكت بيني وبين نفسي وأنا أقول : « ما هذه الطريقة السخيفة لإخباري بأن الرسالة قد أتلفت! »

ولم آخذ الأمر ببساطة ، فعمدت إلى تجميع نتف المغلف من الحفرة وصرت أتفحصها بعناية واهتمام . لكنني لم أنجح في إلصاق أي جزء من الرسالة بأي من النتف الملتقطة ، فتبين لي أن الرسالة بحد ذاتها قد تم الاحتفاظ بها ، أي أنها قد أخفيت في مكان ما ولا داعي للتفكير بالعثور عليها .

بعد بضعة أيام التقطت نذراً يسيراً من المعلومات كان قد سقط سهواً في سياق نقاش حاد دار بين ستاسيا ومونا . كانتا تجلسان في غرفة ستاسيا حينما كانتا تلجأان لمناقشة القضايا السرية . وبدون أن تعلما بوجودي في البيت أو ربما بفعل الانفعال الشديد الذي أدى بهما إلى التحدث بصوت مرتفع تسربت منهما الكلمات التي لم يكن من المفروض أن تصل إلى مسامعي .

كانت مونا تشتم ستاسيا لأنها كانت تبعثر نقودها مثل الحمقاء . فتساءلت : أية نقود ؟ هل وقعت على ثروة ؟ أما ما جعل مونا تغضب ظاهرياً ، فهو أن ستاسيا قد أعطت شخصاً أبله تافهاً ـ لم أتمكن من التقاط اسمه ـ مبلغ ألف دولار . كانت تلح عليها للقيام بمحاولة لكي تستعيد قسماً من المبلغ على الأقل . بقيت ستاسيا تردد أنها لن تفكر في الموضوع ، وأنها لم تكن تأبه بما سيفعل الأبله بالنقود . ثم سمعت مونا تقول لها :

ـ « إذا لم تكوني حذرة فإنك سوف تتعرضين للاعتداء ذات ليلة على قارعة الطريق » . فردت ستاسيا ببراءة :

ـ « سيخيب أملهم ؛ إذ لم يعد معي شيء » .

ـ « بالطبع ، لا ، حتى ولا سنت أحمر واحد » .

ـ « أنت مجنونة » .

- «أنا أعرف ذلك ، ولكن ما فائدة المال إن لم يكن لأجل البعثرة» .

وهكذا سمعت ما يكفي ، فقررت القيام بمشوار ، وعندما رجعت لم أجد مونا في البيت . فتساءلت ، من باب الفضول وليس المفاجأة :

- « إلى أين ذهبت ؟ » وبدلاً من الجواب سمعت نخرة .

- « وهل كانت غاضبة ؟ » فتبعتها بنخرة أخرى وهي تقول :

- « اعتقد ذلك ، لا تقلق ، ستعود » .

وكان اسلوبها في الإجابة ينم عن سرور ضمني ، فقد درجت العادة إما أن تكون منزعجة أو خارجة للبحث عن مونا .

سألتني : « هل أحضر لك القهوة ؟ »

كانت تلك هي المرة الأولى التي تبدي فيها اقتراحاً من هذا النوع .

- « لم لا ؟ » قلت لها ذلك محاولاً أن أبدو أنيساً قدر المستطاع . ثم جلست قبالتها إلى الطاولة ، لكنها صممت على أن تشرب قهوتها واقفة .

قالت ستاسيا متجاوزة كل المقدمات :

- « إنها امرأة غريبة - إليس كذلك ؟ ما الذي تعرفه عنها حقاً ؟ هل قابلت اخوتها أو أمها أو أختها ؟ إنها تدعي أن أختها أجمل منها بكثير ، هل تصدق ذلك ؟ ولكنها تكرهها - لماذا ؟ إنها تحكي لك كثيراً ثم تتركك معلقاً . هل لاحظت أن كل شيء يتحول إلى لغز ؟ »

صمتت لحظة لكي تحتسي قهوتها . ثم تابعت :

- « لدينا الكثير مما نتحدث عنه إذا سنحت لنا الفرصة . ربما استطعنا فيما بيننا أن نستذكر الأشياء سوية »

كنت على وشك أن أعلق بأنه من غير المفيد حتى أن نحاول - ولكنها استأنفت مونولوجها :

- « لقد شاهدتها على خشبة المسرح - كما أظن ؟ »

هززت رأسي بالأبجاب .

- « هل تعرف لماذا أسأل ؟ لأنها لا تعجبني كممثلة ، ولا ككاتبة أيضاً .

إذ لا شيء يناسب شيئاً فيها . كل شيء هو عبارة عن إختلاق كبير ـ بما في ذلك هي نفسها . الشيء الوحيد الحقيقي هو زيفها وحبها لك»

صدمتني العبارة الأخيرة فقلت لها :

ـ «هل تعتقدين ذلك فعلاً ؟»

فردت قائلة : «تعتقدين ذلك ؟ لولاك لما كان هناك من مبرر لوجودها... فأنت حياتها...»

ـ «وأنت ؟ ما هو موقعك بالنسبة لها ؟»

فردت عليَّ بإبتسامة غريبة وهي تقول :

ـ «أنا ؟ أنا مجرد جانب آخر من الوهم الذي تخلقه حول نفسها ـ أو ربما كنت عبارة عن المرآة التي تلقي من خلالها نظرة خاطفة على ذاتها الحقيقية من حين لآخر ـ وهي ذات مشوهة بالطبع» .

ثم حولت الحديث نحو موضوع اكثر إلفة :

ـ «لماذا لا تجعلها تكف عن ابتزاز الرجال سعياً وراء الهدايا والمال والذهب ؛ إذ لا حاجة لها به . هذا فضلاً عن الطريقة المقرفة التي تمارس بها هذا الابتزاز . ولاأدري ما الذي يدفعها لفعل ذلك ، فليس ما تسعى إليه هو المال وحده . المال بالنسبة لها مجرد ذريعة للحصول على شيء آخر . تبدو كأنها تبحث عن إنسان لمجرد إثارة الاهتمام به . وفي اللحظة التي يظهر أحدهم علامة من علامات الاهتمام الحقيقي تعمد إلى إذلاله وإهانته . حتى ريكاردو البائس كان لا بد من تعذيبه ، لقد سببت له الإرباك والمضايقة حتى صار يتلوي مثل الحنكليس . ولا بد لنا من أن نفعل شيئاً ، أنت وأنا ، ولا بد من أيقاف ذلك ثم تابعت تقول :

ـ «لو أنك وجدت عملاً لما كان عليها أن تذهب كل ليلة إلى ذلك المحل المرعب وتصغي إلى كل تلك المخلوقات السفيهة التي تسترق النظر إليها استراقاً . ما الذي يمنعك ؟ هل تخاف من كونها تعيش حياة تعيسة ومملة ؟ أو ربما كنت تظن أنني وحدي التي أضللها ؟ هل تعتقد ذلك ؟ هل تظن أنني أحب

هذا النمط من الحياة ؟ لا أهمية عندي لما تظنه هي بي ـ المهم هو أن تتأكد من أن لا دخل لي في كل ذلك» . ثم صمتت عن الكلام .

ـ «لماذا لا تتكلم ؟ قل شيئاً!»

وبينما كنت على وشك أن أتفوه بالإجابة ، دخلت مونا وفي يدها باقة بنفسج . وهكذا سادت فترة من الهدنة .

فجأة انقلب الجو وساد الهدوء والانسجام إلى درجة أنهما صارتا بمحاذاة بعضهما البعض . أخرجت مونا ثيابها المفتوقة لكي ترتقها ، بينما أخرجت ستاسيا علبة الرسم . وقد حدث ذلك بإتقان كما لو أنه يتم على خشبة المسرح .

في أقل من بضع دقائق كانت ستاسيا قد رسمت صورة وجهية (بورتريه) واضحة المعالم على الجدار الذي كان بمواجهتي . كانت عبارة عن صورة موظف صيني متلفع بجاكيت صينية زرقاء . ظهرت في الصورة تقاطيع وجهية صارمة حكيمة يفترض أن وجهي كان يوحي بها . فتنت مونا باللوحة فأمرتني بنبرة أمومية أن أجلس ساكناً وأن أكون لطيفاً مع ستاسيا . كانت دائماً تعرف أن لا بد سيأتي يوم نتعرف فيه على بعضنا بعضاً ، وأن نصبح صديقين حميمين . وهكذا تم الأمر . كانت سعيدة جداً لدرجة أنها في غمرة الإثارة دلقت محتويات حقيبتها على الطاولة لتبحث عن سيجارة فسقطت منها الرسالة . وأمام ذهولها التقطت الرسالة وسلمتها إليها دون أية محاولة لقراءة أي سطر منها .

قالت ستاسيا : «لماذا لا تدعيه يقرأها ؟»

قالت مونا : «سأدعه ، ولكن ليس الآن ـ لا أريد أن أفسد هذه اللحظات» .

قالت ستاسيا : «ليس فيها ما يدعو للخجل» .

قالت مونا : «اعرف ذلك» .

قلت : «انسي الموضوع ـ لم يعد عندي فضول لذلك»

قالت مونا : «أنتما رائعان ، أنتما الاثنان! كيف يسع المرء ألا يحبكما ؟ إني احبكما بحرارة» .

إزاء هذا الجيشان العاطفي تحولت ستاسيا إلى مزاج شيطاني فأجابت :

ـ «أخبرينا ، من تحبين أكثر ؟ »

ودونما أدنى تردد جاء الرد :

ـ «ربما لم أكن قادرة على حب أحدكما أكثر من الآخر . كلما زاد حبي لك ، يا ڤال ، زاد بالمقابل حبي لك يا ستاسيا» .

قالت ستاسيا وهي تلتقط فرشاتها لمتابعة العمل على اللوحة :

ـ «ثمة جواب لأجلك»

ساد الصمت دقائق قليلة ، ثم تكلمت مونا قائلة :

ـ «عم كنتما تتحدثان عندما كنت خارج البيت ؟ »

قالت ستاسيا : «عنك ، طبعاً ، أليس كذلك يا ڤال ؟ »

ـ «نعم ، كنا نقول كم أنت مخلوقة رائعة . الشيء الوحيد الذي لم نفهمه هو لماذا تحاولين إخفاء الأمور عنا »

اتخذت لنفسها على الفور مظهراً عدوانياً ، وقالت :

ـ «أية أمور ؟ ماذا تقصدان ؟ »

قالت ستاسيا وهي تطوي الفرشاة :

ـ «دعينا ندخل في صلب الموضوع ، ولكن ينبغي علينا أن نجلس فوراً ، نحن الثلاثة ، ونتكلم مباشرة ـ ما رأيكما ؟ » ثم التفتت نحو الوراء ونظرت إلى مونا وجهاً لوجه .

قالت مونا ببرود :ـ «ليس عندي اعتراض على ذلك» .

قالت ستاسيا :ـ «انظر ، إنها منزعجة» .

قلت :ـ « إنها لا تفهم»

ـ «رجعنا إلى الإغاظات ـ وما الذي لا أفهمه ؟ ما هو هذا الشيء ؟ ما الذي تبغيان الوصول إليه ـ انتما الاثنان ؟ »

ـ «نحن في الواقع لم يكن لدينا الكثير من الكلام لنقوله اثناء غيابك . كنا نتحدث عن الحقيقة والصدق بشكل أساسي . فستاسيا ، كما تعلمين ، إنسانة صادقة جداً» .

أرتسمت على شفتي مونا ابتسامة فاترة ، وكانت على وشك أن تقول شيئاً ، لكني قاطعتها قائلاً :

ـ «لا شيء يدعو للقلق . فنحن لسنا بصدد إخضاعك للتحقيق و الاستجواب» .

قالت ستاسيا : «كل ما نريده هو أن نرى إلى أي حد يمكنك أن تكوني نزيهة» .

ـ «أنتما تتكلمان كما لو كنت ألعب معكما لعبة ما» .

قالت ستاسيا : «بالضبط»

ـ «هكذا إذاً! اترككما وحدكما دقائق قليلة فتقومان بطعني من الخلف . ما الذي فعلته لأستحق منكما مثل هذه المعاملة ؟»

عند هذه النقطة فقدت تسلسل النقاش .كل ما كان بإمكاني أن أفكر به هو الملاحظة الأخيرة : «ما الذي فعلته لأستحق منكما مثل هذه المعاملة ؟» إذ كانت هي العبارة المفضلة لدى أمي عندما تكون منزعجة . فقد كان من عادتها أن ترفق هذه العبارة بإرجاع رأسها إلى الخلف كما لو أنها توجه كلماتها نحو العلي القدير . عندما سمعتها لأول مرة ـ كنت يومها طفلاً ـ ملأتني خوفاً وتقززاً . إن ما أثار امتعاضي هو رنة صوتها وليس كلماتها بحد ذاتها . ما هذا الاعتداد بالنفس! ما هذا الإشفاق على الذات ـ كما لو أن الله قد خصها بالعقاب الجائر من دون كافة المخلوقات . أما وقد سمعتها من شفتي مونا ، فقد أحسست وكأن الأرض قد انفتحت تحت قدمي .

قلت في نفسي :

ـ «إذاً أنت مذنبة ، متهمة بشيء لم أحاول تحديده . مذنبة ، هذا كل ما الأمر» .

من حين لآخر كان بارلي يتردد على البيت في فترات بعد الظهر ، يحبس نفسه في غرفة ستاسيا ، يبيض عدة بيضات (قصائد) ثم يولي هارباً من البيت . وفي كل ومرة كان يطلق أصواتاً تنبعث من غرفة النوم . صرخات حيوانية يمتزج فيها الخوف بالنشوة ، كما لو أنه قد زارنا قط من القطط الشاردة في الأزقة .

في إحدى المرات جاء أولريك ينادي ، لكنه وجد الجو مكفهراً ؛ فعرفت أنه لن يعاود الزيارة . كان يتكلم كما لو كان يمر بطور آخر . كان موقفه يتلخص بعبارة (عندما تخرج من النفق ابحث عني!) وكان شديد التعقل لدرجة أنه لم يكن يفكر بالتعليق على ستاسيا . وكل ما صدر عنه هو عبارة : « إنها غريبة عجيبة هذه الستاسيا! »

قررت ذات يوم ، من قبيل التمادي في التودد ، أن أجلب تذاكر لحضور عرض مسرحي . واتفقنا على أن نلتقي خارج المسرح . جاء المساء ، انتظرت بفارغ الصبر لمدة نصف ساعة بعد رفع الستارة ، لكن مونا لم تأت . ومثل تلميذ مدرسة اشتريت باقة بنفسج لأقدمها لها . وقع بصري على خيالي في واجهة المحل والبنفسجات في يدي . شعرت فجأة بمدى الحماقة التي ارتكبتها ، فرميت البنفسجات على الأرض ومشيت مبتعداً .

عند الزاوية استدرت لألمح فتاة صغيرة قامت بالتقاط البنفسجات ورفعتها إلى منخريها وأخذت نفساً عميقاً ثم قذفتها بعيداً عنها .

عند وصولي إلى البيت لاحظت أن المصابيح كلها مشتعلة . وقفت في الخارج لبضع دقائق بسبب انزعاجي من قوة صوت الأغنية المنبعثة من الداخل . ولكن لا . كانتا وحدهما . وكانتا بالتأكيد بمعنويات عالية . كانت الأغنية التي كانتا تصدرانها من أعماق رئتيهما : (دعني اسميك الحبيب)

وعندما دخلت إلى البيت قلت لهما :

- « دعونا نغنيها مرة أخرى! » وصرنا نغني ثلاثتنا معاً :

- « دعني اسميك الحبيب ؛ أنا واقع في حبك... »

ثم عاودنا غناءها المرة تلو المرة... وفي المرة الأخيرة رفعت ذراعي متحمساً وهتفت قائلاً : «أين كنتِ ؟»

قالت مونا : «أين كنت ؟ ولماذا ؟ لقد كنت هنا ؟»

ـ «وموعدنا»

ـ «لم أظنك جاداً في ذلك ؟»

ـ «لم تظني ؟»

ثم ناولتها صفعة قوية على الوجه ، أو قل لكمة حقيقية .

ـ «يا عزيزتي ، في المرة القادمة سوف أجرك من ذيلك»

جلست إلى طاولة الكوريدور وصرت ألقي عليهما نظرةفاحصة ، بعد ذلك هدأ غضبي وانفعالي . قلت لها وأنا أنزع قبعتي :

ـ «لم أكن أقصد ضربك بهذه القسوة»

ـ «أنت مستهتر بشكل غير طبيعي هذه الليلة... ماذا جرى لك ؟»

ثم أخذتاني من يدي ورافقتاني إلى خلف المكان الذي تقبع فيه أحواض الغسيل .

قالت مونا وهي تشير إلى كومة من مشتريات البقالة :

ـ «كان عليَّ أن أتواجد هنا عند وصولهما ولم تكن هناك وسيلة لإبلاغك بذلك في حينه ، . هذا هو السبب في أنني لم ألاقك»

أقحمت يديها في الكومة وانتشلت زجاجة بنكتين . كانت ستاسيا قد انتقت بعض الكافيار الأسود والبسكويت . لم أشأ أن أسأل كيف حظيتا بهذه الغنائم لأن الجواب على ذلك سيرشح من تلقاء ذاته فيما بعد ، بل اكتفيت بالسؤال : «ألا يوجد نبيذ ؟»

ـ «نبيذ ؟»

بالطبع لقد كان النبيذ موجوداً ومن الضروب التي أحبها ، فهناك البوردو والراين والموسيل والشيانتي والبرغوندي... الخ...

قمنا بفتح زجاجة من نبيذ الراين وقطرميز السلمون وعلبة البسكويت

الانكليزي الفاخر ، ثم عاودنا جلوسنا إلى الطاولة .

قالت مونا : « ستاسيا حامل » وكأنها تقول : « ستاسيا اشترت فستاناً »

- « وهل هذا ما كنتما تحتفلان به ؟ »

- « بالطبع ، لا »

فالتفتُ إلى ستاسيا وقلت لها :

- « احكي لنا عن ذلك - كلي آذان صاغية »

فأحمرت خجلاً ونظرت بتشاؤم إلى مونا وقالت :

- « دعها تحكي لك بنفسها »

التفت إلى مونا وقلت : « حسناً ؟ »

- « إنها حكاية طويلة ، يا ڤال ، لكني سأحكيها لك باختصار . لقد هاجمتها شلة من (الزعران) في القرية واغتصبوها »

- « ... وها ؟ وكم واحداً كانوا ؟ »

- « كانوا أربعة . هل تذكر تلك الليلة التي لم نبت فيها في البيت ؟ تلك كانت ليلة الحادث »

فقلت لستاسيا :

- « إذاً فأنت لا تعرفين من هو الأب ؟ »

رددتا بصوت واحد :

- « الأب ؟ نحن لسنا قلقتين بصدد الأب »

قلت لهما : « سأكون سعيداً بتربية ذاك المسخ . كل ما أحتاج إليه هو أن أتعلم كيفية انتاج الحليب »

قالت مونا : « لقد تحدثنا إلى كرونسكي ، وقد وعدنا بالاهتمام بالموضوع . ولكنه يريد أن يعاينها أولاً »

- « مرة ثانية ؟ »

- « لقد أكد على ذلك »

- « هل أنت متأكدة ؟ »

ـ «ستاسيا متأكدة من الحمل ، فقد انقطعت لديها العادة الشهرية» .

قلت لهم : «هذا لا يعني شيئاً . لا بد من دليل أفضل من هذا»

فانبرت ستاسيا : «لقد صار ثدياي ثقيلين»

ثم فكت ازرار بلوزتها وأخرجت نهدها . قالت :

ـ «انظر!» ثم راحت تعصره بلطف ، فانبجست منه قطرة أو قطرتان من مادة تشبه الصديد الأصفر .

قالت : «هذا حليب»

قلت : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قالت : «لقد ذقته»

وطلبتُ من مونا أن تضغط لها ثديها وأن ترى ما الذي يحدث ، لكنها رفضت ذلك متذرعة بأن ذلك يشكل إحراجاً لها .

ـ «إحراج ؟» . «تجلسين وساقيك مفتوحتين أو متصالبتين وتعرضين علينا كل ما عندك وتمانعين في إخراج نهديك . هذا ليس حرجاً ـ هذا شذوذ وانحراف» .

وهنا انفجرت ستاسيا بضحكة مجلجلة وقالت :

ـ «صحيح . ما العيب في أن ترينا ثدييك ؟»

قالت مونا : «أنت الحامل ولست أنا»

ـ «متى يأتي كرونسكي ؟»

ـ «غداً» .

سكبت لنفسي كأساً آخر من النبيذ ورفعته إلى الأعلى قائلاً :

ـ «نخب المولود القادم!» ثم أخفضت صوتي وسألتهما إن كانتا قد أبلغتا البوليس . تجاهلتا الموضوع كما لو كانتا تقولان لي أن أصمت ، وأعلنتا أنهما تخططان للذهاب إلى المسرح قريباً ، وأنه من دواعي سرورهما أن أرافقهما إن كنت أرغب في ذلك .

سألت : «وماذا سنشاهد ؟»

قالت ستاسيا : «الأسيرة . إنها مسرحية فرنسية ، الكل يتحدث عنها» .

في أثناء النقاش كانت ستاسيا تقوم بقص أظافرها . بعد أن أنهيت المهمة اقترحت عليها أن أمشط لها شعرها فسُرَّت بذلك . وبينما كنت أمشط شعرها كانت تقرأ بصوت عالٍ مقاطع من (قارب السكارى) . وبينما كنت أصغي إليها بمتعة أكيدة قفزت إلى غرفتها وأحضرت كتاب (سيرة رامبو) . وكان الكتاب عبارة عن ترجمة كاري Carre' لكتاب رامبو (فصل في الجحيم) . ولو لم تشأ الظروف أن أعارض ذلك لأصبحت من المتعصبين لرامبو بعدئذ . ولا بد من القول أننا في الأغلب الأحيان كنا نمضي سهراتنا على هذا النحو ، أو نختمها بمثل هذه التعليقات...

اتخذت الأمور مساراً جدياً لدى وصول كرونسكي إلى البيت في اليوم التالي ؛ إن تبين بالمعاينة أن النتيجة سلبية . في بعض الأحيان كان علي أن ألغي كل المقدمات والفزلكات عند استضافتهما لصديق خاص جداً ـ لا سيما إن كان من أولئك المحسنين الذين يأتون محملين بالمواد التموينية ، أو ممن يتركون شيكات مصرفية على الطاولة . وعندما تكونان في معمعة الحديث تنخرطان في حوار ملغوز أو تتبادلان التعليقات وتقومان بتدوينها على مرأى مني . أوقد تحبسان نفسيهما في غرفة ستاسيا وتستغرقان في حوار بنبرة هامسة إلى ما شاء الله . حتى القصائد التي تكتبها ستاسيا تصبح شيئاً فشيئاً عصية على الفهم . أو على الأقل تلك القصائد التي تود أن تريني أياها . إنه تأثير رامبو كما تقول هي . أو ربما بتأثير علبة التواليت التي لا تكف عن القرقرة .

من حين لآخر ، ومن باب الترويح عن النفس كان اوزيسكي يقوم بزيارتنا في البيت . كان قد اكتشف حانة ظريفة فوق دار كئيبة على بعد عدة بنايات من هنا . وكان علي أن أشرب معه قليلاً من البيرة إلى أن يمسح نظارتيه ويرتديهما ثم يبدأ بهرش رأسه . أحياناً كان يخطر ببالي أن أذهب إلى /هوبوكن/ ، فقد حاولت أثناء تجوالي وحدي أن أقنع نفسي بأنه مكان

مريح . أما /ويهاوكن/ فكان من الأماكن التي هجرها الله والتي اعتدت التردد عليها لمشاهدة عرض هزلي . المهم بالنسبة لي أي شيء يجعلني أهرب من جو الحضيض ، جو المعتوهين والصراخ المتواصل بأغاني الحب التي درجتا على غنائها بالروسية والألمانية وحتى باليبدية* ، والمسامرات الغريبة في غرفة ستاسيا والأكاذيب السافرة والحديث الكئيب عن المخدرات وجولات المصارعة . نعم ، والأنكى من ذلك أنهما كانتا من حين لآخر تمثلان جولة مصارعة على شرفي . هل كانت فعلاً مصارعة ؟ من الصعب قول ذلك .

في بعض الأحيان كنت أستعير الفرشاة وأرسم صورة كاريكاتورية لستاسيا في سبيل كسر هذه الرتابة . دائماً على الجدران . هكذا كانت ستاسيا تجيبني بلطف . في أحد الأيام رسمت جمجمة وعظمتين متصالبتين على باب غرفتها .

في اليوم التالي وجدت سكين جزار معلقة فوق الجمجمة والعظمتين . ذات يوم قامت بإخراج مسدس ذي قبضة مرصعة باللؤلؤ ، ثم علقت على ذلك بقولها :

ـ «يكفي في حال... أن...»

كانتا تتهمانني بالتسلل إلى غرفتها والتنقيب في أشيائها . في إحدى الأمسيات بينما كنت أتجول وحدي في القطاع البولندي من مانهاتن ولجت إلى غرفة حمام . وأشد ما أثار دهشتي هو أنني وجدت هناك كورلي وأحد أصدقائه من نادي الرماية . كان شاباً غريباً ـ وكان قد خرج لتوه من السجن . كان في قمة التأثر وكان مفعماً بالتخيلات .

أصرا على العودة برفقتي إلى البيت وقضاء سهرة هرج ومرج . عند دخولنا في الزقاق قمت بإعطاء كورلي وصفاً شاملاً لستاسيا . فكان رد فعله

---

* اليبدية : لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود في الاتحاد السوفييتي واوروبا الوسطى(م) .

كما لو أن الوضع مألوف تماماً النسبة له . علق على الموضوع ساخراً :

ـ «لا بد من فعل شيء ما»

كان صديقه من نفس الرأي على ما يبدو .

عندما أشعلت الأنوار وثبتا واقفتين .

قال كورلي : «لا بد أنها مخبولة»

تظاهر صديقه بأنه أجفل من اللوحات فلم يقوَ على رفع نظره عنها .

قال : «لقد سبق لي أن شاهدتها» ، يقصد في السجن .

قال كورلي : «أين تنام هي ؟»

أريتهما غرفتها التي كانت في حالة من الفوضى التامة . فالكتب والمناشف والثياب الداخلية وفتات الخبز مرمية على السرير وعلى الأرض .

قال صديق كورلي : «هراء! هراء! هراء واضح!»

في هذه الأثناء كان كورلي قد بدأ (يحوص ويلوص) ، فصار يتلهى بفتح الدرج بعد الآخر وسحب محتوياته ثم إعادة حشرها فيه .

سألته : «عم تبحث ؟»

نظر إليَّ وتنحنح ثم قال : «أنت لا تعرف»

في تلك اللحظة ثبت نظره في صندوق ثياب معلق في الزاوية تحت علبة التواليت .

ـ «ماذا هناك ؟»

هززت كتفي . قال : «دعنا نفتشه!» ثم قام بفك الكلابات ولكن الغطاء كان مقفلاً . التفت إلى صديقه وقال :

ـ «أين عدتك ؟ اشتغل ، اشتغل ، عندي إحساس بأننا سنجد شيئاً مثيراً»

وفي خلال لحظة كان صديقه قد خلع القفل . وبحركة عنيفة قاما برفع غطاء الصندوق . وكان أول ما وقعت عيوننا عليه هو صندوق حديدي صغير - كانت علبة مجوهرات... دون شك . لم تنفتح ، فاضطر صديقه لإخراج عدته .

لم يستغرق ذلك منه أكثر من لحظة حتى كان الصندوق مخلوعاً . وسط ركام من رسائل الغرام المرسلة من أصدقاء مجهولين ، اكتشفنا مذكرة كان من المفروض أنها قد سدت التواليت . وكان واضحاً أنها مكتوبة بخط مونا . كانت تبدأ بالكلمات التالية « يانس... حبيبي... »

قال كورلي : « احتفظ بها ، فقد تحتاجها فيما بعد . بدأ يعيد الرسائل الأخرى إلى العلبة ، ثم التفت إلى صديقه واقترح عليه أن يعيد القفل كما كان :

ـ « انظر إلى ذاك القفل الخاص بالصندوق واحرص على أن يعمل بشكل جيد لكي لا يشكو بحدوث شيء »

ثم وكأنهما زوج من الأيادي البارعة سارعا إلى اعادة الغرفة إلى حالة الفوضى الأصلية التي كانت عليها بحيث أنهما اعادا نتف الخبز إلى أماكنها .

وكانا يتجادلان لبضع دقائق حول ما إذا كان أحد الكتب الملقاة على الأرض مفتوحاً أو مغلقاً .

بينما كنا نغادر الغرفة أصر الشاب على أن الباب كان مغلقاً وليس مقفلاً .

قال كورلي : « ...! لن تتذكرا ذلك »

فأجاب قائلاً : « مجرد حدس ، فأنت لن تتذكر ما لم يكن عندك سبب لترك الباب نصف مفتوح . إذاً ، ما السبب الذي دفعها لذلك ؟ لا شيء . المسألة بسيطة »

قلت له : « إنها بسيطة أكثر مما يجب . فالمرء لا يتذكر الأشياء التافهة . دونما سبب أحياناً »

فكان رده على ذلك أن من يعيش في حالة من القرف والفوضى من المحتمل أن تكون له ذاكرة قوية .

قال : « خذ اللص مثلاً ، فهو يعرف مايفعله حتي عندما يرتكب خطأ ، إنه يحتفظ بتسلسل الأمور ؛ إذ يجب عليه ، أو لابد له من التفكير خارج نطاق الحظ . اسأل هذا الشقي! »

قال رفيقه : « إنه على حق . فالخطأ الذي ارتكبته هو أنني كنت حريصاً أكثر مما ينبغي »

أراد أن يحكي لي قصته ، لكنني ألححت عليهما بالذهاب . قلت له :

- « وفر قصتك للمرة القادمة! »

بينما كان كورلي يبحر في الشارع التفت نحوي ليخبرني أن باستطاعتي الاعتماد على مساعدته في أي وقت أشاء وقال :

- « سوف نثبتها » .

الفصل الخامس

تطور الأمر إلى ما يشبه رؤى متلاحقة في حلم كوكائيني تتابعت خيوطه مع قراءة البواطن وانكشاف الأكاذيب والمباريات مع اوزيسكي والتسكع المنفرد على طول الكورنيش ليلاً واللقاءات مع «الاساتذة» في المكتبة العامة ، والرسوم الجدارية والحوارات الثنائية في الظلام مع الذات الأخرى... وهكذا دواليك .

لم يبق شيء قادر على مفاجأتي ، حتى لو كان وصول سيارة الاسعاف ؛ إذ لا بد أن يكون قد خطر ببال أحدهم ، وليكن كورلي ـ أغلب الظن ـ أن يخلصني من ستاسيا . لحسن الحظ أنني كنت وحدي عندما توقفت سيارة الإسعاف . أخبرت السائق بأنه لا يوجد أي شخص مجنون على هذا العنوان . بدا عليه الانزعاج . لقد جاؤوا بناءً على اتصال هاتفي .

قلت لهما : «لقد اخطأتم العنوان» .

من حين لآخر ، كانت الشقيقتان الهولنديتان اللتان تملكان البناية تهبطان إلينا للإطمئنان علينا . لكنهما لم تكونا تتوقفان إلا لدقيقة أو دقيقتين . ولم أشاهدهما مرة إلا وكانتا متسختين ومشعثتين . كانت إحداهما ترتدي جورباً أزرق والأخرى قرنفلياً مقلماً بالأبيض بشكل حلزوني .

لنعد إلى مسرحية (الأسيرة) . فقد ذهبت لمشاهدتها من تلقاء نفسي

دون أن أدع أحداً يعلم بذلك . بعد اسبوع ذهبتا لمشاهدتها ثم عادتا تحملان البنفسج وتضجان بالغناء . أما أغنيتهما فكانت هذه المرة بعنوان /مجرد قبلة في الظلام/ .

ثم ، في إحدى الأمسيات ـ كيف حدث ذلك/ ذهبنا نحن الثلاثة لتناول الطعام في مطعم يوناني . وهناك أصيبتا بالإسهال الكلامي حول مسرحية /الأسيرة/ : كم هي رائعة ، وأنه ينبغي أن أشاهدها ولو مرة واحدة ؛ إذ قد يساعد ذلك على إغناء أفكاري . قلت لهما :

ـ «ولكنني شاهدتها منذ اسبوع» .

واحتدم النقاش حول مزايا المسرحية فتطور إلى معركة خطابية ، فقد فشلت في الاتفاق معهما حول كل ما شاهدته ، لأنني كنت أفسر كل شيء بطريقة مبتذلة . وفي معمعان النقاش أخرجت الرسالة التي وجدتها في علبة المجوهرات الصغيرة . وبغض النظر عن كونهما قد صدمتا أو أهينتا ، فقد هجمتا عليَّ بحقدٍ لا مثيل له ، وأطلقتا أقوى ما عندهما من عويل ونقمة بحيث أن المطعم برمته قد تحول إلى كتلة من الصخب والهياج ، مما اضطر الزبائن لأن يطلبوا منا ، دونما لباقة ، أن نغادر المطعم فوراً .

في اليوم التالي اقترحت مونا أن اصطحبها ذات ليلة خارج البيت بدون ستاسيا وذلك من قبيل الترضية . فاعترضت في البداية ، لكنها أصرت على ذلك . فكرت أنه ربما كان لديها سبب خاص بها ستبوح به في الوقت المناسب . وهكذا وافقت على القيام بذلك في الليلة التالية .

جاء المساء . وبينما كنا على وشك أن نغادر البيت صارت مترددة في ذلك . في الواقع ، كنت قد وبختها بخصوص مظهرها : أحمر الشفاه ، الجفنين الخضراوين ، الخدين المطليين بالمساحيق البيضاء ، الكعبين العاليين ، التنورة التي تصل إلى ما فوق الركبة . وفوق كل ذلك كانت الدمية الصغيرة التي تمثل الكونت بروغا القميء ذا النظرة الخبيثة ، تتدلى على صدرها والتي دأبت مونا على حملها .

قلت لها : «ليس هكذا... بحق المولى!»

- «لماذا ؟»

- «لأن... لعنة الله... لا...»

أعطت الدمية لستاسيا وخلعت كعبيها وجلست مطرقة الرأس . لقد علمتني التجربة أن معني ذلك إلغاء السهرة . على كلٍ ، لقد فوجئت بستاسيا تقبل علينا وتطوقنا بذراعيها... مثل أخت كبرى تماماً - وتتوسل إلينا ألا نتشاجر .

قالت : «اذهبا! اذهبا وروِّحا عن نفسيكما . سأتولى تنظيف البيت» .

وبينما كنا نهرول خارجين بقيت تصيح بنا :

- «اقضيا وقتاً طيباً! متعا نفسيكما!»

كانت انطلاقة واهية ، لكننا كنا قد قررنا اجتيازها . وبينما كنا نحث الخطى

- لماذا ؟ إلى أين كنا مندفعين ؟ - كنت أشعر أنني على وشك الانفجار ، لكنني لم أنبس بكلمة واحدة ؛ فقد كنت معقود اللسان . هاهنا نتدافع متشابكي الأذرع «لنمتع نفسينا» ولكن بدون شيء محدد ومخطط له . كانت مجرد نزهة لشم الهواء ؟

تأكدنا في الحال أننا قد سلكنا الطريق الفرعي . دخلنا ، انتظرنا قطاراً ، صعدنا وجلسنا ، وحتى هذه اللحظة دون أن نتبادل كلمة واحدة . لدى وصول القطار إلى ساحة (تايمز) نهضنا من مقعدينا . ومثل إنسانين آليين مولَّفين على موجة واحدة قمنا بهبوط سلم القطار . كنا نتقدم غريزياً . وكان الناس يتوقفون عن المشي ليتفرجوا علينا ، حيث كنا نتظاهر بعدم الاكتراث بهم .

أخيراً وصلنا أمام محل تشين لي فسألتني :

- «هل سنصعد ؟» هززت رأسي .

ها هي تتجه مباشرة إلى نفس الطاولة التي كنا قد حجزناها لأول مرة منذ ألف عام . في اللحظة التي قدم لنا الطعام فيها انحلت عقدة لسانها وصار

طليقاً . كل شيء صار عرضة للاستذكار والتذكر : الطعام الذي تناولناه ، الطريقة التي كنا نتقابل بها ، الأنغام التي كنا نسمعها ، الأشياء التي قلناها لبعضنا ، وبدون إغفال شذرة واحدة من التفاصيل .

بينما كانت الذكريات تتوارد ، وجدنا أنفسنا نغرق في جوٍ عاطفي شيئاً فشيئاً :

ـ «وقعنا في الغرام مرة أخرى... لم نكن نريد أن . ـ وما الذي سأفعله ؟»

تماماً . كما لو أن شيئاً لم يحصل بيننا ؛ لا ستاسيا ، لا حياة الأقبية ولا المشاحنات . مجرد اثنين ـ زوج من العصافير الداجنة في حياة مستمرة أبدية . كان ذلك مجرد (بروڤة) باللباس الكامل . وغداً سوف نمثل أدوارنا في بيت (موضَب) . لو سألت أيهما هو الواقع الحقيقي ؛ هذا الحلم الغرامي ، هذه الهدهدة أم تلك الدراما المصفحة بالنحاس ؛ لأجبت من فوري قائلاً :

ـ «هذا ، هذا هو!»

الحلم والواقع ـ هل هما قابلان للتبادل فيما بينهما ؟ لقد تجاوزنا ذواتنا ، فأطلقنا العنان للساننا وصرنا ننظر إلى بعضنا بعيون جديدة ، بعيون أكثر جوعاً ، أكثر نهماً من ذي قبل ، عيون مؤمنة واعدة ، كما لو كانت ساعتنا الأخيرة على وجه الأرض . أخيراً وجد كل منا الآخر ، فهم كل منا الآخر ، وأحب كل منا الآخر إلى الأبد . وبينما نحن في غمرة النشوة والدوار بفعل اهتياجات السعادة اللا متناهية ، غادرنا المحل متأبطين أذرع بعضنا وبدأنا نتجول في الشوارع . عندها لم يتوقف أحد لكي يتفرج علينا .

جلسنا في مقهى برازيلي حيث استأنفنا حوارنا . هنا صار التيار يبدي علائم التذبذب . ففي هذه اللحظة بدأت تتوارد الاعترافات العرجاء المقترنة بالذنب والندم . فكل ما فعلته هي من الأشياء السيئة التي تفوق تصوري إنما فعلته بدافع الخوف من ضياع حبي لها . ساذجاً كنت أنا إذ كنت مصراً على أنها تبالغ في الأمور . رجوتها أن تنسى الماضي باعتباره عديم الأهمية سواء كان حقيقياً أم زائفاً ، واقعياً أم خيالياً .

أقسمت لها أنه لم يكن يوجد في حياتي أحد غيرها أبداً .

كانت الطاولة التي كنا نجلس عليها ذات شكل يشبه القلب . فإلى ذاك القلب المصنوع من العقيق اليماني كنا نتوجه بقسمنا بالولاء الأبدي .

أخيراً ، لم يعد بمقدوري أن أتحمل أكثر من ذلك . لقد سمعت أكثر مما يجب ، فرجوتها أن «دعينا نذهب» . عدنا أدراجنا نحو البيت في سيارة أجرة . كنا منهكين إلى درجة العجز عن تبادل أية كلمة .

لدى وصولنا وجدنا أنفسنا في جو مختلف . فكل شيء مرتب ، ملمَّع ، منمق . كانت المائدة معدة لثلاثة أشخاص . في الوسط كانت تنتصب مزهرية ضخمة تبرز منها باقة بنفسج كبيرة . فوجودها بدا أنه يفوق في أهميته كل الكلمات التي تبادلناها وكانت لغتها فصيحة ودامغة . لم يكن ثمة حاجة لتحريك الشفاه ، لكي يتضح لنا أن الحب شيء يجب اقتسامه .

ـ «حبني كما أحبك» تلك كانت الرسالة المقصودة .

كان عيد الميلاد يقترب . ومراعاة لهذه المناسبة فقد قررنا دعوة ريكاردو للقيام بزيارتنا . سبق له وأن بقي يتوسل طلباً للسماح له بنيل هذا الشرف ـ الامتياز لعدة أشهر . أما كيف نجحنا في التملص من هذا الشخص الملحاح في طلب يدها طوال هذه المدة ـ فهذا ما لا علم لي به .

بما أنهما كانتا تكثران من ذكر اسمي أمام ريكاردو ، وباعتباري صديقهما الكاتب الغريب الأطوار ، أو ربما العبقري ، فقد تمت الترتيبات على أساس أنه يجب عليَّ أن أدخل فجأة حالما يصل إلى البيت . كانت هذه اللحظة ذات هدف مزدوج ، لكن الفكرة الأساسية هي التأكد من انصراف ريكاردو فور انصرافهما . عندما وصلت كان ريكاردو منهمكاً بإصلاح تنورة . كان الجو شبيهاً بأجواء فرمير Vermeer أو الغلاف الأخير لمجلة / ساترداي ايڤننغ/ التي تصور نشاطات الـ Ladies home auxiliary .

لقد أحببت ريكاردو على الفور . كانت فيه كل الصفات التي ذكرت عنه ، إضافة إلى شيء بعيد عن متناول قرونهما الاستشعارية . بدأ الكلام مباشرة

كما لو كنا صديقين طوال حياتنا . أو كما لو كنا أخوين . لقد سبق أن قالتا لي إنه كوبي ، لكني اكتشفت فوراً أنه كاتالوني مهاجر إلى كوبا منذ كان شاباً . ومثل الكثيرين من أبناء عرقه كان مظهره وقوراً ، لكنه يكاد يكون كئيباً . ما إن يبتسم حتى يكتشف فيه المرء ذاك القلب الطفولي . أما لكنته الغليظة الصادرة من حلقه فتجعل كلماته شبيهة بصوت الوتر المداعب . من الناحية الجسدية كان يحمل شبهاً قوياً بالكاسال Casals . كان جاداً بعمق ، ولكن ليس إلى حد الجدية القاتلة كما صورتاه لي .

صرت أراقبه بينما كان منكباً على الخياطة ، فتذكرت حديث مونا عنه ذات مرة ، لا سيما تلك الكلمات التي قالها بهدوء : «سأقتلك ذات يوم» . لقد كان بالفعل رجلاً ذا مقدرة على فعل شيء كهذا . والغريب في الموضوع هو شعوري بأن أي شيء يقرره ريكاردو يصبح قابلاً للتبرير ومن كافة النواحي . ففي مثل حالته لا يعتبر القتل جريمة ، بل هو تحقيق للعدالة . كان الرجل عاجزاً عن فعل أي عمل شائن . كان رجل قلب . لا بل كان قلباً برمته ، في الواقع من حين لآخر كان يرشف الشاي التي سكبت له . فلو كانت ماءً في ذروة غليانه لرشفه بنفس الطريقة الهادئة الرزينة . كان يمارس طقساً من طقوسه . حتى طريقته في التحدث كانت تعطي انطباعاً بأنها جزء من أحد طقوسه .

في اسبانيا كان موسيقياً وشاعراً ، وفي كوبا أصبح إسكافياً . أما هنا فصار نكرة وصار كل شيء . فلا شيء للبرهنة عليه ولا شيء يمكن إنجازه . كان عفوياً كالخطيئة ، ولكن من كل سم من مساماته كان يشع النبل والرفق والرحمة .

هذا هو الرجل الذي كانتا تتوهمان أنهما تسديان له خدمة جليلة . كم كانت أوهامهما ضئيلة فيما يتعلق بذكائه المتقد . فمن المستحيل بالنسبة لهما أن تصدقا أنه لم يعد قادراً على إعطاء شيء سوى العاطفة . أو أنه لم يكن ينتظر من مونا أكثر من فرصة للمزيد من إلهاب عاطفته المجنونة . قال

بهدوء : «سأتزوجكِ ذات يوم ، وعندها سيصبح كل ذلك مثل الحلم»

رفع عينيه ببطء أولاً إلى مونا ثم إلى ستاسيا ومنها إليَّ ، كما لو أنه يقول :

- «ها قد سمعتموني» . ثم قال مثبتاً نظرته الحنونة الراسخة نحوي :

- «أي رجل محظوظ أنت لكي تستمتع بصداقة هاتين الاثنتين . فأنا لم يؤذن لي بعد بالدخول إلى هذه الدائرة الجوَّانية» . ثم حول نظره إلى مونا وقال :

- «ستضجرين فوراً من كونك غريبة على نحو مستمر... إن ذلك يشبه الوقوف أمام المرآة طوال النهار . أنا أراك من وراء المرآة . ليست الغرابة فيما تفعلين بل فيما تكونين . عندما سأنتشلك من هذه الحياة الكئيبة ستصبحين عارية كالتمثال . أما الآن فإن جمالك عبارة عن أثاث منزلي أصبح عرضة للنقل وتبديل الأماكن أكثر مما يجب . ولا بد لنا من إعادته إلى موضعه الأصلي ، إلى كومة الزبالة . لقد فكرت ذات مرة أن كل شيء يجب التعبير عنه شعرياً أو موسيقياً . ولم أكن متأكداً من وجود مكان ومبرر للأشياء القبيحة . فبالنسبة لي كان أسوأ شيء هو الابتذال . لكن الابتذال يمكن أن يكون نزيهاً ، لا بل حتى ممتعاً ، كما تبين لي . إذ أننا لسنا بحاجة لرفع كل شيء إلى مرتبة النجوم . إن كل شيء أساساً من طين . حتى هيلين طراودة ليس بمقدور أجمل النساء أن تختبئ خلف جمالها...»

بينما كان يتكلم على هذا النحو وبطريقته الهادئة المتزنة ، استأنف إصلاح التنورة . قلت في نفسي : «ها هو الحكيم الحقيقي موزعاً بين الذكورة والأنوثة بالتساوي ، عاطفياً ، هادئاً ، صبوراً ، مغموراً ، يجود بكل ما عنده ، ينظر بعين ثاقبة إلى جوهر محبوبته ، مخلصاً ، راسخاً ، يكاد حبه أن يكون حباً أعمى ، حساساً إلى جوهر محبوبته ، إنه روح لطيفة حقاً كما يقول دوستويفسكي .

كانتا تظنان أنني سأستمتع بلقاء هذا الشخص لأنني ضعيف تجاه الحمقى! وبدلاً من التحدث إليه . فقد أمطرتاه بالأسئلة التافهة التي كان المقصود منها فضح البراءة العبثية الكامنة في طبعه . كان يرد على جميع تساؤلاتهما بنفس

الحدة . كان يجيبها كما لو كان يرد على تعليقات خالية من المعنى تصدر عن طفلتين . وفي حين كان مدركاً بشكل كلي للامبالاتهما الجهنمية بشروحاته التي كان يتعمد فبركتها ، فقد كان يتكلم كما يتكلم الحكيم غالباً عندما يتعامل مع طفل . كان يغرس في ذهنيهما تلك البذور التي سوف تنتش لاحقاً ، ومع إنتاشها سوف تذكرهما بما تتصفان به من الفظاظة والجهل المتعمد ، كما سيذكرهما بتلك المسحة الشافية التي تمتاز بها الحقيقة .

في الواقع ، لم تكونا بتلك القساوة التي كان سلوكهما يوحي بوجودها ، فقد كانتا منجذبتين إليه ، لا بل حتى يمكن القول إنهما كانت تحبانه بطريقة فريدة من نوعها بالنسبة لهما . إذ لم يكن أحد من معارفهما قد أظهر لهما مثل تلك العاطفة الصادقة وذاك التقدير العميق . وهما لم تكونا لتسخرا من هذا الحب لو كان على هذا النحو ، فقد كانتا في حيرة من أمرهما تجاهه ، كان نوعاً من الحب الذي لا يقدر عادة على إثارة سوى الحيوانات وحدها . لأن الحيوانات وحدها ـ كما يبدو ـ هي القادرة على التظاهر بذاك القبول الكلي للنوع البشري الذي يؤدي إلى استسلام الكائن بكليته استسلاماً لا مشروطاً ، هذا الاستسلام النادر الحدوث بين إنسان وآخر . بالنسبة لي كان الشيء الأكثر غرابة هو ذاك المشهد الذي ينعقد حول الطاولة والذي يكثر فيه الحديث الدائم عن الحب . ويعود السبب في أننا نأتي على ذكر الحب حول طاولة الممشى إلى تلك الفورات الدائمة . في أغلب الأحيان كنت أتساءل هل يوجد منزل آخر يمكن أن يحصل فيه مثل هذا الإزعاج المتواصل ، هذا الجحيم المتواصل ، هذا الجحيم العاطفي ، هذا الكلام المدمر حول الحب الذي يتبدد دائماً على نوتة نشاز ؟

الآن ، والآن فقط ، وبوجود ريكاردو انكشفت واقعية الحب . من المثير للفضول أن هذه الكلمة نادراً ما يتم ذكرها . ولكنه الحب ، وليس شيئاً آخر ، هو الذي كان ينضح من قسماته وينسكب مع كل ألفاظه وأقواله . أقول الحب ، فربما كان الله أيضاً .

ريكاردو هذا بحد ذاته ، هكذا أريد لي أن أفهم ـ كان ملحداً بشكل مؤكد إضافة لكونه ـ حسب أقوالهما ـ مجرماً بشكل مؤكد أيضاً . ربما كان كبار المحبين لله وللإنسان ملحدين ومجرمين بشكل مؤكد . أو لنقل إنهم مجانين حب . لم يكن ريكاردو يأبه مطلقاً بما يأخذ الآخرون عليه ، إذ كان يخلق وهماً حول كونه كما يريده الآخرون أن يكون ، ومع ذلك فهو نفسه لا يتغير إلى الأبد .

كنت أفكر لو أنني لن ألتقيه مرة ثانية أو ليتني أنساه . على الرغم من أننا قد تتاح لنا مرة في العمر أن نكون في حضرة كائن عبقري بشكل تام ، إلا أن هذه المرة بحد ذاتها كافية وحدها . لا بل أنها أكثر من كافية . لم يكن من الصعب أن نفهم لماذا كان بمقدور شخص كالمسيح أو بوذا ، بمجرد كلمة واحدة أو نظرة أو إشارة أن يترك أثراً عميقاً على طبيعة ومصير الأرواح المشوهة التي كانت تتحرك ضمن فلكه . كما منعطفت رؤيتهم لسبب في أن على البعض أن يبقوا في حالة مناعة ضد الوقائع والحجج المنطقية .

وسط هذه التأملات ، خطر ببالي أنني ربما أقوم بدور مشابه . على الرغم من أنني في تلك الأيام التي لا تنسى ، وبدرجة أقل عندما تدفق على مكتبي تيار جارف من الرجال والنساء والشباب من ذوي الطالع السيء ومن كافة الأوصاف ، في حين كنت ألتمس مثقال ذرة من الفهم أو شارة من شارات الغفران أو لمسة من لمسات النعمة الإلهية . وحيث أنني جلست مثل مدير استخدام كان عليَّ أن أظهر إما بمظهر الإله المحسن أو بمظهر القاضي الصارم ، أو ربما حتى بمظهر الجلاد . لقد توفرت لي السيطرة ، لا على حياتهم فقط ، بل وعلى حياة أحبائهم أيضاً .

كانت تبدو كأنها سيطرة على أرواحهم بالذات . إذ بعد أن يكتشفوني بعد ساعات من البحث ، كانوا يمنحوني انطباعاً بأنهم مدانون ينسلون إلى كرسي الاعتراف من خلال الباب الخلفي للكنيسة ، والقليلون منهم كانوا يجردونني من سلاحي ، يسلبونني سطوتي وسلطتي . فلم أكن أنا الذي

يســاعدهم في مـثل هذه اللحظات ، بـل هم الذين كـانوا يســاعـدونني . لقـد هزموني شر هزيمة ، بأن جعلوني رحيماً ، علمون كيف أعطي من ذاتي .

كم شعرت بعد مشهدٍ فاجع بأنني مجبر على المشي فوق الجسر لكي أستجمع قواي! كم كـان مثيراً للأعصاب ، كم كـان محطماً للنفس أن يتم اعتبـاري كـائناً كلي القدرة . كم كان من السخرية والعبث أيضاً وأنا أقـوم بمهامي الروتينية ، أن أكون مجبراً على تمثيل دور المسيح الصغير . في منتصف الطريق وجدت نفسي مضطراً للانحناء من فـوق السكة . كـان منظر المياه الزيتية يريحني ؛ فقد كنت أفرغ أفكاري وانفعالاتي المضطربة في لجة التيار المتدفق .

كانت الانعكاسات الملونة المتراقصة فوق سطح الماء تضفي على روحي مزيداً من السكينة والافتتان ؛ إذ كانت تتراقص مثل قناديل مرجانية تتأرجح بفعل الريح . كانت تهزأ بأفكاري الكئيبة وتنير فجوات التعاسة التي انفتحت في داخلي . معلقـاً فـوق انسـيـاب النهـر تملكني شعـور بأنني خـالٍ من كل المشـاكل ، ومتحرر من كل الهموم والمسـؤوليات . لم يتوقف النهر ولو مرة واحدة ليتأمل أو يسأل . ولم يفكر ولو مرة بتغيير مجراه . دائماً إلى الأمام ـ إلى الأمام ـ طافحاً ثابتاً .

تطلعت نحو الوراء باتجاه الشاطئ . كيف كانت ناطحات السحاب التي تظلل ضفة النهر تبدو وكأنها كتل من الدمى! كم هي سريعة الزوال ، كم كانت ضئيلة وتافهة ومتعجرفة! في هذه القبور الفخمة كان الرجال والنسـاء يشقون طريقهم عنوة ، يوماً إلى الداخل ويوماً إلى الخارج ، يقتلون أرواحهم ليكسبوا قوتهم ، يبيعون أنفسهم ، ويبيعون بعضهم بعضاً ، لا بل إنهم يبيعون الله ، ويبيعون بعضاً منهم . وعند حلول الليل يندلقون كالنمل ، يسدون المجارير ، يغوصون في الأرض أو يفرون نحو بيوتهم وهم يطقطقون أجنحتهم ليعاودوا دفن أنفسهم ، ليس في قبور فخمة ، إنما مثل أولئك البائسين المنهكين المهزومين الذين كانوا هم أنفسهم ينحشرون في الأكواخ وجحور الأرانب التي درجوا على

تسميتها «بيوتاً» . في النهار مقبرة العرق والكد اللذين لا معنى لهما ، وفي الليل مدفن الحب واليأس . هذه المخلوقات التي تعلمت بإخلاص شديد أن تركض وتستجدي وتبيع ذواتها وبني جنسها من البشر ، أن ترقص مثل الدببة ، أو تتصرف مثل كلاب البودل المدربة ، أن تخفي طبيعتها دائماً وإلى الأبد ، هذه المخلوقات البائسة نفسها كانت تنهار من حين لآخر ، تبكي مثل نافورات التعاسة ، تزحف مثل الأفاعي ، تطلق أصواتاً لا تقدر على إصدارها سوى الحيوانات الجريحة . كانت تقصد بهذه التصرفات الغريبة المرعبة أن تعبر عن نفاذ صبرها ، أي أن قواها قد نفذت وأنه ما لم يتكلم إليها من يفهم لغة محنتها ، فإن هذه الكائنات مهددة إلى الأبد بالضياع والانكسار والضلال ، لا بد من مجيب متميز مبهم المعالم لن يتردد حتى الدود في لحس جزمته . لقد كنت ذاك النوع من الدود ، كنت دودة كاملة . كنت مهزوماً في موقعة الحب ، غير معبأ لخوض المعركة وإنما لتحمل الإهانة والمذلة ، أنا الذي وقع الاختيار عليَّ لأقوم بدور المخلص . يا لها من مهزلة! أنا المدان والمنبوذ ، أنا معدوم الكفاءة ، الخالي كلياً من الطموح ، يجب علي أن أشغل منصب القاضي ، أوزع العقوبات والمكافآت ، أمثل دور الكاهن والمحسن ـ أو الجلاد . أنا الذي جُلت فوق الأرض وتحتها دائماً تحت لسع السياط ، أنا الذي كنت أتسلق درج وولوورث بسرعة الحصان ـ كما لو كنت أستجدي وجبة غداء مجانية ، أنا الذي تعلمت الرقص على كل الألحان ، وأن أدعي كل القدرات ، كل المواهب ، أنا الذي تلقيت كثيراً من الرفسات على مؤخرتي لمجرد أنني عاودت طلب المزيد ، أنا الذي لم أفهم شيئاً من التركيبة المجنونة سوى أنها كانت تركيبة مغلوطة إجرامية وجنونية ، أنا الذي من بين كل الرجال استدعيت لأوزع الحكمة والحب والتفاهم .

يبدو أن الله بذاته لم يكن قادراً على اختيار كبش فداء آخر ، ومن هو الكفؤ لهذا الدور الحساس إن لم يكن عضواً محتقراً منبوذاً معزولاً من أعضاء المجتمع ؟ الطموح ـ هل قلت هذا منذ لحظات ؟ وأخيراً جاءني الطموح في أن

أنقذ ما استطعت من الحطام ، أن أفعل لأولئك اليائسين التعساء ما لم يفعله أحد لأجلي ، أن أنفخ ذرة من الحياة في أرواحهم الفارغة ، أن أحررهم من العبودية ، أن أكرمهم باعتبارهم كائنات بشرية وأن أجعلهم أصدقائي .

بينما كانت هذه الأفكار تتزاحم في رأسي كأنها أفكار من الحياة الآخرة ، لم أجد مفراً من مقارنة ذاك الوضع البالغ الصعوبة ، كما تبين لي فيما بعد ، بالوضع الراهن . فتارة تصبح كلماتي مؤثرة ومشوراتي مسموعة وتارة أخرى يصبح كل ما قلته أو فعلته عديم الأهمية . فقد أصبحت شكلاً مجسداً للأحمق . كل محاولاتي ، وكل اقتراحاتي ذهبت أدراج الرياح .

حتى لو تلويت على الأرض متظاهراً أو صعد الزبد إلى فمي مثل المصاب بالصرع ، فلن يكون ذلك إلا عبثاً . فأنا لم أكن سوى كلب ينبح مطارداً القمر .

لماذا لم أتعلم الاستسلام بشكل مطلق مثل ريكاردو ؟ لماذا فشلت في الوصول إلى حالة من الوضاعة الكاملة ؟ بماذا خرجت من هذه المعركة الضائعة ؟ بينما كنت جالساً أتأمل هذه المسخرة التي كانتا تقومان بها لصالح ريكاردو أصبحت مدركاً أكثر من ذي قبل لحقيقة أنه لم يكن مأخوذاً باللعبة على الأقل . ولقد كنت أوضح موقفي الخاص في كل مرة كنت أتوجه فيها إليه بالكلام . في الواقع ، لم يكن ذلك ضرورياً لأن الذي لمسته هو أنه كان يعرف أن ليست لديه رغبة في خداعهما . لقد بلغ به الشك بمونا حداً جعل حبنا المشترك لها هو الشيء الوحيد الذي يجمعنا ، الشيء الوحيد الذي جعل هذه اللعبة عبثاً ومدعاة للسخرية . قلت في نفسي إن بطل الحب لا يمكن أن يتعرض للخداع أو الخيانة من قبل صديقه الحميم . ما الذي تخشاه هاتان الكائنتان البشريتان المتآخيتان ؟ إنه خوف المرأة ، شكها في نفسها ، هو وحده الذي يعرض مثل هذه العلاقة للخطر . ما تفشل المحبوبة في استيعابه هو عدم وجود أثر للخيانة أو انعدام الوفاء لدى محبيها . فهي تخفق في التأكد من أن حاجتها الانثوية الخاصة إلى الخيانة هي التي توحد عشاقها . بهذا الترابط

تقيد أنواتهم egos التملكية ، وهي التي تسمح لهم بالتشارك بما لم يكونوا ليتشاركوا به أبداً لو لم يكونوا محكومين بعاطفة أكبر من عاطفة الحب . ففي قبضة عاطفة كهذه فقط يتعرف الرجل على الاستسلام المطلق . أما بالنسبة للمرأة التي تكون موضوعاً لحب كهذا ، فهي لكي توازر هذا الحب يجب عليها ألا تمارس أقل من الشعوذة الروحية . وهي مطالبة بالاستجابة من أقصى أعماق روحها . كما أن روحها تكبر بمقدار تعرضها للوحي .

ولكن ماذا لو كان موضوع هذا الهيام السامي عديم القيمة! نادراً ما يكون الرجل هو المبتلى بمثل هذه الشكوك . وفي العادة أن من ألْهَمَ هذا الحب النادر والعارم هو الذي يقع ضحية للشك . إذ ليست الطبيعة الانثوية للمرأة هي المسؤولة وحدها ، وإنما ذاك الفقر الروحي الذي لم يقم البرهان عليه إلى أن يثبت العكس . مثل هذه المخلوقات التي خُصَّت بجمال فائق والتي تبقى قدرتها الحقيقية على الجذب مجهولة ، تعجز عن رؤية شيء سوى إغراء اللحم البشري . وتكمن المأساة بالنسبة لبطل الحب في يقظته (الحيوانية طبعاً) على حقيقة أن الجمال ـ برغم كونه يعزى إلى الروح ـ يمكن أن يكون غائباً في أي شيء إلا من أسارير وقسمات المحبوبة .

الفصل السادس

بقيت آثار زيارة ريكاردو عالقة في ذهني عدة أيام . ولزيادة الطين بلة فقد كان عيد الميلاد على الأبواب . إنه الفصل الذي أقرفه ، لا بل إنني أرهبه أيضاً . فمنذ بلوغي سن الرجولة لم يحصل أن قضيت عيد ميلاد سعيداً . لا يهم كيف أواجهه . إذ كان يوم الميلاد يفاجئني دائماً وأنا في حضن العائلة : أنا الفارس المالنخولي* المتسلح بدرع أسود ، المجبر مثل كل بلهاء المسيحية على حشو البطن والإصغاء إلى ثرثرات الأقرباء الفارغة .

على الرغم من أنني ـ حتى حينه ـ لم أتفوه بأية كلمة حول المناسبة القادمة . ليتها كانت احتفالاً بولادة نفس بشرية حرة! فقد بقيت أتساءل تحت أي ظرف وبأي شرط من شروط الذهن والقلب سنجد أنفسنا ـ أنا ومونا ـ في يوم القيامة الاحتفالية هذا .

آخر ما كنا نتوقعه هو أن يزورنا ستانلي الذي عرف أخبارنا بالصدفة ، الأمر الذي كان كافياً وحده لزيادة كربي وانزعاجي الداخليين . وبصراحة ، إنه لم يطل المكوث . وفي كل الأحوا فقد كانت فترة مكوثه كافية لأن يتفوه بتعليقات لاذعة تمزق خاصرتي . كانت زيارته توحي بأنه قد جاء ليعزز صورة الفشل التي كنت أظهر بها أمامه بشكل دائم . حتى أنه لم يجد حرجاً في أن

* المالنخولي : المصاب بمرض المالنخوليا أي الاكتئاب النفسي (م) .

يسألني عما أفعله ، وكيف كانت تسير أمورنا (أنا ومونا) ، أو عما إذا كنت أكتب أم لا . وكانت مجرد نظرة منه حواليه كافية لإفهامه القصة بكاملها . فقد توصل إلى استنتاج نهائي حول الوضع الذي ينم عن «انحطاط تام»!

لم أبذل أية محاولة لإحياء النقاش ، لا بل إنني تمنيت أن يرحل عنا بأسرع وقت قبل وصولهما وهما في مزاج من النشوة الزائفة .

وكما قلت ، فإنه لم يبدِ أية رغبة في التريث والبقاء . وعندما كان على وشك الانصراف ، لفت انتباهه وبشكل مفاجئ لوح ضخم من ورق التجليد كنت قد ألصقته على الجدار قرب الباب . كان النور خافتاً بحيث كان مستحيلاً أن يقرأ ما كان مكتوباً عليه . قال متسائلاً :

ـ «ما هذا ؟»

ثم اقترب من الجدار وهو يتشمم الورقة كالكلب . فقلت له :

ـ «هذا ؟ لا شيء . مجرد أفكار اعتباطية»

أشعل عود ثقاب ليضيء لنفسه ، ثم أشعل عوداً ،آخر وآخر ـ وأخيراً تراجع مبتعداً إلى الوراء وقال :

ـ «هم م م... إذاً أنت تكتب مسرحيات حالياً»

ظننت أنه على وشك أن يبصق فقلت له خجلاً :

ـ «أنا لم أبدأ حتى ؛ إذ أنني أتلاعب بالأفكار فقط ، ومن المحتمل أنني لن أكتبها» . ثم قال لي مستأنفاً دعابات حفاري القبور :

ـ «هذه فكرتي بالضبط : إنك لن تكتب مسرحية أو أي شيء آخر يستحق الكلام . لكنك ستكتب و تكتب ولن تصل إلى نتيجة» .

وكان لا بد من أن ينتابني الغضب ، لكني لم أغضب . لقد أصابني التمزق . توقعت منه أن يصب قليلاً من الزيت على النار بتعليق أو تعليقين حول قصة الحب الجديد التي كان يكتبها . لكن شيئاً من هذا لم يحصل . وعوضاً عن ذلك فقد قال لي :

ـ «لقد أقلعت عن الكتابة حتى أنني لم أعد أطالع شيئاً . إذ ما فائدة

ذلك ؟ » . هز ساقه ومضى نحو الباب . وضع يده على قبضة الباب ثم قال باستعلاء وغرور :

ـ « لو كنت مكانك لما أقلعت عن الكتابة حتى لو كان كل شيء ضدي . أنا لا أقول بأنك كاتب ولكن... » ، تردد لحظة ليصوغها على نحوٍ مناسب : « ولكن الحظ إلى جانبك » .

مرت برهة من الصمت تكفي لملء زجاجة بالزاج ، ثم أضاف قائلاً :

ـ « أنت لم تفعل شيئاً يشجع على ذلك ، والآن إلى اللقاء »

ثم صفق الباب وراءه . « إلى اللقاء! » وهكذا حصل وما حصل . لو أنه صرعني ما كنت لأشعر بأي حطام أو دمار . أي درع ضنيل ذاك الذي تركني مبدداً . لم أكن أكثر من مجرد بقعة شحم ، لطخة على وجه الأرض . وبينما كنت أعاود الدخول في العتمة قمت بأشعال شمعة بطريقة آلية ، ومثل السائر في نومه وجدت نفسي رهين فكرة عن مسرحية ما . كانت المسرحية مؤلفة من ثلاثة فصول وثلاثة ممثلين فقط . ولا داعي للقول من هم أولئك الممثلون الجوالون .

ألقيت نظرة خاطفة على المخطط الذي رسمته للمشاهد والذروات والخلفية المسرحية... إلى آخر ما هنالك من أمور كنت أعرفها عن ظهر قلب ، لكني هذه المرة كنت أقرأها وكما لو كنت قد فرغت لتوي من كتابة المسرحية ، ورأيت ما الذي يمكن فعله بالمادة المكتوبة (حتى ،أنني كنت اسمع التصفيق عقب كل إسدالٍ للستارة)

في تلك اللحظة كان كل شيء واضحاً مثل آس السبات . على كلٍ ، إن ما لم أقدر على تصوره هو أن أرى نفسي أقوم بكتابتها . فأنا لم أقدر على كتابتها بالكلمات ، كان لابد من كتابتها بالدم .

عندما كنت أرتطم بالقاع ـ وكما في تلك اللحظة ـ كنت أتفوه بكلمات أحادية المقطع أو لا أتكلم مطلقاً . لا بل إنني ذهبت إلى أقل من ذلك ؛ فقد كان بمقدوري البقاء في بقعة واحدة ووضعية واحدة سواء كنت جالساً أم منحنياً أم واقفاً لفترة من الزمن لا يصدقها العقل .

كنت في تلك الحالة من العطالة لدى وصولهما . كنت واقفاً إلى الجدار ورأسي أمام لوحة الورق . ولم يكن على الطاولة سوى شمعة شاحبة تذوب على مهل . وعندما اندفعتا إلى الداخل ، لم تلاحظا وجودي ملتصقاً إلى الجدار . بقيتا تجوبان البيت بسرعة وإهتياج وصمت لبضع دقائق . وفجأة لمحتني ستاسيا فأصدرتْ زعقة مجفلة وصاحت :

ـ « انظري! ماذا به ؟ »

تحركت عيناي فقط . ولولا ذلك لكنت تمثالاً ، أو بالأحرى جثة . بادرت إلى هز ذراعي الذي كان مرفوعاً ومتيبساً . ارتعشت وانتفضت قليلاً . إذ أنني حتى حينه لم يصدر عني أي صوت أو حركة .

هتفت بينما كانت مونا تقبل مسرعة :

ـ « تعالي! انظري إليه! »

عندها كان الوقت قد حان لأحرك نفسي . ودون أن أنتقل من تلك البقعة أو أبدل وضعيتي قمت بتحريك فكي وقلت كأنني رجل مقنع بقناع حديدي :

ـ « لا شيء يدعو للقلق يا عزيزتَّي! لاتجفلا! كل ما في الأمر أنني كنت أفكر » .

فزعقتا بصوت واحد وبآنٍ معاً : « تفكر ؟ »

ـ « نعم يا ملاكي الصغيرين ، أفكر ، ما الغرابة في ذلك ؟ »

قالت مونا متوسلة وهي تسحب كرسياً :

ـ « أجلس! »

غُصتُ في الكرسي كما لو كنت أغوص في حمام من الماء الدافئ . كم كان رائعاً أن أقوم بهذه النقلة الصغيرة! فحتى حينه لم أكن راغباً في الشعور بالتحسّن . كنتُ راغباً في الاستمتاع بكآبتي .

هل كان وقوفي ساكناً على هذا النحو الجميل بسبب التصاقي بالجدار ؟ على الرغم من أن ذهني كان لا يزال نشطاً فقد كان محتفظاً بهدوئه ، إذ أنه لم يعد يشطح بي بعيداً . كانت الأفكار تغدو وتروح بطيئة متريثة ، فاسحة

المجال أمامي لكي أعانقها وألاطفها . في غمرة هذا الانجراف البطئ اللذيذ كنت قد بلغت ـ قبيل وصولهما ـ نقطة الإمعان بوضوح في الفصل النهائي من المسرحية الذي كان قد بدأ يكتب نفسه في رأسي دونما أدنى جهد من ناحيتي . جلست وظهري ملتفت نصف التفاتة إليهما . وانسياقاً مع أفكاري فقد بدأت بالتكلم بطريقة الإنسان الآلي Automaton . لم أكن أناقش كتاباتي بل كنت أرددها كما هي تماماً مثل ممثلٍ ظل يتابع حركاته المسرحية في غرفة الملابس بالرغم من كون الستارة قد أسدلت . شعرت بأنهما قد صارتا هادئتين بشكل يدعو للاستغراب . إذ درجت العادة على أن تتصارعا مع شعرهما أو أظافرهما . أما في تلك اللحظة فقد بقيتا ساكنتين بحيث أن كلماتي كانت ترتد عن الجدران بصدى مسموع . كنت قادراً على التكلم والإصغاء إلى نفسي بآنٍ معاً . شيء لذيذ . أو قل أنني كنت أهذي بصفاء . صرت متأكداً من أنني لو توقفت لحظة عن الكلام لانكسر السحر . ولكن مجرد التفكير بذلك لم يؤدِّ بي إلى القلق . كان عليَّ أن أتابع حتى الانهيار أو النفاذ ـ كما قلت لنفسي . وهكذا ، ومن خلال الشق الموجود في القناع التنكري تابعت بشكل مستمر ، ودائماً بنفس النبرة المنتظمة الموزونة الجوفاء كما يفعل المرء عندما ينتهي من قراءة كتاب رائع على نحو لا يصدق وفمه مغلق .

لقد حولتني كلمات ستانلي القاسية إلى رماد ؛ فقد كنت وجهاً لوجه مع المنبع ـ الأصل ، أو لنقل مع المرجع ذاته . كم كان مختلفاً بشكل مطلق هذا الدفق الهادئ القادم من المنبع عن فعل الإبداع ذي الصرير الحاد ؛ أعني به الكتابة!

« غُصْ عميقاً ولا تصعد أبداً! » هذا هو الشعار الذي يجب أن يرفع لكل أولئك الجائعين إلى الإبداع بالكلمات . لأنه في الأعماق الساكنة وحدها يتاح لنا أن نرى ونسمع ، أن نتحرك وأن نتواجد . فأية نعمة أكبر من أن يغوص المرء إلى قاع وجوده وألا يتزحزح أبداً!

عند ارتدادي عن الجدار كنت أتمايل ببطءٍ مثل سمكة قدٍّ كبيرة كسولة ، فألقيت عليهما نظرة مثبتة من عينين جامدتين . وكنت أحس تماماً

كأنني وحش من وحوش الأعماق التي لم يسبق لها أن عرفت عالم البشر ولا دفء الشمس ولا عبير الأزهار ولا أصوات الطيور والبهائم والبشر . صرت أحدق فيهما بعينين مبطنتين تعودتا على النظر إلى الأعماق . كم كان العالم مدهشاً بشكل غريب في تلك اللحظة! كنت أراهما والغرفة التي تسكنان بعينين نهمتين . لقد رأيتهما ـ في غرفتهما ـ وكأنها الغرفة الوحيدة في العالم . كنت أرى جدران الغرفة تتراجع متقهقرة ، والمدينة من ورائهما تذوب وتتلاشى حتى العدم ، كنت أرى الحقول المفلوحة إلى اللانهاية ، البحيرات والبحار والمحيطات تتبخر صاعدة إلى الفضاء المرصّع بالمدارات النارية وفي الضوء النقي اللامحدود الدائم التوهج كانت تنز أمام عيني حشود من مخلوقات ربانية : ملائكة ، أشباه ملائكة ، حراس ملائكيون ، أطفال ملائكيون .

أتيت مثل سارية اقتلعتها الريح العاتية على حين غرة . وقد سيطرت على ذهني تلك الفكرة التي لا علاقة لها بالموضوع مطلقاً ، ألا وهي قدوم عيد الميلاد .

قلت متذمراً : « ما الذي سنفعله ؟ »

قالت ستاسيا : « حسبك أن تستمر في الكلام ـ لم أرك من قبل بهذا الشكل »

قلت لها : « إنه عيد الميلاد! ما الذي سنفعله لأجل عيد الميلاد ؟ »

فهتفت قائلة : « عيد الميلاد ؟ » وقد حسبتُ في لحظة من اللحظات أنني كنت أتكلم بشكل ملغوز ، وعندما تأكدت من أنني لم أعد ذاك الشخص الذي كان يفتنها قالت :

ـ « يا يسوع! لا أريد سماع كلمة أخرى »

قلت لها بينما كانت تبطبط إلى غرفتها :

ـ « حسناً ، الآن نستطيع التحدث »

صرخت مونا وعيناها مغرورقتان بالدموع :

ـ « انتظر يا ڤال ، لا تفسد الجو ، أرجوك! »

رددتُ قائلاً : « لقد انتهى الأمر ولم يبق شيء - أسدلت الستارة » .

فتوسلت قائلة : « آه ، ولكن يوجد - يجب أن يكون!... انظر! كن هادئاً ، اجلس ، دعني أجلب مشروباً » .

- « حسناً ، اجلبي لي مشروباً ، أنا جائع . أين ستاسيا ؟ تعالي! دعينا نأكل ونشرب ونفرغ ما في رؤوسنا . (...ي) في عيد الميلاد! (......) في سانتا كلوز*! لتكن ستاسيا سانتا كلوز من قبيل المبادلة »

عندها سارعتا إلى فعل شيء من شأنه أن يسرني . كانتا متشوقتين بشكل مخيف لإشباع أدنى نزوة من نزواتي ، حتى ولو كان إيليا سيظهر لهما من السماء .

هتفتُ بهما : « هل بقي شيء من نبيذ الراين - هاتوه فوراً! »

كنت في حالة من الجوع والعطش الفائقين . إذ تمكنت بشق النفس من انتظار قيامهما بإعداد شيء ووضعه أمامي .

همهمت قائلاً : « يا لذاك البولاك** اللعين! »

قالت ستاسيا : « ماذا ؟ »

- « على كلٍ ما كنت أتحدث عنه صار الآن مثل الحلم . وما كنت أفكر فيه هو ما كنتما تريدان معرفته ؟ هو أنه... كم كان رائعاً لو... »

- « لو - ماذا ؟ »

- « لا بأس - سأخبركما فيما بعد - أسرعا واجلسا! »

في هذه اللحظة كنت مكهرباً - هل كنت سمكة ؟ أو بالأحرى كنت حنكليساً كهربائياً . كلي جمرة - وأنا جائع - ربما كان هذا هو السبب في أنني كنت ألمع وأتوهج بهذا الشكل . لقد صار لي جسم مرة أخرى

كم كان رائعاً أن أعود إلى الجنس البشري! كم كان رائعاً أن آكل وأشرب وأتنفس وأصرخ!

---

* سانتا كلوز : بابا نويل (م)

** بولاك : لفظة تهكم تطلق على كل أمريكي من أصل بولندي (م)

بعد أن التهمت بشراهة قليلاً من الطعام بادرت إلى الكلام :

ـ « كم نخفي من أنفسنا حتى عندما نكون في أفضل حال . فأنتما تريدان أن أتابع من حيث توقفت ـ أعتقد ؟ لا بد أنه كان مثيراً كل ذاك الهراء الذي أخرجته من القاع . ولم يبق منه الآن سوى عبيره .

ولكن ثمة شيء واحد ـ أنا متأكد منه ـ وهو أنني أعرف أنني كنت خارج ذاتي . لقد كنت في الصميم فيما هو أعمق مما كنت فيه في أي وقت مضى .

كنت أنبجس مثل سمكة ـ هل لاحظتم ؟ ليس كسمكة عادية ، بل كذاك النوع الذي يعيش في قعر المحيطات »

أخذت جرعة مناسبة من النبيذ . كان نبيذاً ممتازاً من نوع الراين .

« الشيء الغريب هو أن كل ذلك قد نجم عن ذاك الهيكل العام للمسرحية الذي كنت ألصقته على الجدار . لقد رأيت وسمعت كل شيء . لماذا أحاول الكتابة ـ ايه ؟ كان ثمة سبب واحد لتفكيري بالأمر ـ وهو لإزالة تعاستي . فأنتما تعرفان كم أنا بائس ـ أليس كذلك ؟ »

صرنا ننظر إلى بعضنا بعضاً ـ نظرة سكونية .

« إنه شيء مضحك ، ولكن في تلك الحالة كنت أبدو في كل شيء تماماً كما يجب أن أكون . لم يكن عليّ أن أبذل أدنى جهد لكي أفهم : فكل شيء كان واضح المعاني ، مبرراً وحقيقياً بشكل أزلي . لم تكونا شيطانتين كما كنت أعتبركما أحياناً . وبالمقابل ، لم تكونا ملاكين لأنني ألقيت نظرة خاطفة على الملائكة الحقيقيين . لقد كانوا شيئاً آخر . لا أستطيع القول إنني كنت أريد رؤية الأشياء بتلك الطريقة في جميع الأوقات ... بل أن أرى التماثيل فقط » .

هنا تدخلت ستاسيا قائلة : « وأية طريقة ؟ »

قلتُ : « كل شيء في الوقت الحالي دولاب معدوم الحركة : الماضي ، الحاضر ، المستقبل ، الأرض ، الهواء ، النار والماء . دولاب من النور . النور يدور ولكن الدولاب لا يدور »

تناولتْ قلم رصاص وكأنها تريد تدوين مذكرة .

قلتُ : «لا تكتبي ، فالكلمات عاجزة عن إبراز ما هو واقعي في هذا الكلام . فما أحكيه لك لا يساوي شيئاً . أنا أتحدث لأنني لا حيلة لي في ذلك . ولكنه مجرد حديث وربما لا أستطيع أن أخبرك بما حدث . إنه مثل تلك المسرحية . المسرحية التي رأيتها وسمعتها ليس بمقدور إنسان أن يكتبها . فما يكتبه المرء هو ما يريده أن يحدث . خذي نحن مثلاً ـ فنحن لم نحدث ـ ما رأيك ؟ إذ أننا لم نكن موضوعاً لتفكير أحد . نحن موجودون ـ هذا كل ما في الأمر ـ ولقد كنا موجودين ـ ثمة فرق ـ ما هو ؟ »

التفت مباشرة إلى مونا :

ـ «أنا فعلاً بصدد البحث عن عمل فوراً ـ فأنتما لا تعتقدان أنني سأكتب ، بينما أنا أحيا هذا النمط من الحياة ـ هل تعتقدان ذلك ؟ »

ـ «دعونا نحيا حياة البغايا ـ هذه هي فكرتي في الوقت الحاضر» .

أفلتت من شفتيها تمتمة كما لو كانت احتجاجاً ، ولكنها تلاشت على الفور

ـ «نعم ، عندما تنتهي العطلة سأباشر عملاً . غداً سأتصل بالناس لأجعلهم يعرفون أننا سنكون موجودين هناك في عيد الميلاد . أرجوكما لا تدعاني أسقط . لا أستطيع الذهاب الى هناك وحدي ـ أنا لن أذهب . وحاولا أن تبدوا طبيعيتين ولو مرة احدة . هل ستفعلان ذلك ؟ لا ماكياج ، لا سيارة... يا الهي ، إنه لمن القساوة أن أواجهها تحت أفضل الشروط» .

قالت مونا لستاسيا : «تعالي أنتِ أيضاً! »

قالت ستاسيا : «بحق يسوع . لا! »

قالت مونا : «لقد وصلت! فأنا لا استطيع اختراقه بدونك»

تدخلتُ قائلاً : «نعم ، تعالي فوراً ، فبوجودك لن نكون في خطر السقوط من النعاس . يكفي أن تلبسي فستاناً أو تنورة . صففي شعرك على شكل كعكة إن أمكن ذلك» .

ولدى سماعهما ذلك أصيبتا بشيء من الهستيريا ـ ماذا ـ أتريد ستاسيا أن تتصرف كسيدة . شيء منافٍ للطبيعة والعقل .

قالت مونا : «إنك تحاول أن تجعل منها مهرجة» .

قالت ستاسيا متذمرة : «على الأقل ، أنا لست سعيدة» .

قلت : «أنا لا أريدك أن تكوني سوى ذاتك الحلوة . ولكن لا تتقدمي كالحصان والعربة ـ هذا كل ما في الأمر» .

حدث كما توقعت تماماً . ففي حوالي الساعة الثالثة من صباح عيد الميلاد جاءتا تترنحان وهما في حالة من الثمالة . أما الجرو الذي كانتا تصحبانه فقد كان يبدو وكأنه تلقى ضربة على رأسه . كان عليّ أن أجردهما من ملابسهما وأحشرهما في الفراش عندما حسبت أنهما تغطان في نومٍ عميق ولم تعودا قادرتين على شيء سوى الشخير . عندها صارتا تشقان طريقهما إلى غرفة النوم وهما تترنحان وتتمايلان . ثم صارتا ترتطمان بالطاولات والكراسي ثم تسقطان أرضاً وتنهضان ثانية وهم تصرخان وتتأوهان وتئنان وتصفران كما يفعل السكارى المدمنون تماماً . كما أنهما تقيأتا قليلاً وبمقادير لا بأس بها . وعندما تكومتا في الفراش نصحتهما بالإسراع إلى النوم قدر الإمكان . وقد أخبرتهما أن جرس المنبه مقرون على الساعة التاسعة النصف . لقد تمكنت بشق النفس من أخذ غفوة من النوم ؛ إذ بقيت طوال الليل أتقلب في الفراش وأستشيط غضباً .

رن جرس المنبه في تمام الساعة التاسعة والنصف على نحو مباغت وأطلق صوتاً مرتفعاً يفوق طاقتي على الاحتمال . فنهضت من فوري لإسكاته . رأيتهما ممدودتين على الفراش كالأموات . فصرت أنكلهما وأنحرهما وأسحبهما من الفراش متنقلاً من واحدة إلى الأخرى وأنا أصفعهما ثم سحبت عنهما الأغطية وصرت أشتمهما بشكل رائع مهدداً إياهما بجلدهما بالقشاط إن هما لم تستفيقا . وقد استغرقت نصف ساعة لكي أجعلهما تقفان على قدميهما ، وأصابني من الإثارة ما يكفي لمنع التعب من أن ينال من يدي .

هتفت بهما : «خذا دوشاً! بسرعة! سأعمل لكما قهوة» .

قالت ستاسيا : «كيف يمكنك أن تكون بهذه الفظاظة ؟» .

قالت مونا : «لماذا لا تتصل وتقول إننا سنأتي في المساء على العشاء ؟»

فأجبتهما هاتفاً : «لا أستطيع! ولا أريد! هم ينتظروننا الساعة الواحدة ظهراً وليس الواحدة ليلاً» .

قالت مونا متوسلة : «أخبرهم أنني مريضة» .

ـ «لن أفعل ذلك . ستذهبين ولو كان في ذلك موتك ـ هل تفهمين ؟»

عندما كنا نتناول القهوة حكتا لي عما اشترتاه من الهدايا . وشرحتا لي أن تلك الهدايا هي السبب في تلك (السكرة) ـ أما كيف حصل ذلك ؟ حسناً ، فهما لكي تجمعا النقود التي اشترتا بها الهدايا كان عليهما أن تظلا على مقربة من أحد المحسنين السذج الذي كان يقضي فترة استجمام مدتها ثلاثة أيام . وهكذا تحولتا إلى هذا النتن دون أن تدريا ذلك . لا ، فقد كانتا تأملان في التملص منه ما لم يتم شراء الهدايا ، لكنه كان ابن قحبة عتيقاً بارعاً ولم يكن من السهل اصطياده . على كلٍ ، لقد كانتا محظوظتين برجوعهما إلى البيت ، حسب اعترافهما .

كانت القصة محبوكة بإتقان . ومن المحتمل أنها كانت تحتوي نصف الحقيقة حسبما استنتجته وأنا أرتشف القهوة .

قلت : «ارتدي أي شيء لعين... من فضلك!»

قالت مونا : «أنا سأتدبر أمرها ، لا تقلق . دعنا وحدنا بضع دقائق» .

فقلت لهما : «طيب! ولكن تذكرا الموعد... إنه الساعة الواحدة تماماً!»

عندها قررت أن أفضل شيء بالنسبة لي هو أن أتنزّه . فقد كنت أعلم علم اليقين أن ستاسيا ستحتاج إلى ساعة بأكملها لكي تظهر بالمظهر الذي يرضيها ، ناهيك عن أنني كنت بحاجة إلى نفسٍ من الهواء العليل .

عندما فتحت الباب وهممت بالخروج قلت لهما :

«تذكرا أن لديكما من الوقت ساعة لا أكثر ، فإذا لم تكونا جاهزتين سننصرف وأنتما كما أنتما» .

كان الجو صاحياً وذا برودة منعشة . وكان الثلج الذي هطل في الليل كافياً لجعل عيد الميلاد ناصع البياض . كانت الشوارع شبه مقفرة ، تجمع كل المسيحيين ، الصالحون منهم والطالحون ، حول الشجرة الدائمة الخضرة يفلشون رزم الهدايا ، ويتعانقون ويتبادلون القبلات ، يتناسون الماضي ويتظاهرون بأن كل شيء على ما يرام : «الحمد لله أن كل شيء قد انتهى» .

رحت أتمشى على مهلٍ باتجاه احواض السفن لألقي نظرة على السفن التي تمخر عباب المحيطات والتي كانت مصفوفة جنباً إلى جنب كأنها كلاب مقيدة بالسلاسل . كان كل شيء هادئاً كالمقبرة . وكان الثلج اللامع مثل الميكا في ضوء الشمس ملتصقاً بحبال الأشرعة والصواري كالقطن المندوف ، مما أعطى المشهد برمته مسحة من عالم الأشباح . يممت وجهي نحو المرتفعات لأزور أحياء الأجانب . هناك ، حيث عالم الأموات ، وليس عالم الأشباح . إذ حتى بهجة الميلاد ذاتها قد أخفقت في إعطاء هذه الأكواخ مظهر المساكن البشرية . ولكن - من يبالي ؟ كانوا في معظمهم همجاً . فهناك العرب الرثّون ، الصينيون ذوي الوجوه اللوزية ، والهندوس وعمال التشحيم والزنوج .

ذاك الولد القادم باتجاهي ، إنه عربي على الأرجح ، يرتدي ملابس مصنوعة من نسيج قطني خشن وقلنسوته مطعوجة إلى الخلف وشبشباً مهترئاً مصنوعاً من قماش السجاد . لدى مروره بجانبي تمتم قائلاً : «الحمد لله!» بقد قليل مررت باثنين من المكسيكيين يتشاجران دون أن يقويا على تسديد الضربات إلى بعضهما بسبب السكر الشديد وقد تجمع حولهما رهط من الأولاد يرتدون أسمالاً بالية ، وكانوا يحرضونهما على الاقتتال ، وهم يرددون عبارات التحريض . في هذه اللحظات ، ومن الباب الجانبي لصالون حلاقة من الطراز العتيق خرجت اثنتان من أقذر العاهرات منظراً وصارتا تترنحان في وضح النهار - نهار عيد الميلاد الأبيض النقي . انحنت إحداهما لترفع جوربها

فوقعت على وجهها . نظرت إليها رفيقتها ، فنهضت من تلقاء نفسها وكأن شيئاً لم يكن ، ثم تابعت سيرها بفردة حذاء واحدة ، وصارت تدندن بأغنية تافهة بكل هدوء وبطريقتها المخبولة وهي ترهو كالفرس .

كان يوماً مجيداً حقاً . كان شديد الصفاء ، شديد العذوبة وشديد الحيوية . ليتهُ لم يكن عيد الميلاد! أتراهما فرغتا من ارتداء الثياب! عادت إليّ معنوياتي . قلت في نفسي إنني سأواجه الأمر ، ولكن لعلهما لا تجعلان من نفسيهما حمقاوين إلى آخر حد . بدأت ترد إلى ذهني كل أصناف الأكاذيب بصدد الحكايات التي يتوجب أن أنسجها لكي أطمئن الناس من ذوي القلق الدائم حول أحوالنا . كأن يسألوا مثلاً :

ـ «هل تكتب هذه الأيام ؟» فأبادر إلى القول :

ـ «بالتأكيد ، لقد أنتجت دزينة من القصص ، اسألوا مونا! »

ـ «بالنسبة لمونا ، كيف حالها مع العمل ؟» (لقد نسيت ـ هل يعرفون أين تعمل ؟ ماذا قلت لهم آخرمرة ؟) . أما فيما يتعلق بستاسيا فلست أدري أي جهنم سألفق لهم هناك . ربما سأقول إنها صديقة قديمة من صديقات مونا أو إنها إحدى معارفها في المدرسة . وهي الآن فنانة .

دخلت البيت فوجدت ستاسيا غارقة في البكاء وهي تحاول أن تحشر قدميها في حذائها ذي الكعب العالي وقد تعرّت حتى خصرها إلا من تنورة داخلية بيضاء لا يعلم إلا المسيح من أين مصدرها ، وأربطة جوارب وشعر منفوش .

قالت وهي تئن : «لن أفعل ذلك ، لماذا ينبغي عليّ أن أذهب ؟»

يبدو أن مونا كانت تظن الأمر تسلية صاخبة ، فالملابس والأمشاط ودبابيس الشعر كانت كلها ملقاة على الأرض . تابعت ستاسيا الكلام بقولها :

ـ «لن نذهب سيراً على الأقدام ـ سنأخذ سيارة» .

ـ «هل يجب أن ألبس قبعة ؟»

ـ «سنرى ، يا عزيزتي»

قالتا متوسلتين : «اتركنا وحدنا! »

وهكذا قبعت في زاوية أراقب ما تقومان به من أعمال وعيني على الساعة . لقد بلغت الثانية عشرة تماماً . قلت لهما :

ـ «اسمعا ـ لا تعقّدا الأمور ـ يكفي أن تعملي لها شعرها وتلبسيها تنورة»

صارتا تجربان الأقراط والأطواق ، فهتفت بهما :

ـ « كفى ، كفى ، لقد صارت مثل شجرة الميلاد » .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف عندما نزلنا إلى الشارع ،لنأخذ سيارة . من الطبيعي أنه لم تكن توجد سيارة . بدأنا نمشي . صارت ستاسيا تعرج . لقد خلعت القبعة وارتدت البيرية . أصبح شكلها الآن أكثر انسجاماً وتناسقاً ، فالأمر بالنسبة لها يعتبر محنة بحد ذاته .

وأخيراً نجحنا في تدبير سيارة فقلت لنفسي متمتماً :

ـ « الحمد لله أننا لن نتأخر عن الموعد أكثر من خمس دقائق » .

بعد صعودنا إلى السيارة صارت ستاسيا تنفض الغبار عن حذائها . ثم بدأتا تقهقهان . كانت مونا تريد من ستاسيا أن تضع قليلاً من أحمر الشفاه لكي تبدو أكثر أنوثة . فقلت لهما ـ فيما يشبه التحذير :

ـ « إذا بدت أكثر أنوثة مما هي عليه فسيظنونها دجالة »

فسألت ستاسيا : « كم من الوقت سنمكث هناك ؟ »

ـ « لا أستطيع تحديد ذلك . بيد أننا سنهرب عندما نتمكن من ذلك ، وآمل أن يكون ذلك بحدود السابعة أو الثامنة »

ـ « من هذا المساء ؟ »

ـ « نعم ، هذا المساء وليس صباح الغد »

فقالت وهي تصفر : « يا يسوع! لن أقدر على تحمل ذلك »

وبينما كنا نقترب من المكان المقصود قلت للسائق أن يتوقف عند المنعطف وليس أمام المنزل .

سألت مونا : «لماذا ؟»

ـ «هكذا»

توقفت السيارة فترجلنا منها وتكومنا على الرصيف حيث كانت ستاسيا حافية القدمين إلا من الجوارب وحذاؤها في يدها .

قلت لها : «البسيه!»

لمحت صندوقاً كبيراً من خشب الصنوبر خارج محل المتعهد الكائن عند المنعطف قلت لها آمراً : «اجلسي على ذلك الصندوق والبسي حذاءك»

رضخت للأمر مثل طفلة . كانت قدماها مبللتين كالعادة . لكنها لم تكن تبالي بذلك . وبينما كانت تجاهد في لبس حذائها سقطت البيريه عن رأسها فانفلش شعرها . بادرت مونا بغضب إلى إعادته إلى وضعه السابق ، لكن دبابيس الشعر كانت قد اختفت . قلت متذمراً : «دعيه على حاله ـ ما المشكلة في ذلك ؟»

هزت ستاسيا رأسها بقوة كأنها مهرة رشيقة فانسدل شعرها على كتفيها . حاولت أن تسوي البيريه ، لكنها صارت مضحكة كيفما كانت تميل .

ـ هلموا ، دعونا نذهب ـ احمليها بيدك!»

سألت وهي تعرج في مشيتها :

ـ «هل البيت بعيد من هنا ؟»

ـ «في منتصف الطريق الآتي من ساحة المدينة»

وهكذا سرنا في عرض شارع (الأحزان المبكرة) . كنا ثلاثياً عجيباً ـ كما يحلو لأولريك أن يقول . كنت أسترق النظر إلى عيون الجيران المختلسة وهم يحملقون فينا من وراء الستائر الكثيفة المنشاة .

كانوا يقولون في سرهم : ها هو إبن ميلر . وتلك ـ لا ـ إنها زوجته ـ أيهما ؟ كان والدي واقفاً خارج البيت لكي يستقبلنا .

قال بصوت مغتبط :

ـ «لقد تأخرتم قليلاً ـ كعادتكم» .

ـ «نعم ، كيف حالك ؟ كل عام وانتم بخير» . وانحنيت لأقبله على خده كما كنت أفعل دائماً . قدمت له ستاسيا على أنها صديقة قديمة من صديقات مونا ، وشرحت له إنها لم تقدر على فراقها من تلقاء ذاتها . سلّم على ستاسيا بحرارة واصطحبنا جميعاً إلى داخل البيت . كانت شقيقتي واقفة في البهو وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

ـ « كل عام وأنت بخير يا لوريت . لوريت ، هذه ستاسيا »

بادرت لوريت إلى معانقة ستاسيا بحرارة ، ثم صاحت :

ـ « مونا! كيف حالك ؟ حَسِبْنا أنك لن تأتي »

سألت : « أين الوالدة ؟ »

ـ « في المطبخ »

في تلك اللحظة خرجت والدتي . وهي تبتسم تلك الابتسامة والحزينة الكئيبة التي تفضح كالبلور الصافي ما يدور في رأسها :

ـ دائماً ـ كالعادة ـ تأتون متأخرين ـ ودائماً هناك ما هو غير متوقع »

وطفقت تعانق كل واحدٍ منا على حدة .

ـ « اجلسوا! فالديك الرومي جاهز» . ثم رمقتنا بواحدة من ابتساماتها الساخرة الماكرة وهي تقول :

ـ « لقد فطرتم حسب ظني... ؟ »

ـ « بالطبع ، يا أماه ، ومنذ ساعات» . ثم رمقتني بنظرة كأنها تقول :

ـ « أعرف أنك تكذب» . والتفتت إلى الناحية الأخرى .

في هذه الأثناء كانت مونا تفلش الهدايا .

قالت لوريت :«لم يكن من لزوم لذلك» تلك العبارة التي حفظتها عن والدتي ، ثم أضافت قائلة : «ديك رومي وزنه أربعة عشر باونداً»

ثم توجهت إليَ بقولها : « حتى الوزراء صاروا يتمنون أن تتذكرهم يا هنري »

ألقيت نظرة خاطفة على ستاسيا لأرى كيف تتصرف . كانت ترتسم على

وجهها بقايا إبتسامة تنم عن مزاج طيب . فهي أصلاً تبدو كأنها ممسوسة .
سأل الوالد : «ما رأيكم بكأسٍ من البورت أولاً ؟»
سكب ثلاثة كؤوس وناولنا إياها . فسألت ستاسيا :
- «وأنت ؟» فرد عليها بقوله :
- «لقد أقلعت عنه منذ أمدٍ طويل» . ثم رفع كأساً فارغاً وهويقول : «في صحتكم!»

وهكذ بدأت مأدبة الغداء على شرف عيد الميلاد . كل عام وأنتم بخير يا كل الناس . كل عام وأنتم بخير أيتها الخيول والبغال ويا أيها الاتراك والكحوليون والطرشان والبكمان والعميان والعرجان والهمجيون والمنحرفون . عيد ميلاد سعيد! المجد لله في الأعالي! المجد لله في الأعالي! سلام على الأرض! يا من ستلوطون وتذبحون بعضكم بعضاً إلى يوم القيامة .

هذا ما قلته وأنا أرفع كأسي بصمت . وكما درجت العادة فقد بدأت أختنق بلعابي . إنها عادة مترسبة من أيام الولدنة . كانت والدتي تجلس قبالتي كما كانت تفعل دائماً وفي يدها سكين المطبخ . على يميني كان يجلس والدي الذي تعودت أن أرمقه بنظرة من زاوية عيني خوفاً من أن ينفجر وهو في حالة من الثمالة في وجه أمي بسبب تعليقاتها الساخرة اللاذعة ، على الرغم من أنه ما زال مجتنباً للخمر منذ سنوات عديدة . بقيت أغص بلعابي حتى بدون وجود أية لقمة في فمي . فكل ما يقال قد قيل تماماً وبنفس الطريقة وبنفس النبرة آلاف المرات . وبالمقابل كانت ردودي هي نفسها أيضاً . كنت أتكلم كما لو كان عمري اثني عشر عاماً . وقد تعلمت أن أرتل تلك الأقاويل عن ظهر قلب . في الحقيقة لم أعد أذكر - كما كنت أفعل عندما كنت صبياً - تلك الأسماء الرهيبة مثل جاك لندن أو كارل ماركس أو بلزاك أو يوجين ديْسْ . فقد كنت متوتر الأعصاب قليلاً . لأنني على الرغم من معرفتي بكل المحرمات عن ظهر قلب ، إلا أن مونا وستاسيا كانتا لا تزالان «روحين طليقتين» .

ومن يدري : «فقد كان من الممكن أن تتصرفا على هذا الأساس . ومن

كان بإمكانه التكهن في تلك اللحظة بأن ستاسيا ستتلفظ بواحد من تلك الأسماء الأجنبية مثل كاندنسكي أو مارك شاغال أو زادكين أو برانكوس أو ليبشيتش ، لا بل والأنكى من ذلك ، أنها ربما كانت ستعمد إلى نبش أسماء أخرى مثل راما كريشنا أو سوامي فيفيكاندا أو غواتاما البوذي . كنت أدعو من كل قلبي ، حتى وهي في حالة السكر ، ألا تذكر أسماء أخرى مثل إيما غولدمان أو الكزاندر بركمان أو الأمير بروبوتكين .

لحسن الحظ أن أختي كانت مشغولة باستعراض أسماء المذيعين والمعلقين والمغنين المدندنين ونجوم الكوميديا الموسيقية والجيران والأقارب ، هذه القائمة التي تستدعي برمتها ، جملة وتفصيلاً ، فيضاً من الكوارث ، الأمر الذي دفعها إلى البكاء والهذيان وسيلان اللعاب والشهق والتنشق .

قلت في نفسي : « إن عزيزتنا ستاسيا تفعل بذلك خيراً حميداً » .

وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر عيها آثار الطعام الثقيل والموسيل اللذيذ . وكانتا من قبل قد أخذتا غفوة ، وكانت مونا تجاهد لكبح التثاؤبات التي كانت تنتفض صاعدة كالأمواج .

قال العجوز وقد أدرك الوضع : « أظن أنكم قد نمتم متأخرين ليلة البارحة ؟ » . فقلت ملطفاً الجو :

ـ « لا ، ليس كثيراً ، فنحن ، كما تعلم ، لا نأوي إلى الفراش قبل منتصف الليل » .

قالت أمي : « أظن أنك تكتب في الليل » .

وهنا صُعقتُ ؛ إذ أنها في العادة لم تكن تأتي على ذكر خربشاتي دون أن يترافق ذلك بالتوبيخ أو أية علامة من علامات الاشمئزاز .

قلت لها : « نعم ، في الليل أقوم بعملي . فالليل يمنحني الهدوء وبالتالي أتمكن من التفكير بشكل أفضل » .

ـ « وأثناء النهار ؟ » . كنت على وشك الإجابة بقولي :

ـ « أشتغل طبعاً » . لكنني تأكدت في الحال من أن مجرد ذكر الشغل سوف يعقد الأمور . لذا بادرت إلى القول :

ـ « عادة أذهب إلى المكتبة العامة لإجراء الأبحاث » .

والآن ، لنعد إلى ستاسيا ، فماذا كانت تفعل ؟

إن أكثر ما أثار دهشتي هو ما قاله والدي دون تفكير مسبق حول ستاسيا :

ـ « إنها فنانة ، أي واحد يمكنه أن يلاحظ ذلك! » .

قالت أمي : « أوه ؟ » كما لو أن وقع الكلمة قد سبب لها ذعراً .

ـ « وهل تقبض لقاء ذلك ؟ »

فابتسمت ستاسيا بتسامح . ثم شرحت لهم بلباقة أن الفن لم يكن في البداية يدر كثيراً من المال ، مضيفة أنه من حسن الحظ أن حراسها يرسلون لها مبالغ ضئيلة من وقت لآخر .

فبادر العجوز إلى التساؤل : « أظن أنك تملكين مرسماً ؟ »

قالت : « نعم ، عندي عليّة نموذجية في الريف » .

وهنا تدخلت مونا مثيرة انزعاجي وبطريقتها المعتادة في التوسع في الموضوع ، لكنني نجحت في إسكاتها على أفضل وجه وذلك لأن العجوز الذي ابتلع الصنارة والخيط والطعم ألمح إلى أنه سيزور ستاسيا ذات يوم في مرسمها ، وقال أنه يحب رؤية الفنانين وهم منهمكون في عملهم .

ثم حولت موضوع المناقشة فوراً إلى الحديث عن هومر ڤيسلوڤ وبورغر ورايدر وسيسلي ـ أولئك الفنانين المفضلين لديه . رفعت ستاسيا حاجبيها لدى ذكر هذه الأسماء المتنافرة ، لا بل أنها دهشت أكثر عندما بدأ العجوز يلهج بذكر مشاهير الرسامين الأمريكيين اللذين درج على تعليق لوحاتهم في محل الخياطة ـ كما شرح لنا (كان ذلك قبل أن يبيع المحل)

ولكنني إكراماً لستاسيا وتمشياً مع اللعبة فقد ذكرته باسم رسكين وبكتاب / حجارة البندقية/ الوحيد الذي سبق له أن طالعه . ثم جعلته يستعيد

ذكرياته حول ب . ت . بارنوم وجيني ليند وغيرهما من مشاهير أيامه . وأثناء فترة الاستراحة نبهتنا لوريت إلى اوبريتا سوف تذاع من الراديو في الثالثة والنصف ، وسألت إن كنا نرغب في سماعها . في تلك الأثناء كان قد حان وقت تقديم بودينغ الخوخ مع الصلصة الحادة الشهية فنسيت لوريت حكاية الأوبريتا مؤقتاً .

لقد نبهتني عبارة «الثالثة والنصف» إلى أنه ما تزال أمامنا جلسة طويلة . تساءلت في نفسي كيف سنتدبر أمورنا للحفاظ على استمرارية الأحاديث إلى أن يحين وقت الذهاب ، ومتى سيكون ممكناً الاستئذان بالانصراف دون أن نبدو متلهفين لذلك ؟ عندها بدأت أحك فروة رأسي .

وبينما كنت أتسلى هكذا ، لاحظت شيئاً فشيئاً أن مونا وستاسيا قد صارتا مثقلتين بالنعاس . وكان من الواضح أنهما بالكاد تستطيعان فتح عينيهما . ما هو الموضوع الذي كان بإمكاني أن أطرحه لإثارتهما ، دون أن أسبب لهما في الوقت نفسه شروداً في ذهنيهما ؟ لا بد من شيء تافه ولكنه مع ذلك ليس تافهاً إلى درجة كبيرة .

استيقظا أيتها المغفلتان! هكذا نهرتهما لكي أحكي لهما شيئاً ما . ربما عن المصريين القدماء ؟ وإنقاذاً لحياتي لم أفكر في شيء آخر أفضل من ذلك . لأحاول! لأحاول! فجأة تأكدت من أن الجميع كانوا غارقين في صمت عميق . حتى لوريت كانت مكومة على نفسها . ترى ـ كم مضى عليهم على هذه الحالة ؟ فكر بسرعة! بأي شيء للخروج من هذه الورطة .

ماذا ؟ رمسيس مرة أخرى (...ي) في رمسيس! فكر بسرعة يا أبله ، فكر! أي شيء .

قالت مونا وهي تنهض بتثاقل وترتطم بالكرسي :

ـ «اعذروني ، أعتقد أن لا مانع لديكم إن استلقيت لعدة دقائق ؟ لقد أصابني صداع فالق» .

كانت الأريكة على بعد قدم واحد أو قدمين . ثم ، وبدون أدنى ضجة ،

ارتمت على الأريكة وأغمضت عينيها . (كرمى للمسيح لا تشخري فوراً)

قال والدي : «لا بد أنها منهكة» . ثم تطلع إلى ستاسيا وقال :

ـ «لماذا لا تأخذين غفوة صغيرة ؟ فقد يفيدك ذلك» .

ولكن ستاسا لم تكن بحاجة إلى هذه الملاطفات . وفي غضون لحظة كانت ممدة قرب مونا الغارقة في نوم كنوم الأموات .

قالت والدتي للوريت : «اجلبي لهما بطانية . تلك البطانية الرقيقة في الطابق العلوي في الخزانة» .

كانت الأريكة ضيقة قليلاً ولا تتسع لكلتيهما معاً بشكل مريح . فصارتا تتقلبان وتتعاصران . تئنان وتقهقهان ، ثم تتثاءبان بوقاحة .

وفجأة صدر صوت قوي! لقد انفلتت نوابض الأريكة فسقطت ستاسيا على الأرض . أما مونا فقد كان الأمر بالنسبة لها مضحكاً بشكل مفرط . فاسترسلتْ في الضحك بصوت مرتفع وصاخب لم أستسغه . ولكن ، كيف عرفت ، إذاً ، أن تلك الأريكة النفيسة التي صمدت قرابة خمسين عاماً كان من الممكن أن تبقى لعشر سنوات أو عشرين سنة أخرى لو وجدت العناية المناسبة ؟ في «بيتنا» لم يكن المرء يضحك من مصيبة كهذه .

في هذه الأثناء كانت والدتي التي بقيت منقبضة كما هي ، قد ركعت على يديها وركبتيها لترى كيف وأين انفرطت الأريكة .

كانت ستاسيا مستلقية حيث سقطت كما لو أنها بانتظار التعليمات لكي تنهض . دارت أمي حولها كما يدور القندس حول شجرة ساقطة في هذه اللحظة عادت لوريت ومعها البطانية وصارت تراقب المشهد مشدوهة كالبلهاء (إذ لم يسبق أن حدث شيء كهذا في بيتنا) .

ومن ناحية أخرى ، كان العجوز الذي لم يوفق في تثبيت أي شيء في مكانه ، قد مضى إلى باحة المنزل الخلفية للبحث عن قطع من الآجر وكانت أمي تقول متسائلة : «أين المطرقة» وقد أثار سخطها منظر أبي وهو يحمل ملء ذراعيه من القرميد . فهي كانت على وشك أن تثبت الأريكة في وضعها الصحيح وبسرعة .

قال العجوز : «فيما بعد ، إنهما تريدان أن تأخذا غفوة الآن»

ثم جثا على أطرافه الأربعة إلى الأريكة وأدار واجهتها نحو الجدار . ثم استلقيتا عليها بهدوء مثل السناجب المرهقة .

اتخذت لنفسي كرسياً قرب الطاولة وصرت أراقب طقوس مسح الطاولة لقد شهدت هذه الطقوس ألف مرة دون أن تتغير طريقة أدائها ، وفي المطبخ الشيء نفسه أيضاً : الأشياء الأولى أولاً...

قلت في نفسي : «يا لكما من عاهرتين ماكرتين!» فقد كان عليهما أن تمسحا الطاولة وأن تنظفا الصحون ، صداع! هكذا ببساطة عندما كان لا بد من مواجهة هذه المحنة بجرأة ؛ إذ كانت تلك هي الطريقة المثلى باعتبار أنني كنت أعرف كل جزئيات المنزل . والآن لم تعد مشكلة موضوع المناقشة قائمة : فهناك موضوع القطط الميتة ، صراصير العام الماضي ، تقرحات السيد شفابنهوف ، صلاة الأحد الأخير ، ماسحات السجاد ، فيبرو فيلدز او انشودة المستزنج* الأخير . كان عليّ أن أبقى مفتوح العينين حتي لو بقيت على هذا الحال حتى منتصف الليل . (كم ستبقيان نائمتين ــ هاتان السكيرتان ؟) وإذا شعرتا بالارتياح لدى استيقظاهما فربما لن تنزعجا من طول مدة مكوثنا . كنت أعلم أننا من المفروض أن نتناول وجبة خفيفة قبل الذهاب . فليس بمقدور المرء أن ينسل هارباً في الساعة السادسة أو الخامسة حتى ولو كان عيد الميلاد . كما أنه لم يكن بمقدورنا الانصراف دون أن نجتمع حول شجرة الميلاد ونغني تلك الأغنية الفاضحة : «آه يا شجرة الصنوبر» . وكان من المؤكد أن يليها عرض كامل لكل الصور المتعلقة بأشجار الميلاد التي سبق لنا أن تحلقنا حولها ومقارنتها مع بعضها البعض . وكم كنت شغوفاً عندما كنت صبياً لرؤية الهدايا المكومة لأجلي تحت شجرة الميلاد (إذ لا ذكر للوريت باعتبارها بنتاً) . كم كنت ولداً عجيباً! كم كنت مطالعاً جيداً وعازفاً جيداً

---

* المستزنج : عضو في فرقة كوميدية مؤلفة من ممثلين بيض يظهرون على المسرح بمظهر الزنوج ويقدمون للجمهور ضروباً من الأغاني والنكات ...الخ (م)

للبيانو! وكم من الدراجات والزلاجات كنت أقتني! (ناهيك عن بارودة الصيد والمسدس) . هل لا يزال المسدس في الدرج حيث تحفظ السكاكين والشوكات ؟ لقد كانت أسوأ اللحظات التي عشناها هي تلك الليلة التي ذهبت فيها والدتي للبحث عن المسدس . ولحسن الحظ أنه لم تكن توجد فيه أية طلقة في بيت النار . من المحتمل أنها كانت تعرف ذلك ، ولكن الأمر سيان .

لا... لم يتبدل شيء . في سن الثانية عشرة كانت ساعة البيت قد توقفت . ليس مهماً ما الذي تناهى إلى مسامعهم من همس ؛ فقد كنت دائماً ذاك الولد الصغير المدلل الذي قدر له ذات يوم أن يكبر ليصبح خياطاً وتاجراً مريشاً . أما كل ذاك الهراء حول الكتابة فكان لا بد من تجاوزه عاجلاً أم آجلاً . وهذه الحياة الجديدة الغريبة ستنتهي أيضاً ، في حينها ، وسوف أعود إلى جادة الصواب حتماً . فكل إنسان يحدث له ذلك عاجلاً أم آجلاً . لم يكن يقلقهم أنني ، مثل العم بول العجوز ، سأهلك نفسي . لم أكن من ذاك الصنف ؛ فضلاً عن أنني كنت أمتلك دماغاً .

كنت في أعماقي صلباً ، متهوراً ومشاكساً على أقل تقدير . كنت أطالع كثيراً وكان لي كثير من الأصدقاء . لم يكونوا يهتمون كثيراً بذكر الأسماء ولكنهم ـ على حد علمي ـ لم يتمالكوا أنفسهم عن السؤال دائماً ـ خلسة وبنبرات متكتمة ، عين إلى اليمين وعين إلى اليسار : «وكيف حال الصغيرة» يقصدون بذلك شقيقتي . ولما لم تكن لدي أدنى فكرة ، لا بل إنني لم أكن متأكداً من أنها لا تزال على قيد الحياة فقد كنت ـ حقيقة الأمر ـ أرد بطريقة هادئة : «آه ، إنها رائعة... نعم» . فتقول أمي :

ـ «نعم ؟ وهل سمعت منهم ؟» وبالمناسبة فقد كانت (هم) تتضمن زوجتي السابقة فسارعت إلى الرد «بشكل غير مباشر»

إن ستانلي يحكي لي عنهم من حين لآخر : «وكيف حاله ، ستانلي ؟»

ـ «إنه رائع...»

ـ «كم أتمنى لو كان بمقدوري أن أحدثهم عن جوني بول . ولكنهم

سيفكرون في الأمر باستغراب شديد . والسبب في ذلك هو أنني لم أشاهد جوني بول منذ كنت في سن السابعة أو الثامنة . وهذا بحد ذاته كافٍ لإثارة استغرابهم . لكن الشيء الوحيد الذي لم يشكّوا به ـ وخاصة أنت يا أمي العزيزة ـ هو بقاؤه حياً في ذاكرتي طيلة هذه السنوات المنصرمة . نعم ، فكلما دارت عجلة السنين ازداد جوني بول نصاعة وإشراقاً .

في بعض الأحيان ـ وهو ما لا تقدرون على تصوره ـ أفكر فيه وكأنه إله صغير . إنه واحد من القلائل جداً الذين تعرفت إليهم . أعتقد أنك لا تتذكرين أن جوني بول كان يمتلك أجمل صوت يمكن لإنسان أن يمتلكه ؟ وهل تعلمين أنني ـ على الرغم من كوني مجرد شخص غريب الأطوار آنذاك ـ قد رأيت من خلال عينيه ما لم يكشفه لي أحد غيره من قبل ؟ فهو بالنسبة إليك لم يكن أكثر من عامل منجم ، ولد مهاجر ، ايطالي صغير قذر لا يتقن الانكليزية . لكنه كان يحني قبعته بكل تهذيب كلما مررت من أمامه . كيف تسنّى لك أن تحلمي بأن مثل هذا النوع من البشر سيصبح بمثابة إله بالنسبة لابنك الحبيب ؟ هل عرفت شيئاً مما كان يدور في ذهن ابنك المشاكس ؟ فأنت لم تكوني راضية عن أي من الكتب التي كان يطالعها ولا عن الرفاق الذين كان يختارهم ولا عن الفتيات اللواتي وقع في حبهن ، ولا عن الألعاب التي كان يمارسها ولا عما كان يرغب في أن يصبح . فأنتِ كنت دائماً أفضل العارفين ـ أليس كذلك ؟ لكنك لم تكوني تلحين كثيراً ؛ إذ أنك كنت تتبعين أسلوب التظاهر بعدم السماع وعدم الرؤية ، أو ننقل اسلوب التصامم والتعامي . وكان علي أن أتجاوز كل هذه الحماقات في حينها . لكنني لم أفعل ذلك! كنت أزداد سوءاً عاماً بعد عام . لذا تظاهرت بأن الساعة قد توقفت عندي في سن الثانية عشرة ، وأنت ببساطة لم تكوني قادرة على إدراك حقيقة ابنك . فاخترتِ مني ذاك الجانب الذي يلائمك ألا وهو سن الثانية عشرة . أما بعد ذلك فليكن الطوفان .

في العام القادم ، وفي نفس هذه المناسبة اللعينة من السنة ، ربما ستمطرينني بالأسئلة عما اذا كنت لا أزال أكتب ، وسأجيب بنعم وسوف

تتجاهلين إجابتي أو تعتبرينها كأنها قطرة نبيذ انسكبت من غير قصد على أفضل غطاء طاولة لديك . أنت لا تريدين أن تعرفي لماذا أكتب ، ولم تكوني لتهتمين لو أني أخبرتك عن السبب الذي يدفعني إلى الكتابة . أنت تريدين أن تسمريني إلى الكرسي ، أن تجعلينني أستمع إلى المذياع الثرثار ، تريدينني أن أجلس وأستمع إلى أقاويلك الحمقاء عن الجيران والأقارب . وكنت ستثابرين على فعل ذلك حتى لو بلغ الطيش أو الجرأة حداً كافياً لإعلامك بصريح العبارة أن كل ما تتحدثين عنه هو بمثابة روث خيول بالنسبة لي . ها أنا أقبع غارقاً في تلك الزبالة حتى عنقي .

قد أجرب مسلكاً جديداً كأن أتظاهر بأنني متلهف ومتشوق . ما عنوان تلك الأوبريت ؟ إنه صوت جميل ـ جميل تماماً . قولي لهما أن تعيدا غناءها مرة أخرى ثم أخرى... وإلا فإني قد أنسل إلى الطابق العلوي وأنبش النزل بحثاً عن تسجيلات (كاروز) القديمة . لقد كان صوته عذباً فهو لا يزال يمتلك نفس الصوت ؟ (نعم ، شكراً ، سأدخن سيجاراً) ولكن لا تقدمي لي مشروباً آخر من فضلك! صارت عيناي تؤلماني ألماً واخزاً... وحده التمرد على الشيخوخة هو الذي يبقيني مستيقظاً على الدوام . وما لم أتمكن من مقاومته هو أن أنسل إلى الطابق العلوي لكي ألقي نظرة على غرفة النوم المستطيلة الصغيرة جداً والقذرة والتي تخلو من أي كرسي أو بساط أو لوحة ـ ثم أنام نوم الأموات . وكم مرة ، عندما كنت أرمي بنفسي على السرير ، دعوت إلى الله أن لا أفتح عيني بعد ذلك!

ذات مرة ـ هل تذكرين يا أمي العزيزة ـ سكبتِ عليَّ سطلاً من الماء البارد لأنني كنت متكاسلاً وعاطلاً لا أصلح لشيء . لقد كنت فعلاً أستلقي هناك لمدة ثمان وأربعين ساعة . ولكن هل الكسل هو الذي كان يبقيني مسمراً إلى الفراش ؟ ما لم تعرفيه يا أماه أن ما كان يثبطني هو انكسار القلب . وكنت ستضحكين أيضاً لو أنني كنت أحمق لدرجة أن أفكر بوضع ثقتي فيك . يا لتلك الغرفة ـ غرفة النوم الصغيرة الرهيبة! لا بد أنني قد متُّ فيها ألف ميتة . لكنني في تلك الغرفة بالذات كنت أمتلك أحلامي ورؤاي . نعم ، حتى أنني كنت أصلي

في ذاك السرير والدموع الغزيرة الرطبة تتدحرج على وجنتي . (كم كنت أريدها ـ هي لا غيرها!) وعندما فشلت في ذلك وبعد أن أصبحت ـ أخيراً وبعد زمن طويل ـ مستعداً وقادراً على النهوض ومواجهة العالم مرة أخرى ، لم يتبقّ لي سوى رفيق عزيز واحد استطيع الركون إليه . إنه دراجتي .

لقد ذهبت هباءً تلك التشوشات الذهنية المديدة والمستديمة ظاهرياً (التي هي مجرد أنا وذاتي) والتي كانت تدفع بالأفكار المريرة إلى ذراعي وساقي ، تتدافع ، تروح وتجيء ، ترتطم ، تنزلق كالريح فوق الممرات المصقولة والملساء والمحصوصبة . وفي كل مرة أترجل من سيارة كنت أرى صورتها هناك ومعها الاجتراف الخلفي من الألم والشك والخوف . لكن أن تكون على السرج وليس في العمل فتلك كانت نعمة إلهية . لقد كانت الدراجة جزءاً مني ، تستجيب لرغباتي دون أن يقدر أي شيء آخر غيرها على فعل ذلك . لا ، لا يا أبوي الأعميين ، أنتما لم تقولا لي شيئاً ، لم تفعلا من أجلي شيئاً يمنحني الفرح والراحة مثلما كانت تمنحني تلك الآلة . ليتني كنت قادراً على أخذكما بعيداً ـ مثل دراجتي ـ وتزييتكما وتشحيمكا بحنان وعطف!

ـ «هل ترغب في مشوار مع والدك ؟» أيقظني صوت والدتي من استغراقي في تفكيري الحالم . لم أعد أتذكر كيف انزلقت في الأريكة . ربما غفوت قليلاً دون أن أدري . على كلٍ ، لقد جفلت وقفزت لدى سماعي صوتها . وفيما كنت أفرك عيني لاحظت أنها كانت تناولني عكازة كانت لجدي سابقاً . كانت العكازة مصنوعة من الأبنوس المتين وذات قبضة فضية على شكل ثعلب ـ أو ربما كان لها شكل حيوان القشة .

بعد برهة من الزمن كنت واقفاً ومتلفعاً بمعطفي . كان والدي يقف مستعداً وهو يلوح بعكازته ذات الرأس الأبنوسي . قال لي :

ـ «الهواء سينعشك ويعيد إليك نشاطك»

توجهنا بشكل غريزي نحو المقبرة . كان والدي يحب التمشي ضمن المقبرة ، ليس لأنه كان مغرماً بالأموات ، بل بسبب وجود الأشجار والأزهار

والعصافير والذكريات التي كان يثيرها بشكل دائم هدوء الأموات وسكينتهم . كانت الممرات تحتوي على مقاعد حجرية على مسافات منتظمة ، حيث يمكن للمرء أن يجلس ويتوحد مع الطبيعة أو مع إله العالم السفلي إذا شاء ذلك . ولم يكن هناك أي داعٍ من جانبي لكي أرهق نفسي بالمثابرة على الحديث مع والدي . كان معتاداً على إجاباتي المتملصة المقتضبة وحيلي الضعيفة . وهو لم يكن يحاول أبداً أن ينتزع مني الإجابات انتزاعاً ؛ إذ يكفيه أن شخصاً آخر موجود إلى جانبه .

في طريق العودة إلى البيت مررنا بالمدرسة التي كنت أتعلم فيها عندما كنت صبياً . إزاء المدرسة كانت تصطف شقق رثة المنظر تتقدمها جميعاً واجهات دكاكين كأنها صف من الأسنان المنخورة . كان توني ماريلا يسكن في واحدة من تلك الشقق . ولسبب من الأسباب كان والدي يتوقع مني دائماً أن أتحمس لذكر اسم توني ماريلا . ولم يفوت الفرصة لكي يعلمني ـ كلما ذكرت هذا الاسم ـ بكل قفزة جديدة يحققها ابن الكلب ذاك على سلم الشهرة . كان توني يشغل منصباً كبيراً في أحد فروع الخدمة المدنية . وكان يعدو إلى مكتبه كأنه أحد رجالات الكونغرس أو ماشابه ذلك . ألم أقرأ عنه شيئاً ؟ بالنسبة لوالدي ، كان يعتبر الأمر من الأهمية كما لو أنني كنت أطمح ذات مرة إلى أن أصير توني ماريلا ـ دون أن يقدر على تحديد نتيجة ذلك .

بينما كنا نقترب من البيت مررنا بالدار التي تخص آل غروس . فجعلها مناسبة ليقول لي أن الأخوين غروس تسير أمورهما على خير ما يرام أيضاً . أحدهما برتبة نقيب في الجيش والآخر عميد بحري . صرت أفكر وأنا أصغي إليه بينما كان يتحدث بتلك الأحاديث المتفرقة وهو يضرب الأرض بعكازه أن أحدهما سيصبح جنرالاً في يوم من الأيام (حيث أن فكرة ولادة جنرال في ذلك الجوار لم تكن واردة أبداً)

سألته : « ماذا حل بذاك الولد الأهبل الذي كان يقطن في ذاك الشارع ؟ »

ـ « أنت تعرف أين كانت الاصطبلات »

ـ «لقد عضه حصان في يده فسبب له الإصابة بالغنغرينا»

ـ «هل تقصد أنه قد مات ؟»

قال والدي : «منذ زمن طويل . حقيقة الأمر أنهم جميعاً قد ماتوا ـ أقصد كل الأخوة . أحدهم ضربته صاعقة والآخر انزلق على الجليد وتحطّمت جمجمته... أوه ، نعم . أما الثالث الذي كان لا بد من حبسه مع المجانين فقد توفي متأثراً بمرض الناعور بعده مباشرة . لقد عاش الأب أطول فترة وكان ضريراً كما تذكر . وفي أواخر أيامه صار يخب في مشيته ولم يكن يعمل شيئاً سوى صناعة مصائد الفئران . سألت نفسي ، لماذا لم أفكر بالذهاب من بيت إلى بيت ، أروح وأجيء في هذا الشارع وأكتب سيرة القاطنين فيه . يا له من كتاب ذاك الذي سيخرج إلى النور! إنه (كتاب المخاوف) وأية مخاوف مألوفة هذه ! تلك المآسي اليومية لن تتسع لها صفحة الغلاف . لو كان دوموباسان حياً لوجد مادة للكتابة هناك . وصلنا البيت لنجد الجميع مستيقظين متمددين يتحادثون أحاديث ودية . أما مونا وستاسيا فكانتا تحتسيان القهوة . ومن المحتمل أنهما طالبتا بها ؛ إذ كانت القهوة مخصصة للإفطار وجلسات السمر والنميمة .

ـ «هل قمتما بمشوار جيد ؟»

ـ «نعم ، يا أماه ، لقد تجولنا في المقبرة»

ـ «رائع ، هل كانت القبور بحالة جيدة ؟» وكانت تشير بذلك إلى مدفن العائلة وقبر والدها تحديداً .

قالت : «ثمة مكان آخر بانتظارك أيضاً وبانتظار لوريت»

استرقت نظرة إلى ستاسيا ، لأرى إن كانت تكبت ابتسامة أو ضحكة ، ولكن الضحكة صدرت عن مونا هذه المرة ، ثم قالت :

ـ «هو لن يموت أبداً»

تجهّم وجه والدتي ، كما لو أنها قضمت خوخة حامضة ، ثم ابتسمت ابتسامة مشفقة ناقلة نظرها من مونا إليّ . في الواقع أنها كانت على وشك أن تضحك عندما أجابت بقولها :

ـ « لا تقلقي! سيمضي مثلنا جميعاً . انظري إليه ، لقد صار أصلع تماماً وهو لا يزال في الثلاثينات من عمره فقط ، فهو لا يعتني بنفسه مثلما أنه لا يعتني بك » . وصارت نظرتها هذه المرة تنم عن توبيخ .

قالت مونا وهي تنزل قدمها للأسفل : « ڤال عبقري »

وكانت على وشك الإسهاب في وصفي إلا أن والدتي ألجمتها .

فسألت بنبرة تحدٍّ مشؤومة : « هل يفترض بك لتكوني عبقرية أن تكتبي قصصاً ؟ »

قالت مونا : « لا ، لكن ڤال عبقري حتى لو لم يكتب شيئاً »

ـ « تشه! تشه! إنه بالتأكيد ليس عبقرياً في جمع المال »

فعاجلتها مونا برد سريع : « ليس لزاماً عليه أن يفكر بالمال . هذا أمر متروك لي لأهتم به » .

وهكذا بدأ السم يتغلغل .

ـ « عندما يكون في البيت يخربش ـ هل هذا ما يحدث ؟ ـ يكون عليكِ ـ أنت المرأة الشابة الأنيقة ـ أن تخرجي من البيت وتمارسي وظيفة ما . لقد تغيرت الظروف . عندما كنت صبية كان والدي يجلس إلى المكتب من الصباح إلى المساء لكي يكسب المال . لم يكن بحاجة إلى الوحي والإلهام ولا إلى العبقرية . كان شغله الشاغل أن يبقينا على قيد الحياة سعداء . لم تكن أمنا موجودة فقد كانت من نزلاء مشفى المجاذيب . لكنه كان موجوداً وكنا نحبه من أعماقنا . كان لنا أباً وأماً . لم يكن ينقصنا شيء ـ أي شيء » .

سكتت برهة لكي تأخذ نفساً .

ـ « لكن صاحبنا هذا ـ وقد أشارت إليَّ ـ العبقري كما تصفينه بلغ به الكسل حداً منعه من شغل أية وظيفة . وهو يأمل أن تقوم زوجته بتربيته وتربية زوجته الأخرى وولده . لو كان يكسب شيئاً من كتابته لما أصابني القلق بشأنه . لكن أن يثابر على الكتابة دون مقابل فهذا ما لا طاقة لي على استيعابه » .

بادرت مونا إلى القول : « ولكن... أماه »

فقلت : « انظري ، أليس من الأفضل أن نتجاهل الموضوع ؟ »

« لقد سبق لنا أن تطرقنا إلى هذا الموضوع مرات عديدة ودون جدوى . ولم أعد أتوقع منك تفهماً أكثر . ولكن عليك أن تتفهمي ذلك .

والدك لم يصبح صانع معاطف من الدرجة الأولى بين عشية وضحاها ، أليس كذلك ؟ لقد حكيت لي بنفسك أنه قد أمضى فترة طويلة وقاسية من التمرن بحيث أنه كان يضطر للسفر من مدينة إلى مدينة في طول ألمانيا وعرضها . وأخيراً ، لكي يتهرب من الجندية اضطر للرحيل إلى لندن... الكتابة تحتاج إلى نفس الشيء من الوقت والعناء ، لكي يكتسب المرء (المعلمية) ، ويبقى بحاجة إلى سنوات عديدة لكي يحقق الشهرة . عندما كان والدك يصنع معطفاً كان يوجد دائماً من هو على استعداد لارتدائه . لم يكن بحاجة لأن يطوف به لكي يعثر على من يعجب بالمعطف ويشتريه » .

قالت والدتي : « هلا أنهيت كلامك ؟ لقد سمعت ما يكفي » .

ثم نهضت ومضت إلى المطبخ .

فقالت مونا متوسلة : « لا تذهبي! اصغي إليَ من فضلك! أنا أعرف أخطاء ڤال ، ولكني بالمقابل أعرف ما بداخله . فهو ليس بذاك الحالم المتفرد ، بل إنه يعمل على نحو واقعي . إنه يبذل جهداً في كتابته ، ربما يفوق أي جهد مبذول في أي عمل آخر . مجرد النظر إليه ومراقبته وهو يعمل هما مصدر متعة بالنسبة لي . عندما يكتب يصبح إنساناً آخر ، حتى أني في بعض الأحيان أفشل في التعرف عليه ، إذ يكون بالغ الجدية ، مفعماً بالأفكار ، مستغرقاً في ذاته نعم ، أنا أيضاً كان لي أب طيب كنت أحبه من أعماقي وكان يتمنى أن يصبح كاتباً أيضاً . لكن زوجته كانت من الصعوبة بمكان . كنا عبارة عن أسرة كبيرة من المهاجرين الفقراء جداً ، وكانت والدتي كثيرة الطلبات . كنت أميل إلى والدي أكثر من والدتي بكثير . ربما كان السبب في ذلك أنه كان فاشلاً . على كلٍ ، فهو لم يكن بالنسبة لي إنساناً فاشلاً ــ افهموا هذه النقطة ــ لقد

كنت أحبه . لم يكن يهمني ماذا كان وماذا فعل . في بعض الأحيان... وكما هو الحال مع ڤال هنا... كان يجعل من نفسه مهرجاً... »

هنا اندفعت والدتي إلى التحدث ، وهي تنظر إلى مونا بعينين فضوليتين ، وقالت : « أوه ؟ » ، إذ من المؤكد أنه لم يسبق لأحد أن تطرق لهذا الجانب من شخصيتي :

ـ « أنا أعرف أن لديه حساً فكاهياً ، أما أن يكون مهرجاً ؟ »

هنا تبرع العجوز لإصلاح الموقف قائلاً :

ـ « تلك هي طريقتها في التعبير » .

قالت مونا معاندة : « لا ، أنا أعني ما أقول... إنه مهرج »

فردت عليها الوالدة بتعليق حماري جامع مانع :

ـ « لم أسمع من قبل عن كاتب أنه مهرج أيضاً » .

عند وصول النقاش إلى هذه النقطة لم يقتنع العجوز بضرورة وضع حد له ، وحتى مونا فقد أربكتني بإصرارها ؛ إذ كانت هذه المرة مفعمة بالصرامة والجدية (أو ربما كانت تستغل هذه الفرصة لإقناعي بإخلاصها ووفائها ؟) . مهما يكن ، فقد قررت أن أترك لها الحبل على الغارب . وكنت أفضل مجادلة جيدة ـ مهما تكن عاقبتها ـ على أي نوع من الآخر من الملاسنة باعتبارها نوعاً من التنشيط لا أكثر . قالت مونا : « عندما يمثل دور المهرج فالسبب في ذلك عادة ، هو أنه قد أصابه الاستياء . فهو كما تعلمين حساس جداً ـ أكثر مما يجب » .

قالت أمي : « كنت أظن أن لديه جلداً سميكاً بعض الشيء »

ـ « لا بد أنك تمزحين ، فهو أكثر الباقين على قيد الحياة حساسية مثله في ذلك مثل كل الفنانين » .

قال والدي : « هذا صحيح . ربما كان يفكر برسكين أو بذاك الشيطان البائس رايدر ذي المناظر الحساسة بشكل ممرض » .

ـ « انظري يا أماه ـ ليس مهماً كم من الوقت سيحتاج ڤال لكي يبلغ

الشهرة وينال نصيبه منها . فهو سيجدني دائماً تحت تصرفه ولن أدعه يجوع أو يقاسي » (عندها أحسست وكأن والدتي قد تجمدت في مكانها) .

تابعت مونا قائلة : « لقد شهدت ما حدث لوالدي ولن يتكرر ذلك مع قال . هو حر في أن يفعل ما يشاء . أنا أثق به ، وسأظل أثق به حتى لو أنكره العالم بأسره »

سكتت برهة طويلة ثم استأنفت كلامها بجدية أكثر :

ـ « الشيء الوحيد الذي لم أتمكن من فهمه هو السبب في أنك لا تريدينه أن يمتهن الكتابة . إذ من غير المعقول أن يكون السبب في ذلك كونه لا يكسب عيشه من الكتابة . فتلك مشكلته ومشكلتي أنا تحديداً ـ أليس كذلك ؟ أنا لا أقصد تجريحك بما أقول ، ولكن لم يكن أمامي مفر من قوله . إن كنت لا تقبلينه ككاتب فلن تقبليه كابن أبداً . كيف يتسنى لك أن تفهميه ، إذا لم تعرفي هذا الجانب منه ؟ ربما كان بمقدوره أن يكون شيئاً آخر ـ شيئاً تحبينه أكثر ، رغم أنه من الصعب أن أتصور أنك كنت تعرفينه ولو مرة واحدة على الأقل كما أعرفه أنا بالذات . ثم ما الذي يفيده في أن يبرهن لك أو لي أو لأي شخص آخر على أنه كان قادراً على أن يكون شخصاً آخر مختلفاً الآن ؟ أنت تتساءلين إن كان زوجاً طيباً أو أباً طيباً... إلى آخر ما هنالك . إنه كذلك ـ أنا أقولها لك . ولكنه أكثر من ذلك بكثير! ما ينبغي عليه أن يعطيه يخص العالم بأسره وليس مجرد اسرته أو أولاده أو والديه . قد يبدو ذلك كلاماً غريباً ، بالنسبة لك ، أو ربما كلاماً قاسياً ؟

قالت أمي : « كلام أخرق ولاسع كالسوط » .

ـ « تمام ، أخرق إذاً ، ولكن هذا هو الحال . ذات يوم ستقرأين ما كتبه وستفخرين بأنه ابنك »

ـ « لا ، ليس أنا ، من الأفضل لي أن أراه يحفر الخنادق! »

ـ « قد يضطر ذات يوم لفعل ذلك . بعض الفنانين ينتحرون قبل أن يبلغوا الشهرة . خذي مثلاً رامبراندت الذي أمضى بقية حياته في الشوارع

كالمتسولين وكان واحداً من أعظم الفناني طراً » . هنا تدخلت ستاسيا :

ـ « وماذا عن ڤان غوغ ؟ »

قالت أمي : « ومن يكون هذا ؟ هل هو أحد المخربشين ؟ »

تشجعت ستاسيا أكثر من ذي قبل وقالت :

ـ « لا ، كان رساماً ، رساماً مجنوناً أيضاً » .

قالت أمي : « يبدو لي أنهم جميعاً مثل المعتوهين » .

فانفجرت ستاسيا بضحكة مجلجلة صارت تزداد حدة شيئاً فشيئاً ، ثم صاحت قائلة : « وماذا عني أنا ؟ ألا تعرفين أنني معتوهة أيضاً ؟ »

قالت مونا : « لكنك من المعتوهات الفاتنات »

قالت ستاسيا مهللة أكثر من ذي قبل :

ـ « أنا مجنونة بكل ما للكلمة من معنى ـ تلك هي الحقيقة ـ والجميع يعرف ذلك » . لاحظت أن والدتي قد أصابها الجزع . لا بأس من المزاح بكلمة (معتوه) أما الاعتراف بالجنون فذاك شيء آخر . هنا تدخل والدي وأنقذ الموقف بقوله : « ما بالك ؟ هذا مهرج وتلك معتوهة ـ وماذا أنت ؟ »

ثم مخاطباً مونا : « أليس فيك ـ أنت الأخرى ـ أية عاهة ؟ »

فابتسمت بمرح وقالت : « أنا سوية تماماً ـ تلك هي مشكلتي بالضبط » .

عندها التفت إلى والدتي قائلاً :

ـ « الفنانون كلهم سواء ، لا بد لهم كي يرسموا أو يكتبوا من أن يكونوا مجانين قليلاً . ولكن ماذا عن صديقنا القديم جون ايمهوف ؟ »

قالت والدتي وهي تحدق فيه بنظرة استفهامية :

ـ « ما به ؟ هل كان عليه أن يهرب مع إمرأة أخرى ـ هل كان عليه أن يهجر زوجته وأولاده لكي يبرهن على أنه فنان ؟ »

ـ « ليس هذا ما أقصده على الإطلاق » . ثم وقد صار الآن أكثر سخطاً عليها وهو الوحيد العارف بمدى عنادها وبلادتها :

ـ «ألا تذكرين تلك النظرة التي ارتسمت على وجهه عندما فاجأناه في مرسمه ؟ حيث كان هناك في غرفته الصغيرة يرسم بالألوان المائية بعد أن يأوي الجميع إلى الفراش»

ثم التفت إلى لوريت وقال :

ـ «اصعدي إلى الطابق العلوي واجلبي تلك اللوحة المعلقة في الصالون ما رأيك ؟ أنت تعرفينها ـ لوحة الرجل والمرأة في القارب ـ والرجل يحمل على ظهره حزمة من القش» .

قالت والدتي باستغراق :

ـ «نعم ، لقد كان رجلاً طيباً ـ جون ايمهوف ذاك ـ إلى أن صارت زوجته مدمنة على الخمر . رغم أنه لا بد لي من القول بأنه لم يكن يبدي اهتماماً كبيراً بأولاده ؛ إذ أنه لم يكن يفكر في شيء سوى فنه»

قال والدي : «كان فناناً جيداً ذا أعمال فنية جميلة . هل تذكرين النوافذ الزجاجية المصبوغة التي صنعها لأجل الكنيسة الصغيرة التي عند زاوية الشارع . ما الذي حصل عليه لقاء عمله هذا ؟ لا شيء تقريباً . لا ، لا ، فأنا سأذكر جون ايمهوف على الدوام بغض النظر عما أنجزه . كم أتمنى لو نقتني مزيداً من أعماله» .

في هذه اللحظة عادت لوريت ومعها اللوحة ، فتلقفتها ستاسيا وصارت تتفحصها باهتمام بالغ ظاهرياً . وقد خشيت أن تقول عنها شيئاً باعتبارها لوحة أكاديمية أكثر مما يجب ، لكنها لم تفعل ذلك ؛ إذ كانت تتحلّى بالذوق وضبط النفس ، فاكتفت بالتعليق بقولها إن اللوحة منفذة بروعة ومهارة فائقتين . ثم قالت :

ـ «ليست هذه مادة سهلة للرسم ـ هل سبق له أن رسم لوحات زيتية ؟ فأنا لست حكماً ممتازاً للألوان المائية . لكني أستطيع القول أنه كان يعرف ما الذي يرسمه» . توقفت هنيهة ، ثم وكأنها قد جاءها الوحي ، قالت بشكل مفاجئ :

ـ «ثمة رسام ماني يعجبني حقاً . إنه...»

فهتف والدي : «جون سينغر سارجنت» .

قالت ستاسيا : «صحيح! كيف عرفت ذلك ؟ أقصد كيف عرفت أنه خطر ببالي ؟»

قال : «يوجد سارجنت واحد لا غير» تلك العبارة التي كان قد سمعها مرات عديدة من شفتي سلفه (إساك ووكر) .

ـ «يوجد سارجنت واحد فقط مثلما يوجد بيتهوفن واحد أو موتسارت واحد أو دافنشي واحد ـ هل هذا صحيح ؟»

ابتسمت ستاسيا بابتهاج ؛ إذ شعرت بأنها تتلقى تشجيعاً على الإفصاح عما في ذهنها . رمقتني بنظرة وهي تفتح فمها كأنما كانت تقول لي :

ـ «لماذا لم تخبرني هذه الأشياء عن والدك ؟»

قالت : «أنا درستهم جميعاً . كما أنني أحاول في الوقت الحاضر أن أجد نفسي . فأنا لست مجنونة تماماً كما كنت اتظاهر منذ لحظة . كل ما في الأمر أنني أعرف اكثر مما أقدر على هضمه . وأنا موهوبة لكنني لست عبقرية . ما الذي يهمني إن لم تكن عندي العبقرية . أريد أن أصبح بيكاسو ـ بيكاسو الأنثى وليس ماري لورنسين ـ هل تفهم ما أقصده بقولي ؟»

ـ «بالتأكيد» . قال والدي وكانت والدتي قد غادرت الغرفة لسبب من الأسباب . كنت أسمع قرقعة الطناجر والمقالي التي كانت تعبث بها لتضيع وقتها بعد أن منيت بالهزيمة .

قال والدي وهو يشير إلى لوحة ايمهوف المائية :

ـ «لقد نسختها عن لوحة شهيرة» .

قالت ستاسيا : «ليست مشكلة ؛ إذ أن كثيراً من الفنانين كانوا يقلدون أعمالاً لفنانين يحبونهم... ولكن ماذا قلت لي ـ أنه حدث لهذا المدعو جون اين... ؟»

ـ «لقد هرب مع امرأة أخرى وأخذها إلى ألمانيا حيث كان قد تعرّف عليها

منذ كان صبياً ، ثم نشبت الحرب ولم نسمع عنه شيئاً ـ ربما يكون قد قُتل »

ـ « ما رأيك برافائيل ـ هل تحب أعماله ؟ »

قال والدي على نحو مباغت : « لم يكن يفوقه في لعب الداما أحد . أما المدعو كوريجيو فقد كان هو الآخر رساماً كبيراً . وهناك كورو! هل باستطاعتك أن تغلب كورو الطيب ؟ ثم هنالك غينزبوره الذي لم أهتم به كثيراً ـ أما سيسلي... »

قالت ستاسيا : « يبدو أنك تعرفهم جيداً » ، وقد صارت الآن مستعدة لأن تمارس هذه اللعبة حتى آخر الليل :

« وماذا عن الرسامين الحديثين ـ هل تحبهم أيضاً ؟ »

ـ « هل تقصدين جون سلون وجورج لوكس وغيرهما ؟ »

قالت ستاسيا : « لا ، أقصد أولئك الرجال أمثال بيكاسو ، ميرو ، ماتيس ، موديلياني... »

قال والدي : « لم أطلع عليهم . لكنني أحب الانطباعيين وكل ما رأيته من أعمالهم... ورينوار بالطبع . لكنه إذاً ، ليس حديثاً ؟ »

قالت ستاسيا : « بشكل من الأشكال ، نعم ، إذ أنه قد ساعد في تمهيد الطريق »

قال والدي : « لقد كان بالتأكيد يحب الرسم . وكان لاعب داما من النوع الجيد . إن كل بورتريهات النساء والأولاد الذي رسمها جميلة بشكل صارخ ؛ إذ أنها تبقى عالقة في الذهن إلى الأبد . ثم تأتي الأزهار والأزياء... وكل شيء بالغ الأناقة ، بالغ الرقة وبالغ الحيوية . ولا تملكين إلا أن تقري بأنه قد رسم عهداً جميلاً ، باريس الجميلة Gay Paree ، النزهات على ضفاف السين ، المولين الأحمر والحدائق الغناء... »

قالت ستاسيا : « إنك تدفعني إلى التفكير بتولوز لوتريك »

ـ « ومونيه وبيسارو »

ـ « وبوانكاريه » كان بودي أن أقول أيضاً .

فتدخلت مونا قائلة : ـ «وستربندبرغ!»
قالت ستاسيا : «لقد كان مجنوناً فاتناً»
هنا مط والدي رأسه متبرماً :
ـ «أما زلتم تتحدثون عن المجانين ؟ ظننت أنكم قد انتهيتم من الموضوع»

أما هي فصارت تنقل نظراتها من شخص لآخر من الحاضرين وقد لاحظت أننا مستمتعين فولّت الأدبار . وذاك أقل ما تستحقه ؛ فبرأيها ليس من حق الناس أن يسرحوا ويمرحوا بالحديث عن الفن ، ناهيك عن أن ذكر هذه الأسماء الغريبة بحد ذاتها كان كافياً لإغاظتها لكونهم ليسوا أميركيين : وهكذا انصرم العصر على نحو أفضل مما كنا نتوقع ، وذلك بفضل ستاسيا . من المؤكد أنها قد سجلت انتصاراً أمام العجوز ؛ إذ أنه حتى عندما علق بدماثة خلق أنها من المفروض أن تكون رجلاً لا امرأة ـ لم يصدر عنها أي رد فعلٰ .

عندما ظهر ألبوم العائلة فجأة صارت ستاسيا في حالة من النشوة الغامرة .

يا لها من مجرة من الحمقى! العم تيودور من هامبورغ ـ صنف من (......) المتأنقة ، جورج شيندلر من بريمن صنف من الرجال الهسيّين البالغي التأنق ، هاينرش ميلر* ، جدي من طرف أبي من باڤاريا والخصم السياسي للامبراطور فرانز جوزف . ثم هناك جورج ايتزل ، أبله العائلة الذي يبدو مثل عنزة معتوهة مكرشة وراء شاربين ضخمين مفتولين مثل شاربي القيصر ڤيلهلم .

أما النساء فكن أكثر غموضاً . إن جدتي من طرف والدتي التي أمضت نصف حياتها في مشفى المجانين تبدو كأنها إحدى بطلات روايات /والتر سكوت/ . والخالة لينري ، تلك الوحشة التي ضاجعت أخاها : عجوز مشاكسة بهيجة المظهر ذات أوداج منفوخة وابتسامة حادة كالسكين . أما الخالةآني في سترة حمام من زي ما قبل الحرب ، فتبدو كأنها إحدى مهرجات ماك سينيت الجاهزات لتقديم عرض . وهناك العمة اميليا : ملاكة ذات عينين بنيتين

* كلمة Müller الألمانية وكلمة Miller الانكليزية لهما نفس اللفظ والمعنى (م) .

ناعمتين تنضح جمالاً ، ذات بوز مشوه بالثآليل والدمامل . ما الذي جرنا إلى موضوع سلالة العائلة ؟ عبثاً أمطرتهما بالأسئلة ، فتبين لي أن كل من عاش قبل والديهما كان غامضاً ومشكوكاً فيه ـ ولكن ألم يسبق لوالديهما أن تكلما عن أقربائهما ؟ الجواب : نعم ، لكنه صار الآن أمراً مبهماً .

سألت ستاسيا : «هل كان بينهم رسامون ؟»

إن كلاً من والدي ووالدتي لا يعتقدان ذلك .

قالت والدتي : «كان بينهم شعراء وموسيقيون»

قال والدي : «وقباطنة سفن وفلاحون» .

فسألت أنا : «هل أنت متأكد من ذلك ؟»

قالت والدتي : «لماذا أنت مهتم على هذا النحو بكل هذا الهراء ؟»

أجبتها قائلاً : «أريد أن أعرف . سأذهب ذات يوم إلى أوروبا وأكتشف بنفسي» .

فعلّقت على ذلك بقولها :

ـ «إن ذلك أشبه ما يكون بمطاردة الأوزالبري» .

ـ «لا يهمني ذلك . فأنا أرغب في معرفة المزيد عن أسلافي ؛ إذ ربما لم يكونوا كلهم ألماناً»

قالت مونا : «نعم ، ربما كان بعض الدم السلافي يجري في عروق العائلة»

فأردفت ستاسيا ببراءة : «أحياناً يبدو لي أنه منغولي خالص»

صدمت والدتي بهذا الكلام مما أثار سخريتها . فالنسبة لها أن يكون المرء منغولياً يعني أنه أبله...»

قالت : «إنه أمريكي . وكلنا أميركيون في الوقت الحالي»

شرعت لوريت في الكلام : «نعم...»

قال والدي : «نعم ـ ماذا ؟»

قالت لوريت : «إنه أمريكي جداً» . ثم أضافت :

ـ «ولكنه يطالع أكثر مما يجب»

وهنا انفجرتا بضحكة مجلجلة :

ـ «كما أنه لا يذهب إلى الكنيسة أيضاً ولكننا مسيحيون مثله» .

ـ «إن له الكثير من الأصدقاء اليهود أكثر مما يجب»

فضحكنا جميعاً .

قال والدي : «دعونا نأكل شيئاً ما . أنا متأكد من أنهم لا يرغبون في الذهاب إلى بيتهم فوراً . غداً يوم آخر» .

وهكذا فرشت المائدة مرة أخرى . وكانت هذه المرة وجبة خفيفة باردة مع الشاي والبودينغ . عطست لوريت أثناء الطعام .

بعد انقضاء ساعة استأذنا منهم بالانصراف واستودعناهم .

قالت والدتي : «لا تأخذوا برداً... محطة السفر إلى /إل/ لا تبعد أكثر من ثلاث بنايات من هنا» . وكانت تعلم علم اليقين أننا سنأخذ سيارة أجرة . ولكنها كانت تكره ذكر هذه الكلمة ـ كما تكره كلمة الفن .

سألت لوريت عند مدخل الدار : «هل سنراكم قريباً»

قلت لها : «اعتقد ذلك»

ـ «في رأس السنة ؟»

ـ «ربما»

قال والدي : «لا تطيلوا غيابكم عنا . أتمنى لك حظاً جيداً مع الكتابة»

استوقفنا عند زاوية الشارع سيارة أجرة .

قالت ستاسيا ونحن نتكوم داخل السيارة : «يا سلام!»

قلت لها : «لم تكن الزيارة سيئة جداً ؟»

ـ «جد ـ د ـ داً . الحمد لله أن ليس لي أقارب لأزورهم»

استرخينا في مقاعدنا . قامت ستاسيا بخلع حذائها .

قالت ستاسيا : «ذاك الألبوم! لم أر في حياتي مثل تلك المجموعة من أنصاف المفكرين . إنها لمعجزة من المعجزات أن تكون بكامل عقلك ـ هل

فطنت إلى ذلك ؟ »

أجبتها قائلاً : « كل العائلات هكذا . شجرة الانسان ليست سوى شجرة صنوبر ضخمة تتلألأ بالمهووسين الناضجين الملمعين . فآدم نفسه لا بد أنه كان وحشاً أعور يميل في مشيته إلى جانب واحد .

كل ما نحتاجه هو المشروب . لا أدري إن كان هناك بقية باقية من الكيمل ؟

قالت مونا : « أنا أرتاح لوالدك . فيه الكثير منك يا ڤال »

قالت ستاسيا : « أما والدته! »

قلت لها : « ما بها ؟ »

قالت ستاسيا : « كان من المفروض أن أخنقها منذ سنوات »

قالت مونا وقد أخذت الموضوع على محمل الهزل : « امرأة غريبة »

قالت ستاسيا : « لن أصبح أماً » .

فضحكنا جميعاً . ثم أردفت قائلة :

ـ « ولن أصبح أباً أيضاً . يا يسوع ، يكفي الإنسان مشقةً أن يكون امرأة . أنا أكره النساء! كلهن قحبات . قذرات ، حتى أفضلهن . سأكون ما أنا عليه ـ تجسيداً لشخصية الأنثى . وأرجوكم ، لا تجعلوني بعد الآن أرتدي مثل هذه الثياب . إذ أشعر بأنني مثل الحمقاء تماماً . كما أحس بأنني محتالة » .

لدى رجوعنا إلى البيت أخرجنا زجاجات المشروب . كان هناك الكيمل والبراندي والروم والبندكتين والكوانترو . وقمنا بتخمير البن الأسود القوي .

جلسنا إلى طاولة الطعام وبدأنا نثرثر كأصدقاء قدامى . كانت ستاسيا قد خلعت عن نفسها مشد الخصر والردفين (الكورسيه) وعلقته فوق مسند كرسيها . كأنه أثر مقدس من آثار المتاحف .

قالت : « إن كنتما لا تمانعان سأخرج نهدي من حمالتهما » . وصارت تداعبهما بلطف ثم أردفت قائلة :

ـ « إنهما ليسا بشعين جداً ـ ما رأيكما ـ ربما كان من الأفضل لو كانا

ممتلئين أكثر... ما زلت عذراء »

غيَّرت الموضوع :

ـ « ألم يكن غريباً منه ذكر اسم كوريجيو ؟ هل تعتقد أنه يعرف حقاً كل شيء عن كوريجيو ؟ »

قلت : « ممكن . كان من عادته أن يحضر المزادات العلنية مع اسحق ووكر . ومن الممكن أنه قد تعرف على شيمابو أو كارباتشيو . لوأنك استمعت إليه وهو يتحدث ذات مرة عن تيتسيان! لكنت حسبته أنه زميله في الدراسة » .

قالت ستاسيا وهي تتجرع قليلاً من البراندي :

ـ « لقد اختلطت عليَّ الأمور . فوالدك كان يتحدث عن الرسامين . وشقيقتك تتحدث عن الموسيقا ووالدتك عن الطقس . لا أحد يعرف شيئاً عن شيء ـ في الواقع . إنهم مثل نباتات الفطر التي تتحاور مع بعضها . ولا بد أن المشوار الذي قمت به مع والدك ضمن المقبرة كان حدثاً استثنائياً . لو كنت مكانك لخرجت من عقلي! »

قالت مونا : قال لايأبه لذلك فهو يستطيع تحمله » .

قالت ستاسيا : « لماذا ؟ الأنه كاتب ؟ الأنه أكثر مادية ؟ »

قلت لها : « ربما ، ربما يكون عليك أن تخوضي في أنهار الزبالة لتجدي بذرة الحقيقة » .

قالت ستاسيا : « ليس أنا . أنا أفضل الريف مزيفاً كما هو . فهنالك على الأقل تستطيع أن تسرح بنظرك في كل الفضاء »

جاء دور مونا الآن ؛ فقد لمعت في ذهنها فكرة جديدة :

ـ « لماذا لا نذهب جميعاً إلى أوروبا ؟ »

قالت ستاسيا باسترسال : « نعم ، لماذا نذهب ؟ »

قالت مونا : « بإمكاننا أن نتدبر ذلك »

قالت ستاسيا : « بالتأكيد . فأنا قادرة على استدانة مصاريف السفر »

قلت مستفسراً : «وكيف سنعيش هناك في يوم من الأيام ؟ »

قالت مونا : «بسيطة . كما نعيش هنا »

ـ «وأية لغة سنتكلَم ؟ »

ـ «الانكليزية . الجميع هناك يعرفون الانكليزية ، يا ڤال ، وهناك أكوام من الأمريكيين في اوروبا ـ وخاصة في فرنسا »

ـ «ستتطفّل عليهم ـ أهذا قصدك ؟ »

ـ «أنا لم أقل ذلك . بل أقول إن كنتما حقاً تودان الذهاب فإننا لن نعدم وسيلة للعيش » .

قالت ستاسيا : «نشتغل عارضات أزياء ، أو بالأحرى ، مونا هي التي تشتغل ، إذ أن جسمي مُشْعر » .

قلتُ : «أما أنا فما الذي بمقدوري أن أفعله ؟ »

قالت مونا : «تكتب! هذا كل ما يمكنك عمله » .

قلت : «ليت ذلك يتحقق » .

ثم نهضت وبدأت أعد الخطو في الغرفة .

سألتاني : «ما الذي يشغل بالك ؟ »

أوروبا! تلك التي تعلقونها متدلية مثل قطعة نيئة من طعم السمك ، انتما الحالمتان وليس أنا! بالتأكيد أنا أحب الذهاب الى هناك . فأنتما لا تعرفان ما الذي يحل بي لمجرد سماعي هذه الكلمة . إنه يشبه وعداً بحياة جديدة . ولكن كيف نتدبر عيشنا هناك ؟ فنحن لا نعرف كلمة واحدة بالفرنسية . إننا لسنا أذكياء ... كل ما نعرفه هو كيف نسلب الناس ، وحتى في هذا لسنا ماهرين »

قالت مونا : «أنت جدي أكثر مما يجب . استعمل مخيلتك! »

قالت ستاسيا : «نعم ، لقد اعتدت على المخاطرة . تذكر غوغان! »

قالت مونا : «أو لافكاديو هيرن! »

قالت ستاسيا : «أو جاك لندن . فالمرء لا يمكنه الانتظار إلى أن يصير

كل شيء وردياً »

ـ « أعرف ، أعرف » قلت ذلك واتخذت لنفسي مقعداً ودفنت رأسي بين يدي . وفجأة هتفت ستاسيا قائلة :

ـ « وجدتها! سنذهب أنا ومونا أولاً ، ثم نبعث في طلبك عندما تستتب الأمور.. ما رأيكم في ذلك ؟ »

لدى سماعي ذلك أطلقت نخرة مرحة . كنت شبه مصغ لما تقولانه . ولم أكن أتابعهما ؛ كنت قد سبقتهما إلى هناك . كنت آنذاك أتجول في شوارع أوروبا ، أثرثر مع المارة ، احتسي مشروباً على مصطبة مكتظة . كنت وحدي ولم أكن وحيداً على الأقل . هناك كان الهواء مختلفاً وكان مظهر الناس مختلفاً . حتى الأشجار والأزهار كانت مختلفة . كم كنت أتوق إلى ذلك الشيء المختلف! أن تكون قادراً على التحدث بحرية ، أن تكون مفهوماً ، أن تكون مقبولاً . كانت أوروبا بالنسبة لي بلاد الأقرباء الحقيقيين ، وطن الفنان والمتشرد والحالم . نعم ، إن غوغان قد أمضى فيها زمناً قاسياً ، وإن كان غوغ كان حظه أسوأ . وكان هناك الآلاف ـ دون شك ـ ممن لم نعرفهم أو نسمع بهم ، وقد اندثروا واختفوا عن الأنظار دون أن يحققوا شيئاً .

نهضت متثاقلاً مرهقاً بالصورة الذهنية التي كونتها عن الذهاب إلى أوروبا حتى لو كان ذلك في الذهن فقط . فقد أرهقتني أكثر ـ ومن كل الساعات المملة التي أمضيتها في كنف العائلة .

قلت لنفسي بينما كنت أستعد للذهاب الى الفراش :

ـ « سأصل هناك ، مع ذلك ، فإن هما تمكنتا من فعل ذلك فلماذا لا أتمكن أنا أيضاً » . (كنت أقصد بكلمة (هما) الناجحين والفاشلين)

إذ كما يقول المثل (حتى الطيور تفعلها) . ومع انسياقي وراء الفكرة تمثلت في ذهني صورة لنفسي باعتباري (موسى) آخر أقود شعبي عبر الصحارى والقفار ، أوقف المد وأعكس مسار التاريخ وأبدأ المسيرة الكبرى باتجاه العودة.. العودة إلى المنبع! وأفرغ هذه القفار الشاسعة المسماة

(امريكا) ، أصرف منها كل وجوهها الكالحة ، أوقف كل هذا الهرج والمرج اللذين لا معنى لهما وأعيد تسليم القارة إلى الهنود الحمر... ويا له من انتصار!

ستقف اوروبا مشدوهة بهذا المشهد ، وتتساءل : هل أصابهم الجنون ليهجروا بلاد الحليب والعسل ؟ هل كانت امريكا ـ إذاً ـ مجرد حلم ؟

نعم! سأصيح بأعلى صوتي : وحلماً سيئاً . دعونا نعود فنبدأ من نقطة الصفر . دعونا ننشيء كاتدرائيات جديدة ، دعونا نغني بانسجام من جديد ، دعونا نؤلف القصائد عن الحياة لا عن الموت! نتحرك كالأمواج كتفاً إلى كتف ، ولا نفعل إلا ما هو ضروري وحيوي . لا نبني إلا ما سوف يكتب له البقاء ، ولا نبدع إلا من أجل المتعة . دعونا نصلي مرة أخرى للإله المجهول ولكن بجدية من كل جوارحنا وأعماقنا . لا تدعوا التفكير بالمستقبل يحولنا إلى عبيد . ليكن يومنا كافياً ذاته بذاته . دعونا نفتح قلوبنا وبيوتنا لا أفران الصهر بعد اليوم . فالمعادن النقية وحدها هي الأنبل والأعتق . أعطونا من جديد قادة وكهنة وصناعاً وحرفيين وشعراء وصاغة ورجالات دولة وعلماء ومتشردين ومشعوذين . إننا نريد عروضاً مسرحية وليس استعراضات عسكرية . اعطونا مهرجانات ومواكب وكرنفالات . ليكن الكلام حباً بالكلام ، ليكن العمل حباً بالعمل ، ليكن الشرف حباً بالشرف . لقد أعادتني كلمة الشرف إلى الوعي . فقد كانت بمثابة ساعة منبه ترن في أذني . تصوروا أن القملة القابعة في شقها تتحدث عن الشرف . كنت أغوص في الفراش ، وبينما كنت أسترخي مستسلماً للنعاس رأيت نفسي ممسكاً بعلم أمريكي صغير جداً ألوح به :

تلك النجوم والخطوط العتيقة المتقنة الرسم . مسكته بيدي اليمنى بافتخار وأنا أتقدم بحثاً عن عمل . هل طلب العمل بحد ذاته ليس من امتيازاتي ، أنا المواطن الأميركي المكتمل الريش سليل الأبوين المحترمين ، العابد الورع للمذياع ، والسفاح الديمقراطي المتكفل بالتقدم والاضطهاد العرقي والأزدهار ؟

كنت أسير باتجاه مقر عملي وأنا أردد وعداً بأن أجعل أولادي أميركيين أكثر من آبائهم ، أحولهم إلى حيوانات مخبرية إذا دعت الضرورة لمصلحة جمهوريتنا المجيدة .

أعطوني بارودة أحملها على كتفي ودريئة أطلق النار عليها! وسأبرهن إن كنت وطنياً أم لا . أميركا للأميركيين . إلى الأمام سر!

إما أن تعطوني الحرية أو تعطوني الموت! (ما الفرق ؟) وأمة واحدة لا يمكن تقسيمها... الخ... ثم اعطوني تلفزيوناً من قياس ٢٠ × ٢٠ وطموحاً لا حدود له ، وماضياً لا غبار عليه ، وطاقة لا تنضب ومستقبلاً عجيباً .

لا أمراض ، لا طفيليين ، لا عقد نفسية ولا شرور .

لنكرس حياتنا للعمل مثل رجل طروادي ، لنقف في صف واحد ونحيي العلم الأميركي ونكون جاهزين دوماً لدحر العدو .

كل ما أطلبه يا سيدي هو أن تمنحوني فرصة .

يأتيني صوت من الظلام ، من وراء الكواليس ليقول لي :

ـ «لقد فات الأوان كثيراً!»

ـ «فات الأوان ؟ وكيف حصل ذلك ؟»

ـ «لأن! لأنه يوجد ٢٦,٥٩٥,٤٩٣ كائناً بشرياً يقفون قبلك . كلهم متخشبون ، منفوخون ، مصنوعون من الستانلس ستيل مئة بالمئة حتى عظم الظهر . وكل واحد منهم وحده ، وجميعهم يحملون مصدقة من هيئة الصحة وجمعية المساعي المسيحية وأخوات الثورة... والكوكلوكس كلان» .

أقول متوسلاً : «اعطوني بندقية! اعطوني بندقية خردق لأنسف بها رأسي! إنه رأس حقير!»

كان بالفعل رأساً حقيراً ، لا بل أسوأ من ذلك . كان مزبلة حقيقية .

أطلقت زعقة حادة وأنا أقول :

ـ (...... فيكم!) أنا أعرف حقوقي!» .

الفصل السابع

بدأت تشغل ذهني فكرة ذهابهما إلى أوروبا وسبر أغوارها وتركي وحدي ، كيف ألحق بهما مثل الكلب . هذه الفكرة بحد ذاتها جعلتني أكثر نزقاً وأكثر شذوذاً في مزاجي من ذي قبل ، وشيطانياً بكل معنى الكلمة في بعض الأحيان .

ذات يوم ، كان من المفروض أن أخرج من البيت بحثاً عن عمل ، فقد قررت الوقوف على قدمي ، لكنني في اليوم التالي فضلت البقاء في البيت لأجرب عضلاتي في المسرحية . وفي الليل وبينما كنا مجتمعين حول مائدة العشاء التقطت بعضاً من حوارهما ، سألتا : «لماذا تفعل ذلك ؟»

فأجبت : «لكي أكشف اكاذيبكما ؟» أو «لنقل إنني سأنفذ بعضاً من هذا في المسرحية» . لقد ساعدت هذه الملاحظات في إضافة البهار إلى حواراتهما . لقد فعلتا كل ما من شأنه أن يخرجني عن طوري . في بعض الأحيان كانتا تتحدثان مثل سترندبرغ ، واحياناً أخرى مثل ماكسويل بودنهايم . وإمعاناً مني في إثارة الارتباك كنت أقرأ عليهما مقاطع مزعجة من كتاب مذكرات كنت أحمله معي خلال رحلاتي في الريف . في بعض الأحيان كان الموضوع المدون في المذكرات عبارة عن حوار Vertabim كنت قد التقطته خارج كافتيريا أو نادٍ ليلي ، وأحياناً كان عبارة عن سرد وصفي

للجولات التي كنت أقوم بها في تلك الأصقاع . أما نتف التعليقات التي التقطتها ، أو التي ادعيت بأنني التقطتها ، فقد كانت مدبرة لهما بذكاء . كانت تعليقات خيالية عادة ، ولكنها واقعية أيضاً بما يكفي لأن تسبب لهما الانشغال أو لجعلهما تفشيان بالحقيقة عن غير قصد . وهذا بالضبط ما كنت أهدف إليه . في كل مرة كانتا تفقدان السيطرة على النفس ، كانتا تناقضان بعضهما وتبوحان بأشياء ما كان من المفروض أن أسمع بها . أخيراً ، تظاهرت بأنني منهمك فعلاً في كتابة المسرحية ورجوتهما أن تتلقيا الإملاء مني .

قلت لهما إنني قد قررت كتابة الفصل الأخير أولاً ، إذ أنه أسهل من غيره وكان دافعي إلى ذلك ـ طبعاً ـ هو أن أظهر لهما كيف ستكون نهاية المطاف مع هذا الثلاثي العاشق* . وكان ذلك يعني قليلاً من التمثيل من جانبي مع شيء من سرعة البديهة . كانت ستاسيا قد صممت على أن تدون الملاحظات ، بينما تقوم مونا بالإصغاء وتقديم الاقتراحات . وجدت أنه من الأفضل للقيام بدور المخرج المسرحي أن أقيس الغرفة جيئة وذهاباً ، أن أنفث عدداً لا حصر له من السجائر ، أن آخذ جرعة من زجاجة بين الفينة والأخرى ، في الوقت الذي كنت أقوم بإصدار الإيماءات كأنني مخرج سينمائي ـ أوزع الأدوار ، أقلدهما كلاً بدورها ، وأوصلهما طبعاً إلى حالة من الهستيريا ، خاصة عندما كنت ألامس المشاهد العشقية الكاذبة والتي كشفتهما فيها على أنهما تدعيان أنهما تحبان الواحدة الأخرى ، ومن حين لآخر كنت أعمد إلى التوقف المفاجئ لأستفسر إن كانتا تظنان هذه المشاهد بعيدة عن الواقع أكثر مما يجب وأنها متكلفة جداً... إلى آخر ما هنالك . في بعض الأحيان كانتا تعمدان إلى إيقافي لكي تقوما بالتعليق على دقة تشخيصاتي أو حواراتي حيث كانتا تتنافسان في تزويدي بالمزيد من التلميحات والمعلومات والمقترحات ، ثم نغرق ثلاثتنا في الكلام وتمثيل الأدوار ـ كلٌ في زيه الخاص ، وليس من أحد ليقوم بتدوين الملاحظات . وعندما نكون قد هدأنا ـ إذ لم يكن أحد منا قادراً على تذكر ما

* حرفياً : زوج وزوجة وعشيق ، بالفرنسية في الأصل (م)

قاله الآخران ، أو ما فعلاه . وما الذي جاء أولاً وما الذي جاء أخيراً . وفي سياق تقدمنا كنت أقدم على نحو تدريجي الحقيقة تلو الحقيقة ، وأعيد بخبث تركيب المشاهد التي لم يسبق لي أن قدمتها مسبباً لهما الذهول باعترافاتهما وتصرفاتهما السرية . وقد لاحظت أن بعض هذه اللقطات التي كانت تتم في الظلام قد أزعجتهما وأربكتهما بحيث لم تجدا سبيلاً من اتهام بعضهما البعض بالخيانة . في بعض الأحيان ، غير مدركتين لتأثير كلماتهما ، كانتا تتهمانني بالتجسس عليهما واستراق النظر إليهما من ثقب الباب...... وهلم جرا .

في أحيان أخرى كانتا تنظران إليَّ بانشداه ، وهما عاجزتان عن تقرير ما إذا كانتا حقاً قد قالتا ما كنت أنسبه إليهما أم لا .

ولكن بغض النظر عن استيائهما من تفسيري لتصرفاتهما ، فقد كانتا على درجة من الإثارة ولا مانع لديهما من تلقي المزيد منه . كان الأمر كما لو أنهما تريان نفسيهما على خشبة المسرح تؤديان أدواراً حقيقية . كان شيئاً لا يقاوم في فورة غضب كنت أدعهما على تلك الحالة من الهبوط متظاهراً بصداع في رأسي أو أنني قد شططت عن الأفكار أو أن ذاك الشيء الملعون لم يكن بخير ، ذلك أنه من غير المجدي إضاعة المزيد من الوقت لأجله . وكان هذا كافياً لوضعهما في حالة من الحيرة . ولكي تعملا على تهدئتي ، جاءتا إلى البيت محملتين بالمأكولات والمشروبات اللذيذة ، لا بل حتى أنهما جلبتا لي علبة من سيجار الهافانا .

ورغبة مني في تنويع العذاب ، كنت أتظاهر ـ كلما بدأنا العمل ـ بأنني قد مررت بتجربة غير عادية في وقت مبكر من ذاك النهار ، وكما لو كنت شارد الذهن ، أستطرد في وصف متقن لمغامرة اسطورية . في إحدى السهرات أخبرتهما بأنه ينبغي علينا أن نؤجل العمل بالمسرحية لفترة من الزمن ، لأنني استلمت شغلاً بصفة دلأَل في دار للتمثيل الهزلي ، فشعرتا بالإهانة لذلك . وبعد ذلك بعدة أيام أعلمتهما بأني قد تركت ذاك العمل لاشتغل عامل مصعد ، الأمر الذي أثار بدوره مزيداً من اشمئزازهما . ذات صباح استيقظت بعزم أكيد

على البحث عن شغل ، شغل كبير بالتحديد . لم تكن لدي أية فكرة واضحة عن نوع الشغل ، بل إن كل ما كان يهمني منه هو أن يكون شغلاً يستحق العناء ، شغلاً ذا أهمية . وبينما كنت أحلق ذقني خطرت ببالي فكرة القيام بزيارة رئيس المؤسسة السلسلية* وأطلب منه تعييني لديه . ولم أكن لأقول شيئاً عن وظائفي السابقة ؛ إذ كنت سأكتفي بحقيقة أنني كاتب - كاتب مستقل يرغب في وضع مواهبه تحت تصرفهم

وكنت سأصور نفسي شاباً كثير الترحال سئم من الاستسلام للحظ ، ومتلهفاً لأن يجد لنفسه مكاناً في مؤسسة صاعدة وناشئة كتلك ، (فقد كانت المخازن السلسلية في طور التأسيس) . وإذا سنحت لي الفرصة قد أتظاهر .... وهنا بالذات أطلقت العنان لخيالي لكي يشطح بعيداً .

بينما كنت أرتدي ملابسي صرت أنمق الكلام الذي سأقوله للسيد هوغنبوتهام رئيس مخازن هوبسون وهولباين السلسلية . وكنت أدعو إلى الله ألا يستقبلني بآذان صماء .

إخيراً توصلت إلى ديباجة مليئة بالتفاؤل ، لكنها تفتقر إلى التأنق والرشاقة . وقد تسلحت بمحفظة أوراق تخص ستاسيا دون أن أكلف نفسي عناء تفتيش محتوياتها ، إذ كان كل همي منصباً على أن أبدو جاداً في طلب العمل .

كان نهاراً قارس البرودة ، وكان مكتب المدير واقعاً في مستودع غير بعيد عن قناة غوانوس . كان الوصول إلى هناك يحتاج إلى عصور زمنية . ولدى هبوطي من الحافلة تراءي لي مكاناً يعج بالحركة والنشاط . وصلت عند مدخل البناية متورد الخدين متجمد الأنفاس . وبينما كنت أحدق النظر في ردهة المدخل المعتمة لاحظت وجود لافتة كبيرة فوق لوحة الدليل وقد كتب عليها : « يغلق مكتب العمل في الساعة التاسعة والنصف صباحاً » . وكانت الساعة آنذاك تمام الحادية عشرة . وبينما كنت ألقي نظرة خاطفة على اللوحة لاحظت

* المؤسسة السلسلية : عدد من المؤسسات المتماثلة تملكها أو تديرها شركة واحدة (م) .

أن عامل المصعد يخصني بنظراته دون غيري . لدى دخولي إلى المصعد أومأ برأسه مشيراً إلى اللافتة وقال : « ألم تقرأ اللافتة ؟ »

قلت له : « أنا لا أبحث عن عمل بل إنني على موعد مع سكرتير السيد هوغنبوتهام » . نظر إليَّ نظرة فاحصة ولم يتفوه بأية كلمة أخرى .

أغلق الباب فارتفع المصعد ببطء .

ـ « الطابق الثامن ، من فضلك! »

ـ « لا داعي لأن تقول لي! ما هو غرضك ؟ »

صار المصعد الذي كان يرتفع ببطء يصدر أنيناً وصريراً كالمنشار ، وتكون لدي انطباع بأنه قد عمل على ابطائه عمداً .

في هذه اللحظة صار يحملق بي منتظراً مني جواباً . سألت نفسي :

ـ « ما الذي يشغل باله ، هل لأنه ببساطة لم ترق له هيئتي » .

بادرت إلى الرد عليه بقولي :

ـ « من الصعب أن اشرح غرضي بكلمات قليلة » .

وقد بدوت مرعوباً من العبوس الرهيب الذي قابلني به . رفعت نفسي قليلاً ، وبذلت قصارى جهدي لأكسر عينه دونما توقف . أستأنفت الكلام قائلاً :

ـ « نعم ، إنه إلى حد ما من الصعب... »

فهتف قائلاً وهو يوقف المصعد بين طابقين :

ـ « كفى! إذا نطقت بكلمة... فسوف أختنقك! »

عندها اقتنعت بأنني أتعامل مع إنسان مسعور فأبقيت فمي مطبقاً .

قال لي : « أنت كثير الكلام » ثم أعطى ذراع المصعد دفعة مفاجئة فانتفض وتابع صعوده متهزهزاً .

التزمت الهدوء وبقيت أنظر أمامي دون التفات . في الطابق الثامن فتح الباب فترجلتُ من المصعد بحيوية زائدة ، كما لو أني كنت أتوقع رفسة على قفاي . لحسن الحظ أن الباب الذي كان مواجهاً لي هو ذاته الباب الذي كنت

أقصده . وحالما وضعت يدي على قبضة الباب صرت متنبهاً إلى أنه كان يراقبني . عندها تولد لدي شعور داخلي بأنه ربما كان يكمن لي بانتظار تلك اللحظة التي سيرمونني فيها مثل دلو فارغ .

فتحت الباب ودخلت ، فوجدت نفسي وجهاً لوجه مع فتاة تقف في حجرة ذات قضبان . استقبلتني بوجه باسم فقلت لها :

ـ «لقد جئت لمقابلة السيد هوغنبوتهام» .

صرت الآن طليق اللسان وصارت أفكاري تصول وتجول مثل قناني الباولينغ . وقد دهشت كثيراً لأنها لم تسألني أي سؤال ، إذ اكتفت ببساطة بأن رفعت سماعة الهاتف وتفوهت ببضع كلمات غير مفهومة . وعندما وضعت السماعة التفتت إلي وبصوت كله رقة قالت لي :

ـ «سكرتير السيد هوغنبوتهام يود مقابلتك» . وفي غضون لحظات كان السكرتير يتجه صوبنا . كان رجلاً متوسط العمر ذا طلعة تبعث على الارتياح ، وقوراً ودمثاً . قدمت له اسمي ، وتبعته إلى مكتبه الواقع في طرف حجرة مستطيلة تكتظ بالمكاتب والآلات من كافة الأصناف . اتخذ لنفسه كرسياً خلف طاولة ضخمة مصقولة مجردة من أي شيء تقريباً ، وأشار إليَّ بالجلوس مقابله على كرسي مريح ، أغراني بالارتماء عليه فشعرت بالراحة المؤقتة .

بدأ حديثه قائلاً : «السيد هوغنبوتهام في افريقيا ولن يعود قبل مضي بضعة أشهر» . فقلت له : «نعم ، أنا فاهم» .

وقد خطر ببالي أنه مخرجي الوحيد ؛ إذ لا استطيع الوثوق بأحد سوى السيد هوغنبوتهام . وحتى عندما فعلت ذلك ، تيقنت أن ليس من الحكمة أن أخرج بهذه السرعة . فعامل المصعد سيكون بانتظار هذه النهاية المحتملة على أحر من الجمر .

أضاف السكرتير : «إنه في رحلة صيد كبيرة» . قال ذلك وهو لا يزال يقيسني بنظراته طوال الوقت متسائلاً ـ دون شك ـ إن كان سيجري معي

استجواباً قصيراً أم يطمئن باله ويتركني في سبيلي . على كلٍ ، لقد بقي دمثاً وكان من الواضح أنه بانتظار أن أفرغ ما في جعبتي . فقلت له مكرراً كلماتي السابقة : «أنا فاهم ، إنه من سوء حظي . ربما كان عليَّ أن أنتظر حتى يعود ...»

ـ «لا ، ليس تماماً إلا إذا كان أمراً خصوصياً جداً تبغي توصيله له ، حتى لو كان مكانك لفضل أن يتعامل معي أولاً . فالسيد هوغنبوتهام متعدد المصالح ، وهذه واحدة فقط من مصالحه . اسمح لي أن أؤكد لك بأن أي شيء ترغب في نقله إليه سيلقى اهتماماً ورعاية جديتين من ناحيتي» .

سكت لبرهة فجعلتها فرصة للكلام ، بدأت متردداً ولكن بمعنويات أكثر انطلاقاً : «حسناً يا سيدي ، عموماً ليس من السهل أن أشرح لك الغرض من زيارتي» .

ـ «عذراً ، هل من الممكن أن اسألك عن اسم الشركة التي تمثلها ؟»

انحنى إلى الأمام كما لو كان يتوقع مني أن أسقط في يده بطاقة دعاية .

ـ «يا سيد لارابي ـ هل اسمك هكذا ـ أنا لا أمثل سوى نفسي . فأنا كاتب ـ وكاتب حر أيضاً . وأرجو ألا يسبب لك هذا الأمر شيئاً من النفور ؟»

فأجابني : «لا ، لا ، مطلقاً...» (قلت لنفسي : فكر بسرعة الآن ، أي شيء يكون حسب الأصول!)

ـ «أوه ، لا! ليس الأمر كذلك ـ فأنا أعلم أن لديكم الكثير من الرجال القادرين على ذلك» . ثم ابتسمت بفتور وتابعت قائلاً :

ـ «لا ، إنه أمر أقل خصوصية ـ أكثر عملية إذا جاز لي القول ؟»

تريثت لحظة مثل طائر يحوم فوق غصن مريب . انحنى السيد لارابي إلى الأمام وأذناه منتصبتان لالتقاط هذا الأمر على الفور .

قلت له وأنا أتساءل ـ بحق الجحيم ـ في نفسي عما أقول بعدها :

ـ «إنه هكذا ، خلال مسار حياتي حدث أن تعاملت مع كل أصناف البشر وكل أنواع الأفكار ، ومن حين لآخر وأثناء تنقلي تستحوذني فكرة ما ، إذ لا داعي لأن أخبرك أن الكتاب في بعض الأحيان تخطر لهم أفكار يعتبرها الناس

ذوو العقلية العملية أفكاراً خيالية . وهكذا تبدو أفكارهم خيالية إلى أن توضع على المحك»

قال السيد لارابي وقد فرد محيَّاه الرقيق لتلقي اثر فكرتي سواء كانت خيالية أم عملية . كان من المستحيل أن أستمر في تكتيك المماطلة أبعد من ذلك ، فأوعزت لنفسي أن : «اخرج منه ، ولكن بماذا ؟ »

عند هذه النقطة ولحسن الحظ خرج رجل من الكتب المجاور يحمل في يده رزمة من الأوراق . قال له :

ـ «عفواً ، أخشى أن تكون مضطراً للتوقف لحظة لتوقيع هذه الأوراق فهي في غاية الأهمية»

أخذ السيد لارابي الرسائل ثم قدمني إلى الرجل بقوله :

ـ «السيد ميلر ، كاتب . إنه يرغب في مقابلة السيد هوغنبوتهام» .

ـ «حسناً» . قال الرجل وكان يدعى ماك أوكليف ، حسب ظني :

ـ «حسناً ، يا سيدي ، لا بد لي من القول أننا نادراً ما تصادف كتاباً في هذه الأيام» .

ثم سحب علبة سجائر وقدم لي سيجارة (بنسون اندهدجز) فشكرته وسمحت له أن يشعل لي السيجارة . ثم قال :

ـ «أجلس ، ما رأيك ؟ هل تمانع في أن (أدردش) معك لحظة . أرجو ذلك ؟ فالمرء لا يحالفه الحظ بلقاء كاتب كل يوم» .

بعد قليل من المجاملات سألني :

ـ «هل تؤلف كتباً أم أنك مراسل صحافي بالصدفة ؟ »

ادعيت بأنني قد عملت قليلاً في كل مجال على حدة . وقد توصلت إلى صياغة هذه الفكرة ، كما لو أنها كانت من دواعي التواضع .

قال لي : «أنا فاهم ، فاهم ، ولكن ماذا عن تأليف الروايات ؟ »

بعد صمت قصير فهمت أنه يريد مزيداً من الكلام . هززت رأسي معقباً : «حتى أنني اكتب الروايات البوليسية من حين لآخر» .

وأضفت : « إن اختصاصي هو السفر والأبحاث » .

فجأة استقام ظهره بفعل الدهشة فقال :

- « السفر! آه ، لو قطعت ذراعي اليمنى مقابل سنة أقضيها مسافراً أجوب البلدان . تاهيتي! ذاك هو المكان الذي أرغب بزيارته! هل سبق لك أن ذهبت إلى هناك ؟ »

أجبته : « بصراحة ، نعم ، مع أن ذلك لم يدم طويلاً - اسابيع قليلة فقط - كنت في طريق العودة من الجزر المرجانية » .

تساءل وقد بدا مكهرباً : « الجزر المرجانية ؟ وماذا كنت تعمل هناك ؟ »

قلت له : « في مهمة أخشى أن تكون عديمة الجدوى » . وبقيت أشرح له كيف أنني تورطت بالانضمام إلى بعثة انتروبولوجية ، حيث أنني لم أكن مؤهلاً بأي شكل من الأشكال لمثل تلك المهمة . لكن المسؤول عن البعثة كان من أصدقائي القدامى ومن زملاء الدراسة أيضاً - وهو الذي أقنعني بالاستمرار فيها على أساس أن أفعل ما يحلو لي . فلو كان في الأمر تأليف كتاب لكان شيئاً رائعاً... أما خلاف ذلك... وهو ما حصل لي » .

- « نعم ، نعم! وماذا حدث ؟ »

- « في غضون أسابيع قليلة سقطنا جميعاً تحت تأثير مرض شديد . وقد أمضيت بقية الوقت في المشفى »

في هذه اللحظة كان جرس الهاتف يرن بإلحاح على مكتب السيد لارابي . فقال السيد لارابي وهو يلتقط السماعة : « عذراً! »

وانتظرت طويلاً وأنا صامت إلى أن انتهى من المكالمة المطولة حول كميات الشاي المستوردة . وعندما انتهت المكالمة انتفض واقفاً على قدميه وسلم السيد ماك أوكليف البريد الموقع ، وكما لو أنه أخذ حقنة ، قال لي :

- « والآن ، إذاً ، ما هي نيتك يا سيد ميلر ؟ »

نهضت وصافحت السيد ماك أوكليف الذي كان يهم بالإنصراف . ثم عدت إلى الجلوس وبدون مزيد من اللغو ، انطلقت في الحديث في واحدة من

فوراتي النادرة . كانت هذه هي المرة الوحيدة التي أجد فيها نفسي منكباً على قول الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ثم الوداع . ونظراً للسرعة والكثافة اللتان تميز بهما سردي لمغامراتي ومصائبي الدنيوية ، لا داعي للقول إنني تيقنت من أنني كنت متطفلاً على وقت السيد لارابي إن لم نقل على صبره . والشيء الذي كان يحثني على المثابرة في الكلام هو تلك الطريقة التي كان يصغي بها اليَّ متلهفاً مثل ضفدع يحملق فيك من الضفة الطحلبية لإحدى السواقي . كان جميع الموظفين قد اختفوا من حولنا إذ صار الوقت موعد الغداء . توقفت لحظة لأستفسر منه إن كنت عائقاً أمام تناوله لطعام الغداء ، لكنه تجاهل السؤال ورد عليَّ متوسلاً :

ـ «تابع ، تابع ، أنا مصغٍ إليك تماماً»

وبينما كنا على هذه الحالة وقد وصلت في حديثي إلى التاريخ الراهن تابعت الاعتراف على نحو مضطرد . لم يكن ليوقفني شيء حتى لو أن السيد هوغنبوتهام بذاته قد ظهر فجأة وعلى نحو غير متوقع عائداً من افريقيا . ثم شرعت في الحديث بقولي :

ـ «لم يكن هناك مبرر مطلقاً لإضاعة وقتك . فأنا في الواقع ليست لدي خطة أو مشروع ولا اقتراح . علي كلٍ ، لم يكن في نيتي أن أجعل من نفسي أحمق بأن أحشر نفسي في هذا المكان . ولا بد أنه سيأتي الوقت الذي يجب عليك فيه أن تخضع لنزواتك حتى لو بدا الأمر غريباً بالنسبة لك.. فأنا كل ما فعلته هو أنني حكيت لك قصة حياتي . ومن نافلة القول أنني أؤمن بأنه لا بد من وجود مكان لشخص مثلي في هذا العالم ـ عالم الصناعة . فالإجراء المعتاد عندما يحاول المرء تحطيم الحاجز أن يطلب مكاناً له في القاع . على كلٍ ، إن فكرتي هي البدء من قرب القمة : أما القاع فقد سبرته ووجدت أنه لا يقود إلى أي مكان . أنا أتحدث إليك يا سيد لارابي ، كما لو كنت أتحدث إلى السيد هوغنبوتهام ذاته . أنا واثق من قدرتي على تقديم خدمات جليلة إلي هذه المؤسسة . أما في أي مجال فهذا مالا أستطيع تحديده . وباعتقادي أن كل ما عندي لأقدمه هو

مخيلتي وطاقتي التي لا تنضب . فليست المسألة برمتها مسألة شغل ، بل هي مسألة إتاحة الفرصة لي لكي أحل المشكلة الراهنة ـ وهي مشكلة شخصية بحتة أضعها بين يديك ، لكنها ذات أهمية بالغة بالنسبة لي . كان بمقدوري أن أرمي بنفسي في خضم أي شيء خصوصاً إذا كان يتطلب مني البراعة .

هذه السيرة المتفاوتة النجاح والإخفاق التي صورتها لك باختصار ، أشعر بأنها يجب أن تكون ذات هدف محدد . فأنا لست ذاك الفرد الذي لا هدف له في الحياة ، ولا أنا بذاك الشخص المتقلب . ربما كنت أعمل بأقصى جهدي عندما أكون غارقاً في روتين العمل . ما أحاول إيصاله إليك ، يا سيد لارابي ، هو أنه أياً كان الشخص الذي يوجد لي مكاناً ، فإنه لن يندم على ذلك . هذه مؤسسة ضخمة تحتوي على عجلات في داخلها عجلات . قد أصبح عديم القيمة مثل سن من اسنان الآلة . ولكن لماذا تجعلونني جزءاً من الآلة ؟ لما لا تدعونني أبتكر الآلة ؟ وحتى لو لم يكن لي خطة أتبعها ـ كما سبق أن اعترفت ـ فليس معنى هذا أن تقول إنني لن أتمكن في الغد من الطلوع بمخطط . صدقني أنه من الأهمية بمكان بالنسبة لي أن أجد في هذا الظرف إنساناً يمنحني مظهراً من مظاهر الثقة . ولتأخذ كلامي عهداً عليَّ فأنا لم أخن ثقة . وأنا لا أطلب منك تعييني فوراً ، بل إن اقتراحي الوحيد هو أن تعطيني بارقة أمل ، أن تعدني بأن تمنحني فرصة ـ إن كان ذلك ممكناً بأي شكل من الأشكال ـ لكي أثبت لك أن كل ما أقوله ليس مجرد كلام » .

لقد قلت كل ما كنت أريد قوله . نهضت واقفاً ، مددت يدي وقلت له :

ـ « كان لطفاً بالغاً منك » .

قال السيد لارابي : « تابع ، دعني استفهم منك عن أحوالك » .

نقل بصره إلى خارج النافذة لبرهة كافية من الزمن ، ثم التفت نحوي .

قال : « أنت تعلم أنه لا يوجد رجل واحد من بين عشرة آلاف قد امتلك الجرأة أو الوقاحة على إشغالي بمسألة كهذه . ولست أدري هل أعجب بك أم لا . انظر ، لما كانت الأمور بهذا الغموض فإني أعدك بأن أفكر في طلبك

جدياً ، وبطبيعة الحال ، لا أستطيع فعل شيء قبل عودة السيد هوغنبوتهام ، فهو الوحيد الذي يمكنه أن يجد لك مكاناً هنا »

وتردد قبل أن يستأنف كلامه قائلاً :

ـ « بيد أنني ، من ناحيتي ، أود أن أخبرك بأن معرفتي بالكتاب أو الكتابة هي معرفة ضئيلة ، لكنني صدمت بأن كاتباً يصدر عنه مثل هذا الكلام الذي تفوهت به . زد على ذلك أنه لا بد أن يكون فرداً استثنائياً من يمتلك الجرأة على أن يجعل نفسه موضع ثقة رجل في مثل موقعي .

أشعر بأنني مدين لك : فقد جعلتني اشعر أنني أكبر وأفضل مما كنت أظن نفسي . ربما كنت يائساً ـ كما تقول ـ ولكنك بالتأكيد لا تفتقر إلى الدهاء . إن شخصاً مثلك من غير الممكن أن يُهزم . لن أنساك بسهولة . مهما حدث فإن عندي أملاً بأنك ستعتبرني صديقاً . إذ بعد اسبوع من الآن أشك في أن هذه المقابلة ستصبح بالنسبة لك من ذكريات الماضي .

أحمررت خجلاً وارتباكاً حتى جذور شعري . فسماعي لمثل هذا الرد كان يناسبني بشكل أفضل بكثير من إيجاد موضع لائق لي في شركات هوبسون وهولباين . سألته :

ـ « هلا أسديت لي معروفاً ـ آخر معروف ؟ إن كنت لا تمانع في مرافقتي إلى المصعد » .

ـ « هل تعرضت للمضايقة من قبل جيم ؟ »

ـ « ها أنت تعرف ذلك إذاً ؟ »

أخذني من ذراعي ثم بدأ يشرح لي :

ـ « ليس له عمل سوى تشغيل هذا المصعد ، ولا يمكن أن تتوقع منه شيئاً على الإطلاق . بيد أن رئيس العمال يصر على إبقائه . إنه أحد المحاربين القدماء ممن يرتبطون مع العائلة بقرابة بعيدة ـ حسب اعتقادي ـ ومع ذلك فهو شخص مزعج فعلاً » .

كبس الزر فارتفع المصعد ببطء . بدا جيم الممسوس ـ كما اسماه ـ وقد

فوجئ برؤيتنا نحن الاثنين واقفين هناك . عندما هممت بالدخول إلى المصعد مد السيد لارابي يده مرة أخرى وقال لي ـ يقصد مساعدة جيم : «لا تنس إذا كنت... ذات مرة»

ثم ضغط ذراع المصعد متابعاً كلامه : «في هذا الجوار... أن تمر عليّ . في المرة القادمة قد نتناول الغداء معاً . سأكتب إلى السيد هوغنبوتهام هذا المساء . وأنا متأكد من أنه سيهتم بك اهتماماً بالغاً ـ والآن إلى اللقاء!»

قلت له : «إلى اللقاء ـ ولك مني كل الشكر!»

بينما كان المصعد يشق طريقه هابطاً كنت مثبتاً نظراتي نحو الأمام ،مباشرة . وكنت قد ألقيت نظرة علي وجهي كما لو كنت مستغرقاً في التفكير . كان ذهني أسير فكرة وحيدة فقط وهي أنه ـ متى سينفجر هذا المجنون ؟ انتابني شعور باطني بأنه في هذه اللحظة كان أكثر ضغينة تجاهي من ذي قبل ، لأنني تعاملت معه بنوع من المكر . كنت حذراً ومتيقظاً مثل القط . تساءلت ما الذي سأفعله وما الذي بمقدوري أن أفعله إنْ هو باغتني بين طابقين بقطع التيار وانهال علي ضرباً ؟ على كلٍ ، لم يصدر عنه أي صوت أو حركة . وصلنا إلى الطابق الأرضي ، انفتح الباب ، خرج هو أولاً ثم لحقت به خارج المصعد مثل بينو تشيو ذي ساقين مسفوعتين . لاحظت أن البهو كان مهجوراً . توجهت نحو الباب الذي يقع على بعد ياردات قليلة . بقي جيم في مكانه كأن شيئاً لم يكن . وقد شعرت ، على الأقل ، بأن تلك كانت وجهة نظره . في منتصف المسافة إلى الباب التفتُ غريزياً ونظرت إلى الوراء . وقد قرأت من التعبير المبهم على وجه جيم أنه كان يتوقع مني أن أفعل ما فعلته . عندما دنوت منه رأيت أن وجهه كان خالياً من التعابير والانفعالات . هل كان قد عاد إلى ذاته الحجرية أ م أنه كان مضطجعاً في مكمنه ؟ قلت له : «لماذا تكرهني ؟» ونظرت إليه وجهاً لوجه وعيناً لعين .

ـ «أنا لا أكره أحداً» كان جوابه غير المتوقع . ولم يحرك شيئاً سوى عضلات فمه . حتى بؤبؤاه كانا جامدين .

قلت له : « أنا آسف » . وقمت بنصف استدارة كما لو أنني سوف أسير مبتعداً . قال لي فجأة وقد دبت فيه الحياة :

ـ « أنا لا أكرهك ، أنا أشفق عليك . فأنت ليس بمقدورك ـ ولا بمقدور أحد غيرك ـ أن تستغبيني »

اجتاحني رعب داخلي فقلت متلعثماً : « ماذا تقصد بذلك ؟ »

قال : « لا داعي لأية كلمة منك ـ أنت تعلم ما أقصده »

غمرتني رعشة باردة من أسفل ظهري إلى أعلاه ، وكأنه قد قال لي :

ـ « إن لدي بصيرة ثانية ـ بإمكاني أن أقرأ ذهنك مثلما أقرأ كتابا »

قلت له وقد ذهلت لصفاقته : « ماذا إذا ؟ »

ـ « عد إلى البيت ورتب ذهنك ـ هذا كل ما في الأمر »

كنت مشدوهاً ، إذ أن ما حدث بعد ذلك لم يكن متوقعاً على الإطلاق كما قال السيد لارابي

كنت مثل المنَّوم مغناطيسياً .أراقبه وهو يرفع كمه ليكشف عن ندبة مخيفة ثم رفع فردة البنطلون ليشكف عن مزيد من الندب المخيفة . ثم فك أزرار قميصه وكدت أن يغمى عليَ لدى رؤيتي لصدره .

قال لي : « لقد دفعت كل هذا الثمن لأفتح عيني . اذهب إلى البيت وأصلح تفكيرك ـ أذهب قبل أن أضربك ضربة قاتلة! »

فاستدرت فوراً وانصرفت نحو الباب . استجمعت كل شجاعتي لكي أنطلق عدواً . رأيت شخصاً قادماً من الشارع ـ هل سيضربني الآن أم لا ؟ تحركت بنفس الخطوة ثم أسرعت الخطى مع اقترابي من الباب . يا سلام! في الخارج رميت حقيبة الأوراق وأشعلت لنفسي سيجارة . كان القرف ينز من كل مساماتي . انتابتني الحيرة فيما أفعله .

فقد كان من الجبن أن أولي الأدبار وذيلي بين ساقي ، وبالمقابل فقد كان تصرفاً انتحارياً أن أعود إليه .

محارب قديم أم غير قديم ، مجنون أم غير مجنون لا يهم ـ فهو كان يعني

ما يقول . والأنكى من ذلك أنه أخذ رقمي ، وهذا بحد ذاته ما كان يلهبني غيظاً . ابتعدت وصرت أتمتم وأنا أسير منهكاً . لقد أصابني في الصميم ؛ فأنا لست سوى ضيَّاع وقت ، دجَّالاً ، ثرثاراً ، ،متحذلقاً وأبن عاهرة ردئ . لم يسبق لأحد أن أوصلني إلى هذا الدرك .

شعرت وكأنني اكتب للسيد لارابي رسالة أخبره فيها أنه لم يعد يهمني الانطباع الذي تركته كلماتي فيه . فكل ما يمكن أن يقال عني هو أنني مزيف تافه وعديم الشرف .

أصبحت ناقماً على نفسي لدرجة أن جسدي بأكمله امتلأ بالطفح الجلدي . فلو أن دودة ظهرت أمامي تردد كلمات جيم لأطرقت رأسي خجلاً ، ولقلت لها : « إنكِ على حق تماماً أيتها السيدة الدودة . اسمحي لي أن أزحف معكِ جنباً إلى جنب ، وأعفر وجهي في التراب »

في البوروهول تناولت القهوة والسندويش ، ثم توجهت غريزياً نحو مسرح (ستار) ، وهو مسرح تهريجي قديم الطراز كانت له « أيام عز » .

كان العرض قد بدأ ــ ولكنها ليست مشكلة ـ فلم يكن هناك أي جديد سواء في اسلوب النكات أم في اسلوب السخرية .

عندما دخلت إلى المسرح عادت بي الذاكرة إلى المرة الأولى التي زرته فيها . كان صديقي القديم آلبورغر وصديقه الحميم فرانك شوفيلد قد دعواني للذهاب معهما . وكنا وقتها في سن التاسعة عشرة أوالعشرين ومما أذكره بشكل خاص هو حرارة الصداقة التي كان ينضح بها هذا الفرانك شوفيلد . لم يكن قد سبق لي أن شاهدته سوى مرتين أو ثلاث . كنت بالنسبة لفرانك شيئاً خاصاً جداً جداً...

كان يحب الاستماع إليَّ مفتوناً بكل كلمة أقولها لسبب من الأسباب . أما من ناحيته فقد كان فرانك واحداً من أكثر زملاء الدنيا اعتيادية ، سوى أنه كان مترعاً بالوجدان . كانت له هيئة ماموث إذ كان يزن ثلاثمائة باونداً . وكان يشرب مثل السمكة ، ولم يكن يخلو فمه من السيجار . كان يضحك

بسهولة ، وعندما يضحك ترتج معدته مثل الهلام . وقد دأب على القول لي :

ـ «لماذا لا تأتي وتسكن معنا ؟ عندها سنوليك رعايتنا ، فأنا تسرني رؤيتك»

كلمات بسيطة ، لكنها تمتاز بالنزاهة والإخلاص . لم يكن أحد من رفاقي المرحين في ذاك الوقت يمتلك صفاته الحنونة . لم يكن الدود قد أكل روحه بعد . كان بريئاً ، رؤوفاً ومتسامحاً مع أخطاء الغير .

ولكن لماذا كان مغرماً بي على هذا النحو ؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على ونفسي ، بينما كنت أتلمَّس الطريق للجلوس في الصالة . تسارعت إلى ذهني قائمة أصدقائي الحميمين سائلاً نفسي عن رأيهم بي ـ كلٌ على حدة ومجتمعين . ثم خطر ببالي زميل الدراسة (لسترفابر) الذي كانت شفتاه تتكوران مصدرتين شخيراً كلما التقينا يومياً . لم يكن أحد في الصف يحبه ولا حتى المدرسون . لقد خلق مكروها (........)! وقد تساءلت عما يمكن أن يعمله في الوقت الحالي ليدبر عيشه ؟ أما لستربرينك ـ فماذا حدث له ؟ فجأة تراءى لي الصف بأكمله ـ كما كنا نبدو في الصورة الفوتوغرافية التي التقطت لنا في حفل التخرج . رجعت بذاكرتي إلى كل واحد منهم ، فتذكرت اسماءهم وقاماتهم وأوزانهم ووقفاتهم ، وأين كانوا يسكنون وكيف كانوا يتحدثون ، وكل شيء عنهم .

كان العرض المسرحي مملاً لدرجة أنني كدت أن أغفو في منتصفه ، لكن جو الصالة كان دافئاً ومريحاً . علاوة على أنني لم أكن مستعجلاً للذهاب إلى أي مكان . وكان أمامي من سبع إلى تسع ساعات لكي أقتلها قبل عودة ستاسيا وموثا . عندما خرجت من المسرح كانت البرودة قد اعتدلت قليلاً ، لكن الثلج كان لا يزال يهطل هطولاً خفيفاً .

لا أدري ما الدافع الغامض الذي وجه خطواتي نحو متجر البنادق في آخر الشارع . في واجهة المحل شاهدت مسدساً استوقفني طويلاً أثناء مروري أمام المحل . كان سلاحاً ذا شكل إجرامي تماماً .

كنت أتوقف أمام محلات الأزياء وأدس أنفي في واجهة العرض ، وإذ بتربيتة تووددية على ظهري جعلتني أجفل . حسبت أن بندقية قد أطلقت . ولما استدرت نحو الوراء سمعت صوتاً وَدوداً يقول لي :

ـ «بحق الشيطان ، ماذا تفعل هنا ؟ يا هنري ، يا ولدي ، كيف حالك ؟ »

من يكون صاحب الصوت غير توني ماريلا . كان يضع سيجاراً ناتئاً في فمه وقبعته الناعمة مبعوجة بشكل أنيق وعيناه الخزريتان الصغيرتان تلمعان كما كانتا من قبل .

حسناً ، حسناً ، كل شيء على ما يرام ـ نفس المجاملات المعتادة وقليل من الذكريات الحنونة ثم يأتي السؤال المعروف : «والآن ماذا تعمل ؟ »

بقليل من الكلمات أفرغت أمامه حقيبة أوجاعي .

ـ «يا يسوع! إنه شيء سيء جداً! هنري ، لم أكن أتوقع أنك تعاني كل هذا . لماذا لم تطلعني على ذلك من قبل ؟ فكما تعلم ـ أنا دائماً تحت الطلب» ثم أحاطني بذراعه قائلاً :

ـ «ما رأيك بأن نتناول قليلاً من المشروب ؟ ربما أتمكن من مساعدتك» .

حاولت أن أخبره بأنني قد وصلت إلى مرحلة لم تعد تفيدني عندها المساعدة . قلت له :

ـ «لن تفعل شيئاً سوى أن تضيع وقتك» .

قال لي : «تعال! تعال! دعك من ذلك! أنا أعرفك على حقيقتك . ألا تعرف أني كنت دائماً من المعجبين بك وكنت أحسدك ؟ كلنا عندنا «طلعات ونزلات» . ها هنا ملتقى الأصدقاء . دعنا ندخل ونأكل ونشرب»

كان باراً مخفياً عن الشارع ، من المؤكد أن توني كان معروفاً لدى رواده ، وكان يتمتع فيه بسمعة حسنة ، لذا وجدت نفسي ملزماً بتقديم نفسي إلى جميع من حولي بمن فيهم ماسح الأحذية .

قال توني ، بينما كان يقدمني إلى كل واحد على حدة :

ـ « إنه زميل دراسة قديم ، كاتب ، بالله عليكم! ماذا تعرفون ؟ »

ثم ناولني كأساً من كوكتيل الشمبانيا :

ـ « خذ ، لنشرب نخب هذه الصدفة يا جو! إلينا بسندويشة لحم محمر مع صلصة اللحم والبصل الأخضر ـ ما رأيك بذلك يا هنري ؟ بحق المسيح ، إنك لا تدري كم أنا مسرور بلقياك وغالباً ما كنت أتساءل عما كنت تعمله . كنت أظن أنك ربما نزحت إلى أوروبا ـ شيء مضحك ؟ وإذ بك مختبئاً تحت أنفي » .

واستمر على هذه الوتيرة فرحاً كالقبرة يطلب مزيداً من المشروبات ، يشتري السجائر ، يستفسر عن نتائج المباريات ، يحيي القادمين الجدد ، يقدمني إليهم مجدداً ، يستقرض من صاحب البار قطعاً نقدية ، يجري اتصالات هاتفية... وهكذا دواليك . هكذا كان بمثابة دينامو صغير... أو قل بيضة جيدة... هكذا يتراءى لكل من تقع عيناه عليه . صديق لكل انسان . يطفح فرحاً وكرماً...

في هذه اللحظة ، بينما كان يتكأ بمرفقه على البار وذراعه الأخرى على كتفي ، قال لي وقد أخفض صوته :

ـ «اسمع ، يا هنري ، دعنا نتطرق إلى الأمور الأساسية . لقد حصلت على عمل سهل ، فإن كنت ترغب في العمل بإمكاني أن أدبر لك مكاناً . ليس هناك من شيء مما يثير غضبك سوى أنه ربما قد تعترضك بعض الصعوبات ريثما تدبر عملاً أفضل ـ ما قولك في ذلك ؟ »

ـ « بالتأكيد ، ولكن ما هو هذا العمل ؟ »

قال موضحاً لي أنه عبارة عن شغل في قسم الحدائق . كان توني سكرتيراً للمفوض ، وهذا يعني أنه كان معنياً بالروتين اليومي اثناء قيام المسؤول الكبير بجولاته . إنها السياسة ، تلك اللعبة القذرة . هذا بالضبط ما أراد أن يُسِرَّ إلي به ؛ إذ يوجد دائماً من هو بانتظارك ليطعنك في الظهر . ثم استأنف الكلام :

ـ «لن يكون ذلك غداً ولا بعد غد . يجب عليَّ أن ألعب اللعبة كما تعرف . لكني سأضعك فوراً على القائمة . قد يستغرق الموضوع شهراً كاملاً

قبل أن أرسل في طلبك . هل يمكنك انتظار ذلك مطولاً ؟ »

قلت له : «اعتقد ذلك» .

قال لي : « لا تقلق بشأن النقود . سأرسل لك كل ما تحتاجه حتى ذاك الوقت » .

قلت له : « لا ترسل لي . أنا سأتدبر أمري على خير ما يرام... »

قال لي وهو يضغط ذراعي : « إنك شخص مضحك . لا داعي لأن تخجل مني . النقود تروج وتجيء معي هكذا! في هذه المهنة لا بد لك أن تكون مزوداً بالمال . إذ ليس هناك سياسيون فقراء . وهذا ما تعرفه أنت . أما كيف نحصل عليه . فتلك مسألة أخرى . حتى الآن ما زلت صادقاً في ذلك . إن ذلك ليس سهلاً... وإذا كنت لن تأخذ مني شيئاً في الوقت الحالي ، فأنت تعرف أين أكون عندما تحتاج إلى ذلك... في أي وقت ـ تذكر ذلك! »

قبضت على يده . قال لي : « ما رأيك بمشروب آخر قبل أن ننصرف ؟ »

هززت رأسي .

قال لي : « أوه ، ثمة شيء آخر قد تجاوزته ، وهو أنه ربما كان عليَّ أن أعينك حفار قبور ـ ما رأيك بذلك ؟ فقط لمدة أسبوع . ولا داعي لأن تكسر ظهرك . سأنظر في الموضوع ، ثم سأنقلك إلى المكتب لتأخذ عني حملاً . قل أي شيء إلا أنني لن أكون قادراً على الاستفادة منك! لقد خلقت لتكون كاتب مراسلات ـ وهذا بالضبط نصف عملي » .

لدى خروجنا من البار ، قال لي : «الزم الكتابة يا هنري ، لقد خلقت لها ، وأنا شخصياً ما كنت لأبقى في هذه المهنة لو كانت لي موهبتك . إذ كان عليَّ أن أقاتل من أجل أي شيء كنت أحصل عليه » .

وبينما كنا نتصافح مودعين بعضنا بعضاً ، قال لي :

ـ « ألن تدعني انصرف الآن ؟ عدني! بلغ تحياتي لوالدك . والآن إلى اللقاء! »

ـ « إلى اللقاء يا توني! »

راقبته وهو يتجه نحو السيارة ثم يدخل فيها . ثم صرت ألوح له بيدي . يا للسعد! توني ماريلا دفعة واحدة . عندها فقط خمنت أن الأرض كانت على استعداد لاستقبالي .

الفصل الثامن

غريب كيف تنتهي الأمور إلى نتيجة معينة في بعض الأحيان . قد تشتم وتصلي ، قد تبربر وتتذمر ، لكن شيئاً لا يحدث . ثم فجأة ، وعندما تكون قد تصالحت مع المحتوم ، ينفتح باب المصيدة ، ينحرف كوكب زحل عن مداره وتختفي الطامّة الكبرى ، أو هكذا يبدو .

بهذه الطريقة السهلة واللامتوقعة أخبرتني ستاسيا ذات يوم ، وأثناء غياب مونا ، أنها تنوي الرحيل عنا . وما كنت لأصدق هذا الكلام ، لو لم أسمعه يخرج من بين شفتيها . وقد قابلت الخبر ببالغ الذهول وبالغ الانشراح بآنٍ معاً ؛ بحيث أنني لم أكلف نفسي عناء الاستفسار منها عن سبب رحيلها . أما هي فلم تكن ـ ظاهرياً ـ مستعجلة للتطوع بتقديم هذه «الخبرية» . وحجتها في ذلك أنها قد ضاقت ذرعاً بأساليب مونا المسرحية كما ألمحت لي . فقد كان هذا السبب وبشق النفس كافياً لإحداث هذا التحول المفاجئ .

سألتني : «هل تمانع في الخروج معي في مشوار ؟ فأنا أفضل أن أبوح لك بما عندي على انفراد قبل انصرافي . إن حقائبي مرزومة للسفر» .

عندما غادرنا المنزل ، سألت إن كان عندي اي اعتراض على التمشي فوق الجسر ، فأجبتها بقولي : «لا ، قطعاً» .

في الحقيقة كنت سأوافق على المشي معها إلى السهوب البيضاء لو

اقترحت ذلك . ومسألة كونها تهم بالرحيل عنا قد أيقظت عواطفي . فقد كانت ستاسيا مخلوقة غريبة ، لكنها لم تكن تلك الإنسانة السيئة .

عندما توقفت لأشعل سيجارة ، صرت أقيسها بنظراتي من أسفلها إلى أعلاها عضواً عضواً . كانت هيئتها تنم عن شخصية جندي فيدرالي عائد لتوه من الحرب . وكانت في عينيها نظرة يأس ، ولكنها لم تكن تخلو من التحدي . وكان واضحاً أنها لا تنتمي لأي مكان .

سرنا بصمت إلى أن اجتزنا شارعاً أو شارعين . ثم ، وبينما كنا نقترب من الجسر ، بدأ الكلام يرشح عنها . صارت تتحدث برقة ورهافة ، حديثاً بسيطاً بقصد المحاورة ، كما لو أنها كانت تستأنس بكلب . كان نظرها ثابتاً نحو الأمام ، كما لو كانت تقتفي أثراً . وخلاصة ما قالته أنني لم أكن في يوم من الأيام بمثل تلك الفظاظة التي كنت بها . لقد كان الوضع قاسياً بحد ذاته وليس أنا . وما كان مقدراً لهذا الوضع أن ينتهي حتى لو صرنا أفضل مما كنا بألف مرة . ولقد اعترفت بأنه كان هناك الكثير من التمثيل أيضاً . كانت تحب مونا ، نعم ، لكنها لم تكن واقعة في حبها إلى درجة الاستقتال واليأس ، ولم يسبق لها أن أحبت أحداً على هذا النحو . مونا هي التي كانت يائسة . يضاف إلى كل ذلك أن الحب لم يكن هو الرابط بينهما بقدر ما هو الحاجة إلى الرفقة أو الزمالة ؛ فكلتاهما كانتا روحاً واحدة . لو كانتا في اوروبا لتم الأمر بشكل مختلف . لكن الوقت تأخر جداً من أجل ذلك... الآن .

كانت تأمل في السفر إلى هناك من تلقاء نفسها ذات يوم . سألتها :

- « ولكن إلى أين ستذهبين الآن ؟ »

- « ربما إلى كاليفورنيا ــ وهل يوجد مكان آخر ؟ »

- « لماذا لا تسافرين إلى المكسيك ؟ »

وافقت على الفكرة باعتبارها مجرد إمكانية قائمة وقابلة للتنفيذ فيما بعد . فقد كان عليها في البداية أن تستجمع ذاتها . ولم يكن هذا أمراً سهلاً بالنسبة لها وهي التي تحيا هذه الحياة البوهيمية الفوضوية .وحيث أنها

بالأساس كانت إنسانة بسيطة ؛ إذ كانت مشكلتها الوحيدة هي كيفية مسايرة الآخرين . و أكثر ما كان يزعجها في اسلوبنا الخاص في الحياة ـ كما كانت تريد أن تحيطني علماً ـ هو أنه لم يتح لها سوى فرصة ضئيلة للعمل .

أسرّت إلي بقولها :

« لقد وجدت نفسي مضطرة للقبول بأي عمل ـ حتى لو كان حفر الخنادق . أريد أن أصبح نحاتة وليس رسّامة أو شاعرة . »

ثم سارعت إلى القول بأنني يجب ألا أحكم عليها من تلك الدمى التي كانت تتظاهر بها ـ فقد صنعتها إرضاءً لمونا لا أكثر .

بعدئذ ، تفوهت ببضع كلمات تناهت إلى مسامعي ملمّحة فيها إلى ما يشبه الخيانة . قالت إن مونا لم تكن تعرف مطلقاً أي شيء عن الفن إلى درجة عجزها عن التمييز بين الأعمال الفنية الرديئة والجيدة .

ـ « لم يكن في ذلك أية مشكلة حقاً ، ولا حتى كان الأمر سيشكل أي حرج لو كانت عندها الجرأة للاعتراف بذلك . لكنها لم تكن تملك تلك الجرأة . وكان لا بد لها من الادعاء بأنها تعرف كل شيء وتفهم كل شيء . أنا أكره الادعاء . وهذا هو أحد الأسباب اتي تفسر عدم انسجامي مع الناس » .

سكتت لحظة لكي تتيح لي المجال لاستيعاب ما قالته ، ثم أضافت :

ـ « لا أدري كيف تتحمل ذلك! أنت مليء بالحيل القذرة وترتكب أفعالاً شريرة من حين لآخر . وفي بعض الأحيان تكون مجحفاً وظالماً بشكل مخيف . لكنك ، على الأقل ، تتصف بالنزاهة . فلم يسبق لك أن تظاهرت بما هو ليس فيك . أما مونا... حسناً ـ من المستحيل معرفة من تكون وماذا تكون . إنها عبارة عن مسرح جوال . أينما تذهب ومهما تفعل ، لا يهمها إلى من توجه كلامها ؛ فهي دائماً في حالة تمثيل . إنه شيء ممرض... ولكن ألم يسبق لي أن أخبرتك بكل ذلك . إنك تعرف ذلك كما أعرفه أنا » .

ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وأضافت : « أحياناً » .

ترددت لحظة ثم قالت : « أحياناً اتساءل كيف تكون تصرفاتها في

الفراش ـ أقصد هل هي دجالة في ذلك أيضاً ؟ »

سؤال غريب ـ وجدت نفسي مجبراً على تجاهله .

ثم استأنفت : « أنا أكثر طبيعية مما كنتما تظنان . عيوبي ظاهرة للعيان طافية على السطح . أما في أعماقي فأنا بنت صغيرة خجولة لم تبلغ بعدُ مرحلة النضج . ربما كان ذلك اضطراباً غددياً . ألن يكون شيئاً مضحكاً لو تناولت كل يوم قليلاً من الهرمونات التي يفترض بها أن تحولني إلى أنثى نموذجية ؟ ما الذي يجعلني أكره النساء إلى هذا الحد ؟ هكذا كنت دائماً . لا تسخر مني . لكني ، صدقاً ، أشعر بالمرض عندما أرى امرأة تقرفص لكي تبول ، شيء يدعو للسخرية .

أنا آسفة لأنني ألقيت على مسامعك مثل هذه التفاهات ، ولم أكن أقصد سوى أن أخبرك عن كبائر الأشياء التي تضايقني فعلاً . لكني لا أعرف من أين أبدأ ، إضافة إلى أنني راحلة... ولكن إلى أين ؟ »

كن قد بلغنا منتصف الجسر وإذ كنا في غضون دقائق قليلة سنجد أنفسنا بين الباعة من ذوي عربات اليد مروراً بالدكاكين التي تكتظ واجهاتها بالسمك المدخّن والخضراوات وحزم البصل وأرغفة الخبز الكبيرة وقوالب الجبن السميكة والبرتسل* المملح وغيرها من المأكولات المغرية . وبين هذه وتلك كنا نشاهد فساتين العرائس والمشدات والملابس النسائية الداخلية والعكاكيز وأحواض الدوش وعدداً وفيراً من التحف والمزهريات والتماثيل الصغيرة .

كنت أتساءل في نفسي ما هو ذلك الشيء الحيوي الذي كانت تود إخباري به . قلت لها :

ـ « عندما نعود لن يكون هناك أي مشهد مسرحي . لو كنت مكانك لتظاهرت بأنني قد غيرت رأيي ثم تنسلين هاربة عند أول فرصة سانحة ، وإلا فإنها ستصر على الذهاب معك ولو لمجرد أن تراك في البيت بأمان . كانت هذه الفكرة رائعة بالنسبة لها ، مما جعلها تبتسم وتقول معترفة :

---

* البرتسيل : بسكويت قاسي مملح من الخارج له شكل العقدة .

ـ «لم تخطر ببالي هذه الفكرة أبداً ـ على كلٍ ، أنا أفتقر إلى الحس الاستراتيجي» .

قلت لها : «كله خير بالنسبة لك» .

ـ «وأنت تتحدث عن الاستراتيجية أتساءل إن كان بمقدورك أن تساعدني في جمع بعض المال ؟ فأنا مفلسة تماماً ، ومن غير الممكن أن أسافر متطفلة على أصحاب السيارات (اوتوستوب) ومعي صندوق ثياب وحقيبة سفر ثقيلة . (لا ، من غير الممكن ـ قلت في نفسي ـ ولكن يمكن أن ترسلهما لك فيما بعد) .

قلت لها : «سأفعل وما بوسعي . تعلمين أنني لا أصلح كثيراً لجمع المال ؛ فهذا من اختصاص مونا ، لكنني سوف أحاول» .

قالت : «جيد ، بضعة أيام زيادة أو نقصان لن تكون مشكلة» .

كنا قد وصلنا إلى نهاية الجسر فلمحت مقعداً خالياً وقدتها إليه .

قلت لها : «دعينا ،نرتاح قليلاً» .

ـ «هل بالإمكان أن نتناول القهوة هنا ؟»

ـ «معي سبعة سنتات فقط وزوج من السجائر»

سألتني : ـ «كيف تتدبر أمورك عندما تكون وحدك ؟»

ـ «هذا وضع مختلف . عندما أكون وحدي تنحل الأمور تلقائياً»

ـ «هل تقصد بذلك أن الله يوليك عنايته ؟»

أشعلت لها سيجارة .

قالت وقد صارت تخفض جناحيها :

ـ «بدأت أشعر بجوع رهيب» .

ـ «إذا كانت الأمور بهذا السوء فلنعد إلى البيت» .

ـ «لا أستطيع ـ لقد صار بعيداً . انتظر لحظة» .

أخرجت من جيبي قطعة نقدية وناولتها إياها قائلاً :

ـ «اسلكي الطريق الفرعي . أما أنا فسأذهب سيراً على الأقدام . ليس في

ذلك أية مشقة بالنسبة لي » .

قالت : « لا ، سنعود معاً . أخاف من مواجهتها وحدي » .

ـ « تخافين ؟ »

ـ « نعم ، يا ڤال ، أخاف . ستملأ المكان بكاءً وعويلاً ومن ثم سأضعف » .

ـ « ولكن هل يجب عليك أن تضعفي ـ تذكري ؟ دعيها تبكي ـ عندها ستقولين إنك قد غيرت رأيك ـ تماماً كما قلت لك » .

ـ « لقد نسيت ذلك » .

جلسنا فترة من الزمن نريح أرجلنا . صارت يمامة تحوم وتنقض ثم تغط على كتفها . قالت لي :

ـ « ألا يمكنك شراء بعض الفو ل السوداني ؟ لنطعم منها هذه الطيور ونترك قليلاً لأنفسنا أيضاً »

ـ « دعك من ذلك! تظاهري بأنك لست جائعة . سيزول الجوع فأنا لا أتذكر مرة عبرت فيها الجسر ومعدتي مليئة . كل ما في الأمر أنك عصبية » .

قالت : « أحياناً تذكرني برامبو . كان دائماً في حالة جوع . وكان دائماً يمشي عاري الساقين »

فأجبتها : « ليس في ذلك أية فرادة إن كان هو ـ وكم مليوناً من الآخرين ؟ »

انحنيت قليلاً لأشد أربطة حذائي ، فلمحت تحت المقعد حبتي فول سوداني فالتقطتهما .

قلت لها : « واحدة لك وواحدة لي . هل رأيت كيف أن المرء ترعاه العناية الإلهية! »

بعد تناولها حبة الفول أحست بالشجاعة الكافية لتمد ساقيها . نهضنا بعزيمة وأقفلنا عائدين من فوق الجسر .

قالت لي بينما كنا نتقدم صاعدين الجسر :

ـ « لست من ذاك الصنف الرديء . لقد مررت بلحظات كنت فيها اشمئز منك . ليس بسبب مونا ولا بسبب غيرتي ، بل لمجرد أنك لم تكن تلعن أحداً سوى ذاتك الجميلة . كنت بذلك تصدمني بقسوة وبلا رحمة ، ولكن ها أنا أرى أن لك قلباً حقاً ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « وما الذي أورد ذلك إلى ذهنك ؟ »

ـ « لا أدري . لا شيء خاص بحد ذاته . ربما كان السبب في ذلك أنني قد بدأت الآن أرى الأشياء بعين جديدة . على كلٍ ، أنت لم تعد تنظر إليَّ بطريقتك المعهودة . أنت تراني الآن ، أما سابقاً فكنت معتاداً على رؤية الصواب من خلالي . ربما أمكنني القول بأنه كان بمقدورك أن تدوسني أو تعبر من فوقي » . ثم تابعت :

ـ « ما زلت أتساءل كيف أنكما ستبقيان معاً بقية حياتكما إن تركتكما ورحلت عنكما ؛ إذ أنني ، بطريقة أو بأخرى ، أنا التي جمعتكما إلى بعض وابقيتكما معاً . فلو كنت أكثر مكراً ـ لو كنت فعلاً أريدها ـ بأكملها لنفسي لوليت مبتعدة بانتظار افتراقكما عن بعض ، ثم أعود وأطالب بها لنفسي .

عندها لم أجد بداً من الاعتراف لنفسي بأن في كلامها شيئاً من المنطق ، فقلت لها : « كنت أظن أنك داخلة فيها... »

قالت لي : « نعم ، كل هذا كان في الماضي . أما ما أريد فعله الآن هو أن أصنع حياتي بنفسي . لقد صار لزاماً علي أن أفعل الأشياء التي أحب أن أفعلها حتى لو منيت بالفشل الذريع... أما هي فما الذي ستفعله ؟ هذا بالضبط ما اتساءله .

لا يمكنني بأي شكل من الأشكال أن أراها تفعل أي شيء ذا أهمية . إني أشعر بالأسف عليك . صدقني ـ أنا أعني ذلك بكل صدق . لأنك ستصبح في جحيم عندما أرحل . ربما لست متأكداً من ذلك في الوقت الحالي ، لكنك ستتأكد فيما بعد » .

فأجبتها : « حتى لو كان ذلك ـ فهذا هو الأسلوب الأفضل » .

ـ « أنت واثق من أني سأذهب ـ ايه ؟ ولا أهمية لما يحصل ؟ »

قلت لها : « نعم ، أنا واثق ، وإذا لم تذهبي من تلقاء ذاتك فسأطردك بنفسي » . فأطلقت ضحكة خفيفة وهي تقول :

ـ « وهل ستقتلني إذا دعت الضرورة ؟ »

ـ « أنا لم أقل ذلك ، لا . ما أقصده بقولي هو أنه قد حان الوقت... »

ـ « قال الفظ لـ... »

ـ « صحيح! فما يحدث لدى رحيلك هو شأن من شؤوني الخاصة . كل ما هو مطلوب ،هو أن ،ترحلي . ولا مجال للتراجع عن ذلك »

ابتلعت كل هذه الكلمات كما يبتلع المرء غصة . كنا قد وصلنا إلى قمة الجسر حيث توقفنا لإلقاء نظرة على خط الأفق المتقهقر »

قالت : « كم أكره هذا المكان! لقد كرهته منذ اللحظة التي وصلت فيها إليه . انظر إلى خلايا النحل وهذه ـ مشيرة إلى ناطحات السحاب ـ لكم تفتقد إلى الإنسانية! »

ثم مدت ذراعها بإيماءة وكأنها تبغي مسحها عن وجه الأرض .

ـ « لو وجد شاعر واحد في تلك الكتلة الحجرية الفولاذية لأصبحت تركية مجنونة . من يقدر على السكن في تلك الأقفاص سوى الوحوش » .

ثم اقتربت من حافة الجسر وبصقت في النهر من فوق الدرابزون .

ـ « حتى الماء ملوث وقذر » .

ثم ابتعدنا وتابعنا مسيرنا .

قالت لي : « أنت تعلم أنني قد تربيت على الشعر : ويتمان ، ووردز وورث ، آمي لويل ، باوند ، إليوت . لهذا السبب كانت لي المقدرة على إلقاء قصائد بأكملها دفعة واحدة ، لا سيما شعر ويتمان . أما الآن فلم بمقدوري سوى أن أنكش أسناني . وهكذا وجدت نفسي مضطرة للخروج من الغرب مرة أخرى وبالسرعة الممكنة . هل سبق لك أن قرأت جواكان ميلر شاعر جبال السييرا . نعم ، أتمنى أن أعود عارية وأحتك بالأشجار . لا يهمني ما يفكر به

الآخرون فأنا امتلك القدرة على ممارسة الحب مع شجرة بدلاً من تلك الأشياء القميئة الموجودة داخل السراويل والتي تدب خارجة من تلك الأبنية الكريهة . كل الرجال على خير ما يرام ـ ولكن في الفضاءات المفتوحة أما «هنا» يا إلهي! إني أفضل الاستمناء على السماح لأي واحد منهم بأن يندس في فراشي . إنهم حشرات طفيلية ـ جميعاً . إنهم نتنون» .

كانت تبدو وكأنها قد وصلت إلى درجة الإرغاء . وفجأة عاد إليها هدوءها وتغيرت كل ملامح وجهها . في الواقع أنها صارت شبه ملائكية . كانت تقول لي آنذاك :

ـ «سأدبر لنفسي حماراً أمتطيه واختفي بين الجبال . ربما قد أتعلم الصلاة مرة أخرى . وباعتباري فتاة ؛ فقد تعودت التجول وحدي غالباً عدة أيام متواصلة . سأتحدث إلى الله بين الأشجار الحمراء . ليس معنى ذلك أن لدي تصوراً خارجياً عنه . فهو ليس أكثر من مجرد حضور هائل . كنت أتعرف إلى الله في أي مكان ، وفي كل شيء . كم كان الله يتبدى لي جميلاً! كنت أفيض حباً وعاطفة وكنت واعية إلى درجة كبيرة . وفي أغلب الأحيان كنت أجثو على ركبتي لأقبل زهرة وأقول لها :

ـ «أنت في غاية الكمال . إنك ؛ مكتفية بذاتك إلى أقصى الحدود . كل ما تحتاجينه هو الشمس والمطر ، تنالين ما تطلبين دون سؤال . فأنت أيتها البنفسجة الصغيرة لا تبكين لأجل القمر ـ هل تبكين ؟ وليس لديك أية رغبة في أن تكوني مختلفة عما أنت عليه» .

هكذا كنت أتحدث إلى الأزهار . نعم ، كنت أعرف كيف أتواصل مع الطبيعة . وكان كل شيء طبيعياً . كان واقعياً ـ واقعياً على نحوٍ مخيف» .

توقفت لإلقاء نظرة متمعنة ... كانت تبدو أكثر ملائكية من ذي قبل . لو كانت ترتدي قبعة هشة لبدت كواحدة من الملائكة الحارسين لعرش الله . ثم وبينما كانت تروح عن نفسها الهموم والأعباء عاد محيّاها إلى التبدل . لكن تلك الهالة الملائكية كانت لا تزال تحيط بها . كانت تحاول إفهامي أن ما

يدفعها للخروج عن هذا المسار هو الفن ؛ إذ أن أحد المقربين إليها قد وضع في رأسها جرثومة الاعتقاد بأنها فنانة .

قالت لي : «ليس هذا صحيحاً تماماً . كنت موهوبة دائماً ، وقد تبخرت هذه الموهبة في سن مبكرة . ولكن لم يكن هناك أي شيء استثنائي فيما كنت أفعله . كل إنسان صادق يمتلك ذرة من الموهبة»

صارت تحاول أن تشرح لي كيف حصل لها ذاك التغيير وكيف تكوّن لديها الوعي بالفن وبنفسها على أنها فنانة . هل حصل ذلك لأنها كانت مختلفة عن أولئك الذين من حولها ؟ ألأنها كانت ترى بعيون الآخرين ؟ عرفت أن ذلك قد حدث ذات يوم . وكأنها قد فقدت براءتها بين عشية وضحاها . منذ ذاك الحين صار لكل شيء وجه مختلف . فالأزهار لم تعد تكلمها ولا هي تكلمت إليها . عندما كانت تنظر إلى الطبيعة كانت ترى فيها قصيدة أو منظراً جميلاً . وهي لم تعد متوحدة مع الطبيعة . لقد بدأت تحلل ، تعيد التركيب وتفرض إرادتها .

قالت لي : «كم كنت حمقاء! إذ أنني في أسرع وقت ممكن كبرت أكثر مما يجب . فالطبيعة لم تكن كافية . صرت أتوق إلى حياة المدينة . كنت أعتبر نفسي روحاً كوزموبوليتية . أصبح همي الوحيد أن أحتك بالزملاء الفنانين وأن أوسّع مداركي بالنقاش مع المثقفين . كان عندي جوع لرؤية الأعمال الفنية العظيمة التي كنت أسمع عنها هنا وهناك . أو أقرأ عنها ، لأن أحداً ممن كنت أعرفهم لم يحدثني عن الفن باستثناء شخص واحد ـ تلك المرأة المتزوجة التي حدثتك عنها ذات مرة . كانت في الثلاثينات من عمرها وكانت تتمتع بحكمة دنيوية . لم تكن تملك ذرة من الموهبة ، ولكنها كانت عاشقة كبيرة للفن ، وكانت تتمتع بذوق فني رفيع . فهي التي فتحت عيني ، ليس على عالم الفن فقط ، بل على أشياء أخرى . لقد وقعت في حبها طبعاً . كيف كنت سأتجنب ذلك ؟ وهي الأم والمعلمة والمرشدة والعاشقة وكلهن في شخص واحد . في الواقع كانت عالمي بأكمله» .

قطعت كلامها لكي تستفسر إن كانت تسبب لي الملل ، ثم استأنفت :

ـ « أغرب ما في الأمر هو أنها هي التي دفعتني في خضم العالم وليس زوجها كما قد تعتقد . لا ـ كنا نحن الثلاثة على أفضل ما يرام من الانسجام . وما كنت لأنام معه في الفراش لولا أنها ألحت عليَّ في ذلك . كانت امرأة استراتيجية ـ كانت تشبهك ـ أما هو فلم يتماد معي أكثر من ذلك ، وأقصى ما تمكن من الظفر به هو احتضاني بين ذراعيه ومن ثم صار يضغطني إلى جسده . وعندما كان يحاول أن يقسرني كنت أتملص منه . في نهاية المطاف لم يكن ذلك ليضايقه كثيراً أو أنه كان يتظاهر بذلك . اعتقد أن ذلك يبدو غريباً بالنسبة إليك . يا لهذه المهنة . بيد أنها كانت تتصف بالبراءة تماماً . اعتقد أن قدري هو أن أكون عذراء ـ عذراء في القلب . أوف! أية حكاية أرويها لك! على كلٍ ، إن كل هدفي من هذه القصة هو أن أفهمك بأنهما هما اللذان اعطياني النقود لكي اتجه شرقاً . كنت مصممة على دخول مدرسة الفنون وأن أعمل بجد وأخلق لنفسي الشهرة » .

توقفت فجأة . ثم تابعت قائلة :

ـ « أما الآن ، أنظر إليَّ! ماذا أصبحت ؟ لقد صرت نوعاً من المتسكعات وأكثر دجلاً من مونا في الواقع » .

قلت لها : « أنت لست دجالة . أنت صعبة التأقلم مع المجتمع . هذا كل ما في الأمر »

ـ « لا داعي لأن تكون لطيفاً معي » .

مرت لحظة حسبتها فيها أنها ستنفجر باكية .

ـ « هل ستراسلني ذات مرة ؟ »

ـ « لم لا ؟ إذا كان ذلك يسرّك ـ فلم لا ؟ »

ثم ـ ومثل طفلة صغيرة ـ قالت لي :

ـ « سأفتقد كما انتما الاثنين ـ سأفتقد كما بشكل مخيف »

قلت لها : « حسناً ، لقد انتهى كل شيء ـ تطلعي إلى الأمام وليس إلى الوراء »

ـ «الكلام سهل بالنسبة لك . فأنت الذي ستمتلكها . أما أنا...»

ـ «صدقيني ، ستكونين بحالٍ أفضل بمفردك . فأن تكوني وحدك أفضل من أن تكوني مع شخص لا يفهمك» .

قالت لي وقد أطلقت ضحكة خجولة :

ـ «لست محقاً في ذلك . هل تعلم أنني ذات مرة حاولت أن أجعل كلباً يعتليني . شيء يدعو للسخرية . المهم أنه في النهاية عضني في فخذي» .

ـ «كان حرياً بك أن تجربي حماراً ، فالحمير سهلة الانقياد أكثر» .

في هذه اللحظة كنا قد وصلنا إلى نهاية الجسر

قالت لي : «هل ستحاول أن تجمع لي النقود ؟»

ـ «بالطبع ، ولا تنسي أن تتظاهري بأنك قد غيرت رأيك وأنك ستبقين ، وإلا فإننا سنعيش فصلاً مرعباً»

وكما توقعت فقد عشنا مشهداً دراميًا ـ ولكن في اللحظة التي أظهرت ستاسيا ليونتها ، انتهى المشهد إلى ما يشبه المطر الربيعي .

في كل الأحوال لم تكن رؤية حالة الأسى التي عاشتها مونا محزنة فحسب ، بل كانت مهينة لي أيضاً . لدى وصولنا إلى البيت وجدناها في التواليت تنتحب كالخنزير . كانت قد رأت حقيبة الملابس المقفلة وغرفة ستاسيا في حالة من الفوضى الجنونية . فعرفت أن الوقت قد حان تماماً . وكان شيئاً طبيعياً بالنسبة لها أن تتهمني بأنني وراء ما يجري من تغييرات . ولحسن الحظ فإن ستاسيا قد أنكرت ذلك بشدة . إذاً ـ لماذا قررت الرحيل ؟ فردت ستاسيا على السؤال رداً رهيباً مفاده أنها قد وصلت إلى مرحلة الملل من كل شيء . ثم توالت تساؤلات مونا التوبيخية مثل الرصاص . كيف تجرؤين على قول ذلك ؟ أين كنت ستذهبين ؟ ما الذي فعلته لكي تتحولي ضدي ؟ وكان بإمكانها أن تطلق مائة طلقة كهذه . ، فمع كل توبيخة جديدة ، كانت ترتفع عندها نوبة الهستيريا ، فتحولت دموعها إلى نشيج وتحول نشيجها إلى أنين .

لم يكن مهماً أنها سوف تستأثر بي لنفسها ، فقد كان واضحاً أنني لم أكن موجوداً إلا كشوكة في خاصرتها .

وكما اسلفت ، فإن ستاسيا قد لانت كثيراً ، ولكن ليس قبل أن تثور عاصفة مونا وتستشيط غضباً وتتوسل وترجو . كنت أتساءل لمذا سمحت لهذا المشهد بأن يستمر طيلة هذه المدة . هل كانت مستمتعة بذلك ؟ أم هل كانت مصابة بالغثيان إلى درجة الافتتان ؟ سألت نفسي ما الذي سيحدث لو لم أكن إلى جانبها .

لقد كنت الوحيد الذي لم يستطع احتمال المزيد ، فالتفتَ إلى ستاسيا ورجوتها أن تعيد النظر في موقفها .

قلت لها : « لا تذهبي الآن فهي محتاجة إليك فعلاً . إنها تحبك ، ألا ترين ذلك ؟ »

فأجابت ستاسيا بقولها :

ـ « ولكن هذا هو السبب الذي يدفعني للرحيل »

قلت لها : « لا ، إذا كان لا بد من رحيل أحد فهو أنا »

(وكنت حينها أعني ما أقول) .

قالت مونا : « أرجوك ، لا تذهب أنت أيضاً! لماذا يجب أن يذهب أحدكما ؟ لماذا ؟ أنا أريدكما انتما الاثنين ـ أنا بحاجة إليكما ـ أنا أحبكما » .

قالت ستاسيا ، كما لو أنها لا تزال متمسكة بموقفها :

ـ « لقد سمعنا ذلك من قبل » .

قالت مونا : « ولكني لا أقصد ذلك ـ فأنا لا شيء بدونكما ـ أما وقد صرتما صديقين أخيراً ـ لماذا لا نستطيع جميعاً أن نعيش مع بعضنا بسلام ووئام ؟ سأفعل كل ما تطلبانه ـ ولكن أرجوكما لا تتركاني! »

التفت إلى ستاسيا مرة أخرى وقلت لها :

ـ « إنها على حق . هذه المرة ستنحل المشكلة . فأنت لا تغارين عليّ .

لمـاذا يتـوجب علي أن أكون غـيوراً عليك ؟ احسـمي المـوضـوع ـ ألن تفـعلي ذلك ؟ إذا كنت مصدر القلق بـالنسبة لك فاطمأني بالاً . إن ما أبغيه هو أن أراها سعيدة لا أكثر . إذا كان بقاؤك معنا سيجعلها سعيدة سأقول لك أبقي! ربما سـأتعلم أن أكون سـعيداً أيضاً . فأنا على الأقل قد صرت أكثر تسـامحاً ، ألا تعتقدين ذلك ؟ »

ابتسمت ابتسامة مريبة ثم تابعت قائلاً :

ـ « تعالي الآن ، ما قولك ؟ هل تريدين أن تدمري حياتنا نحن الثلاثة ؟ »

جلست على الكرسي وقد بدت عليها علائم الانهيار بينما ركعت مونا عند قدميها ووضعت رأسها في حضنها ، ثم رفعت عينيها ببطء ونظرت إلى ستاسيا نظرة توسّل وقالت :

ـ « ستبقين ـ أليس كذلك ؟ »

فأبعدتها ستاسيا عنها بلطف وقالت :

ـ « نعم ، سأبقى ، ولكن بشرط واحد وهو أن لا مشاهد مسرحية بعد اليوم » .

في هذه اللحظة كانت نظراتهما مركزة عليّ . فأنا المتهم بعد كل ذلك . أنا الذي كنت المحرض على كل المشاهد . هل كنت سأتصرف ؟ ذاك هو السؤال الصامت الذي كان يدور في خلدهما .

قلت لهما : « إنني أعرف ما الذي تفكران به . كل ما يمكنني قوله هو أنني سأبذل قصارى جهدي » .

قالت ستاسيا : « بل قل غير ذلك . وأخبرنا بصدق عن شعورك الحالي »

ردتني كلماتها هذه على أعقابي . أحسست بالضيق لأن تمثيلها قد انطلى عليها بالذات . هل من الضروري بالنسبة لي أن أوضع تحت الاستجواب عند هذه النقطة ؟ ما كنت أشعر به حقاً ـ لو تجرأت على قول ما في ذهني ـ هو أنني كنت وغداً ـ وغداً خالصاً . وللتأكيد على ذلك ـ لم يكن يخطر ببالي ، لدى صياغة الاقتراح ، أننا سنضطر إلى التمادي في المسخرة إلى هذا الحد .

فبالنسبة لستاسيا كان الضعف شيئاً لا يخرج عن نطاق الصفقة المعقودة بيننا ، أما أن يصبح مسألة وعود مقدسة صارمة من جانبي ، أن يكون تفتيشاً لقلبي في الصميم ـ فهذا شيء آخر . ربما لم نكن سوى ممثلين ، حتى عندما كنا نظن أنفسنا صادقين ، أو ربما كان العكس تماماً . أصبحت مشوش الذهن . لقد صدمت بقوة وعلى نحوٍ مباغت لدى اكتشافي أن مونا ـ الممثلة ـ ربما كانت أكثر صدقاً . فهي ـ على الأقل ـ كانت تعرف ما تريد .

لقد كانت جميع هذه الأفكار تمر في ذهني كالبرق . فكان ردي ـ وكان الصدق أيضاً :

ـ «لأكن نزيهاً معكما ، أنا لا أعرف بماذا أحس . لا أعتقد أنه قد بقي عندي أي إحساس . على كلٍ ، لم أعد أرغب في سماع أي شيء آخر عن الحب أبداً...»

وهكذ كانت النهاية ؛ إخفاقاً بعد نجاح . لكن مونا كانت مقتنعة به كلياً ، وكذلك ستاسيا ، كما كان يبدو .

في الواقع ، أن أحداً منا لم يصب بأذى على نحو بالغ ـ فقد كنا محاربين قدماء . وهكذا رحت أهرول من مكانٍ إلى آخر مثل كلب دموم لكي أجمع المال يحدوني الأمل بأن ستاسيا ستغرب عنا . وحتى هذا الوقت كنت قد زرت ثلاثة مستشفيات في محاولة لبيع مقدارمن دمي . حيث أن سعر الدم البشري يساوي خمساً وعشرين دولاراً لكل باينتس* واحد . ومنذ فترة ليست بعيدة كان يساوي خمسين دولاراً ، أما الآن فقد زاد عدد الجائعين المتبرعين بدمهم عن الحد المطلوب .

لا فائدة من إضاعة الوقت في ذاك الاتجاه . من الأفضل أن أستدين ـ ولكن ممن ؟ لم يكن يخطر ببالي أي إنسان مستعد لأن يقدم لي أكثر من دولار أو دولارين . فهي بحاجة إلى مائة دولار ، على الأقل ، وإذا توفر لها مئتان فهذا أفضل .

* الباينتس : واحدة حجوم تساوي ثمن غالون أو حوالي ٠,٥٧ ليتر (م)

ليتني أعرف كيف أتوصل إلى ذاك المليونير المارق! فكرت في لودفيغ قاطع التذاكر المجنون . إنه مارق آخر ولكنه ذو قلب من ذهب ـ كما كانت تقول دائماً . ولكن ما الذي سأحكيه له ؟

كنت ماراً بالمحطة المركزية بهدف النزول إلى الدور التحتاني ، حيث كان المسافرون محتشدين ، ورؤية ما إذا كان هنالك من يتذكرني (لمحت كوستيفان العجوز الذي يعول عليه وقد مر من أمامي مبتعداً) . انسللت إلى الأسفل وألقيت نظرة على طاقم الموظفين فلم أتعرف على أي مخلوق .

وبينما كنت أصعد السلم إلى الشارع تذكرت أن الدكتور زابريسكي يقطن في مكان ما من ذاك الجوار . وفي أقل من لحظة كنت أقلب دليل الهاتف . فتأكدت تماماً من أنه كان موجوداً في الجهة الغربية من الشارع الخامس والأربعين . فارتفعت معنوياتي قليلاً . هناك يوجد ذاك الولد الذي استطيع بالتأكيد أن أعتمد

عليه إلا إذا كان مفلساً . وهذا احتمال صعب ، ذلك أنه كان قد أنشأ مكتباً في مانهاتن . تسارعت خطواتي حتى أنني لم أزعج نفسي بالتفكير بأي حكاية سوف أفاتحه . في الماضي ، عندما كنت أنوي زيارته لأحشو ضرساً كان هو الذي يسألني إن كنت محتاجاً إلى قليل من الدراهم . في بعض الأحيان كنت أجيبه بالنفي خجلاً من نفسي من التطفل على إنسان طيب مثله . لكن ذلك كان من زمان ـ في القرن الثامن عشر . وبينما كنت مسرع الخطى ، تذكرت فجأة موقع مكتبه القديم . إنه ذاك البناء القرميدي الأحمر المؤلف من ثلاثة طوابق حيث كنت أسكن ذات مرة مع الأرملة كارلوتا . كنت في كل صباح انقل بالعربة صفائح الرماد وأكوام القمامة من القبو وأضعها عند حافة الطريق . كان أحد الأسباب في أنني لم أكن أخجل من اتساخ يدي هو أن الدكتور زابريسكي نفسه من عهد إليَّ بهذه المهمة : كان شيئاً روسياً خالصاً ، مثل صفحة من صفحات غوركي... كم كان يحب الثرثرة معي حول مؤلفيه الروس! كم كان مبتهجاً عندما أريته قصيدة نثرية كنت قد كتبتها حول جيم

لوندوس أو هرقل الصغير كما كان يسميه . كان يعرفهم جميعاً : سترانغر ، لويس ، زبيسكو ، إرل كادوك ، فارمر (لا أدري ما اسمه الأول) ـ جميعهم . وها أنا أكتب مثل شاعر لم يستطع التغلب على اسلوبه ـ حول شخصيته المفضلة جيم لوندوس .

في عصر ذاك اليوم ، كما أذكر ، دسّ في يدي ورقة نقدية من فئة العشر دولارات ، بينما كنت أهم بالأنصراف . أما فيما يتعلق بالمخطوطة فقد أصر على الأحتفاظ بها لكي يعرضها على محرر رياضي كان يعرفه . وقد توسل إليّ لكي أريه مزيداً من كتاباتي . وهل كنت قد كتبت شيئاً عن سكريابين ؟ أو عن أليخين بطل الشطرنج ؟ كان يلح عليّ قائلاً :

ـ «عد إلي فوراً في أي وقت تشاء حتى ولو لم تكن اسنانك بحاجة إلى معاينة» .

وكنت اتردد عليه من وقت لآخر ، لا لأتشدّق بالحديث عن الشطرنج والمصارعين وعازفي البيانو ، بل أملاً في أن يدس لي ورقة من فئة الخمس دولارات أو حتى دولاراً واحداً لدى انصرافي من عنده . عند دخولي المكتب الجديد ـ كنت أحاول أن أتذكر كم من السنين قد انقضت منذ آخر مرة تحدثت فيها إليه . لم يكن في غرفة الانتظار سوى اثنين أو ثلاثة زبائن ، خلافاً للأيام الخوالي حين لم يكن هناك متسع إلا للواقفين فقط ، والنساء يرتدين الشالات ، يجلسن وعيونهن محمرة وهن يمسكن فكوكهن المتورمة . والبعض الآخر منهن يحملن أطفالاً بين أذرعهن... وكلهن فقيرات ، خنوعات ، ومسحوقات ، مستعدات للجلوس هناك ساعات طوالاً . أما المكتب الجديد فكان مختلفاً . الأثاث يبدو حديث الطراز ومريحاً على نحوٍ فاخر . وكانت اللوحات تزين الجدران ـ لوحات من النوع الجيد . كان كل شيء هادئاً مكتوم الصوت ، حتى مثقب الأسنان ، ومع ذلك لم يكن لديه سماور . وكنت بالكاد قد اتخذت لنفسي مقعداً ، عندما انفتح باب غرفة التعذيب ليندفع منه أحد الزبائن المرضى . خرج الدكتور فوراً وصافحني بحرا ة ورجاني أن انتظره دقائق قليلة .

سألني باهتمام : «هل توجد مشكلة خطيرة ؟» فدعوته لأن ينهي عمله حسب مواعيده . تجاويف قليلة ـ لا أكثر . ثم عاودت الجلوس والتقطت مجلة مصورة . وبينما كنت أتصفح الصور قررت أن أفضل شيء أقوله له هو أن مونا مضطرة لإجراء عملية جراحية . ورم في المهبل أو شيء من هذا القبيل .

كانت دقائق قليلة مع الدكتور زابريسكي تعني ساعة أو ساعتين . أما هذه المرة فكان الوضع مختلفاً . كل شيء كان يسير بسلاسة وفعالية في ذاك الوقت .

جلست في الكرسي الضخم . فتحت فمي على اتساعه . لم يكن عندي سوى نخر صغير واحد فقط مما يحتم عليه أن يملأه في الحال . وبينما كان يعمل مثقبه في فكي صار يمطرني بالأسئلة من قبيل : كيف تسير أموري ؟ وهل ما زلت أكتب ؟ هل صار عندي أولاد ؟ لماذا لم أدعه يراني قبل هذا الوقت ؟ كيف كذا ... وكذا... ؟ هل ما زلت أركب الدراجة ؟ وكنت أجيب على كل هذه الأسئلة بالنخر وتقليب العينين .

وأخيراً تم الأمر . قال لي : «لا تهرب! تعال لنشرب قليلاً!»

ثم فتح خزانة وأخرج منها زجاجة من الويسكي السكوتلندي الفاخر وسحب كرسياً صغيراً إلى جانبي وقال لي :

ـ «والآن احكِ لي كل شيء عندك!»

كان عليَ أن أختلق مقدمة تمهيدية قبل الدخول في الموضوع فيما يتعلق بالنقود وأشياء أخرى . بينما كنا جالسين لم أقدر في نهاية المطاف إلا أن أبوح بالسر ـ الورم .

فأحاطني علماً في الحال بأن له صديقاً طيباً ، وهو جراح ممتاز وعلى استعداد لإجراء العملية دون مقابل . ففوجئت بالأمر . لم يكن لي بد من القول بأن الترتيبات قد أجريت وأنني قد دفعت سلفاً مبلغ مئة دولار من تكاليف العملية .

قال لي : «أنا فاهم ، هذا أمر سيء» . فكر لحظة ثم سألني :

ـ «متى يجب عليك أن تدفع باقي الحساب ؟»

ـ «بعد غد» .

قال لي : «دعني أخبرك! سأعطيك شيكاً مؤجلاً . إذ أن رصيدي في البنك متدنٍ حالياً ـ إنه متدنٍ جداً ـ كم تحتاج بالضبط ؟»

قلت له : «مئتان وخمسون دولاراً»

قال لي : «شيء معيب . لقد كان بإمكاني أن أوفر عليك كل هذه التكاليف» .

انتابني فجأة شعور بالندم فقلت له :

«اسمع ، لا بد أن تنس الموضوع نهائياً . فأنا لم أعد أريد منك بنساً واحداً...»

لم يصغِ إلى كلامي ، بل صار يشرح لي أن الناس يتأخرون في دفع الكمبيالات ، أخرج دفتر الحسابات وراح يقلب صفحاته . قال لي : «في آخر الشهر سأقبض ثلاثة آلاف دولار»

ثم نخر قائلاً : «ها أنت ترى أنني لست فقيراً تماماً»

في هذه الأثناء ، وقد صار الشيك في جيبي بكل أمان . تريثت قليلاً إنقاذاً لماء الوجه . وعندما كان يرافقني إلى المصعد وصارت إحدى قدمي في داخله قال لي :

ـ «من الأفضل أن تتصل بي قبل صرف الشيك في البنك لمجرد الاطمئنان إلى أن له رصيداً . لا تنس ذلك...!»

قلت له مودعاً : «سأفعل ذلك» .

مع هبوط المصعد فكرت بذاك الزميل ذي السمعة الطيبة .

لقد كان تصرفاً سيئاً أنني لم أفكر في الحصول على قليل من الأوراق النقدية الحقيقية أيضاً . أما الآن فكل ما احتاجه هو قليل من القهوة وقطعة فطر . مددت يدي إلى جيبي فلم أجد سوى سنتات قليلة . نفس القصة القديمة . لدى اقترابي من المكتبة الواقعة عند الجادة الخامسة والشارع الثاني

والأربعين وجدت نفسي أنمق الحجج المؤيدة والمعارضة للبدء بالعمل كماسح أحذية . صرت أتساءل ما الذي أورد هذه الفكرة إلى ذهني وأنا في الأربعين من عمري أفكر في تلميع أحذية الآخرين . كم يشط الذهن! بينما كنت أتمشى بمحاذاة رصيف المشاة المحفوف بالأسود الحجرية الرابطة الجأش استبدت بي رغبة جامحة في زيارة المكتبة . كانت غرفة المطالعة هادئة ومريحة . إضافة إلى أنه قد تولد لدي فجأة نوع من الفضول لأرى كيف صارت أحوالها مع رجال الأدب الآخرين . (كما كانت هناك إمكانية لاكتساب معارف جدد وتناول الفطائر والقهوة) .

الشيء الوحيد المؤكد هو أنه لم تكن ثمة حاجة إلى التنقيب في الحياة الخاصة لكتاب أمثال غوركي ، دوستويفسكي ، أندرييف أو أي واحد من سلالتهم ، ولا حتى ديكنز أيضاً . جول ڤيرن! ذاك الكاتب الذي أعرف عن حياته كل شيء . ربما كان ممتعاً . يبدو أن بعض المؤلفين لم تكن لهم حياة خاصة ، إذ أنهم قد كسبوا كل شيء في كتبهم ، أما الآخرون أمثال ستريندبرغ ، نيتشه ، جاك لندن ، فقد كنت أعرف حياتهم تماماً كما أعرف حياتي تقريباً . ومما لا شك فيه أن ما كنت أرجوه فعلاً هو أن أقع على تلك السير التي لا تبدأ من مكان محدد والتي تودي بنا إلى المستنقعات والسبخات المالحة التي تسيل مبتعدة برقة ظاهرة دونما مخطط أو غرض أو هدف . ثم تنبثق فجأة متدفقة مثل ينابيع الماء الحار ولا تتوقف عن التدفق أبداً حتى في حالة الموت .

ما كنت أريد أن أضع يدي عليه ـ وكأن المرء يستطيع المجيء ليمسك بمثل هذه الأشياء اللامحسوسة ـ هو تلك النقطة الحاسمة في تطور أحد العباقرة عندما تنضح الصخرة الجافة الصلدة ماءً .

وكما أن الأبخرة السماوية تتجمع في نهاية المطاف في مستجمع الأمطار الشاسع ، ومن هناك تتحول إلى جداول وأنهار ، كذلك يحدث في العقل والروح . فقد كنت أشعر أنه لا بد من وجود هذا الخزان بانتظار تحوله إلى كلمات وجمل وكتب ـ أي بانتظار أن يعاود الغرق في اوقيانوس الفكر .

يقال أن التجربة والمحنة وحدهما هما اللتان تكشفان حقيقتنا . هل كان هذا هو الشيء الذي كنت سأجده ـ ولا شيء آخر ؟ بتقليب صفحات كتاب من كتب السيَر ؟ هل كان الناس المبدعون مخلوقات معذبة وجدت خلاصها فقط من خلال المصارعة مع أوساط الفن ؟ في عالم الإنسان كان الجمال مرتبطاً بالمعاناة والمعاناة مرتبطة بالخلاص لكن شيئاً من هذا القبيل لم يتأتَّ من الطبيعة .

اتخذت لنفسي مقعداً في غرفة المطالعة وأمسكت معجماً ضخماً من معاجم الأَعلام . وبعد أن قرأت هنا وهناك استغرقت في حلم يقظة . لقد برهن انجراري وراء أفكاري الخاصة على أنه أكثر إمتاعاً من التحديق في سير حياة الفاشلين والناجحين . لو كان بمقدوري أن أتتبع متاهاتي الخاصة تحت الجذور فلربما كان من الممكن أن أعثر على التيار الذي سيقودني إلى العراء . إن كلمات ستاسيا قد خلقت في ذهني الحاجة إلى روح لطيفة من أجل النمو والإثمار . فالحوار حول الكتابة مع عشاق الأدب لم يكن مثمراً . كان هناك الكثيرون ممن قابلتهم وكان بإمكانهم أن يتحدثوا حول الموضوع بألمعية تفوق ألمعية أي كاتب . (مع أنهم لم يكتبوا سطراً واحداً) . هل وجد من هو قادر على التكلم ببصيرة حول العمليات السرية ؟ لقد بقي السؤال الأبدي الكبير الذي لا يمكن الإجابة عليه ظاهرياً . ما الذي يجب أن أخبر العالم به باعتباره شيئاً مهماً على نحو ملحّ للغاية ؟ ما الذي سأقوله ولم يُقَلْ من قبل ، بل قيل آلاف المرات ، من قبل أناس يفوقونني موهبة بشكل لا محدود ؟ هل هي الأنا المحضة ، هذه الحاجة القسرية لأن أكون مسموعاً ؟ فبأي شكل من الأشكال كنت أتصف بالفذاذة ؛ إذ لولم أكن فذاً لكان الأمر شبيهاً بإضافة صفر إلى رقم فلكي هائل . صرت انتقل من شيء إلى آخر ـ حلم لذيذ ـ إلى أن وجدت نفسي أتأمل هذا الجانب الأكثر مدعاة للتفكير من مشكلة الكاتب : الافتتاحيات . إذ كان هناك عالم قائم بحد ذاته على الطريقة التي يفتتح بها الكتاب . وكم كانت الصفحات الافتتاحية للكتب العظيمة تختلف فيما بينها

اختلافاً شاسعاً . فبعض المؤلفين كانوا مثل الطيور الجارحة الكبيرة يحومون فوق إبداعهم ، يلقون ظلالاً هائلة مشرشرة فوق كلماتهم . أما البعض الآخر ، كالرسامين مثلاً ، فقد كانوا يبدأون بلمسات مرهفة غير متعمدة ، مهتدين بشيء من غريزة أكيدة يصبح هدفها الظاهري اللاحق هو استخدام الكتلة والوزن . كما أن البعض الآخر كانوا يأخذونك من يدك كالحالمين مكتفين بالتسكع عند حواف الحلم ويسمحون لأنفسهم شيئاً فشيئاً بالبوح بما لا يمكن التعبير عنه بوضوح . وهناك أناس آخرون كانوا يستمدون متعتهم القصوى من انتزاع المفاتيح الكهربائية ووميض الأضواء ، كما لو كانوا يقيمون في أبراج مراقبة . معهم كان كل شيء يتم رسم خطوطه بحدة وجرأة ، كما لو كانت أفكارهم قطارات كثيرة العدد تتدافع نحو ساحة المحطة . ثم هناك المعتوهون أو المهلوسون على حد سواء والذين يبدأون عشوائياً مع الصرخات الجشة والملاحظات الساخرة والشتائم ، ثم يطبعون أفكارهم ليس على الصفحة ، ولكن من خلالها ، مثل الات جامحة الدوران . ومع وجود كل هذه التنوعات ، فإن كل هذه الأساليب في كسر الجليد كانت على علاقة بأعراض الشخصية وليست شروحات لتقنيات مدروسة . والطريقة التي كان يفتتح بها الكتاب هي نفسها طريقة المؤلف في المشي أو التحدث ـ هي طريقته في النظر إلى الحياة ، طريقته في استمداد الشجاعة أو إزالة المخاوف . كان البعض يبدأ برؤية واضحة حتى النهاية والبعض الآخر يبدأ بداية عمياء ـ كل سطر عبارة عن صلاة صامتة تقود إلى التي تليها . يا لها من محنة ، يا لهذا الكشف للحجاب! يا له من مخاطرة مروعة هذا الاضطجاع العاري للمومياء!

ـ لا أحد ـ حتى أعظم العظماء ـ كان قادراً على التأكد ممن يمكن استدعاؤه لتقديمه أمام العين الدنسة . إذ يكفي أن يقع في الشرك لكي يحدث أي شيء . ويكفيه أن يمسك القلم بيده حتى يبدو وكأن الأرخونات* قد دُعيت إلى اجتماع .

---

* الأرخون : الحاكم الأول في اثينا القديمة (م) .

نعم ، الأرخونات! تلك الكينونات الغريبة ـ تلك الانزيمات الكونية التي تقوم بعملها في كل بذرة . التي تهندس الخلق البنيوي والجمالي لكل زهرة ، لكل نبته ، لكل شجرة ، لكل كون . القوى موجودة في الداخل ، خميرة أبدية ينشأ منها النظام والقانون .

وبينما كانت هذه الكائنات اللامرئية منهمكة في عملها كان المؤلف ـ ويا له من اسم مغلوط ـ يحيا ويتنفس ويقوم بواجبات رب المنزل والسجين والمتشرد أياً كان دوره ، وبينما تمر الأيام أو السنوات تنفلش لفافة الورق وتنفضح المأساة من تلقاء ذاتها ؛ فمزاجه مثل الطقس يتبدل من يوم لآخر ، وطاقاته تعلو وتهبط ، أفكاره تضطرب مثل دردور هائل ، فالنهاية ستكون وشيكة الحدوث ـ إنها الجنة التي لا بد أنه قد فرضها فرضاً حتى لو لم يكن قد كسبها كسباً ، لأن ما بُدئ به لا بد من انهائه وإكماله حتى لو كان ذلك على الصليب .

ايه... ما حاجتكم إلى قراءة صفحات السير الشخصية ؟ ما حاجتكم إلى دراسة الدودة أو النملة ؟ فكروا ـ مجرد لحظة ـ بأولئك الضحايا الطوعيين أمثال بليك ، بويمه ، نيتشه ، فكروا بهولدرلين ، دوساد ، نرڤال ، فليون ، رامبو ، ستريندبرغ ، سرڤانتس أوحتى دانتي لا بل وحتى هاينه أو أوسكار وايلد وفكروا بي أنا! هل كان علي أن أضيف اسمي إلى هذا الحشد من الشهداء المشهورين ؟ إلى أي درك من الانحطاط كان عليّ أن أغوص قبل أن اكتسب الحق في الانضمام إلى مرتبة أكباش الفداء ؟ على حين غرة ، وفي اثناء جولاتي اللامتناهية من وإلى ورشة الخياطة استبدت بي نوبة من نوبات الكتابة . وهو ما كانت تؤكده حقيقة أن كل شيء كان جاهزاً في رأسي ، ولكن أية صفحات عجيبة وأية عبارات هائلة! كنت وأنا مغمض العينين نصف إغماضة أهبط مسترخياً في المقعد وأصغي إلى الموسيقا النابعة من الأعماق . أي كتاب كان هذا! إن لم يكن كتابي فكتاب من إذاً ؟ كنت مبتهجاً مع أني لا أزال محزوناً مقهوراً مقموعاً ؛ إذ ما الفائدة من اجتماع هؤلاء العمال اللامرئيين ؟ لأجل

متعة الغرق في اوقيانوس الخلق . أبداً ـ من خلال الجهد الواعي ، أبداً والقلم في يدي ما كنت سأقدر على استثارة أفكار كهذه! كل شيء سأمهره لاحقاً بتوقيعي سيصبح هامشياً ، سطحياً ، هذيانات أبلهٍ يتوق إلى تدوين الطيران الشارد لفراشة... حتى ذاك الحين كان مصدر ارتياح للمرء أن يعرف أن بمقدوره أن يكون مثل فراشة . إن الاعتقاد بأن كل هذه الثروة من العماء البدائي لا بد من تشرّبه ، لا بد من أن يصبح مستساغاً وصالحاً للتجرع مع التفاصيل الهوميروسية لدورة الزمن اليومية ، مع الدراما التكرارية للكائنات البشرية الضئيلة التي تمتلك معاناتها وطموحاتها ؛ حتى بالنسبة للآذان الآدمية ذاك الطنين الرتيب لطواحين الهواء التي تدور في فراغ موحش لا رحمة فيه . الصغار والعظماء لا تفصلهم عن بعضهم سوى بضع انشات . فالاسكندر المقدوني يموت بذات الرنة في أقاصي آسيا النائية ، وقيصر (يوليوس قيصر) يلقى حتفه متجلبباً بثوبه الأرجواني الملكي على يد زمرة من الخونة ، وبليك كان يغني عندما وافته المنية ، وداميان تمزق على عجلة وهو يصرخ كأنه ألف نسرٍ ملوية الأعناق ، فما الذي كان يعنيه كل ذلك ولمن ؟ ألسقراط المرتبط بامرأة نقناقة ، أم لقديسٍ ابتلي بألف مصيبة ، أم لنبي ذي ريش ملوث بالقطران ـ وماذا ستكون النهاية ؟ كل الحنطة للطاحونة ، وكل المعلومات لعلماء التاريخ والمؤرخين ، وكل السموم للأطفال ، وكل الكافيار لمدير المدرسة . ومع ذلك ، ومن خلال ذلك ، نجد أن الكاتب وهو يشق طريقه متلوياً مثل سكير ملهم يقص حكايته يعيش ويتنفس ، إما يلقى التبجيل أو يتعرض للإهانة والخزي .

فأي دور هذا! يا يسوع ارحمنا!

الفصل التاسع

لا قهوة ولا فطائر ولا من يحزنون .

عندما خرجت إلى العراء كان الظلام مخيماً ، وكان الزقاق مهجوراً ومقفراً . كنت جائعاً ، فاشتريت بالسنتات القليلة التي كانت بحوزتي قالباً من السكر نبات ومشيت باتجاه البيت . كانت رحلة رهيبة ، سيما وأنني كنت فارغ المعدة . لكن رأسي كان ينز مثل خلية النحل ؛ فقد كان يرافقني الشهداء ؛ أولئك العصافير المرحة العنيدة الذين التهمهم الدود منذ أمد طويل . توجهت نحو السرير مباشرة . فلماذا الانتظار من أجلهما ، حتى ولو كان هناك موعد على الطعام . إن كل ما يخرج من شفتيهما سيكون بربرة زائدة لا معنى لها بعد تلك المتعة التي جنيتها من الملفات البيوغرافية . انتظرت بضعة أيام قبل أن أنقل الخبر إلى ستاسيا ، فانصعقت عندما سلمتها الشيك ولم تصدق أنه من الممكن أن يبدر ذلك عني ، ولكن ألم أكن أعمل على «تدفيشها» ؟ أما الشيك! فهل كان بمقدورها أن تتأكد من أنه سيرفض في المصرف ؟

يا لهذه الأسئلة! لم أتطرق نهائياً إلى طلب الدكتور زابريسكي بأن أتصل به قبل صرف الشيك ـ إذ ليس من المجدي أن أخاطر بسماع مالا تحمد عقباه . اصرفه أولاً ثم تدبر الأمر! تلك كانت فكرتي . لم يخطر ببالي أن أستفسر إن كانت قد غيرت رأيها حول موضوع الرحيل ، فأنا قد قمت بدوري

والباقي عليها . لا تسأل أحداً شيئاً ، فالموضوع محفوف بالمخاطر . إلى الأمام مهما كلف الثمن!

على كلٍ ، بعد مضي عدة أيام جاء الخبر المشؤوم مثل طلقة بارودة خردق ذات سبطانتين . فأولاً ـ كما علمت ـ إن الشيك قد تم رفضه في المصرف . ثانياً ، إن ستاسيا قد قررت تأجيل رحيلها إلى أجل غير مسمى . والأنكى من هذا وذاك أن مونا قد صبت جام غضبها فوق رأسي لمحاولتي التخلص من ستاسيا . وها قد نقضت مرة أخرى ذاك العهد الذي قطعته على نفسي ، فكيف تستطيعان الوثوق بي ؟

إلى آخر ما هنالك.. وهكذا صرت مربوط اليدين ، أو بالأحرى مربوط اللسان . لقد صار من المستحيل إخبارهما بما اتفقت عليه سراً مع ستاسيا . فهذا بحد ذاته كان كافياً لأن يجعل مني خائناً بنظرها .

عندما سألت عمن صرف الشيك ، أتاني الجواب بأن ذلك ليس شغلي . كنت أشك في وجود من يستطيع تحمل خسارة كهذه (إنه ذاك المليونير القذر ، على الأرجح) . ولكن ماذا أقول للدكتور زابريسكي ؟ لا شيء ؛ إذ أنني لم أكن أجرؤ على مواجهته مرة أخرى . في الواقع ، أنني لم أرَ وجهه بعدئذ . اسم جديد شطب من قائمتي .

بينما كانت الأمور تجيش وتضطرب تحت السطح ، حدث فصل من الفصول الغريبة . ففي إحدى الليالي سمعت نقراً خفيفاً على النافذة . وإذ بي أفاجأ بوجود زابريسكي المقرف الحقير بذاته واقفاً هناك .

جاء ليحيطني علماً بأنه سيحتفل في ذاك اليوم بعيد ميلاده . إن المشروبات القليلة التي كان يخبئها لم يكن لها ذاك المفعول المشؤوم جداً ، ولكنه بالتأكيد كان فاقداً لتركيزه بعض الشيء ، وكان لا يزال يمصمص شاربيه ويهرش نفسه ، ولكنه ، إذا جاز القول ، كان في حلة أكثر بهجة من المعتاد . رفضت دعوته لإقامة احتفال صغير هادئ برفقته . اختلقت بعض الأعذار الواهية التي فشلت في اختراق الضباب الذي كان يلفه . كانت له تلك

النظرة المثيرة للشفقة ، بحيث أنني بدلاً من إطلاق النار عليه سمحت له باختراق مقاومتي . أخيراً قلت لنفسي : لماذا لا أذهب ؟ هل يهمني إن كان قميصي منسَل الخيوط وبنطلوني مجعداً ومعطفي مليئاً بالبقع ؟ وكما قال لي : «إنه هراء!» . كان من رأيه أن نذهب إلى الريف ونأخذ معنا قليلاً من المشروبات المرغوبة ثم نعود مبكرين . كرمى للأيام القديمة فقط!

لم يكن مستحباً أن تطلب من إنسان ما أن يحتفل بعيد ميلاده وحيداً صار يخشخش النقود في جيبه وكأنه يخبرني بأنه ميسور الحال . وأكد لي بأننا لن نذهب إلى أي من الأماكن ذات الأسعار الباهظة . قال لي : «هل ترغب في تناول وجبة خفيفة أولاً ؟ صار يكشر بكل اسنانه المفروقة ـ وهكذا سلمت أمري .

لدى مرورنا عند البورو هول اشتريت ساندويشة وشربت فنجاناً من القهوه . بل اثنين وثلاثة... ثم دخلنا في الشارع الفرعي . كان يهمهم ويبربر لنفسه مثل أيام زمان . ومن حين لآخر كنت أنجح في التقاط عبارة واضحة مما كان يهذي به . فقد كان شيئاً شبيهاً بزئير في انبوب .

ـ «آه ، نعم ، نعم ، ذات مرة بينما كنت ألج في هرج ومرج... نظرة إلى الفتيات وشجار... لم يكن دامياً جداً... تحلقوا حول الورود... أنت تعلم... أخرجوا الدولارات من البساط» .

عرجنا على شيريدان سكوير . لم نلاق أية صعوبة في ايجاد مكان للالتقاء . كانت القاعة بأكملها تبدو كأنها تتجشأ دخان التبغ ، ومن كل نافذة كان يأتي دوي الجاز وزعقات النساء الهستيريات اللواتي كن يخضن في بولهن والجنيات اللواتي كن بزي موحد يتمشين متأبطات أذرع بعضهن بعضاً كما لو كن في منتزه الانكليز* ، وفي اعقابهن رائحة عطر قوية كافية لخنق قط بحاله . ومن مكان لآخر ، كنت ترى ـ كما في نيو ـ انغلاند ـ سكيراً يتمدد منبطحاً على قارعة الطريق يتجشأ ، يتقيأ ، يشتم ، يهذي هذيان السكير المدمن (...فيكم ، كلكم زبالة) .

The promenade de anglais *

كان تحريم المشروبات شيئاً مدهشاً ، فقد جعل الجميع ظمأى متمردين مشاكسين ، وخصوصاً أفراد الجنس اللطيف . وكم كانت السنتهن بذينة! إنها اكثر بذاءة من لسان أية عاهرة انكليزية .

في داخل قاعة لرقص الجاز تتحرك على عجلات وتشكل نوعاً من مقمرة للتحشيش عرجنا على البار القريب الذي يفي بمطالبنا . كانت الغوريلات ذات الأكواز في مخالبهن يطفن بها في كافة أرجاء المحل . كان البعض منهن يحاولن الرقص والبعض يقرفصن كما لو أنهن يتبرّزن ، والبعض يقلبن عوينهن ويقمن برقصة صاخبة ، والبعض الآخر كن يمشين على أربع تحت الطاولات يلهثن كالكلاب في الحر . والأخريات كن يزررن أو يفككن أزرار فساتينهن . عند طرف الباركان يقف شرطي مرتدياً قميصاً بأكمام وبنطلوناً بحمالات ، عيناه مغمضتان نصف إغماضة وقميصه منكوش من تحت بنطلونه . أما قراب المسدس والمسدس فكانا موضوعين على البار تغطيهما قبعته (ربما لا لشيء إلا ليظهر للعيان أنه يقوم بواجبه) . فلما رآه أوزيسكي على هذه الحالة من اليأس ، أراد أن يسخر منه فسحبته بعيداً ، لكي لا أراه يرتمي متخبطاً على الطاولة مع النفايات . طوقته إحدى الفتيات بذراعيها وبدأت تراقصه واقفة في مكانها . وبالطبع ، فقد كان يتطلع حواليه بنظرة

شاردة كما لو كان يحصي قطيعاً من الغنم . قررنا مغادرة الحانة ، فقد كانت صاخبة جداً . اتخذنا شارعاً فرعياً تزينه صفائح الرماد والصناديق الفارغة وقمامة العام الماضي ، لنفتش عن ملهى آخر من نفس الطراز ولكنه أسوء حالاً . هنا ـ ربي ساعدني ـ لم يكن يوجد سوى الـ Cocksuckers ـ كان البحارة قد سيطروا على الوضع ، وكان بعضهم أنصاف عراة . صرنا نشق طريقنا وسط التعليقات الساخرة وصيحات الاستهجان .

قال أوزيسكي : « غريب كم تغيرت القرية ، صارت است حمار » .

ـ « ما رأيك بالنزول إلى المدينة ؟ »

توقف لحظة وهرش رأسه ، إذ كان من المؤكد أنه يفكر . قال مبقبقاً وهو

ينقل يده من رأسه الى ما بين رجليه :

ـ « بلى ، لقد تذكرت الآن ، ثمة مكان هادئ ظريف ذهبت إليه ذات مرة . في هذا المكان يوجد طابق للرقص وأضواء خافتة وليس باهظ التكاليف » .

توقفنا بقرب سيارة كانت قادمة من بعيد .

ـ « هل تبحثان عن محل ؟ »

قال أوزيسكي وهو لا يزال يهرش رأسه ويفكر :

ـ « أصعد معي! »

فصعدنا في السيارة واقلعت بنا مثل الصاروخ دونما هدف محدد سلفاً . لم أكن أحب الانطلاق بهذه السرعة وهذه الطريقة إلى جهة مجهولة . لكزت أوزيسكي وقلت له : « إلى أين نحن ذاهبان ؟ »

أجابني السائق :

ـ « هوّن عليك . ستعرف ، خذ مني عهداً على أنه لن يكون ملتقى المحتالين » .

قال أوزيسكي وهو يتصرف كما لو كان مسحوراً :

ـ « ربما قصد شيئاً آخر » .

صعدنا إلى بناية شاهقة في الثلاثينات الغربية ، لم تكن تبعد كثيراً عن الماخور الفرنسي ـ كما ورد إلى ذهني ، حيث كنت قد تلقيت أول جرعة من مرض السيلان . كان حياً معزولاً بارداً تتفشى فيه المخدرات ، ويقطنه المرضى النفسانيون العائدون من الحرب لتوهم . هناك كانت القطط خائرة القوى تلوب بحثاً عن فريسة . صرت اتطلع إلى البناية من فوق إلى أسفل ، فلم ترد إلى مسامعي أية موسيقا عذبة قد تكون آتية من خلال النوافذ المحجوبة بالبرادي .

قال السائق : « رن الجرس وقل للبواب أنني أنا الذي ارسلتكما » .

وقد أعطانا بطاقة لكي نبرزها له . طلب منا دولاراً آخر مقابل تزويدنا بهذه المعلومات . حاول أوزيسكي أن يجادل في الموضوع .

فسألت : «لماذا ؟ ما المشكلة في أن يأخذ دولاراً زيادة» .

ثم قلت له : «تعال! لا تدعنا نضيع الوقت . إن ذلك يبدو وكأنه أمر واقعي» .

قال أوزيسكي : «إنه ليس بالمكان الذي كنت أفكر به» .

ثم صار يحملق في السيارة المنصرفة وهو يفكر بالدولار الإضافي .

ـ «ماذا يهمك ؟ إنه عيد ميلادك ـ هل نسيت ؟»

قرعنا الجرس فظهر لنا البواب . قدمنا له البطاقة (كنا مجرد مغفلين من سهوب نبراسكا) . قادنا البواب إلى المصعد فصعدنا حوالي ثمانية أو عشرة طوابق (الآن لم يعد هناك مجال للقفز من النوافذ!) ، فانفتح الباب محدثاً صريراً كما لو كان مشحماً بالسمن النباتي . أصابني الذهول لبرهة من الزمن ـ أين نحن من سماء الله الزرقاء ؟ النجوم في كل مكان ، الجدران ، والسقف ، الأبواب ، النوافذ ، أو قل الحقول الاليزية Elysian Fields . وهذه المخلوقات المنسلة الطافية في لباس من الشاش الشفاف وحرير التول ، نهمة شفافة تمد أيديها لترحب بنا . أي سحر يفوق ذلك ؟ لم تكن تلك المخلوقات سوى حوريات تتلألأ خلفها نجوم الليل . هل كانت الموسيقا هي التي أسرت سمعي أم الرفرفة الإيقاعية للأجنحة الملائكية ؟ كانت قادمة من بعيد ، كتومة ، مقهورة ، سماوية . فقلت لنفسي أن هذا هو بالضبط ما يستطيع المال شراءه . وكم كان رائعاً أن امتلك المال ـ أي نوع من المال ولأي كان يعود هذا المال . مال ، مال يا سمائي الزرقاء!

رافقتنا اثنتان من اكثر الحوريات إسلاماً واللتان كان من الممكن أن يختارهما محمد ذاته . صرنا نتلمس طريقنا كالبلهاء نحو مكان الهرج والمَرج ، إلى حيث كان كل شيء يسبح في زرقة غسقية ، مثل نور آسيا القادم عبر تجويف سمكة مفلوقة . كانت في انتظارنا طاولة فرش عليها غطاء أبيض من قماش الدمسق ، تتوسطها مزهرية تحتوي على ورود قرنفلية ذابلة ـ ورود حقيقية . وفوق لمعان الغطاء كان هناك الانعكاس الومَّاض للنجوم التي

تشع من فوق . وكان في عيون الحوريات نجوم أيضاً . أما نهودهن وحدها التي كانت مستورة ستراً خفيفاً فكانت مثل الجرابات الذهبية الطافحة بعصير النجوم . حتى حديثهن كان نجومياً ، غامضاً مع أنه كان حميماً مداعباً لكنه كان بعيداً ، ناهيك عن التدلّه المتألق المنكّه بالخرنوب والألوة المحفوظ عن كتاب الاتيكيت . وسط كل ذلك ترامت إلى مسامعي كلمة شمبانيا ، حيث كان أحد الحاضرين يطلب الشمبانيا ـ شمبانيا ؟ من نحن إذاً ؟ هل نحن دوقات ؟ رفعت أصبعي بخفة فوق ياقتي ذات الخيوط المنسلة .

قال أوزيسكي : «طبعاً شمبانيا ، ولم لا ؟»

فتمتمت لذاك الجالس إلى يساره :

ـ «وربما قليلاً من الكافيار ؟»

ـ «بالطبع ، وكافيار أيضاً!»

في هذه اللحظة لاحت فتاة السجائر ، كما لوأنها قد خرجت من باب مصيدة . بالرغم من وجود بعض السيجارات المفلوشة في جيبي ، وبالرغم من أن أوزيسكي كان يدخن السيجار فقط ، فقد اشترينا ثلاث باكيتات من السجائر ذات لأعقاب المذهبة ، لأن الذهب هو الشيء الوحيد الذي كان يجاري النجوم والأضواء الخافتة والقيثارات الإلهية التي كانت تصدح في مكان ما من وراءنا أو حولنا ، الله وحده هو الذي كان يعلم من أين . كان كل شيء قاتماً أجش على نحو بالغ . وكان كل شيء كتوماً جداً... وبالغ الرقة . كنت قد تذوقت الشمبانيا عندما سمعت اثنتين منهما تسألان بآن معاً كما لو كانتا تتحدثان من خلال حنجرة واحدة :

ـ «ألا ترغب في الرقص ؟»

نهضت واوزيسكي مثل فقمتين مدربتين ـ طبعاً سنرقص ولم لا ؟

مع أن أحداً منا لم يكن يدري بأي قدم يبدأ . كانت الأرض مصقولة ملمعة بشكل فاخر ، إذ حسبت أنني اتنقل على الظلال . كن يرقصن ببطء شديد وأجسادهن الحارة الندية المفعمة بغبار الطلع وغبار النجوم مضغوطة إلى

أجسادنا بإحكام . أما أطرافهن فكانت تموج مثل شتلات المطاط يا لذاك العطر المسكر الذي كان يفوح من أعضائن الملساء الصقيلة! هن لم يكن يرقصن بل كن منتشيات بالحبور بين أذرعنا .

لما رجعنا إلى الطاولة وتجرعنا مزيداً من الشمبانيا اللذيذة ذات الرغوة الوفيرة ، توجهتا إلينا بقليل من الأسئلة اللبقة من قبيل :

هل مضى زمن طويل على وجودنا في المدينة ؟ بماذا كنا نتاجر ؟ ثم «هل ترغبان في تناول شيء ما ؟ »

وما إن تفوهتا بالأسئلة حتى وجدنا إلى جانبنا نادلاً بلباسه الكامل . (في هذا المكان تمنع المخاطبة بالأصابع كما تمنع الإيماءات بالرأس والأصابع ، فكل شيء يتم تسييره بالرادار) . وضع أمامنا قائمة الأطعمة الفاخرة بمعدل نسخة واحدة لكل واحد منا ، ثم ابتعد عنا إلى الوراء قليلاً ولبث يرقبنا . كما أن الفتاتين قامتا بدورهما بإلقاء نظرة سريعة على القائمة ـ فقد كانتا جائعتين كما يبدو . ولجعلنا في وضع أكثر ارتياحاً طلبتا لنا مثلما طلبتا لنفسيهما . كانت هاتان المخلوقتان تمتلكان حاسة قوية للطعام ، أو لنقل للأطعمة ذات المنظر الشهي . كان هناك المحار والسرطان البحري والكافيار الوفير والأجبان والبسكويت الانكليزي والبزورات... كانت أشهى مائدة . لاحظت أن أوزيسكي قد ارتسمت على وجهه نظرة غريبة ، لا بل إنه صار أكثر غرابة عندما عاود النادل الظهور ومعه سطل من الشمبانيا الطازجة (طلبت عن طريق الرادار) والتي كانت اكثر إنعاشاً وأكثر فوراناً من الزجاجة الأولى .

هل كنا نريد شيئاً آخر اكثر من ذلك ؟ أتانا صوت من الخلف ، صوت رقيق مهذب مدرَّب منذ المهد . لم ينبس أحد منا بكلمة ، كانت أفواهنا مكمومة . تراجع الصوت إلى الظلال الفيثاغورسية . وسط هذه الوجبة اللذيذة اعتذرت إحدى الفتاتين وطلبت الإذن بالأنصراف . كان عليها أن تؤدي (نمرة) ضمن العروض . ثم عاودت الظهور في وسط القاعة تحت بقعة ضوء برتقالية . عندها صارت مطواةً بشرية . إن ما لم استطع تصوره هو كيف كانت تنجح في

القيام بتلك الالتواءات الجسدية وسرطان البحر والكافيار والشمبانيا تجري في كرشها . كانت حية عاصرة تلتهم نفسها . بينما كان العرض مستمراً ، صارت تلك الأخرى الجالسة إلى الطاولة تمطرنا بالأسئلة ، بصوت ناعم ملطف ، كله حليب وعسل ، ولكن كل سؤال بحد ذاته كان أكثر مباشرة واكثر بلاغة من سابقه . إن ما كانت ترمي إليه ظاهرياً هو مفتاح ثروتنا . ما الذي كنا نعمله تحديداً لكسب عيشنا ؟ كانت تجول ببصرها فوق ثيابنا على نحوٍ معبر . كان ثمة تناقض يثير اهتمامها وفضولها ، إذا جاز لنا القول . أم هل كان ذلك لأننا كنا قانعين بسعادة بالغة اكثر مما يجب وغافلين عن العوامل الدنيوية التي دخلت على الوضع ؟ إن ما كان ينغصها هو تكشيرات أوزيسكي الملتبسة وإجاباته اللامبالية الفظة . أما أنا فقد وجهت جل اهتماي إلى البلهوان . وليقُمْ أوزيسكي بتوليّ قسم الاسئلة الرد عليها .

في هذا الوقت كان المشهد قد بلغ تلك النقطة الحاسمة التي يجب أن يثار عندها الانتعاظ بطريقة مهذبة ، طبعاً . كنت أمسك كأس الشمبانيا في يدٍ وساندويشة الكافيار باليد الأخرى . كان كل شيء يسير بنعومة نحو الانتعاظ والوصول إلى قمة الرعشة على الأرض . نفس النجوم ، نفس الزرقة القاتمة ، نفس الجنس المخنوق من الاوركسترا ، نفس النادل ، ونفس غطاء الطاولة . وفجأة انتهى كل شيء . صوت تصفيق ضعيف ثم انحناءة أخرى . ثم عادت إلى المائدة العارمة . يلي ذلك ، دون شك ، مزيد من الشمبانيا ، ومزيد من الكافيار ومزيد من قرعات الطبلة . آه ، لو كانت الحياة ممكنة بهذا الشكل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم!

صرت الآن اتعرَّق بحرية وكنت مضطراً لنزع ربطة العنق .

ـ « يجب ألا تفعل ذلك! » هكذا قال ذاك الصوت الصغير النابع من أعماقي . في هذه اللحظة كانت تقف إلى الطاولة . قالت :

ـ « اسمحا لي بالأنصراف ، سأعود بعد لحظة »

ولقد عذرناها ، طبعاً . فبعد قيامها بأداء (نمرة) كتلك التي قدمتها

أمامنا ، كان عليها ، بدون شك ، أن تتبَّول ، أن تطلي وجهها بالمساحيق وأن تستعيد قليلاً من نشاطها . فالطعام سيبقى على المائدة (إذ أننا لسنا ذئاباً) وستبقى الشمبانيا وسنبقى نحن أيضاً .

وارتفع صوت الموسيقا مرة أخرى في مكان ما من زرقة الليل ، كان نداءً مكتوماً حميماً ، متهدجاً وهامساً . كانت موسيقا طيفية تنبعث من الامتدادات العلوية للغدد التناسلية . نهضت واقفاً على قدمي وشفتاي تتحركان . وأكثر ما أثار دهشتي أن ملاكنا الوحيد لم تتزحزح من مكانها ؛ فقد تذرعت بأنها لم تكن بمزاج رائق . جرَّب أوزيسكي سحره فتلقى منها نفس الرد ، لا بل إن ردها عليه كان أكثر اقتضاباً . حتى الطعام كان قد فقد جاذبيته بالنسبة إليها ، وغرقت في صمت أبدي . استأنفت وأوزيسكي وليمة الأكل والشرب . كان الندل قد توقفوا عن إزعاجنا ، ولم تعد سطول الشمبانيا تظهر من أي مكان . أما الطاولات من حولنا فكانت تُهجر تدريجياً ـ ثم تلاشت الموسيقا تماماً . في هذه اللحظة نهضت الفتاة الصامتة على حين غرة وانصرفت دون استئذان .

قال أوزيسكي معلقاً ـ كما لو كان يتحدث إلى نفسه :

ـ «ستأتي الفاتورة حالاً»

قلت له : «ثم ماذا ؟ هل معك ما يكفي لتسديد قيمتها ؟»

قال وهو يبتسم من بين أسنانه «حسب........»

وما ان أنهى كلامه حتى أقبل النادل باللباس الكامل والفاتورة في يده . أخذها أوزيسكي وتصفحها مطولاً على مهل . أعاد جمع بنودها عدة مرات ثم قال للنادل :

ـ «أين يمكنني أن أقابل المدير ؟»

قال النادل : «اتبعني!» وقد تغيرت تعابير وجهه .

قال أوزيسكي وهو يلوح بالفاتورة وكأنها رسالة مهمة مرسلة من الجبهة : «سأعود في غضون دقيقة» .

دقيقة أم ساعة ـ ما الفرق ؟ لقد صرت شريكاً في الجريمة ولا سبيل

للخروج منها . لقد انكشفت الحيلة . صرت احاول أن أتصور إلى أي حد قد اشبعونا شرباً . ومهما يكن الحال ، فقد كنت أعلم أن أوزيسكي لم يكن يمتلك قيمة الفاتورة . جلست هناك مثل سنجاب في وكره بانتظار أن يطبق الفخ عليه . أصابني العطش فصرت أمد ذراعي حولي لأصل إلى الشمبانيا ، عندما ظهر نادل آخر يرتدي أكماماً قصيرة ، وأتجه صوب الطاولة وراح يمسحها ، حيث أمسك بالقارورة أولاً ثم قام بإزالة الفضلات . لم يغفل حتى كسرة خبز واحدة ـ وفي النهاية انتزع غطاء الطاولة وأخذه معه . بقيت لحظة اتساءل إن كان هناك من سيقوم بسحب الكرسي من تحتي أو يضع المكنسة في يدي ويأمرني بالقيام بأعمال الكناسة .

عندما تكون مزنوقاً ما عليك إلا أن تتبول . تلك كانت الفكرة الجيدة التي حدثت نفسي بها ؛ إذ أنني بهده الطريقة ربما أتمكن من إلقاء نظرة على أوزيسكي . عثرت على المرحاض في نهاية القاعة خلف المصعد تماماً . كانت النجوم قد تلاشت ولم تعد هناك سماء زرقاء . لم يبق سوى ذاك الواقع اليومي البسيط ذي الأشواك والحسك .

لدى عودتي من المرحاض لمحت أربعة أو خمسة شبان متكومين فوق بعضهم في زاوية من الزوايا . كانوا يبدون مذعورين وكان يجثم فوقهم شخص عملاق كأنه وحش في لباس رسمي . كان يحمل كل مظاهر الملاكم البارع . ولكن لا أثر لأوزيسكي . رجعت إلى الطاولة وعاودت الجلوس وقد صرت الآن أكثر عطشاً . كانت تكفيني كأس واحدة من ماء الحنفية ، لكني لم أجرؤ على طلبها . انطفأت الزرقة وصارت رمادية . فلم أعد قادراً على تمييز الأشياء بوضوح .

كان شيئاً شبيهاً بنهاية حلم حين تهترئ الحواف .

بقيت اسائل نفسي : «ماذا يفعل ؟ هل تراه يحاول تخليص نفسه ؟ »

ارتدعت لمجرد التفكير بما سيحصل لنا ، لو تولى أمرنا ذاك الوحش اللابس زياً رسمياً . نصف ساعة من الساعات اللعينة قبل أن يعاود أوزيسكي

الظهور . لم يكن يبدو عليه أي سوء بسبب العقاب الشديد الذي كنت أظن أنه قد تعرض له . في الواقع ، إنه كان موزعاً بين الإبتسامة والقهقهة . قال لي :

ـ « دعنا نذهب . لقد سوي الأمر »

فانتفضت واقفاً ، وسألته بينما كنا نهرع إلى حجرة المعاطف والقبعات :

ـ « وكم دفعت لهم ؟ »

ـ « احزر! »

ـ « لا أقدر »

ـ « حوالي مائة... »

ـ « لا ...! »

ـ « انتظر ، انتظر حتى نخرج » .

كان المكان في هذه اللحظات شبيهاً بمعمل للتوابيت ؛ فالأطياف وحدها هي التي كانت تجول في المكان . وربما بدا المكان اكثر بشاعة تحت أشعة الشمس الساطعة . فكرت في الشبان الذين رأيتهم متكومين في الزاوية ، وتساءلت كيف سيكون حالهم بعد تلك المعاملة .

عندما خرجنا إلى العراء كان الفجر يبزغ ولم يكن في المدى المنظور سوى براميل القمامة المترعة ، فحتى القطط أختفت .

توجهنا مسرعين نحو أقرب محطة فرعية...

قلت له : « والآن ، أخبرني كيف تخلصت من الورطة ـ بحق الجحيم ؟ »

فصار يقوقئ ، ثم قال لي :

« لم يكلفنا ذلك سنتاً واحداً »

وبدأ يشرح لي ما حدث معه في مكتب المدير

فكرت في نفسي : « يا لك من إنسان مجنون . إنك داهية مثل الكرباج »

وهاكم ما حدث له... فبعد أن غاص في جيبه وأخرج ما يملكه من نقود اثني عشر ، أو ثلاثة عشر دولاراً ـ عرض عليهم كتابة شيك بقيمة الحساب المتبقي . وهذا بالطبع ما جعل المدير يضحك في وجهه . سأل اوزيسكي إن

كان قد لاحظ وجود أي شيء في طريقه إلى المكتب . أما أوزيسكي فقد فهم ما يعنيه ذاك الملعون جيداً : « هل تقصد أولئك الشبان في الزاوية ؟ »

« بلى ، فهم قد عرضوا دفع الفاتورة بشيكات مردودة » . وأشار إلى ساعات اليد والأساور الموضوعة أمامه على المكتب . كان أوزيسكي يفهم هذا أيضاً . ثم ، وببراءة كبراءة الحملان ، أقترح عليهم أن يحتجزونا إلى أن يفتح المصرف أبوابه . فهم لا يحتاجون إلا مكالمة هاتفية واحدة لكي يتأكدوا إن كان الشيك ساري المفعول أم لا » .

ثم جاء دور الاستجواب : أين يعمل ؟ بماذا يعمل ؟ كم مضى عليه وهو يسكن في نيويورك ؟ هل هو متزوج ؟ هل يمتلك دفتر توفير ؟... الى آخر ما هنالك . وفي الحقيقة أن الشيء الذي حول القضية لصالحه كما كان يعتقد ـ هو بطاقة الزيارة التي قدمها للمدير . فهذه البطاقة ودفتر الشيكات كانا يحملان اسم نحات مشهور من أصدقاء أوزيسكي ، ومنذ تلك اللحظة بدأ يخف الضغط عنه . أعادوا إليه دفتر الشيكات فسارع إلى تحرير شيك بالمبلغ المتبقي مضافاً إليه « بخشيش » محترم للنادل .

قال لي : « شيء مضحك... لكن تلك اللفتة البسيطة ـ أعني البخشيش ، هي التي تركت في نفوسهم اثراً قوياً ، وكان من الممكن أن تثير الشبهات حولي »

صار ينخر نخرته المعتادة التي تتلوها بصقة صغيرة هذه المرة .

ـ « هذا كل ما حدث لي هناك... »

ـ « ولكن ما الذي سيقوله صديقك عندما يكتشف أنك قد وقعت باسمه على الشيك ؟ »

رد علي بهدوء : « لا شيء ، فهو ميت . لقد توفي منذ يومين » .

كان من الطبيعي أن أسأله كيف تسنى له الحصول على دفتر الشيكات من صديقه ، ولكنني قلت في نفسي : « خراء! الغلام التافه المخلوع ليس عاجزاً عن تبرير أي شيء... إنسَ الموضوع! »

فاجأبني : «على أي حال... لا بد من ذلك ـ في هذه المدينة... »

بينما كنا نطوف في نفق السكة الحديدية انحنى عليَّ وهتف في أذني الصماء :

ـ « كانت حفلة ميلاد ظريفة ـ أليس كذلك ؟ هل أحببت الشمبانيا ؟ أولئك الفتيات كن بسيطات ـ وبمقدور أي إنسان أن يضحك عليهن »

لدى وصولنا إلى البودوهول ، حيث صعدنا إلى الهواء مرة أخرى ، وقف يتطلع إلى السماء ووجهه يشع بالمتعة والرضا .

Cockadooledoo! صار ينعق ثم يخشخش النقود في جيبه .

قال لي : « ما رأيك بالإفطار عند جو ؟ »

قلت له : « لا بأس . إن قليلاً من اللحم المحمر والبيض مفيد لي »

بينما كنا ندخل إلى المطعم قال لي :

ـ « وهكذا ـ إذاً ـ تعتقد أنه كان ذكاءً مني... ؟ هذا ليس شيئاً . كان عليك أن تعرفني في مونتريال ـ أقصد عندما كنت أرتاد المواخير » .

وفجأة أجفلت لفكرة النقود... من منا يمتلك نقوداً ليدفع ؟ فأنا لم أكن مستعداً للخوض في مغامرة ثانية كتلك »

قال لي : « بماذا تفكر ؟ باتأكيد إني امتلك نقوداً »

ـ « أقصد نقداً ألم تخبرني أنك تصدقت بالكمبيالات التي كانت معك ؟ »

قال لي : « قشور... لقد أعادوها إلي عندما وقعت الشيك »

حبست أنفاسي وقلت له :

ـ « يا للهول! هذا يفوق شيء . أنت لست ذكياً ، أنت طيب »

لم نتطرق في حديثنا إلى شيء سوى باريس ـ باريس التي ستحل كل مشاكلنا ـ ففي هذه الاثناء لا بد أن ينشغل كل واحد منا بعمل ما . ستاسيا سوف تصنع الدمى وأقنعة الموت ، وستبيع مونا دمها باعتبار أن دمي عديم القيمة . في خلال ذلك وبينما نكون مثل ديدان الأرض المشغولة يأتي مغفلون جدد بقصد التبرع بالدم . أحد المتبرعين هندي أحمر شيروكي ، إنه هندي

سيء فهو دائم السكر والعربدة . وعندما يكون سكراناً يبذر نقوده تبذيراً . ثمة شخص آخر وعد بأن يدفع الأجرة شهرياً . ترك القسط الأول في مغلف تحت الباب ، بينما كنا نائمين منذ عدة ليال . ثم هناك الجراح اليهودي ، موضع الأمل بالنسبة لنا . إذ أنه إضافة إلى كونه جراحاً فهو خبير في الجودو . إن ما يصدمني هو تلك المكانة الغريبة التي يتمتع بها . إنه طيب إلى أبعد الحدود . وأخيراً هناك قاطع التذاكر الذي أعادتاه إلى ذهني . فكل ما يطلبه لقاء هباته هو أن يأكل سندويشة عند الحاجة . خلال هذه النوبة الجديدة من الجنون أعيدت زخرفة الجدران فصار المكان مثل محل مدام توسو . لا شيء سوى الهياكل العظمية وأقنعة الموت والمهرجين المنحطين وأحجار القبور والآلهة المكسيكيين وكلهم بالألوان الفاقعة . ومن حين لآخر ، تصيبهم نوبات الإقياء إما من الإثارة أو من ممارساتهم المسعورة ، أو قد تصيبهم نوبات الهرولة شيئاً فشيئاً كما في الرامايانا* .

في أحد الأيام لمعت في ذهني فكرة ، فبعد أن قرفت هذه النشاطات التافهة ونكاية في الأمر ، قررت أن أتعرف على شقيق مونا ــ لا أقصد ذاك البوينتر الغربي ـ بل ذاك الآخر ، الأصغر سناً . فقد كانت تصفه دائماً بأنه مخلص جداً ومستقيم جداً ، وأنه لا يعرف الكذب على حد زعمها ذات مرة . نعم ، لماذا لا تجري معه حديثاً من القلب إلى القلب ؟ فالوقائع القليلة البسيطة والحقائق الباردة ستكون جملة اعتراضية مسرة في خضم التيار المضطرب للخيال ودوار اللبن . وهكذا قمت بالاتصال معه ، فدهشت لكونه متلهفاً لرؤيتي ، وأنه ينوي منذ فترة طويلة أن يقوم بزيارتنا ــ لكن مونا لم تسمع بذلك . كانت تبدو عليه صفات المرح والصراحة والحنو من خلال صوته على الهاتف . صار يحكي لي بشكل صبياني أنه يتمنى أن يصبح محامياً على الفور . كانت نظرة واحدة منه إلى المتحف الغريب الذي نسكنه كافية لإثارة

* الرامايانا : إحدى أعظم ملحمتين من ملاحم الهندوس باللغة السنسكريتية كتبت في القرن ١٥ م .

انشداهه . صار يتجول محملقاً بنشوة من شيء إلى آخر يهز رأسه باستهجان .

ـ « هكذا تعيشون إذاً » صار يرددها عدة مرات .

ـ « إنها فكرتك ، دون شك ـ يا إلهي ـ إنها لإمرأة غريبة! »

قدمت له كأساً من النبيذ ، لكنه أحاطني علماً بأنه لا يقرب المشروبات .

قهوة ؟... لا إن كأساً من الماء تفي بالحاجة .

تساءلت إن كانت مونا بهذا الاسلوب في الحياة فأجابني أن لا أحد من العائلة يعرف عنها كثيراً ، فقد كانت دائماً منطوية على ذاتها ، وكتومة وتدعي دائماً أن الأمور على غير ما كانت عليه في الواقع .

لا شيء في حياتها سوى الأكاذيب...

ـ « ولكن قبل أن تذهب إلى الجامعة ـ كيف كانت وقتئذ ؟ »

ـ « الجامعة ؟ إنها لم تنه دراستها الثانوية . لقد تركت البيت منذ كانت في السادسة عشرة من عمرها » .

لمّحت بلباقة قدر المستطاع إلى أن الظروف البيتية ربما كانت قاهرة إلى درجة لا تحتمل : « ربما لم تقدر على التكيف مع زوجة أبيها » .

ـ « زوجة أبيها ؟ وهل قالت لك أن لها زوجة أب ؟ القحبة! »

قلت : « نعم ، فهي تصر دائماً على أنها لم تستطع الانسجام مع زوجة أبيها ، لكنها من ناحية أخرى كانت تحب أباها حباً جماً . هكذا تقول هي ـ إنهما حميمان جداً » .

ـ « وماذا قالت غير ذلك ؟ » كانت شفتاه تعتصران غضباً .

ـ « أوه ، اشياء كثيرة . منها أن شقيقتها كانت تكرهها ولكنها لم تكن تعرف السبب » .

قال لي : « كفى! لا تقل شيئاً آخر! إنه العكس تماماً ، النقيض تماماً .

كانت أمي لطيفة كما يمكن لأي أم أن تكون . كانت أمها الحقيقية وليست زوجة ابيها . أما هو فقد كان من عادته أن يغضب منها غضباً شديداً ويضربها بقسوة بسبب أكاذيبها بالدرجة الأولى . وأما من ناحية شقيقتها ـ

كما تقول ـ فقد كانت شخصية سوية وأنيقة المظهر أيضاً . وما كانت تكنُ لها أية عداوة ، بل على العكس من ذلك تماماً . فقد كانت تفعل أي شيء تقدر عليه لجعل الحياة أكثر يسراً لنا جميعاً . ولكن بالمقابل لم يكن هناك من هو قادر على فعل الخير مع قحبة كهذه . كان عليها أن تنال كل شيء بطريقتها الخاصة . وعندما كانت تفشل في ذلك كانت تهددنا بالهروب من البيت » .

قلت له : « لا أفهم ذلك . أذ أنها ـ على حد علمي ـ قد ولدت كذابة... أما أن تقلب الأمور رأساً على عقب ـ لماذا ؟ ما الذي بمقدورها أن تصل إليه ؟ »

فأجابني قائلاً :

ـ « كانت تعتبر نفسها دائماً فوقنا . لقد كنا ـ تبعاً لذوقها ـ مبتذلين جداً وتقليديين وكانت تعتقد أنها شخصية أخرى مختلفة ـ إنها ممثلة . ولكنها تفتقر إلى الموهبة . كانت مسرحية أكثر مما يجب . أظنك قد فهمت قصدي لكن لا بد لي من الاعتراف بأنها كانت دائماً تعرف كيف تترك انطباعاً محبوباً لدى الآخرين . كانت لديها موهبة طبيعية في جذب الناس . وكما قلت لك فإننا لا نعرف عنها سوى القليل أو لا نعرف عن حياتها شيئاً بالمرة منذ هروبها من السجن . فنحن نراها مرة في السنة على الأغلب . وعندما تصل تكون دائماً محملة بالهدايا وكأنها واحدة من الأميرات . كانت دائماً محملة بالأكاذيب عن الأشياء العظيمة التي تنجزها . ولكنك تعجز عن وضع إصبع واحدة على ما تقوم به » .

قلت له : « ثمة شيء آخر لا بد أن أسألك عنه . قل لي هل إن أبويك يهوديان ؟ »

أجابني : « طبعاً ، لماذا ؟ هل حاولت أن تجعلك تعتقد بأنها نصرانية صرفة ؟ إنها الوحيدة التي تمتعض لكونها يهودية . وهذا ما كان يسبب في العادة نوبة من الجنون لوالدتي . لا أظنها قد أخبرتك عن كنيتها الحقيقية ؟ إذ أن والدي قام بتغييرها عند قدومنا إلى أمريكا . وهي تعني الموت باللغة البولندية » .

كان في ذهنه سؤال واحد يود طرحه عليّ ، فقد كان محتاراً كيف يصوغه ، وأخيراً نطق به ولكن بنبرة خجولة :

ـ « أقصد ـ هل تسبب لك المتاعب . هل تعانيان من مشاكل زوجية ؟ »

فأجبته : « اوه ، لدينا مشاكلنا الخاصة... كأي زوجين . نعم هناك مشاكل كثيرة . ولكنها ليست من النوع الذي يستدعي القلق من جانبك »

ـ « لم تعد تتسكع... مع رجال آخرين... هل تقوم بذلك ؟ »

ـ « لا ، ... لا ، ليس تماماً » (يا إلهي لو عرف!)

ثم قلت له : « إنها تحبني وأنا أحبها . ولا تهمني عيوبها . فهي الوحيدة بالنسبة لي » .

ـ « ما المشكلة... إذاً ؟ »

لقد فقدت القدرة على صياغة الفكرة بطريقة لا تصدمه حتى الأعماق . فقلت له أنه من الصعب علي أن أشرح الوضع له .

قال لي : « لا ينبغي عليك أن تكون متحفظاً . فأنا أتعهد بحل المشكلة »

ـ « حسناً ، كما ترى . نحن الثلاثة نعيش هنا سوية . إن تلك الأشياء التافهة التي تراها على الجدران هي من عمل تلك الفتاة الأخرى . إنها من نفس عمر شقيقتك تقريباً . شخصية غريبة الأطوار ويبدو أن شقيقتك تؤلهها . (بدت له كلمة شقيقتك غريبة) في بعض الأحيان أشعر أنها تفكر بهذه الصديقة أكثر مما تفكر بي . إن الوضع لم يعد يحتمل ـ أظنك تفهم قصدي » .

قال لي : « فهمت ، ولكن لماذا لا تطردها ؟ »

ـ « هذه هي المشكلة . إذ أنني لا أقدر على ذلك . ليس معنى هذا أنني أشك في كونها سحاقية ـ أنت تفهم قصدي . إنها تحب التعقيدات . المهم بالنسبة لها أي شيء تخلق به ضجة حول نفسها » .

ـ « ما الذي يجعلك متأكداً إلى هذه الدرجة من أنها ليست على علاقة حب مع تلك الشخصية الأخرى ؟ أنت نفسك تقول أنك لم ترها كثيراً خلال هذه السنوات القلائل الأخيرة »

قال : « إنها امرأة للرجال ـ هذا ما أعرفه »

ـ « تبدو واثقاً إلى أقصى حد »

ـ « أنا واثق . لا تسألني لماذا . أنا واثق تماماً . لا تنس ذلك . فسواء اعترفت هي بذلك أم لم تعترف ـ إن الدم اليهودي يجري في عروقها . الفتيات اليهوديات وفيات حتى عندما يعشن في الغربة والتشرد كهذه المخلوقة . إنه شيء في الدم » .

قلت له : « يسرني أن أسمع ذلك . كل ما أتمناه أن يكون ذلك صحيحاً » .

ـ « هل تعلم بماذا أفكر حالياً ؟ يجب عليك أن تأتي لزيارتنا وأن نتبادل الحديث مع والدتي ؛ فهي الوحيدة التي سوف تسر بلقياك . وليس عندها أية فكرة عن نوعية الرجل الذي تزوج ابنتها . على أي حال ، فإنها ستضعك في الصورة الصحيحة . كما أن ذلك سيعمل على تحسين حالتها المعنوية » .

قلت له : « ربما سأفعل ذلك . فالحقيقة لا يمكن أن تؤذي ، ناهيك عن أن الفضول يستبد بي لمعرفة أحوال أمها الحقيقية » .

قال : « حسناً ، دعنا نحدد موعداً »

حددت له الموعد على أن يكون في غضون الأيام القليلة القادمة وتصافحنا ، وبينما كان يغلق الباب خلفه قال لي :

ـ « إنها بحاجة إلى جلدة ، لكنك لست من النوع الذي يفعل ذلك ـ أليس كذلك ؟ »

بعد أيام قليلة قرعت بابهم . كان الوقت مساء وقد مضت ساعة العشاء . جاء شقيقها إلى الباب (ربما كان عليه أن يتذكر منذ سنوات قليلة عندما جئت لأرى إن كانت مونا تسكن هناك فعلاً أم أنه كان عنواناً مزيفاً فما كان منه إلا أن أغلق الباب في وجهي) .

الآن صرت في الداخل . شعرت بالارتعاد بشكل ما . كيف كنت على الأغلب قد حاولت أن أتصور هذا البيت من الداخل . كيف كنت أتخيلها وسط عائلتها عندما كانت طفلة ثم فتاة ثم امرأة ناضجة!

جاءت والدتها لكي ترحب بي . نفس المرأة التي لمحتها منذ سنوات عندما كانت تنشر الغسيل . تلك الشخصية التي وصفتها لمونا لكي أضحكها بقولي :

ـ «تلك كانت خالتي!»

طلعت عليّ بوجه حزين محموم ، كما لو أنها لم تضحك أو تبتسم منذ سنوات . كانت لديها بقايا لكنة أجنبية ، لكن صوتها كان مريحاً . وفي كل الأحوال لم يكن صوتها يحمل أي وجه من أوجه الشبه مع صوت ابنتها ، كما أنني لم أتمكن من اكتشاف أي تشابه في ملامحهما . إذا أردنا الخوض في الموضوع فقد كان فيها شيء ما يشبهها . هل كانت الأم الحقيقية أم زوجة الأب ؟ (ربما كان ذاك الشيء هو الحزن العميق) . توجهت نحو الخزانة الجانبية وأخرجت بعض الوثائق والمستندات ، من بينها شهادة زواجها وشهادة ولادة مونا والصور الفوتوغرافية للعائلة بأكملها .

جلست إلى الطاولة وصرت أتمعن هذه الصور . لا أقصد أنني كنت اعتبرها صوراً مزيفة . أصبت بصدمة ؛ فلأول مرة أقع على هذه الحقائق . دونت اسم القرية الواقعة في جبال الكاربات حيث مسقط رأس كل من أمها وأبيها . درست صورة البيت الذي كانوا يقطنونه في ڤيينا . حدقت مطولاً وباستمتاع في كل صور مونا بدءاً بصورتها الغريبة ذات الجدائل السوداء التي كانت ترتدي ثياباً مضحكة إلى أن تكونت شخصيتها على ما هي عليه الآن . ثم كانت هناك صورة لوالدها الذي كان يحبها حباً جماً!

رجل وسيم ذو ملامح بارزة . ربما كان طبيباً أو وزيراً للمالية في بريطانيا أو مؤلفاً موسيقياً أو استاذاً زائراً . أما بالنسبة لشقيقتها ، فقد كانت أجمل من مونا ، الأمر الذي لا يمكن أنكاره . لكنه كان جمالاً ضائعاً في هدونها . لقد كانتا من نفس العائلة ، لكن إحداهما تنتمي إلى عرقها بينما الأخرى ثمرة برية ذرتها الرياح . أخيراً عندما رفعت بصري وجدت والدتها تبكي .

ـ «هكذا ، إذاً ، قالت لك أنني زوجة أبيها ؟ ما الذي جعلها تقول هكذا ؟ صارت تنتحب بمرارة... هل كنت قاسية معها... هل رفضت التفاهم معها... لا... لا أفهم... »

جاء شقيقها وطوقها بذراعيه .

ـ «لا تأخذي الأمور بهذه القسوة يا أماه! فقد كانت دائماً غريبة عنا »

ـ «غريبة ، نعم ، لكن... هذا القول يشبه الخيانة . هل تشعر بالخجل والعار مني ؟ قل لي ما الذي فعلته لتتصرف معي هكذا ؟ »

كنت أريد التفوُّه بشيء يريحها ، لكنني لم أجد الكلمات المناسبة .

قالت الوالدة :

ـ «إني أحس بالحزن عليك . لا بد أنك تقضي معها أوقاتاً عصيبة . ولولا أنني أنا التي ولدتها لربما اعتقدت أنها من امرأة اخرى وليست ابنتي . صدقني أنها لم تكن هكذا عندما كانت فتاة ، بل كانت بنتاً طيبة ، محترمة ، مطيعة ، تحب المرح . حدث التغيير بشكل مفاجئ كما لو أن شيطاناً قد مسَّهالم تعد تتقبل أي شيء مما نقوله أو نفعله . صارت مثل الغريبة بيننا . حاولنا كل شيء ولكن عبثاً» .

ثم عادت إلى انهيارها وهي تبكي وتفرك رأسها بيديها وتنتحب . كان جسدها بالكامل يهتز بتشنجات لا سبيل إلى السيطرة عليها .

قررت الانصراف بالسرعة الممكنة . لقد سمعت ما يكفيني ، لكنهم أصروا على أن يقدموا لي الشاي . فجلست وأصغيت اليهم . استمعت إلى قصة حياة مونا منذ كانت طفلة ، فلم ألحظ أي شيء غير اعتيادي أو جدير بالملاحظة (اللهمّ إلا ملاحظة صغيرة مفادها أنها كانت شامخة الرأس دائماً) .

أي بعبارة أخرى ، كان لمعرفة هذه الحقائق البيتية تأثير ملطف . صرت الآن قادراً على تجميع وجهي العملة إلى بعضهما . أما فيما يتعلق بالتغيير المفاجئ ، فإنه لم يصدمني لكونه ملغوزاً إلى هذه الدرجة . فهو قد حصل لي أيضاً . ما الذي تعرفه الأمهات عن أولادهن ؟ هل يشجعن الإبن (أو الابنة)

المنحرف (أو المنحرفة) على مشاركتهن خصوصياته (تهن) . وهل قمن بالغوص إلى أعماق الطفل وسبر قلبه ؟ لا بل ، هل يعترفن بأنهن وحوش كاسرة أيضاً ؟ وإذا كانت الطفلة تحس بالعار من أصلها فكيف يتسنى لها أن تطلع أمها على ذلك ؟

بينما كنت امعن النظر في هذه المرأة ، هذه الأم ، واستمع اليها ، لم أقدر على ايجاد شيء فيها من شأنه أن يجذبني إليها فيما لو كنت من ذريتها ؛ إذ أن سيماءها الحزين وحده كان كافياً لإبعادي عنها ، هذا إن لم أقل شيئاً عن شعورها بالكبرياء . كان واضحاً أن ابناءها طيبون معها جرياً على عادة ابناء اليهود مع امهاتهم . أما ابنتها تلك ـ حمداً لله ـ فقد وفقت بزواج ناجح . يبقى أن نتكلم ،عن تلك النعجة السوداء التي بقيت شوكة في خاصرتها . إن مجرد التفكير بها كافٍ لجعلها تمتلئ شعوراً بالذنب من كونها قد فشلت في حياتها لأنها أنجبت ذرية رديئة . لقد تبرأت منها ـ وهل هناك إهانة للأم أكبر من تسميتها زوجة أب ؟

لا ، فكلما أصغيت إليها وهي تبكي وتنشج ازددت يقيناً بأنها لا تكن لإبنتها حباً حقيقياً ، وإذا حدث أنها كانت تحبها ذات مرة ، فهذا الشيء قد حدث في طفولة مونا . إن الأم لم تبذل أي مجهود لكي تفهم ابنتها ، إذ كان في احتجاجها شيء من المغالطة . فما كانت تطلبه من ابنتها هو أن تعود وتطلب منها الغفران راكعة على ركبتيها .

بينما كنت أودعهم وأنا أهم بالانصرف قالت لي متوسلة :

ـ «اجلبها إلى هنا . دعها تقف في حضرتك وتكرر تلك الأقوال الشريرة إن كانت تجرؤ على ذلك . وباعتبارها زوجتك فيجب عليها أن تفعل ذلك كخدمة لك على الأقل» .

كنت أشك من طريقة كلامها في أنها لم تكن مقتنعة تماماً بأننا نعيش كزوج وزوجة . وجدت في نفسي رغبة في أن أقول لها :

ـ «نعم ، وعندما سنأتي سأجلب معي شهادة الزواج» . لكنني عدلت عن

ذلك في آخر لحظة . ثم وبينما كانت تشد على يدي بدأت تلطف من حدة كلماتها . قالت متمتمة : «قل لها أن كل شيء صار طي النسيان» .

قلت في نفسي هاهي تتكلم كالأمهات ، ولكنها لم تتخلَّ عن خداعها الأجوف . بدأت أطوف حول الجوار في طريقي إلى محطة L . كانت الأشياء قد تغيرت منذ آخر جولة قمنا بها أنا ومونا . فقد وجدت صعوبة في التعرف على مكان البيت الذي اسندتها إلى جداره ذات مرة . كما أن قطعة الأرض الخالية حيث طمسنا رؤوسنا في الوحل لم تعد أرضاً خالية . في كل مكان ابنية جديدة وشوارع جديدة . بقيت أجوب المنطقة ـ هذه المرة مع مونا أخرى ـ مونا الـ Tragédienne* ذات الخمسة عشر ربيعاً والتي رأيت صورتها لأول مرة منذ دقائق قليلة . كم كانت صارخة حتى في ذلك السن الأخرق! أية طهارة تلك التي كانت في نظرتها! كم كانت بالغة الصراحة ، كم كانت ثاقبة النظر ـ كم كانت قوية الشخصية! فكرت بمونا التي كنت انتظرها خارج قاعة الرقص ، حاولت جمع الاثنتين معاً ، فلم أقدر . تجولت في الشوارع الموحشة وأنا أتأبط واحدة منهما تحت كل ذراع . إذ لم تعد أية واحدة منهما موجودة ولا أنا ـ ربما .

* المأساوية ، بالفرنسية في الأصل (م) .

الفصل العاشر

كان واضحاً حتى بالنسبة لأحمق مخدوع مثلي ، أننا نحن الثلاثة لن نصل إلى باريس سوية . لذلك عندما تلقيت من توني ماريلا رسالة مفادها أن عليَّ الحضور لمباشرة العمل في غضون أيام قليلة ، انتهزت الفرصة لأصارحهما بعزمي على إيقاف المشروع . في حديث ودي كتلك الأحاديث التي كنا نستمتع بها ، اقترحت عليهما أن تكونا أكثر حكمة وأن تقوما برحلة عاجلة حالما تسمح لهما الظروف المادية بذلك ، وتتركاني ألحق بهما فيما بعد . والآن وقد تحققت فرصة العمل صار بإمكاني الذهاب والعيش مع الناس وبالتالي إدخار جزء من النقود لأجل تكاليف سفرتي الخاصة . أو إذا دعت الضرورة صار بإمكاني أن ارسل لهما قليلاً من المال . وحسب تخميناتي الخاصة لم أكن أتصور أن أياً منا سوف يسافر إلى أوروبا خلال الشهور القادمة أو ربما أننا لن نسافر بالمرة . ولا أظن القارئ الكريم سيحتاج إلى كثير من التفكير ليتصور كيف كانت علائم الارتياح عليهما ، عندما عرفتا أني لن أرافقهما . لقد حاولت مونا بالطبع أن تلح عليَّ بأن لا أذهب للمكوث عند أهلي . وإذا كان لا بد من الذهاب إلى أي مكان فليكن ـ بحسب رأيها ـ منزل أولريك . فتظاهرت بأنني سأفكر بالموضوع .

ومهما يكن فإن حديثنا الودي الصغير بدا وكأنه يمنحهما فرصة جديدة

للحياة ، وفي كل ليلة صارتا لا تتذكران سوى الإشاعات الجيدة . فكل أصدقائهما ـ إضافة إلى المغفلين ـ كانوا قد وعدوهما بتقديم العون لجمع المال اللازم للسفر . وكانت ستاسيا قد اشترت كتاباً للمحادثة باللغة الفرنسية . أصبحت بالنسبة لها ذاك الأبكم الذي تردد أمامه عبارات بلهاء من قبيل :

"Madame, avez vous une chambre à louer?

A quel prix, s'il vous plait?

Y a - t - il d'eau courante? Et du chauffage central?

Oui? C est chic. Merci bien Madame?"

أو كانت تسألني إن كنت أعرف الفرق بين Un facture و L' addition ؟ وأن L 'oeil هي صيغة المفرد من العين بينما les yeux هي الجمع . شيء غريب ، ماذا! أو أن الصفة sacre إذا وردت قبل الاسم فعلاً ـ أليس كذلك ؟ لكنني لم أنطق بأي حرف حول هذه التفاهات كلها . إذ أنني سأتعلم الفرنسية عندما يأتي الوقت المناسب وبطريقتي الخاصة . على غلاف دليل الشوارع الذي اشتريته قامت برسم خارطة لخطوط المترو . أعجبني ذلك . صارت تشرح لي أين يقع مونمارتر ومونبارناس . من المحتمل أنهما سوف تذهبان إلى مونبارناس أولاً ، لأن معظم الأمريكيين يتواجدون هناك . كما أشارت إلى برج ايفل وحديقة اللوكسمبورغ وسوق الكتان واللوفر . سألت : « أين الطاحونة الحمراء ؟ » . كان عليها أن تبحث عنه في الفهرس .

ـ « المقصلة ـ أين يقيمون تلك ؟ » . لم تقدر على الإجابة على هذا السؤال . لم أتمالك نفسي عن ملاحظة عدد الشوارع التي سميت بأسماء المشاهير من أمثال رابليه ، دانتي ، بلزاك ، سرفانتس ـ هوغو ـ فيلون ـ فيرلان ـ هاينه ، ثم يأتي الفلاسفة والمؤرخون والعلماء والرسامون والموسيقيون وأخيراً المحاربون القدماء . والأسماء التاريخية التي لا حصر لها . فكرت في نفسي : أي تثقيف يجنيه المرء من مجرد التنزه في شوارع هذه المدينة! تصور نفسك تأتي إلى شارع أو محل أو... ما هو ؟

يحمل اسم Vercingetorxix (في امريكا لم يسبق لي أن مررت بشارع يحمل اسم دانييل بون مع أنه قد يوجد هذا الشارع في مكان آخر مثل داكوتا الجنوبية) .

ثمة شارع واحد كانت ستاسيا قد اشارت إليه وعلق في ذهني ؛ إنه الشارع الذي تقع فيه كلية الفنون الجميلة (حيث كانت تأمل ذات يوم بالدراسة هناك ـ أو هكذا قالت لي) .

كان هذا الشارع يحمل اسم بونابرت (تأكدت بعد قليل من أن هذا الشارع هو أول حارة سأقطنها لدى وصولي إلى باريس) .

في شارع فرعي بعد جادة فيسكونتي مباشرة كان بلزاك يملك داراً للنشر الأمر الذي كان بمثابة مغامرة دمرته لعدة سنوات متتالية . على الجانب الآخر من الشارع ، حيث امتداد شارع بونابرت أيضاً ، كان يعيش اوسكار وايلد في يوم من الأيام .

جاء الموعد المحدد لالتحاقي بالعمل . كانت تفصلنا عن مكتب قسم الحدائق مسافة طويلة جداً بالسيارة . كان توني ينتظرني بترحيب بالغ . قال لي : «لا ينبغي عليك أن تقتل نفسك» . وكان يعني بذلك عملي كحفار . أضاف قائلاً :

ـ «يكفي أن تقوم بمحاولة ولن تكون تحت إمرة أحد » ، ثم ربت على ظهري بحرارة : «لديك من القوة ما يكفي لحمل الرفش ـ أليس كذلك ؟ أو لدفع عربة محملة بالزبالة ؟ »

قلت له : «أكيد ، أنا متأكد من ذلك»

قدمني إلى رئيس العمال وأخبره ألا يقسو علي في العمل ، ثم أقفل راجعاً إلى المكتب . قال لي أني في خلال اسبوع سأعمل إلى جانبه في مكتب المفوض بالذات كان الرجال لطفاء معي ، ربما بسبب نعومة يدي . فقد كانوا يسندون إليَّ الأعمال الخفيفة فقط ، والتي يمكن لأي ولد أن يقوم بها على أكمل وجه . أمضيت ذاك اليوم الأول باستمتاع غامر . عمل يدوي ـ كم هو

شيء رائع! ثم هناك الهواء العليل ، رائحة الأوساخ ، زقزقة العصافير من بعيد . طريق جديد إلى الموت . كيف يا ترى يكون شعور المرء وهو يحفر قبره بيديه ؟ قلت في نفسي ، إنه من المؤسف أننا لم نكن مضطرين جميعاً لفعل أي شيء من هذا القبيل في مرحلة أو أخرى من حياتنا . فلربما أحس المرء بالارتياح في قبر حفرته يداه .

كم كانت شهيتي قوية عندما وصلت إلى البيت من العمل ذاك المساء! ليس بمعنى أنني كنت ضعيفاً من هذه الناحية .

ليس مألوفاً أن تأتي إلى البيت من العمل كأي انسان وتجد مائدة تنتظر من يلتهمها . فوجئت بوجود باقة من الأزهار على الطاولة إضافة إلى زجاجة من أفخر ضروب النبيذ الفرنسي . قليلون هم حفاروالقبور الذين يأتون إلى بيوتهم ليجدوا مأدبة كهذه . حفار القبور ـ إمريتوس ـ هذا ما كنته أنا . حفار قبور شكسبيري . في صحتكم!

وبالطبع فقد كانت الوجبة الأولى والأخيرة من نوعها . ومع ذلك ، فقد كانت اشارة طيبة . وبرغم كل شيء لم أكن استحق أية علامة احترام أو اهتمام مقابل العمل المشرف الذي كنت انجزه .

صار العمل يزداد قسوة يوماً بعد يوم . وجاءت اللحظة الكبرى ، عندما وقفت في قاع الحفرة أرفش من فوق كتفي رفشاً من التراب . قطعة فنية جميلة حفرة في الأرض ؟ توجد حفر وحفر . لكن هذه الحفرة مقدسة ، خصوصية من آدم قدموس إلى آدم أوميغا .

أمضيت كل النهار في القاع . لقد صرت الحفار والمحفور . نعم ، ففي قاع القبر والرفش في يدي تأكد لي أن ثمة شيء آخر من الغموض يلف جهودي . بالرغم من أن جثمان انسان آخر هو الذي سيشغل هذه الحفرة فلا داعي للقول بأنني كنت أحس كما لو أنها جنازتي J'aurai une bel enterrement كان كتاباً مضحكاً ذاك الذي يحمل عنوان «ستكون لي جنازة جميلة» .

لكن الشيء غير المضحك هو تلك الوقفة في حفرة لا قرار لها تحت سيطرة الاحساس بقدوم الشر . ربما لم أكن أحفر قبري ، إذا جاز لنا الكلام بشكل رمزي . حسناً ، سيأتي يوم أو يومان وينتهي ما بدأت به من عمل . وبإمكاني أن أتحمل ذلك . ناهيك عن أني سأقبض أجري لأول مرة ، على الفور . يا له من حدث! ليس معنى ذلك أنه كان مبلغاً كبيراً . لا ، لكني ـ كما يقال ـ قد كسبته من عرق جبيني . كان يوم خميس وبعده سيأتي يوم الجمعة ثم يليه يوم القبض .

في يوم الخميس ، يوم الشؤم هذا ، كان جو البيت يبدو وقد تخلله عنصر جديد . لم أقدر على تحديد ما هو بالضبط الشيء الذي كان يضايقني بهذا الشكل .

ولكن بالتأكيد ليس لأنهما كانتا مستهترتين على نحو شاذ ؛ إذ أنهما كانتا في أغلب الأحيان تمران بمثل هذه الفترات .

إن الشيء الوحيد الذي يمكنني قوله أنهما كانتا بالغتي الحذر ، ولكن ممن ؟ والطريقة التي كانتا تبتسمان لي بها ـ ذاك النوع من الابتسامة التي تصدر عن طفل نفذ صبره لكي يعرف ، ابتسامات تقول لي :

ـ «انتظر ، ستكتشف في الحال ما يكفيك!»

أما الشيء الأكثر إزعاجاً ، فهو أن شيئاً مما قلته لم يضايقهما . لقد كانتا راغبتين في استرضائي بشكل لا جدال فيه .

في الليلة التالية ـ ليلة الجمعة ـ جاءتا إلى البيت وهما ترتديان البيريهات .

قلت في نفسي : «ما الذي جرى لهما ؟ هل تظنان أنهما صارتا في باريس ؟»

صارتا تضيعان الوقت في غسيل ثيابهما على نحو مبالغ فيه . وكانتا تغنيان مثل المجانين ـ إحداهما في حوض الحمام (البانيو) والأخرى تحت (دوش) الحمام .

كانتا تدندان بأغنيات من نوع «دعني اسميك الحبيب... أنا في حبك...»

ثم تليها أغنية Tipperary . كانت مغازلة صريحة تماماً . آه كيف كانتا تضحكان وتقهقهان! مفعمتين بالسعادة . حمى الله قلبيهما الصغيرين . لم أكن قادراً عل مقاومة الرغبة في التلصص عليهما خلسة . كانت ستاسيا واقفة في حوض الاستحمام تفرك وجهها ولم تكن تزعق وتقول اوه! . أما مونا فكانت قد خرجت لتوها من تحت الدوش وقد لفت المنشفة حول حوضها . قلت لها وأنا أمسك المنشفة «سأدلككِ» . وبينما كنت أدلكها وأربتها وأمسدها صارت تبربر مثل القطة ، وأخيراً مسحت جسدها بماء الكولونيا فاستمتعت بذلك كثيراً .

قال لي : «أنت رائع جداً . أنا أحبك ، يا ڤال ، أنا أحبك فعلاً»

ثم عانقتني بحرارة .

قالت لي : «غداً ستقبض ـ أليس كذلك ؟ حبذا لو تشتري لي سوتياناً وزوجاً من الكلسات ، فأنا بأمسّ الحاجة إليهما» .فأجبتها : «بالطبع ، ألا يوجد شيء آخر ترغبين فيه ؟»

ـ «لا ، هذا كل ما أطلبه ، يا عزيزي ڤال» .

ـ «أكيد ؟ بإمكاني أن أجلب لك أي شيء تحتاجينه غداً» .

فنظرت إليّ نظرة خجولة .

ـ «لا بأس إذاً ـ شيء واحد فقط» .

ـ «ما هو ؟»

ـ «باقة بنفسج»

ثم توّجنا هذا المشهد من مشاهد والنعيم الزوجي بمضاجعة ملوكية ، قطعتها ستاسيا مرتين بأن تظاهرت بأنها تبحث عن هذا الشيء أو ذاك ، وقد بقيت تقيس الصالون جيئة وذهاباً حتى بعد أن همدنا تماماً .

بعد ذلك حدث شيء غريب حقاً . فبينما كنت استسلم للنوم وإذا بها تأتي إلى حافة السرير وتنحني فوقي بلطف وتقبلني على جبهتي . ومن تكون غير ستاسيا . قالت لي :

- «تصبح على خير ، أحلاماً هانئة!»

كنت منهكاً جداً ، فلم أتعب رأسي بالخوض في تفسير هذه البادرة الغريبة .

- «إنها وحدها - هذا كل ما في الأمر» ، هذا كل ما تفتق عنه ذهني في تلك اللحظة .

عندما استيقظنا صباحاً صارتا تتجولان في البيت قبل أن أفرك عيني اللتين كانتا تؤلمانني . ما زالتا مبتهجتين وما زالتا متلهفتين لكي تمنحاني مزيداً من السرور . هل كان الراتب الذي كنت سأجلبه إلى البيت هو الذي فعل فعله في رأسيهما ؟ ولماذا أحضرتا الفريز على الإفطار ؟ الفريز المكسو بالكريما الكثيفة... يا سلام!

ثم حدث شيء آخر غير اعتيادي . فبينما كنت منصرفاً ، أصرت مونا على أن ترافقني إلى الشارع .

قلت : «ما الأمر ؟ لماذا هذا ؟»

رمقتني بواحدة من ابتساماتها الأمومية المتسامحة ، ثم قالت :

- «أرغب في الخروج معك - هذا كل ما في الأمر» .

بقيت واقفة عند الدرابزون مرتدية الكيمونو الفاتح اللون ، بينما كنت أتابع سيري خارج المنزل . في منتصف المسافة بين البيت والبناية المجاورة التفت إلى الوراء لأرى إن كانت لا تزال واقفة ، فرأيتها هناك . كانت تلوح لي مودعة ، فلوحت لها بالمثل .

في القطار أخذت غفوة صغيرة . يا لها من طريقة جميلة لبدء النهار!

(لم تعد هناك قبور لأحفرها) . فريز على الفطور ، مونا تلوّح لي مودعة . كل شيء صار رائعاً جداً كما يجب أن يكون ، شيء يفوق الوصف .

وأخيراً كسرت الروتين .

في أيام السبت لم نكن نعمل سوى نصف النهار . جمعت أجوري ، تناولت مع توني غداءً تخلله شرح مفصل من جانب توني حول طبيعة مهامي

الجديدة ، ثم قمنا بدورة سريعة في الحديقة . في نهاية المطاف توجهت إلى البيت . في الطريق اشتريت زوجين من الكلسات وسوتياناً وباقة بنفسج وكعكة بالجبن الألماني . (كانت كعكة الجبن ضيافة خاصة بي) .

كان الظلام قد خيّم عندما وصلت أمام باب البيت ولم تكن الأضواء مشتعلة في الداخل . شيء مضحك ـ فكرت في نفسي : هل كانتا تلعبان معي لعبة الاستغماية ؟ دخلت ، واشعلت شمعتين وألقيت نظرة سريعة حولي . اكتشفت أن شيئاً ما مفقود من البيت . حسبت للحظة من الزمن أن اللصوص قد سطوا على المنزل . ولم تكن خشيتي لتزول ، لولا أنني ألقيت نظرة على غرفة ستاسيا . فوجدت أن حقيبة السفر وحقيبة الملابس غير موجودتين . في الواقع ، كانت الغرفة مجردة من أي شيء من خصوصيات ستاسيا . هل كانت قد هربت من السجن ؟ ألهذا السبب ودعتني بقبلة المساء قبل النوم ؟ فتشت الغرف الأخرى . كانت بعض الأدراج مفتوحة والثياب المرمية مبعثرة في كل أرجاء البيت . كانت حالة الفوضى تدل على أن النزوح كان همجياً وفجائياً ، انتابني ذاك الشعور الغامر بأنني قد جربت الوقوف في قاع القبر . عند المقعد المجاور للنافذة خلت إنني قد رأيت قصاصة ورق ـ ربما كانت رسالة قصيرة . تأكدت منها فوجدت تحت المِثقلة رسالة مخربشة بقلم رصاص كانت مكتوبة بخط مونا . وكانت على النحو التالي : «عزيزي ڤال : لقد أبحرنا هذا الصباح على متن الباخرة روشامبو . لم نملك الشجاعة لإخبارك بذلك . اكتب لنا بالبريد الأمريكي (الاكسبرس) .

باريس مع الحب»

أعدت قراءتها مرة ثانية . فالمرء يفعل ذلك دائماً عندما يتعلق الأمربخبر مفجع . ثم وجدت نفسي أغوص في الكرسي قرب المقعد . في البداية صارت الدموع تنهمر ببطء قطرة قطرة ثم صارت تنهمر مدراراً . وجدت نفسي أنشج نشجات مرعبة هزتني حتى أعماقي ـ ومن أقصاي إلى أقصاي .

كيف فعلتا بي هذه الفعلة ؟ كنت أعرف أنهما ستذهبان بدوني ـ ولكن

ليس بهذه الطريقة . فأن تهربا مثل طفلتين صغيرتين عاقتين وتمثيلية أخر لحظة تلك : « أجلب لي باقة بنفسج! » لماذا ؟ لإخراجي عن طوري ؟ هل كان ذلك ضرورياً ؟ هل كنت قد أصبحت طفلاً ؟ لأن الطفل هو الذي يعامل بهذه الطريقة .

ازداد حنقي برغم النشجات . رفعت قبضتي وشتمتهما ـ العاهرتين الخائنتين وإبتهلت الى الله أن تغرق بهما السفينة ، وأقسمت بأنني لن أرسل لهما سنتاً واحداً على الإطلاق ، حتى لو ماتتا جوعاً . ثم ، ولكي انفث الكرب عن نفسي نهضت واقفاً وقذفت مثقلة الورق على الصورة المعلقة فوق المقعد . وبينما كنت ممسكاً بأحد الكتب قمت بتهشيم صورة أخرى وصرت أتنقل من غرفة إلى أخرى أحطم كل مايقع عليه بصري . وفجأة لاحظت وجود كومة من الثياب المرمية في إحدى الزوايا . كانت ثياب مونا . فصرت التقط كل قطعة أياً كان نوعها سروالاً داخلياً أم سوتياناً أم بلوزة واتنشقها بشكل تلقائي . كانت لا تزال تفوح منها رائحة العطر الذي كانت تستعمله . ثم جمعت قطع الثياب وحشرتها تحت مخدتي وصرت أبكي . بكيت وبكيت وبكيت... وعندما انتهيت من البكاء بدأت : « دعني اسميك الحبيب... أنا في حبك... »

كانت كعكة الجبن ماثلة أمامي فصحت بها : « ....! »

ثم رفعتها فوق رأسي والصقتها على الجدار .

في ذروة هذا الموقف انفتح الباب بلطف وبرزت إحدى الشقيقات الهولنديات وهي تعقد يديها فوق صدرها .

قالت وهي تدنو وكأنها سترخي ذراعيها حولي :« أيها الرجل المسكين ، يا مسكين يا عزيزي ، من فضلك ـ لا تأخذ الأمور بهذه القسوة! أنا أعرف مشاعرك... نعم... إنه شيء رهيب . لكنهما ستعودان » .

هذا الحديث الرقيق المقتضب جعل دموعي تنساب مرة أخرى . وضعت ذراعيها حولي وقبلتني على وجنتي . لم أبدِ أي اعتراض على ذلك . ثم قادتني من يدي إلى السرير وجلست عليه وسحبتني إلى جانبها بالرغم من حزني لم

أتمالك نفسي من ملاحظة مظهرها القذر . كانت ترتدي كيمونو (مبقعاً فوق بيجامة منسلة الخيوط كانت ترتديها طوال اليوم على ما يبدو . وكانت جواربها متدلية حول كاحلها بشكل رخو ودبابيس الشعر تتدلى من كتلة شعرها الأشعث . كانت امرأة رثة الثياب . وفي كل الأحوال ، كانت مكروبة بصدق ، وكانت مهمومة لأجلي بشكل مخلص . والآن وقد صارت تلف كتفي بذراع واحدة صارت تحكي لي بلطف وتهذيب عن أنها كانت مدركة لبعض الوقت لكل ما كان يجري .

قالت لي : «ولكن كان عليّ أن أمسك لساني» .

كانت تتوقف من حين لآخر لإتاحة المجال لي لكي انفث عن صدري . وأخيراً أكدت لي بأن مونا تحبني . قالت لي :

ـ «نعم ، إنها تحبك بحرارة» .

كنت على وشك أن أبدي احتجاجي على هذه الكلمات عندما فتح الباب مرة أخرى بلطف وبرزت منه الشقيقة الأخرى . كانت هذه الشقيقة أفضل لباساً وأكثر جاذبية ، طافت في أنحاء الغرفة وبعد أن تفوهت بكلمات لطيفة جلست علي الجانب الآخر من السرير . صارت الاثنتن ممسكتين بيدي . أي منظر هذا الذي أصبحت فيه!

يا لهذه العزلة! هل كانتا تتصوران أنني كنت مستعداً لتحطيم دماغي . وشيئاً فشيئاً صارتا تطمئناني إلى أن كل شيء يسير نحو الأفضل . الصبر! الصبر في النهاية لا بد أن يتحسن كل شيء . قالتا لي أن لا مفر من ذلك ـ لماذا ؟ لأنني إنسان طيب بهذا الشكل . لقد كان الله يمتحنني ـ هذا كل ما في الأمر .

قال إحداهما : «في أغلب الأحيان كنا نرغب في المجيء لتعزيتك . لكننا لم نتجرأ على الدخول ؛ فقد كنا نعرف مشاعرك . وكنا نعرف ذلك من وقع خطواتك جيئة وذهاباً ـ ذهاباً وجيئة . كان شيئاً يحطم القلب ـ ولكن ما الذي كان بمقدورنا أن نفعله ؟»

صار هذا الاستعطاف عبئاً ثقيلاً عليَ . نهضت وأشعلت سيجارة في هذه اللحظة استأذنت الشقيقة الرثة بالخروج وصعدت الى الطابق العلوي . قالت الأخرى : « ستعود خلال دقيقة » .

ثم بدأت تحكي لي عن حياتهما في هولندا . ضحكت من شيء قالته أو من الطريقة التي قالته بها . شبكت يديها بمرح وقالت :

ـ « انظر ، بعد كل ذلك ليست الأمور بهذا السوء ؟ ما زلت قادراً على الضحك . الأمر الذي جعلني أضحك أكثر . كان من المستحيل أن أحدد ما إذا كنت أضحك أم أنتحب... لم استطع التوقف عن ذلك .

قالت لي : « هاك الآن... هاك الآن » وصارت تضمني إليها وهي تهدل كالحمامة : « ضع رأسك على كتفي... إن لك قلباً حنوناً! »

كان شيئاً يدعو للسخرية . انتابني شعور بالارتياح لدى استنادي إلى كتفها لدرجة أنني شعرت بإثارة جنسية طفيفة ، وأنا مطوّق بعناقها الأمومي .

في هذه اللحظة عادت شقيقتها تحمل صينية عليها ابريق وثلاثة كؤوس مع بعض البسكويت . قالت لي وهي تصب جرعة من الشنابس* :

ـ « سيجعلك هذا تشعر بالتحسن »

قرعنا الكؤوس كما لو كنا نحتفل بمناسبة سعيدة ثم تجرعنا المشروب . كان شراباً كحولياً صافيا . قالت الشقيقة الأخرى وقد أعادت ملء الكؤوس :

ـ « اشرب واحدة أخرى ـ هاك ـ ألا تشعر بتحسن ؟ إنه يحرق ؟ لكنه سوف ينعشك » .

تجرعنا كأسين أو ثلاثة بتلاحق سريع جداً . وفي كل مرة كانتا تقولان لي :

ـ « هاك ، ألا تشعر بتحسن ؟ »

في الحقيقة أنني لم أكن قادراً على تحديد إن كنت أتحسّن أم أنني ازداد سوءاً . كل ما كنت أعرفه هو أن أحشائي كانت تحترق .

---

* الشنابس : مشروب هولندي مسكر قوي .

ثم بدأت الغرفة تغزل .

ـ «استلقِ!» قالتا لي بإلحاح وهما تمسكانني من ذراعي وتنزلانني إلى الفراش . قامتا بخلع معطفي ثم قميصي ومن ثم بنطلوني وحذائي . لم أبدِ أي احتجاج على ذلك . قامتا بتمديدي على الفراش ودثرتاني بالأغطية . قالتا لي :

ـ نَمْ قليلاً ، سننادي عليك فيما بعد وسنعد لك العشاء »

أطبقت عيني . صارت الغرفة تغزل أسرع من ذي قبل .

قالت إحداهما : «سنعتني بك»

قالت الأخرى : «سنوليك رعاية طيبة»

وخرجتا من الغرفة على رؤوس أصابعهما .

استيقظت في الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي . حسبت أن أجراس الكنيسة كانت تقرع (هذا وبالضبط ما كانت تقوله أمي عندما تحاول استذكار ساعة ولادتي) .

نهضت من الفراش وأعدت قراءة الرسالة . في هذا الوقت بالذات كانتا قد بلغتا أعالي البحار .

كنت جائعاً ، وجدت قطعة من الكعك بالجبن على الأرض فالتهمتها . أحسست بالعطش أكثر من الجوع . شربت بضعة كؤوس من الماء . صار رأسي يؤلمني قليلاً . عاودت الدبيب نحو الفراش ، ولكن النوم كان قد طار من أجفاني . ومع طلوع الفجر نهضت ولبست ثيابي ثم خرجت من البيت . كنت أفضل المشي على الاستلقاء والتفكير . خطر ببالي أن أمشي وأمشي إلى أن اسقط على الأرض .

لم تسعفني تلك الطريقة التي كنت أفكر بها . فسواءً كنت نشيطاً أم مرهقاً ، فإن تفكيري لن يتوقف . صرت ألفُ وأدور دائماً على نفس الأرض ودائماً أعود إلى النقطة الميتة : اللا مقبول حالياً .

امضيت بقية اليوم في فراغ كامل . كل ما اتذكره منذ ذاك اليوم هو أن وجع القلب كان يزداد بشكل مضطرد . لم يكن أي شيء قادراً على تهدئته .

فهو لم يكن شيئاً في داخلي ، بل كان أناي (ذاتي . كنت أنا الوجع ، وجعاً يمشي ، يتكلم . لو كان بمقدوري أن أجرجر نفسي إلى المسلخ وأدعهم يسلخونني كالثور لكان ذلك رحمة لي ؛ إذ تكفيني ضربة خاطفة تسدد لي بين عيني ولن أحتاج إلى غيرها لقتل الوجع . في صباح الاثنين ذهبت الى العمل كالمعتاد . كان علي أن أنتظر ساعة بحالها قبل أن يصل ،توني . عندما وصل ، نظر إليّ وقالك « ماذا حدث ؟ » حكيت له بإيجاز ، فقال لي بكل لطف :

« دعنا نذهب ونتناول مشروباً . لا شيء ضرورياً في العمل لهذا اليوم . فحضرة فخامته (المفوض) لن يأتي اليوم . لذا لا داعي للقلق » .

تناولنا نوعين من المشروب قبل الغداء . كان الطعام لذيذاً اتبعناه بتدخين السيجار الفاخر ، دون أية كلمة توبيخ تجاه مونا من جانبه ، بل اكتفى بالسماح لنفسه ، بينما كنا نتمشى عائدين الى المكتب . بأبداء تعليق مهذب : « إن ذلك قد آلمني ، يا هنري ، وأنا لدي الكثير من المشاكل ولكنها ليست من هذا النوع » .

في المكتب قدم لي شرحاً مختصراً عن المهام الموكلة إليه . قال لي :

ـ « غداً سأعرفك على الأولاد » (وكان يقصد ، عندما أصبح أكثر تماسكاً) .

وأضاف أنني سأجد سهولة في التعامل معهم .

وهكذا انقضى ذاك اليوم والذي يليه .

تعرفت على بقية عناصر المكتب الذين يمضون طوال وقتهم في الخدمة بانتظار المنحة الحكومية (المعاش التقاعدي) عند قدم قوس قزح . كانوا جميعاً من بروكلن . كلهم رجال عاديون يتحدثون اللهجة لبروكلينية الموحشة المبهجة ، لكنهم كانوا جميعاً متشوقين ومتلهفين لتقديم العون والمساعدة . كان أحد الشبان ، وهو يعمل محاسباً ، من القلائل الذين احسست بارتياح شديد إليهم يدعى بادي ماهوني وهو كاثوليكي ايرلندي . كان ضيق الأفق في تفكيره ، مولعاً بالجدل ، مشاكساً ، أي أنه يحمل كل الصفات التي اكرهها .

أما سبب انسجامنا فهوأني كنت انحدر من الحي الرابع عشر في حين أنه ولد وترعرع في غرينبوينت . وعندما كان توني والمفوض غائبين كان يأتي إلى طاولة مكتبي وهو على استعداد للتشدق بالنكات بقية اليوم . في صباح يوم الأربعاء وجدت برقية على طاولة مكتبي تقول :

« أنا بحاجة إلى خمسين دولاراً قبل النزول إلى اليابسة ـ يرجى الاتصال فوراً » . عرضت البرقية على توني عند عودته إلى المكتب . قال لي :

ـ « ماذا ستفعل ؟ »

قلت له : « هذا بالضبط ما أريد معرفته »

قال لي : « ألن ترسل لهما النقود بعد كل مافعلتاه بك ؟ »

نظرت إليه نظرة متشائمة وأجبته : « أخشى أن أجد نفسي مضطراً لأن... »

قال لي : « لا تكن أبله . دعهما تتحملان نتائج أعمالهما » .

كنت آمل أنه سيقول لي أن بإمكاني استدانة سلفة على الراتب .

عدت إلى العمل مخيب الآمال . وبينما كنت أعمل ، صرت اتساءل كيف وأين يمكنني جمع هذا المبلغ من المال . كان توني هو أملي الوحيد . لكني لم امتلك الشجاعة للتوسل إليه . ولم يكن بمقدوري أن أفعل ذلك ، إذ أنه قد قدم لي أكثر مما أستحق .

بعد تناول طعام الغداء المعتاد مع أصدقائه السياسيين المقربين في بار يقع في قرية مجاورة ، كان توني يأتي على نحو غير متوقع وهو يضع في فمه سيجاراً كبيراً ورائحة المشروبات الثقيلة تفوح منه . ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة من النوع الذي اعتاد إظهاره في المدرسة ، عندما كان ينوي القيام بشيطنة .

قال لي « كيف الشغل ؟ هل بدأت تفهم طريقة العمل ؟ لا يليق بك العمل في مكان سيء كهذا ـ أليس كذلك ؟ »

انزل قبعته فوق كتفه ، غاص في كرسيه الدوار ، ورفع قدميه فوق الطاولة . أخذ نفثاً طويلاً من سيجاره والتفت نحوي قليلاً . ثم قال : « أظن أنني لا أفهم

النساء كثيراً يا هنري ، أنا أعزب مزمن . أما أنت فإنك تختلف عني . واعتقد أنك لا تبالي بالتعقيدات » .

في كل الأحوال ، عندما حكيت لي عن البرقية هذا الصباح ظننتك أحمق أما الآن فلم أعد أفكر بتلك الطريقة . أنت بحاجة إلى المساعدة ، وأنا الوحيد الذي يمكنه مساعدتك حسب اعتقادي . انظر ، دعني أقرضك ما تحتاج إليه من المال . إذ أنني لا استطيع أن أدبر لك سلفة على الراتب باعتبارك مستجداً في العمل . إضافة إلى أنها ستثير الكثير من التساؤلات التي لا داعي لها » .

مد يده إلى جيبه وأخرج رزمة من الأوراق المالية .

« بإمكانك أن تعيدها تقسيطاً بمعدل خمسة دولارات اسبوعياً إذا رغبت في ذلك ، ولكن لا تدعهما تستنزفانك أكثر من ذلك! كن حازماً معهما! »

وبعد أن تفوه بكلمات قليلة صار يجهز نفسه للانصراف .

ـ « أظن أنني سأخرج الآن . لقد انتهى عملي لهذا اليوم . إذا حصلت لك مشكلة فما عليك إلا أن تتصل بي » .

قلت له : « إلى أين ؟ » .

ـ « اسأل بادي فيخبرك » .

مع مرور الأيام كان الألم يخف تدريجياً . كان توني حريصاً ، دون شك ، على إبقائي مشغولاً عن قصد : وكان رأيه أن أتعرف على رئيس عمال الحدائق إذ أنني سأكلف ذات يوم بتأليف كراس حول النباتات والشجيرات والاشجار الموجودة في الحديقة ، كما قال لي . فالجنائني سيزودني بالمعلومات الضرورية لذلك . في كل يوم ـ كنت أتوقع وصول برقية . كنت أعلم علم اليقين أن الرسالة لن تصلني قبل مضي بضعة أيام . ها قد وجدت نفسي في الحفرة ، أكره العودة كل يوم إلى مسرح محنتي ، فقررت أن أطلب من الناس أن يأخذوا بيدي . وافقوا على ذلك باستعداد تام ، على الرغم من كونهم قد أصيبوا بالحيرة من سلوك مونا . وكنت أشرح لهم ـ بالطبع ـ أن ما حصل كان مخططاً له أن يحصل بهذه الطريقة وأنني سألحق بهما فيما بعد... وهكذا دواليك .

صاروا على بينة من الأمر ، لكنهم كانوا يحجمون عن إذلالي أكثر من ذلك .

وهكذا انتقلت إلى منزل آخر ، إلى شارع (الاحزان المبكرة) ، إلى نفس المقعد الذي كنت اكتب عليه عندما كنت صبياً (والذي لم استعمله أبداً) .

كانت كل ممتلكاتي في حقيبة السفر . لم أجلب معي كتاباً واحداً . تكلفت بضعة دولارات أخرى لكي اتصل بمونا لإعلامها بتغيير عنواني وانذارها بضرورة مراسلتي أو الاتصال بي هاتفياً إلى المكتب .

وكما كان توني يحدس ، لم يمضِ وقت طويل حتى وصلتني برقية أخرى . هذه المرة كانتا بحاجة إلى النقود لأجل الطعام والمنامة . وحتى الآن لا يلوح في الأفق أي أمل في ايجاد عمل . ثم اعقبت البرقية رسالة مختصرة مفادها أنه يجب عليّ أن أجد طريقة للاتصال بهما فوراً دون أية إشارة إلى الكيفية التي كانتا تتدبران بها أمورهما .

سألني توني ذات يوم : «هل تمضيان وقتاً طيباً هناك ؟ فهما لم تعودا تطلبان مزيداً من النقود ـ أليس كذلك ؟»

لم أكن قد أخبرته عن البرقية الثانية ، فقد كان عمي الذي يعمل مفتش تذاكر هو الذي دبّر لي ذاك المبلغ .

قال توني : «في بعض الأحيان أشعر أن لدي رغبة في رؤية باريس بنفسي ، فربما نمضي هناك وقتاً طيباً مع بعضنا ـ ايه ؟»

كان العمل في المكتب مشوباً بكل أصناف الأشغال الغريبة . فعلى سبيل المثال هناك الخطابات التي على المفوض أن يحضّرها لهذه المناسبة وتلك التي لا يملك الوقت الكافي للقيام بها بنفسه .

كانت مهمة توني تتلخص في كتابة هذه الخطابات . وعندما يكون قد بذل قصارى جهده في ذلك أقوم أنا بإضافة بعض اللمسات الخفيفة من أجله .

كانت هذه الخطابات شيئاً مملاً ، إذ كنت أفضل عليها الحديث مع الجنائني وكنت قد باشرت تدوين الملاحظات من أجل كراس «زراعة نباتات الزينة» كما اسميته بعد فترة من الزمن تضاءل حجم العمل . في بعض الأحيان

لم يكن توني يحضر إلى المكتب نهائياً . وكان العمل يتوقف حالما ينصرف المفوض . فكنا نجدها فرصة مؤاتية ـ كنا حوالي سبعة فقط ـ لتمضية الوقت بلعب الورق والقمار بأحجار النرد والغناء وقص الحكايات القذرة ، وفي بعض الأحيان كنا نلعب لعبة الاستغماية . كانت هذه الفترات بالنسبة لي أسوأ من الاختناق بالعمل ، وكان من المستحيل أن أجري حواراً ثقافياً مع أي واحد مهم سوى بادي ما هوني الذي كان الرجل الوحيد الذي كنت استمتع بالحديث معه ، ليس بمعنى أننا كنا نتحدث عن أي شيء ذي فائدة تثقيفية بل كان في معظم الأحيان حول الحياة في الحي الرابع عشر حيث كان يذهب ليلعب مع الصبيان لعبة البولة* ويسكر ويلعب القمار . كنا نستعرض اسماء الشوارع ـ شوارع موجير ـ تينيك ، كونسيليا ديفو ، همبولت..... ذكرنا أسماءها جميعاً وعشنا ذكراها جميعاً . صرنا نستعيد الألعاب التي كنا نلعبها عندما كنا شباباً تحت لهب الشمس . وفي الأقبية الباردة وتحت الوهج الخافت لمصابيح الغاز وعلى ضفاف النهر السريع الجريان .

إن ما كان يحث بادي على الصداقة والتفاني أكثر من أي شيء آخر هو موهبتي في «الخربشة» . فعندما كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة حتى ولو لمجرد كتابة رسالة كان يقف عند الباب ويراقبني كما لو أنني ظاهرة غريبة . كان يقول : «ماذا ستفعل ؟ هل ستصدرها ؟»

وهو يقصد بذلك حكاية أخرى . في بعض الأحيان كان يقف هناك ، ينتظر برهة ثم يقول :

ـ «هل أنت مشغول جداً ؟»

فلو أجبته بقولي : «لا ، لماذا ؟» لأجابني بقوله :

ـ «كنت أظن أن... هل تذكر الصالون الواقع على زاوية جادة وايت غراند ؟»

ـ «بالتأكيد أتذكره ، مابه ؟»

---

* لعبة البولة Pool : ضرب من البلياردو (م) .

ـ « حسناً ، كان أحد الشباب قد اعتاد على التردد على ذاك المحل . كان كاتباً مثلك . وكان يؤلف المسلسلات . لكن في البداية كان عليه أن يحترس جيداً » . إن تعليقاً كهذا كان كافياً بحد ذاته لكي يكون افتتاحاً للنقاش ، بمعنى أنه كان راغباً في النقاش .

ـ « إن ذاك العجوز الذي يقطن في نفس بنايتك... ما اسمه ؟ مارتن... نعم هو ذاك الشخص . لقد كان يحمل معه بشكل دائم زوجاً من حيوانات ابن مقرض* في جيوب معطفه... هل تذكر ؟ لقد جمع ذاك الحقير كثيراً من المال بمقارضة الدموية ، فقد عمل لدى كل الفنادق الفخمة في نيويورك حيث كان يقوم بطرد الجرذان منها . يا لها من مهنة... ايه ؟

انني ارتاع من تلك الأشياء... إذ أنها من الممكن أن تقص رأسك ـ هل فهمت قصدي ؟ كان يشتغل عرافاً بكل معنى الكلمة . كم كان فناناً معربداً ـ ما زال بمقدوري أن اتصوره يترنح في الشارع والحيوانات القارضة الدموية تطل برؤوسها من جيوبه . هل تقول أنه الآن لا يتعاطى هذه التوافه ؟ إنه شيء فوق قدرتي على التصديق . لقد اعتاد أن يبعثر نقوده مثل الأحمق في ذاك الصالون الذي كنت أحكي له عنه » .

غيّر الموضوع وانتقل إلى الحديث عن الأب فلاغان أو كالاغان ـ لا اتذكر بالضبط اسمه ـ ذاك الكاهن الذي كان ينقع نفسه بالخل حتى أذنيه كل ليلة سبت . كان على المرء أن يترقبه وهو في حالة السكر . كان يحب لواطة فتيان الكورس وكان قادراً على خداع أية امرأة تقع عيناه عليها لما كان يتصف به من براعة في الكلام أو حيلة في الأساليب » .

قال بادي : « كنت على وشك أن أفعلها في سروالي عندما ذهبت إليه بقصد الاعتراف ، فقد كان يعرف كل الخطايا المدرجة في اللائحة ـ ذاك العرص » . ثم رسم لنفسه اشارة الصليب وقال :

ـ « ينبغي عليك أن تبوح له بكل شيء ـ حتى عدد المرات التي قذفت

* ابن مقرض : حيوان شبيه بابن عرس يستخدم خاصة لتصيد القوارض (م)

فيها خلال الاسبوع ، والانكى من ذلك أنه كانت لديه عادة الفساء في حضرة أي شخص . ولكن إذا كنت في مشكلة أو في ورطة فهو الوحيد الذي يمكنك أن تقصده ، لم يكن ليرفض لك طلباً . وليس هذا فحسب ، فقد كان هناك الكثير من الأشخاص الطيبين في ذاك الجوار . كان البعض منهم يؤدون الخدمة الإلزامية ـ أولئك اللوطيون المساكين » .

انقضى شهر بكامله دون أن أتلقى من مونا سوى رسالتين قصيرتين . كانتا تسكنان في شارع «الأميرة» في فندق صغير ساحر نظيف جداً ورخيص جداً . «فندق الأميرة» . آه لو أراه كم كنت سأستمتع به! . في هذه الاثناء تعرَّفتا علي عدد من الأمريكيين ، معظمهم من الفنانين الفقراء جداً . ولقد صارتا تأملان حالاً في الخروج من باريس ومشاهدة أجزاء من المقاطعات ؛ فقد كانت ستاسيا مستميتة لزيارة الميدي .

كان ذلك في جنوب فرنسا حيث توجد كروم العنب والزيتون ومصارعات الثيران ... الخ ، بل إن كاتباً نمساوياً مجنوناً كان يعيش هناك قد تولّع بستاسيا لاعتقاده بأنها عبقرية . صار الناس يتساءلون من حين لآخر :

ـ « كيف تتدبران أمورهما ؟ » فكنت أجيبهم بقولي :

ـ « على خير ما يرام » .

في أحد الأيام صرحت بأن ستاسيا قد حازت على منحة دراسية في كلية الفنون الجميلة بصفة محاضرة وذلك لمجرد إسكات الناس فترة من الزمن .

في هذه الاثناء كنت أسعى لمصادقة الجنائني ـ وكم كانت صحبته مسرة! كان عمله خالياً من النزاع والكفاح إذ لم يكن يتعامل إلا مع الطقس والأتربة والحشرات والمورثات . كان ناجحاً في كل ما يضع يده فيه . كان يتنقل في عالم من الجمال والتناغم حيث يسود السلام والنظام . كنت أحسده . كم كان رائعاً أن ينذر المرء كل وقته وطاقاته للنباتات والأشجار! فلا غيرة ولا منافسة ، لا قسر ولا إكراه ، لا غش ولا كذب . إن زهرة الثالوث تلقى نفس العناية التي تلقاها شجرة الدفلى والليلك ليس بأفضل حال من الورد . كانت بعض النباتات

ضعيفة منذ مولدها ، والبعض الآخر من النباتات تزهر تحت أي شرط من الشروط . كان كل ذلك فاتناً بالنسبة لي ، بما في ذلك ملاحظاته حول طبيعة التربة وأصناف الأسمدة وفن التطعيم . في الواقع ، لم يكن للموضوع حدود ، فهناك ، على سبيل المثال ، دور الحشرات أو معجزة التلقيح وحفريات الديدان التي لا تتوقف ، واستعمال وبطلان استعمال الماء وتغير فترات النمو ، والنموات الشاذة ، ثم هناك طبيعة الأعشاب الضارة والطفيليات الأخرى ، الصراع من أجل البقاء ، غزوات الجراد والحرقص والخدمات الجليلة التي يقدمها النحل... الخ . يا لذاك التناقض بين عالم هذا الرجل وذاك العالم الذي يتحرك فيه توني! الأزهار في مقابل السياسة ، الجمال في مقابل المكر والخداع . هذا المسكين توني كان يحاول جاهداً وبشق النفس أن يبقي يديه نظيفتين . كان دائماً يخدع نفسه على مبدأ أن الموظف الحكومي الذي يتمتع بشعبية هو بمثابة فاعل خير لبلده . كان بطبيعته مخلصاً ، عادلاً ، نزيهاً ، سموحاً ، وكان يقرف كل الأساليب التي يلجأ إليها أصدقاؤه الحميمون . لو أصبح ذات يوم حاكماً أو أي شيء مما يحلم به لتبدلت الأشياء على يديه . فقد كان يؤمن بذلك بإخلاص لا متناهٍ إلى درجة لم يعد معها ممكناً بالنسبة لي أن أسخر منه بالرغم من أنه نفسه لم يفعل شيئاً يوخز ضميره .

لا داع للقول أنه كان مجبراً على إغماض عينيه عن أفعال وممارسات كانت تملؤه غيظاً ، وكان عليه أن يبذر النقود كالماء أيضاً . وحتى حينه ، وبالرغم من حقيقة رزوحه تحت ديون ثقيلة ، فقد نجح في إهداء والديه ذاك البيت الذي يسكنانه . هذا علاوة على أنه كان قد أدخل شقيقيه الأصغر منه إلى الجامعة ، وكما قال لي ذات يوم :

ـ «هنري ، انني لست قادراً على الزواج حتى لو كانت لدي رغبة في ذلك . فأنا ليس بمقدوري أن أتحمل نفقات الزوجة» .

في أحد الأيام ، وفي سياق حديثه عن البلايا التي أصابته قال لي :

ـ «كانت أفضل أيامي عندما كنت رئيساً للنادي الرياضي ـ هل تذكر ؟

لم أكن قد تعاطيت السياسة بعد ، قل لي هل تذكر عندما شاركت في سباق ماراثون ثم نقلت بعده إلى المستشفى ؟ كنت في حينها متفوقاً على جميع أقراني » .

نظر إلى سرته وصار يفرك كرشه ، ثم استأنف قائلاً :

ـ « كل ذلك بسبب كثرة السهر مع الفتيان . هل تتساءل أحياناً لماذا أتأخر يومياً ؟ فأنا لا آوي إلى الفراش قبل الثالثة أو الرابعة صباحاً . إنني اتصارع مع الآثار المتبقية من عادات الماضي طوال الوقت . يا ولد ـ لو عرف أهلي ما كنت أفعله لأصنع لنفسي المجد والشهرة لكانوا قد تبرأوا مني . تلك هي النتيجة التي يجنيها المرء من كونه ابن مهاجر . وبما أنني لقيط قذر فقد كان علي أن أختبر نفسي . أنت محظوظ لأنك لا تعاني من الطموح . فكل ما تطلبه من هذه الحياة هو أن تصبح كاتباً ـ أليس كذلك ؟ كما أنك لست مجبراً على الخوض في أكوام الخراء لتصبح كاتباً ـ أليس كذلك ؟

هنري ، في بعض الأحيان يبدو لي كل ذلك شيئاً ميؤوساً منه ـ أن أصبح رئيساً في يوم من الأيام ـ ماذا في ذلك ؟ هل تعتقد أن بإمكاني فعلاً أن أغير الأشياء ؟ أنا شخصياً لا اعتقد ذلك . أقولها لك بكل صدق . فأنت ليست لديك أية فكرة عن مدى تعقيد هذه المهنة . إذ تجد نفسك مديناً بالفضل لكل الناس ، شئت أم أبيت ، حتى لو كنت لنكولن ذاته . أما أنا فلست سوى ولد صقلي سيصل إلى الكونغرس ـ إذا تكرم الله ـ في يوم من الأيام . إن لي أحلامي الخاصة . فكل ما يمكنك أن تحوز عليه في هذه المهنة هو الأحلام » .

ـ « وليس هذا فحسب ، بل كان هناك النادي الرياضي الذي كانوا يعتبرونه نادياً عالمياً . لقد كنت الضوء المشع على الجدار ، كنت ابن الاسكافي الذي نهض من الحضيض . عندما كنت أقف لأدلي بحديث ، كانوا يهللون لي قبل أن أفتح فمي » .

توقف عن الكلام لكي يعيد إشعال سيجارة . أخذ نفساً ، قام بإيماءة قرف . ثم رماها بعيداً واستأنف كلامه :

ـ «لقد صار كل شيء مختلفاً الآن . لقد صرت جزءاً من الآلة . وفي أحسن الأحوال لست سوى رجل ـ نعم ، وبينما أنا قابع بانتظار فرصتي المؤاتية أجد نفسي أتعمق شيئاً فشيئاً في الحفرة يوماً بعد يوم يا رجل ، لوصادفتك مشاكلي لكان شعرك قد شاب كله . فأنت لا تدري ما يعنيه الحفاظ على القليل من الاستقامة وسط كل الإغراءات التي تحيط بك . ما إن تزل قدمك زلة صغيرة حتى تجد نفسك تحت المراقبة الشديدة . كل واحد يحاول أن يجد على الآخر مستمسكاً . وحسب ظني فإن هذا هو الشيء الذي يجمعهم ، أولاد القحبة التافهين هؤلاء! أنا سعيد لأنني لم أصبح قاضياً ، لأنني لوقيض لي أن أحاكم هؤلاء (.......) فلن أكون رحيماً معهم . إن ما يحيرني هو كيف يمكن لبلد أن يزدهر على الخداع والفساد . لا بد أن هناك قوى عليا تحرس جمهوريتنا هذه» .

سكت برهة من الزمن ثم تابع قائلاً :

ـ «انسَ الموضوع! أنا انفس عن صدري لا أكثر ، ولكن ربما استطعت الآن أن ترى أنني لست في وضع جيد»

نهض ومد يده إلى قبعته :

ـ «بالمناسبة ، كيف وقعت في هذه الورطة ؟ هل تحتاج إلى نقود أخرى ؟ لا تخف من السؤال إن كنت محتاجاً . حتى لو كانت النقود من أجل تلك المرأة ـ زوجتك ـ كيف حالها بالمناسبة ؟ هل ما تزال في باريس الجميلة Gay paree ؟ »

فأجبته بابتسامة عريضة . قال لي :

ـ «أنت محظوظ يا هنري ، يا ولدي ، محظوظ لأنها هناك وليست هنا . إنها تمنحك نوبة تنفس . ستعود إليك ـ لا تخف ـ ربما بأسرع مما تتصور... أوه! بالمناسبة ، قصدت أن أخبرك من قبل أن المفوض يعتقد بأنك طيب على نحو ممتاز... وهذا هو رأيي فيك أيضاً! Tata now» . اعتدت الخروج في مشوار كل مساء بعد العشاء! إما في اتجاه المقبرة الصينية أو في الاتجاه الآخر

في الطريق الذي كان يودي بي إلى المرور قرب منزل أونا غيفورد . على زاوية الشارع كان العجوز مارتن يتخذ وقفته كل ليلة منتصباً مثل الخفير . صيفاً شتاءً . كان من الصعب أن يمر المرء بجانبه دون أن يبادله كلمة أو كلمتين حول مضار المشروبات والتبغ... إلى آخر ما هنالك .

في بعض الأحيان كنت أدور حول البناية فقط متشائماً إلى درجة أنني كنت أجد إزعاجاً في مد ساقي . وفي بعض الأحيان كنت أعمد إلى قراءة فقرة من الكتاب المقدس قبل أن آوي إلى الفراش ، لأن الكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد الذي كان متوفراً في البيت ، كما أنه يعتبر أيضاً بمثابة كتاب قصص رائع مناسب لفترة ما قبل النوم ومن غير الممكن أن يكون قد كتبه أحد غير اليهود . يضيع اليهودي فيه من كثرة ما يحتويه من المآسي السلالية وسفاح القربى والتشويه المستديم وعلم الأعداد السحرية التنجيمية وقتل الأخوة وقتل الآباء والأوبئة وكثرة المأكولات والزوجات والحروب والاغتيالات والأحلام والنبوءات... دون أي ترابط منطقي . ولا يستطيع المواظبة عليه سوى دارس اللاهوت ولا يمكن تجميع اجزائه . فالكتاب المقدس هو العهد القديم مضافاً إليه الآبوكريفا* . أما العهد الجديد فهو كتاب حزازير مخصصة للمسيحيين فقط » .

على كلٍ ، إن ما كنت أقصد قوله هو أنني أخذت ولعاً بسفر أيوب ، أما الجملة التي احببتها والتي كانت تناسب مرارتي وكربي فتقول :

ـ « أين كنت عندما وضعت أسس الأرض ؟ أعلن على الملأ إن كان لديك الفهم » ثم إنني قد أحببت بشكل خاص الفقرة الإضافية :

« أعلن إن كان لديك الفهم » إذ لا أحد كان لديه ذاك النوع من الفهم حتى (يهوه) لم يكتف بابتلاء أيوب بالبثور والأمراض الأخرى ؛ لقد كان عليه أن يعطيه الأحاجي أيضاً .

ومرة تلو المرة ، بعد مشاحنة وشكيمة مع الملوك والقضاة والأعداد والمقاطع المنومة الأخرى التي تعالج نشوء الكون والختان

---

* الآبوكريفا : أربعة عشر سفراً تلحق أحياناً بالعهد والقديم .

وبلايا المحكوم عليهم باللعنة الأبدية كنت سأصير أيوباً وأتنفس الصعداء ، لأنني لم أكن واحداً من المفضلين عند الله . في النهاية ـ كما أذكر ـ يعتبر أيوب مقاتلاً . كانت همومي تتبدد وصارت تتجاوز في حجمها حجم المبولة . بعد أيام قليلة ـ كما يقولون ـ وذات مرة ، أظن أن الوقت كان عصراً ، وردت أنباء مفادها أن لندبرغ قد عبرت المحيط الأطلسي بأمان . كان جميع العاملين في القسم قد تدافعوا نحو المروج الخضراء للهتاف والابتهاج والصفير وتبادل التهاني ، وقد شمل هذا الفرح الهستيري كل أنحاء البلاد . كانت مأثرة هوميروسية وكانت تحتاج إلى ملايين السنوات لانجازها من قبل انسان عادي .

كان حماسي للموضوع أكثر تحفظاً ، ولقد خمد هذا الحماس قليلاً باستلامي رسالة في ذاك الصباح . في تلك الرسالة كانت تحيطني علماً بأنها في طريقها إلى ڤيينا مع بعض الأصدقاء . أما العزيزة ستاسيا ـ كما علمت ـ فقد كانت في شمال أفريقيا حيث كانت قد سافرت بصحبة ذاك النمساوي المجنون الذي كان يعتبرها في قمة الروعة . إن الطريقة التي أعلنت بها الخبر كانت توحي ـ كما يعتقد المرء . بأنها قد فرت إلى فيينا لإغاظة شخص ما . ومن الطبيعي أنه لم يكن هناك أي تفسير للكيفية التي تنجز بها هذه المعجزة . لقد كان استيعاب غزو لندبرغ للجو أسهل تقبلاً بالنسبة لي من رحلة مونا إلى ڤيينا .

قرأت الرسالة مرتين في محاولة لإكتشاف هوية مرافقيها . كان حل اللغز بسيطاً : احذف S الجمع وأقرأ (مرافق) . لم يراودني أي شك في أن من كان يقوم بدور المرافق لها هو شاب أمريكي غني وسيم عاطل عن العمل . إن أكثر ما أغاظني في الموضوع هو أنها قد أهملت كتابة أي عنوان في ڤيينا يمكن أن أراسلها عليه . إن كل ما يجب علي فعله ـ ببساطة ـ هو الانتظار . انتظر وعض اللجام! .

إن انتصار لندبرغ الكبير على العوامل والقوى الجوية قد أفادني في الحد من إحباطي اليائس على نحو واضح . فها أنا محبوس في مكتب أقوم بأعمال

تافهة ، محروماً حتى من المصروف اليومي ، أتلقى ردوداً مقتضبة على رسائلي الطويلة التي تفطر القلب . أما هي فكانت تسافر من مكان لآخر طلباً للمتعة ، تطير من مدينة إلى مدينة مثل عصافير الجنة . فأي معنى في محاولة الذهاب إلى أوروبا ؟ كيف سأجد عملاً هناك بينما تعترضني مثل تلك المصاعب في بلدي ؟ ولماذا الإدعاء بأنها ستجن فرحاً لدى مشاهدتي عند وصولي إلى هناك ؟ وكلما فكرت في هذا الوضع أزداد كآبة . في حوالي الخامسة من بعد ظهر ذاك اليوم كنت في مزاج يائس إلى أقصى الحدود . جلست إلى الآلة الكاتبة لأضع الخطوط العامة لذاك الكتاب الذي قلت في نفسي لا بد سأكتبه ذات يوم . إنه «سِفرُ قيامتي» . كان شبيهاً بكتابة نقش على قبري .

صرت أكتب بسرعة وبإسلوب تلغرافي مستهلاً بتلك الليلة التي قابلتها فيها لأول مرة . وقد وجدت نفسي ، لسبب غامض ، أدون بتسلسل زمني ـ ودون جهد ـ سلسلة الأحداث الطويلة التي ملأت الفترة الزمنية الفاصلة بين تلك الليلة المشؤومة والوقت الحاضر . وهكذا صرت استفرغ صفحة بعد صفحة ، بينما أجد بشكل مستمر أنه قد بقي لدي ما أقوله : أحسست بالجوع فتوقفت عن العمل للذهاب إلى القرية . واحضار لقمة لأتناولها . عندما رجعت إلى المكتب عاودت الجلوس إلى الآلة . وبينما كنت أكتب كنت أضحك وأبكي . وبالرغم من أنني كنت أدون مذكراتي لا غير ، فقد كنت أبدو وكأنني فعلاً أؤلف الكتاب منذ ذاك الوقت وفي ذاك المكان . وهكذا عدت من جديد إلى التخفيف من حدة المأساة خطوة خطوة ويوماً بعد يوم . عندما انتهيت من الكتابة كان الوقت قد تجاوز الظهيرة بفترة طويلة . كنت منهكاً تماماً فاستلقيت على الأرض وغططت في نوم عميق .

استيقظت مبكراً . عدت سيراً إلى القرية لتأمين القليل من الطعام ثم أقفلت عائداً على نحو متمهل لاستئناف العمل لهذا اليوم الجديد .

في وقت متأخر من ذاك اليوم قرأت ما كنت كتبته ليلاً . فلم يكن هناك من داعٍ سوى لبعض الإضافات القليلة . كيف تسنى لي أن أتذكر بهذه الدقة

تلك المدخلات وآلاف التفاصيل التي دونتها ؟ وإذا افترضنا أن هذه المذكرات التلغرافية سيتم توسيعها لتصبح كتاباً ، ألن احتاج إلى بضعة مجلدات لكي أعطي الموضوع حقه ؟ إن فكرة مدى ضخامة هذا العمل بحد ذاتها قد أذهلتني . متى سأمتلك الشجاعة والجرأة على معالجة عمل بهذه الأبعاد ؟ بينما كنت أتسلى هكذا ، خطرت ببالي فكرة مرعبة - فكرة إنهاء علاقتنا (أنا ومونا) لأن ذلك هو المعنى الوحيد للتخطيط لعمل كهذا . على كلٍ ، لقد رفضت تقبّل هذا الاستنتاج . قلت في نفسي أن غرضي الحقيقي من ذلك هو مجرد السرد! سرد قصة محنتي . ولكن هل يمكن للمرء أن يكتب معاناته وهو لا يزال يعاني ؟ وتأكيداً على ذلك فإن ابيلار قد فعل ذلك . في هذه اللحظة اقتحمت ذهني فكرة عاطفية : انني سأؤلف الكتاب من أجلها ولها . وعندما ستقرأه ستفهم ، ستفتح عينيها ، ستساعدني على دفن الماضي وسنبدأ حياة جديدة - حياة مشتركة بشكل حقيقي .

كم أنا ساذج! وكأن قلب المرأة إذا أغلق مرة من الممكن إعادة فتحه! لقد اسكتُّ هذه الأصوات الداخلية ، كل هذه التحريضات الجوانية التي لا يمكن لغير الشيطان أن يثيرها . صرت أكثر جوعاً إلى الحب من ذي قبل . وأكثر يأساً من ذي قبل بكثير . ثم انتابتني ذكريات ليلة من الليالي الغابرة عندما كنا جالسين إلى طاولة المطبخ (حيث كانت زوجتي نائمة في الطابق العلوي) . اعتصرت لها قلبي في استغاثة انتحارية يائسة . وكان أن فعلت الرسالة فعلها . لقد نلتها . فلماذا لا يكون للكتاب مفعول أقوى ؟ لا سيما وأنه كتاب يتعرى فيه القلب ؟ فكرت بتلك الرسالة التي كتبها أحد شخصيات هامسون إلى محبوبته فيكتوريا ، تلك المخلوقة التي قال في وصفها : «الله كان يتطلع إليها من فوق كتفه» . وفكرت بالرسائل المتبادلة بين أبيلار وهيلواز ، وكيف أنها لم تفقد قيمتها مع مرور الزمن . آهٍ من قوة الكلمة المكتوبة!

في ذلك المساء ، بينما كان الناس جالسين يقرأون الصحف ، كتبت لها رسالة من ذاك النوع الذي يوجع قلب الصقر ، (كتبتها على ذاك المقعد الذي

أعطي لي عندما كنت صبياً) . أخبرتها عن خطة الكتاب وكيف أنني قد رسمت كل خطوطها العامة في جلسة متواصلة . كما أخبرتها بأنني سانتظرها لو طال انتظاري ألف عام .

كانت رسالة ضخمة ، وعندما انهيتها تأكد لي بأنني عاجز عن إرسالها لأن مونا نسيت أن تكتب لي عنوانها . تملكني الغضب ، أحسست وكأنها قد قطعت لساني . كيف تسنى لها أن تلعب مثل هذه الحيلة الدنيئة معي ؟ فأينما كانت وفي أي حضن كانت ألم تشعر بأنني أكافح للوصول إليها ؟ بالرغم من كل الشتائم التي كُلتها لها ، فإن قلبي ما زال يقول لها : «أنا أحبك ، أنا أحبك ، أنا أحبك» .

عندما زحفت إلى السرير وأنا أردد هذه العبارة البلهاء ، كنت أتأوّه مثل سمكة غرناد مجروحة .

الفصل الحادي عشر

في اليوم التالي وبينما كنت افتش في سهلة المهملات عن رسالة مفقودة وقع بصري على رسالة مفتتة كان واضحاً أن المفوض قد قذفها إلى السلة بقرف .

كان الخط الذي كتبت به ناعماً مرتجفاً كما لو كان كاتبها عجوزاً ، لكنها كانت مقروءة رغم الالتفافات الحلزونية للحروف التي دأب كاتبها على استخدامها . ألقيت عليها نظرة ثم زلقتها في جيبي لكي أقرأها في وقت الفراغ . إن هذه الرسالة المضحكة والمحزنة في اسلوبها هي التي انقذتني من الهم الذي كان يتآكل قلبي . لو كان المفوض قد رماها هناك لكانت صارت في أمرة ملاكي الحارس . كانت تبدأ بعبارة « سيدي الجليل... » أما الكلمات التالية لها فكانت كافية لإزاحة شيء من الهم عن صدري . لقد وجدت أنني لست قادراً على الضحك ملء شدقي كما في الأيام الغابرة ، بل انني وجدت أن بإمكاني أن أضحك على نفسي أيضاً الأمر الذي كان اكثر أهمية بكثير .

« سيدي الجليل : أرجو أن تكون بخير وتتمتع بصحة جيدة في هذا الطقس المتبدل الذي نمر به . أنا بخير تماماً في الوقت الحالي ومسرور بقول ذلك » . ثم وبدون أي ضجة انطلق مؤلف هذه الوثيقة المثيرة للفضول في خطبته الأنوية ـ الشجرية وهاكم كلماته :

«أرجو أن تقدم لي معروفاً وبطيبة خاطر بأن تتكرم وتوعز إلى عمال قسم الحدائق بأن يقوموا بجولة سريعة بدءاً من الخط البلدي الذي يفصل مقاطعتي الملك والملكة وأن يعملوا خارجاً من الناحية الشرقية ثم يعودوا غرباً وبنفس الشكل شمالاً وجنوباً ، وأن يزيلوا الأشجار اليابسة والذابلة الهائنة ، حيث أن جميع تلك الأشجار مشققة في الجزء القاعدي والجزعي وبعضها ينحني ويستند إلى البعض الآخر ويمكن أن يسقط في لحظة مسبباً الأذى لأرواح البشر والحيوانات والممتلكات ، وأن يقلموا كل الأشجار الجيدة ذات الحجم الكبير والحجم الصغير تقليماً ممتازاً ، شاملاً ، مناسباً ، منتظماً ومتناسقاً وأن يهندسوها ويشذبوها من القاعدة إلى أعلى نقطة فيها وبشكل شامل»

«أرجو أن تسدي لي معروفاً خاصاً وبطيبة خاطر وأن تتكرم بالإيعاز إلى عمال الحدائق العامة للقيام بإزالة الاشجار والثقيلة جداً والزائدة النمو في الارتفاع بحيث لا تتجاوز خمساً وعشرين قدماً وأن يقصوا كل الأغصان والأفرع الطويلة مع أخذ الأغصان المقصوصة سابقاً بعين الأعتبار وأن يعملوا على تخفيف كل أقسام الأشجار من القاعدة إلى القمة لكي يتاح المجال لمزيد من الضوء الطبيعي والهواء والجمال ولمزيد من الأمان للمشاة والمارة وكل المحيط المجاور للشوارع والجادات والأماكن والدروب والطرقات والاوتوستradات والبوليفارات والمصطبات وممرات الحدائق والشوارع المسماة (ساحات) والأزقة وكل ما يحيط بالحدائق من الداخل والخارج»

«كما أطلب اليكم بكل لطف وعلى جناح السرعة أن تقلموا وتهندسوا وتشذبوا الأغصان والأفرع على مسافة تتراوح من اثني عشر إلى خمسة عشر قدماً من الجدران الأمامية والجانبية والخلفية للبيوت والأبنية المجاورة الأخرى من مختلف التصنيفات وألا يسمح لها بالتماس باعتبار أن كثيراً منها قد تشوّه من الأغصان والأفرع الملتصقة بها وبالتالي لكي يفسح المجال لقدر أكبر من الضوء الطبيعي ومزيد من الهواء والجمال وقدر أكبر من الأمان .

أرجو أن توعزوا إلى رجالكم في قسم الحدائق بأن يقلموا ويهندسوا

ويشذبوا الأغصان والأفرع على مسافة من اثني عشر إلى ست عشرة قدماً فوق المسالك الجانبية والأرصفة اللوحية والعرصات والحواجز الحجرية... الخ وألا يسمحوا لها بالبقاء متدلية إلى الأسفل كما هو حال الكثير منها الآن وبالتالي أن يرفعوها كثيراً عن الأرض لكي يتاح المشي تحتها... »

وهكذا استمرت الرسالة على هذا المنوال وبنفس الأسلوب التفصيلي الصريح الذي لا يتغير ... وهاكم مقطعاً آخر :

« أرجو أن يتم تقليم وهندسة وتشذيب الأغصان والأفرع بشكل ملحوظ تحت أسقف المنازل والأبنية الأخرى وألا يسمح لهذه الأغصان والأفرع بالبروز أو التراكب أو الامتداد فوق بعضها أو التماس مع البيوت والأبنية الأخرى وأن تفصل الأغصان والأفرع عن بعضها وعن كل شجرة أخرى على حدة وألا يسمح للأغصان والأفرع بالتراكب أو التمدد أو الامتداد فوق بعضها أو التضافر أو التعلُّق أو التعنقد أو التماس مع الأشجار المجاورة وبالتالي لكي يتم إفساح المجال لمزيد من الضوء الطبيعي ومزيد من الهواء والجمال وقدر أكبر من الأمان للمشاة والمارة وكل ما يحيط عموماً بكل أقسام ضاحية الملكة في نيويورك... »

خلاصة القول أنني عندما انتهيت من قراءة الرسالة شعرت بالارتياح التام والاطمئنان إلى العالم وبالتسامح إلى أقصى الحدود مع نفسي الغالية ، كما لوأن بعضاً من ذك الضوء « الطبيعي » قد غزا وجودي . لم يعد يغلفني ضباب اليأس . كان هناك المزيد من الهواء والمزيد من الضوء والمزيد من الجمال لكل محيطي الداخلي .

في يوم السبت توجهت ظهراً نحو (جزيرة مانهاتن) عند ساحة التايمز . صعدت إلى السطح ، تناولت وجبة سريعة في مطعم الأوتومات ، ثم استدرت عائداً نحو أقرب صالة للرقص . لم يخطر ببالي أن أكرر نمطاً من السلوك كان قد أدى بي إلى هذه الحالة الراهنة من السقوط . وعندما شققت طريقي عبر المداخل الهائلة لقصر ايتشغومي للرقص الواقع في الطابق الأرضي من بناية

ذات منظر خلاب ، لاح لي ذاك الجانب من مقهى موزامبيق في جو يشبه ذاك الذي يستدعي الصعود اليه مترنحاً على السلم الكسيح المنحدر لقاعة رقص من قاعات برودواي للقاء الحبيبة هناك .

منذ تلك الأيام كان ذهني خالياً تماماً من أولئك الذين يدفعون نقوداً عند ارتياد الملاهي . ومن ملائكة الرحمة الذين يسلبون بكل وقار زبائنهم المتعطشين للجنس . كل ما كنت أحلم به في هذه اللحظة كان قليلاً من الساعات أقضيها هرباً من الملل ، قليلاً من ساعات النسيان على أن أحصل بأرخص ثمن . لم يكن في داخلي خوف من الوقوع في الحب مرة أخرى أو حتى من الحصول على ملجأ ، بالرغم من حاجتي الماسة إلى ذلك كله . كنت أتوق فقط لأن أصبح مثل أي مخلوق عادي أو (إذا أردت) سمكة هلامية في هذا المحيط العارم من القطيع البشري . لم أكن أطلب شيئاً أكثر من أن أصبح محفوفاً وممرغاً في حوض دردوري من اللحم البشري العبق تحت قوس قزح تحتمائي من الأضواء الملطفة المسكرة . لدى دخولي إلى المحل شعرت وكأنني فلاح قادم إلى المدينة ، إذ أنني أصبت على الفور بنوع من الانبهار من بحر الوجوه ، من الحر النتن المنبعث من مئات الأجساد المهتاجة ، من دوي الاوركسترا ، من الدوامة الكلايدوسكوبية للأضواء .

كان يبدو وكأن الجميع قد دُوزنوا على الخطوة المحمومة . كان كل واحد يبدو منكباً ومتيقظاً على نحو بالغ . وكان الهواء يمور بالرغبة الكهربائية ، بالتركيز الكلي الاستغراق . ألف من العطور المختلفة كانت تصطدم ببعضها البعض ، مع حرارة الصالة والتعرق والحمى وشبق النزلاء . بدا لي وكأنهم نزلاء محدودين من نوع أو آخر . ربما كانوا نزلاء في الدهليز المهبلي للحب ، نزلاء جليديين يتقدمون نحو بعضهم بشفاه مفترة ، جافة ، حارة ، جائعة ؛ ترتعش ، تتوسل ، تهمس ، تستجير ، تمضغ ، وتذيب شفاهاً أخرى . في الواقع كانوا وقورين أكثر مما ينبغي ، وقورين كالمجرمين الذين يوشكون على القيام بعمل إجرامي . يجمعون بعضهم بعضاً حول قالب هائل مدوّر من الكعك والأضواء

الملونة تغمر وجوههم وصدورهم واوراكهم ، تقطعهم إلى مزق يصبحون معها متشابكين متداخلين ثم يتحررون منها دائماً بينما يستديرون جسداً إلى جسد ، خداً إلى خد ، وشفة إلى شفة . لقد نسيت كيف كان هذا الهوس الرقصي ، إذ أنني كنت وحيداً أكثر مما يجب ، لصيقاً بحزني اكثر مما يجب ، وكنت مشوها بفعل أفكاري اكثر مما يجب . هنا كان التهتك بوجهه اللامسمى واحلامه المهزومة المنمقة ، هنا كانت أرض الأصابع القدمية الرشيقة والارداف الساتانية والشعور المطلقة إلى الأسفل والآنسة نيانزا . لأن مصر لم تعد مصراً ولا بابل بابلاً ولا جهنم جهنم .

هنا البابونات* في ذروة دورتها النزوية تسبح في قعر النيل بحثاً عن نهاية لكل الأشياء ، هنا الميتادات العتيقات تعاد ولادتهن على عويل الساكسوفون

والبوق المبحوح . هنا مومياءات ناطحات السحاب ينتزعن مبايضهن الملتبهة ويعرضنها على الملأ . بينما تتعرض المسامات للتسمم بفعل العزف المتواصل للموسيقا التي تخدر الذهن وتفتح بوابات التصريف . مع العرق والتعرق ، مع الدخان الممرض الطاغي للعطور ومزيلات الروائح الكريهة التي تشفطها المراوح الكهربائية على نحو مكتوم ، والروائح الكهربائية للشبق المتدلي مثل هالة معلقة في الفضاء . بينما كنت أمشي جيئة وذهاباً قرب الهرشي ألموند حيث البازارات تتكدس فوق بعضها مثل قوالب المعادن الثمينة كنت احتك بالشلة الراقصة . آلاف الابتسامات كانت تنهمر من كل الجهات . رفعت وجهي كما لو كنت سألتقط قطرات الندى اللامعة التي يشتتها النسيم العليل ، ابتسامات ، ابتسامات . كما لو أن المسألة ليست مسألة حياة أو موت ، سباق نحو الرحم ومن ثم العودة منه . الارتعاش وحفيف الملابس النسائية الحريرية ، الكافور وبيوض السمك ، زيت أوميغا... الأجنحة المفروشة بكامل أناقتها ، الأطراف العارية بانتظار اللمس ، رطوبة الأكف ، الجباه

* البابون أو الرباح : سعدان أفريقي أو آسيوي ضخم قصير الذيل قبيح المنظر (م)

اللامعة ، الشفاه الظمأى ، الألسن المعقودة ، الأسنان المتلألئة كما في الدعايات ، العيون البراقة النهابة التي تجرد... تعري ، العيون الثاقبة ، النافذة ، بعضها يفتش عن الذهب والبعض الآخر عن المضاجعة ، فيما البعض الآخر عن القتل ، لكنها جميعاً عيون ساطعة دون خجل ، وببراءة كبراءة فكي السبع الحمراوين ؛ عيون مدعية ، إنها سهرة السبت ، إنه طابق مثل أي طابق آخر .

اشتريني ، خذني ، اعصرني ، فكل شيء على ما يرام في ايتشيغوني ـ لا تدس عليَّ . أليس ساخناً ، نعم ، أنا أحبه ، أحبه بالتأكيد ، عضني مرة أخرى ، اكثر ، اكثر . وبينما كنت اترنح إلى الداخل ثم إلى الخارج صرت أقيسهم بنظراتي من الأسفل إلى الأعلى ، أقيس قاماتهم ، أوزانهم ، تركيبهم ، انظر اليهم وهم يحتكون بخصور بعضهم بعضاً ، أقيس النهود والمؤخرات والخصور ، أتمعن في التسريحات والأنوف والوقفات . أفواه مفتوحة أو نصف مفتوحة مفترسة ملتصقة بأفواه أخرى... أراهم يترنحون ، يتجانبون ، يتدافعون ، يحتكون ببعضهم... وفي كل اتجاه تجد بحراً من الوجوه ، بحراً من اللحم البشري الساخن المختلط . تنطلق في طبق الكعك لطخة من الآلات النحاسية ، عويل الترومبونات والساكسفونات المتخثرة والترومبيتات الثاقبة ، وكلها مثل نار سائلة تنفذ إلى الغدد . على الجوانب تنتصب مثل الحراس المتعطشين ، أباريق ضخمة مرتفعة من عصير البرتقال والليمون والكوكا كولا وجعة الجذور وحليب الأتان ولب الأنيمون الذابل . وفوق كل هذا يرتفع أزيز المراوح الكهربائية التي تقوم بشفط الرائحة النتنة الزنخة للحم البشري والعطور وتمررها من فوق رؤوس الحشود المارة في الشارع .

أدور وألوب في المكان ، لكن شيئاً لم يرق لي . بعضهم كان مدهشاً فاتناً كالحمير ، إذا جاز لي القول . كنت أرغب في شيء أكثر من هذا .

كان بازاراً للحم البشري فلماذا لا التقط وانتقي ؟ كان لمعظمهن الشكل الفارغ للأرواح الفارغة التي كانوا يمثلونها . ولم لا وهم لا يملكون شيئاً سوى البضائع والمال والألقاب والأزرار والصحون وفواتير الشحن لكل يوم بيومه ؟ هل

يفترض بهم أن يمتلكوا شخصيات أيضاً ؟ والبعض منهن ، مثل الطيور الجارحة التي تمتلك تلك الهيئة التي يصعب وصفها لحطام سفينة تتقاذفه العاصفة فلا هن بغايا ، ولا هن عاهرات ولا فتيات متاجر ولا Griseldas .

بعضهن كن يقفن كالأزهار الذابلة أو كالقصبات المكسرة بالمناشف المبللة والبعض الآخر كن نقيات مثل عشب الطير يبدو مظهرهن وكأنهن يأملن في أن يتعرضن للاغتصاب دون أن يسبب لهن المغتصب أي أذى . كانت الطعوم الحية الجيدة تتلوى واوراكهن البليغة تتلألأ مثل تموجات النسيج . في زاوية قريبة من حجرة التذاكر كانت المضيفات يتجمعن هناك . كن متألقات وطريات كأنهن قد خرجن لتوهن من الحمام ، مصفَّفات الشعر بشكل جميل ومرتديات ثياباً أنيقة . إنهن بانتظار من يشتريهن إذا حالفهن الحظ ، وهن متخمات بالخمر والطعام ينتظرن الفتى المناسب ، ذاك المليونير المتخم الذي يمكن أن يقدم عرضاً بالزواج في لحظة غفلة .

وبينما كنت واقفاً إلى جانب الدرابزون صرت أمسحهن بنظرات باردة . لو كان يوشيوارا موجوداً الآن... آه لو يقمن بخلع ثيابهن بمجرد أن تنظر اليهن وأن يقمن بإيماءات داعرة قليلة وأن ينادينك بصوت أجش . لكن ايتشيغومي يتبع برنامجاً مختلفاً . فهو يتيح لك أن تقطف زهرتك المنتقاة بعناية بالغة وبإخلاص شديد وأن تقودها إلى وسط الغرفة ، تتودد اليها ، تحدثها بلطف ، تقضم لقمتك برفق ، تلتهم ، تتلوى... تشتري تذاكر جديدة ، تأخذ الفتاة لتتناول وإياها مشروباً ، تتكلم بشكل متقن ، تعاود المجيء في الأسبوع القادم ، تختار زهرة أخرى... شكراً لكم من الأعماق... تصبحون على خير . تسكت الموسيقا لحظات قليلة وتذوب الراقصات مثل ندف الثلج . تنسل فتاة بلباس أصفر باهت اللون عائدة إلى حجرة النوم . يبدو أنها كوبية ، فهي قصيرة قليلاً ، قوية البنية وذات فم شره لا يشبع .

انتظر لحظة كي امنحها الفرصة لكي تجفف نفسها ، ثم أدنو منها . تبدو في سن الثامنة عشرة وما تزال طرية كما جاءت من الأدغال ـ أدغال الابنوس

والعاج . كان ترحيبها حاراً وطبيعياً ، إذ لا مجال لابتسامة جاهزة أو متصنعة ، ولا مجال لاستعمال مسجلة النقود ، فقد وجدت أنها جديدة على اللعبة ـ كما أنها كوبية ، يا للروعة!

باختصار ، لم يكن يهمها كثيراً أن تمتد اليها يد إنسان وتتطاول عليها أكثر مما يجب وأن يقوم بمضغها قطعة قطعة... فهي لا تزال تخلط اللذة بالعمل . اندفعنا نحو منتصف الصالة ، انحشرنا هناك ، بقينا ننتقل كالفراشات . كان الرقيب يغط في نومٍ عميق وكانت الأضواء خافتة جداً والموسيقا تزحف من كروموسوم إلى كروموسوم كعاهرة مدفوعة الأجر .

الاورغاسم يبلغ الذروة . تبعد نفسها خوفاً من أن يتبقع فستانها . أعود إلى المتراس وأنا أرتجف مثل ورقة شجر . كل ما استطيع شمه في هذه اللحظة هو الـ Cunt . لا فائدة من الرقص أكثر من ذلك هذا المساء ، ولا بد من العودة يوم السبت القادم ـ ولم لا ؟ وهذا ما فعلته بالضبط في يوم السبت الثالث وجدت نفسي أهرع إلى قادمة جديدة إن لها جسداً عجيباً ووجهاً متشظياً هنا وهناك مثل تمثال عتيق . كما أن لديها قدراً ضئيلاً من الذكاء يفوق ما لدى الأخريات . الأمر الذي يعتبر ميزة حسنة ، كما أنها ليست جائعة إلى المال وهذا بحد ذاته شيء استثنائي . في أوقات راحتها كنت آخذها إلى السينما أو إلى مرقص رخيص في منطقة مجاورة . لا يهمها إلى أين نذهب . يكفي أن أجلب معي قليلاً من مشروب مسكر ـ ليس بمعنى أنها تحب الذهاب إلى بلوتو blotto... لا... إنه يجعل الأشياء اكثر نعومة كما تعتقد . إنها فتاة ريفية من ولاية شمالية لم يكن في طلعتها أي توتر او انفعال . فهي تضحك بسهولة وتستمتع بأي شيء . عندما اصطحبها إلى البيت ـ هي تسكن في بيت من الألواح الخشبية ـ يتوجب علينا أن نقف في بهو حجرة الجلوس ونقوم بأفضل ما يمكننا فعله . إنه عمل مرهق للأعصاب أن ترافق النزلاء طوال الليل جيئة وذهاباً . في بعض الأحيان ـ عندما أتركها ـ أسأل نفسي كيف أنه لم يقيض لي أن أرتبط بمثل هذه النوعية ، وهذا النموذج اليسير المعاملة بدلاً من

تلك النوعيات الصعبة ؟ فهذه الفتاة ليس لديها مثقال ذرة من الطموح ؛ إذ لا شيء يضايقها ولا شيء يقلقها ، حتى أنها لا تقلق لفكرة أن « يقبض عليها » كما يقول المثل . وربما كانت ماهرة في الاشتغال بإبرة الرفو .

لا يحتاج الأمر إلى كثير من التفكير للتحقق من أن مناعتي هي السبب في أنني لن أصبح جثة هامدة في أي وقت من الأوقات . في كل الأحوال ، ثمة قليل من المخاطرة في ارتباطي بها بشكل مستمر ، فأنا نفسي من النزلاء ممن لا يترفعون عن اختلاس قطع النقود الصغيرة من محفظة صاحبة الدار .

قلت ، إذن ، أن هذه المتشردة ليلاً كان لها جسم عجيب . وهذا صحيح .

عندما مررت يدي على ردفيها كان ذلك كافياً لجعلي أنسى كل مشاكلي وأنسى بالإضافة لذلك نيتشه وشتيرنر وباكونين .

لم يكن ثغرها جميلاً تماماً ، بل كان جذاباً وآسراً . ربما كان أنفها طويلاً قليلاً وثخيناً قليلاً ، لكنه كان مناسباً لشخصيتها وكان يناسب ذاك الـ Cunt الضاحك الذي يصدر عنها وهذا هو بالضبط ما أقصده . ولكن في اللحظة التي بدأت فيها بالمقارنة بين جسدها وجسد مونا ، تبين لي أن لا جدوى من الدخول في هذه المقارنة ؛ فهما ليستا سوى من لحم ودم : إذ لم يكن بالنسبة لها ثمة شيء أكثر مما تستطيع رؤيته ولمسه وسماعه وشمه . أما مع مونا فكان الأمر مختلفاً . إذ أن شخصيتها تتجسد في حلمتها اليسرى بنفس القدر الذي تجسده أصبع رجلها اليمنى . كان اللحم ينطق من كل بقعة ومن كل زاوية من جسدها .

ومن الغريب فعلاً أن جسدها لم يكن مكتملاً على السواء . لكنه كان شجياً واستفزازياً . كان جسدها يردد صدى مزاجها . لم تكن بحاجة لأن تتباهى به أو تناور به . كان يكفيها أن تسكنه ، أن تكونه .

كان جسد مونا يتصف بهذه الصفة أيضاً : لقد كان سريع التبدل بشكلٍ فوري وآني . كم أتذكر تلك الأيام عندما كنا نسكن مع الطبيب واسرته في رونكس عندما كنا نستحم سوية تحت الدوش ونرغي الصابون لبعضنا ،

نتعانق . نتضاجع على أحسن ما يكون تحت الدوش بينما الصراصير تطوف صاعدة هابطة مثل جيش في حالة استنفار . لقد كان جسدها ، مع أني كنت أحبه ، خارج كل المقاييس . فاللحم يتهدل من خصرها طيات . والثديان متهدلان ، والردفان مسطحان أكثر مما يجب ـ كانا ردفين صبيانيين .

إن نفس هذا الجسد ما إن يكتسي بفستان سويسري مخرم من الطراز المعيق للحركة حتى يكتسب كل السحر والإغراء اللذين تتصف بهما السوبريت* . كان العنق ممتلئاً ، عمودانياً ـ هكذا كنت أدعوه ـ وكان يتناسب مع الصوت الغني الداكن المرتجف الذي كان يصدر عنه . وهكذا ، بينما كانت تمر الشهور والسنون تعرض هذا الجسد لكل أشكال التغيير . في وقت من الأوقات صار مشدوداً أهيف ثم صار طبلياً . كان مشدوداً أكثر مما يجب . وأهيف أكثر مما يجب ، في معظم الأحيان . ثم جاء زمن عاود فيه التغير ، فكل تغير كان سجلاً لتحولاتها الجوانية ، لتذبذباتها ، لأمزجتها ، لاشياقاتها واحباطاتها . لكنه بقي على الدوام مثيراً ، حيوياً على أكمل وجه ، سريع الاستجابة ، نابضاً بالحب والحنان والعطف . في كل يوم كان ينطق بلغة جديدة . أي سلطان يستطيع هذا الجسد أن يمارسه ؟ فهو في معظم الأحيان ليس إلا جسداً ضعيفاً عابراً زائلاً . لقد وجدت الجسد ولم يكن يهمني أي شيء آخر . إذ لم تكن بي حاجة إلى شيء آخر ، ولا شيء آخر يمكنه اشباعي تماماً . لا ، فالنوع الضاحك لم يكن مخلوقاً لأجلي . المرء يخترق ذاك النوع من الجسد مثل سكين تمزق لوحاً من الكرتون . إن ما كنت أتوق إليه هو هذا الجسد المتملص المراوغ الباسيليسكي** كما كنت أقول لنفسي ، المراوغ المتملص الذي لا يمكن اشباعه ، جسداً كجسد مونا كلما امتلكه المرء صار ملكاً له ، جسداً يمكنه أن يجلب معه كل كوارث مصر وعجائبها وروائعها .

---

* السوبريت Soubrette هي الخادمة المغناج في المسرحيات الهزلية (م)

** الباسيليسك أو الباسيليسق : حيوان زاحف خرافي شبيه بالعظاءة مهلك الأنفاس والنظرات (م) .

جربت مرقصاً آخر . كان كل شيء على أكمل وجه ـ الموسيقا ، الأضواء . الفتيات ، وحتى المراوح الكهربائية . لكنني لم أشعر أبداً بمزيد من الوحدة ، بمزيد من العزلة . في حالة من اليأس ، صرت أراقص الواحدة تلو الأخرى . كلهن مستجيبات ، مستسلمات ، لدنات ، مطواعات ، كيِّسات ، فاتنات ، ملساوات ، داكنات البشرة . لكن اليأس كان يجتاحني والهم يسحقني . وبينما كان المساء يمضي ، سيطر عليَّ شعور بالغثيان . كانت الموسيقا تثيرني بشكل خاص . كم ألفاً من المرات كنت قد سمعت هذه الألحان الباهتة ، الواهنة ، البلهاء إلى أقصى درجة والمتشدقة بكلمات التحبب الممْرضة! إن سلالة القوادين والجواسيس ـ هؤلاء هم الذين لم يكونوا يعرفون غصات الحب . إنهم جنينيون ـ كما كنت أقول لنفسي باستمرار . وموسيقا الأجنة خلقت للأجنة . إن ذكَر الكسلان* يطلب انثاه في ماء المجارير الذي يصل إلى خمسة أقدام ، كما أن ابن عرس يبكي انثاه الضائعة ويمرغ نفسه في برازه . يا لها من قصة حب! قصة حب عن جماع البنفسج والعشب النتن . كانت عبارة I love you مكتوبة على ورقة تواليت حريرية ناعمة وقد شطبت بألف مشط فائق النعومة . تلك القوافي التي ابتدعها اللوطيون المصابون بالجرب ، والقصائد الغنائية التي ابتدعها البومن ورفاقه . تفو! بينما كنت أغادر المحل وردت إلى ذهني تلك التسجيلات الأفريقية التي كنت اقتنيها ذات يوم . فكرت في حرارة الدم الثابتة الدائمة التي كانت تنفخ في تلك الموسيقا روح الحياة . وحده إيقاع الجنس الثابت المتكرر المجلجل ـ ولكن كم هو منعش ، كم هو نقي ، كم هو بريء! كنت في حالة أشعر معها وكأنني استل قضيبي وأنخع بقوة في منتصف شارع برودواي تماماً ، ومن ثم أرتعش بقوة . تصور أن مهووساً جنسياً يستل قضيبه مساء السبت! على مرأى من كل الحاضرين في الأوتومات! تمشيت إلى الحديقة المركزية ورميت بنفسي على الحشائش وأنا استشيط غضباً وغيظاً . لقد ذهب المال فما الذي

* الكسلان : حيوان أدرد يقيم في أشجار الغابات الاستوائية الامريكية (م)

يمكنني فعله ؟ كنت لاأزال أفكر في هوس الرقص ، ما زلت أتسلق ذاك السلم الحجري المنحدر إلى حجرة التذاكر حيث كان اليوناني ذو الشعر الطويل جالساً ينتزع النقود من أيدي المرتادين . (نعم ، انها ستأتي إلى هنا حالاً ، لماذا لا تراقص واحدة من الفتيات الأخريات ؟) .

في أغلب الأحيان لم تكن تحضر إلى هناك مطلقاً . في زاوية من الزوايا ، وعلى منصة كان الموسيقيون الملونون الغاضبون يعملون مثل امرأة حقود ، يتعرقون ، يلهثون ، يصفرون ، يصرون بأسنانهم ساعة بعد ساعة ، ويكادون لا يتوقفون . لا مجال للتسلية ، لا بالنسبة لهم ولا بالنسبة للفتيات حتى لو تبللت سراويلهم من حين لآخر . يجب على المرء أن يكون سخيفاً لكي يقبل التعامل مع حانة رديئة كهذه .

وبينما كنت مستسلماً لشعور بالخدر اللذيذ وقد وصلت إلى درجة إغماض عيني ، فاجأتني امرأة شابة فاتنة ، لم أعرف من أين ظهرت أمامي ، واتخذت لنفسها مقعداً على دكة صغيرة فوقي تماماً . ربما لم تكن متنبهة إلى أنها وهي في تلك الوضعية التي اتخذتها ، كانت تكشف لي عن اعضائها الجنسية كاملة . ربما لم تكن تأبه لذلك . وربما كانت هذه هي طريقتها الخاصة في التودد إليّ ، أو في الغمز . لم يكن فيها شيء من الوقاحة أو الابتذال . كانت تشبه مخلوقة عظيمة ناعمة قدمت من السماء لترتاح من الطيران . كانت متجاهلة لوجودي كلياً ، وهكذا وبهدوء بالغ ، صرت ملفعاً بأحلام اليقظة إلى درجة لا تصدق ـ أو هكذا تراءى لي . أغمضت عيني واستسلمت للنوم . أما الشيء التالي الذي عرفته فهو أنني لم أعد موجوداً على سطح الأرض . وكما أن المرء يحتاج زمناً ليعتاد على الحياة الآخرة ، فقد حدث لي نفس الشيء تماماً في منامي . كان من أغرب ما تعودت عليه هو أن ما كنت أرغب فيه لا يتطلب أدنى جهد . فلو كنت أرغب في الركض بسرعة أو ببطء لفعلت ذلك دون أن تنقطع أنفاسي ، ولو رغبت في القفز من فوق بحيرة أو هضبة لأمكنني فعل ذلك ببساطة ، ولو كنت أرغب في الطيران لما وجدت مانعاً من ذلك .

بعد انقضاء فترة من الزمن تأكدت من أنني لم أكن موجوداً وحدي . كان إلى جانبي شخص آخر ، يتحرك كالظل بنفس السهولة والثقة التي كنت أتحرك بهما أنا نفسي . كان ملاكي الحارس على الأرجح . ومع أنني لم أصادف شيئاً يماثل تلك المخلوقات الأرضية فقد وجدت نفسي للمرة الثانية أتحاور دون جهدٍ مع كل ما كان يقع في طريقي . فلو كان حيواناً لتحدثت إليه بلغته ، لو كان شجرة لتكلمت إليها بلغة الأشجار ، ولو كان صخرة لوجدتني أتكلم مثل صخرة . كنت أعزو هذه الهبة من الألسن إلى وجود ذاك الكائن الذي كان يرافقني .

ولكن إلى أي عالم كنت منقاداً ؟ ولأي هدف ؟

شيئاً فشيئاً صرت مدركاً لحقيقة أنني كنت انزف . في الواقع ، كنت كتلة من الجراح من رأسي إلى أخمص قدمي . لقد كنت ـ إذن ـ واقعاً تحت سيطرة الخوف... وهكذا بدأت أضعف تدريجياً .

أخيراً ، عندما فتحت عيني أصابني الذهول لما رأيت أن الكائن الذي كان يرافقني يغسل جروحي بحنان ويمسح بالزيت جسدي . هل كنت قدوصلت إلى حافة الموت ؟ هل كان ملاك الرحمة هو ذاك الذي ينحني فوقي قلقاً ؟ أم هل كنت قد عبرت الصراط المستقيم ؟ كنت أحدق في عيني معزيتي متوسلاً . أعادت إليَّ الثقة بالنفس بنظرة الحنو المبهمة التي كانت تضيء وجهها . لم أعد مهتماً بمعرفة ما إذا كنت لا أزال من هذا العالم أم لا . لقد غزا وجودي شعور بالطمأنينة فعاودت إغماض عيني . وهكذا ، شيئاً فشيئاً ، وبكل ثبات ، كانت دفقة من قوة جديدة تنسكب في أوصالي . لم يعكرني شيء سوى شعور غريب بالفراغ في منطقة القلب الذي شعرت بشفائه تماماً .

عندما فتحت عيني ووجدت أنني كنت وحيداً مع أنني لم أكن مهجوراً ولا متروكاً ، رفعت يدي بشكل غريزي فوق قلبي . وما أشد هلعي عندما اكتشفت وجود حفرة عميقة في المكان الذي يفترض أن يشغله القلب . حفرة لا ينبجس الدم منها . همهمت قائلاً في نفسي : « إذاً ، أنا ميت » .

لكني حتى اللحظة التي لم أكن أصدق ذلك . في هذه اللحظة الرهيبة ، وأنا ميت ولست بميت ، انفتحت أبواب الذاكرة على مصاريعها ، ومن خلال ممرات الزمن شاهدت ما لا يسمح لأي إنسان آخر بالنظر إليه قبل أن يكون مستعداً للتخلي عن الروح . كنت أرى في كل طور ولحظة من أطوار ولحظات الضعف المثير للشفقة المطلق التعاسة أنني لم أكن سوى الخلفية -back ground ولا شيء سوى ذلك ـ أنا الذي جاهدت عبثاً وبذلت المستحيل لحماية قلبي الصغير البائس . لقد وجدت أنه لم يكن منكسراً كما كنت أتصور ، ولكنه وقد شله الخوف ، انكمش إلى ما يشبه العدم . كما وجدت أن الجروح المؤلمة التي انهكتني كانت كلها قد قوبلت بمحاولة عديمة الجدوى لمنع هذا القلب المثخن من الانكسار . فالقلب نفسه لم يكن قد مسه سوء ، بل إنه قد تضاءل من عدم الاستعمال .

هذا القلب قد ولى الآن ؛ انتزع مني ، دون شك ، من قبل ملاك الرحمة . كنت قد شفيت واستعدت عافيتي وصار ممكناً لي أن استمر حياً في موتي كما لم أكن حياً في حياتي : لم أعد قابلاً للانجراح والعطب ، فما حاجتي إلى القلب ؟ بينما كنت استلقي هناك منبطحاً وقد استعدت كامل قوتي ونشاطي ، كانت شناعة مصيري تفتك مثل صخرة . كان يغمرني شعور بالفراغ المطلق للوجود . لقد حققت الحصانة ، صارت ملكاً لي إلى الأبد . أما الحياة ـ إذا كانت هذه هي الحياة ـ فقد فقدت كل معناها . كانت شفتاي تتحركان كما لو كنت أصلي ، لكن الإحساس بالألم المبرح كان يحبطني . صرت بلا قلب ، فقدت القدرة على التواصل حتى مع خالقي .

ها هي الملاكة ،تظهر أمامي مرة أخرى وفي يديها المكويتين مثل كأس القربان تحمل الشبيه البائس المنكمش لقب كان ذات يوم قلبي . وبينما كانت تغمرني بنظرة إشفاق مطلق صارت تنفخ على هذه الجذوة الخامدة ظاهرياً حتى انتفخت وامتلأت بالدم ، حتى صارت تخفق بين أصابعها مثل قلب بشري . وبينما كانت تعيده إلى مكانه ، كانت شفتاها تتحركان ، كما لو

كانتا تنطقان بالبركة ، دون أن يند عنهما أي صوت .

لقد غفرت كل آثامي ؛ صرت حراً في آن أعاود ارتكاب الخطيئة ، صرت حراً في أن احترق بلهب الروح . لكنني في تلك اللحظة عرفت ، ولن أنسى أبداً ، أبداً ، أن القلب هو المسيطر ، هو المقيد هو القلب الحافظ . وأن هذا القلب لن يفنى أبداً لأنه كان في عهدة يدين عظيمتين . يا للفرحة التي تملكتني في تلك اللحظة! يا للثقة التامة والمطلقة!

نهضت واقفاً على قدمي كائناً جديداً . مددت ذراعي إلى الأمام لأعانق العالم . لا شيء فيه قد تغير . إنه نفس العالم الذي كنت أعرفه . ولكنني في تلك اللحظة كنت أراه بعينين جديدتين . لم أعد أسعى للهرب منه ، لإجتناب علله ، ،أو لاستبداله على أقل تقدير .

لقد صرت منه كلياً ، وتوحدت معه . لقد عبرت وادي خيال الموت . لم أعد أخجل من كوني إنساناً ، من كوني كلي الإنسانية . وجدت مكاني ، صرت منتمياً ، أصبح لي حيز في هذا العالم وسط الموت والفساد . اتخذت لنفسي من الشمس والقمر والنجوم رفاقاً . إن قلبي الذي تطهّر من خطاياه قد فقد كل الخوف ؛ صار يتوق متوجعاً لكي يقدم نفسه لأول قادم . في الواقع ، تولد لديَّ انطباع بأنني صرت بأكملي قلباً ـ قلباً لا يمكن تحطيمه أبداً ، ولا حتى جرحه منذ أن كان عصياً على الانفصال عمن أتى به إلى الحياة .

وهكذا ، وبينما كنت أتمشى متوغلاً في زحمة العالم ، ،هناك حيث كان يعم الخراب الشامل ، وكان الخوف وحده المسيطر ، صرخت بكل ما أوتيت روحي من عزم :

ـ «تمسكوابالقلب أيها الأخوة والأخوات ، تمسكوا بالقلب!»

الفصل الثاني عشر

عند وصولي إلى المكتب صباح الاثنين وجدت برقية ملقاة على طاولة المكتب . كان فحوى هذه البرقية ، بالأبيض والأسود ، أن مونا سوف تصل على متن باخرة يوم الخميس ، وبالتالي ينبغي عليَّ أن أذهب لملاقاتها عند رصيف الميناء . لم أقل شيئاً لتوني ؛ إذ أنه سيعتبر ذلك بمثابة كارثة . بقيت أردد مضمون البرقية لنفسي المرة تلو المرة ، فقد كان الأمر يبدو غير قابل للتصديق . كنت بحاجة إلى عدة ساعات لأستجمع نفسي . بينما كنت أغادر المكتب في ذاك المساء نظرت إلى البرقية مرة ثانية لأتأكد من أنني لم أخطء قراءتها . ولكن لا ، لا مجال للخطأ . إنها آتية يوم الخميس . نعم هذا الخميس وليس الخميس القادم ولا الخميس المنصرم . هذا الخميس كان شيئاً لا يصدق . كان أول شيء أقوم به هو أن أجد مكاناً نسكن فيه . أية غرفة صغيرة دافئة ومريحة ـ في أي مكان ، على أن لا تكون باهظة الأجرة . وهذا يعني أن عليَّ أن أعاود الاستدانة ولكن ممن ؟ بالتأكيد من توني .

لم يفرح الناس كثيراً بهذا الخبر . كان تعليق والدتي الوحيد :

ـ «أرجو ألا تترك عملك مع عودتها إليك» .

جاء يوم الخميس وذهبت إلى رصيف الميناء قبل الموعد المحدد بساعة . وحسب برقيتها كان من المفروض أن تأتي على متن إحدى البواخر

الألمانية السريعة . وصلت الباخرة متأخرة قليلاً . نزل الركاب واختفت الحقائب والأمتعة عن الأنظار ، ولكن لا أثر لمونا أو ستاسيا . هرعت مذعوراً إلى المكتب حيث توجد قائمة المسافرين . لم يكن اسمها مدوناً في القائمة ولا اسم ستاسيا أيضاً .

عدت إلى الغرفة الصغيرة التي استأجرتها وقلبي ثقيل كالرصاص . من المؤكد أنه كان بمقدورها أن تبعث لي برسالة . لقد كان ذلك تصرفاً فظاً من جانبها ، كان فظاً إلى أبعد الحدود .

في صباح اليوم التالي . وبعيد وصولي إلى المكتب تلقيت مكالمة هاتفية من مكتب التلغراف حيث كانوا قد تلقوا بدورهم برقية سلكية مرسلة لأجلي . فهتفت لعامل التلغراف قائلاً : «اقرأها!»

(آه من المغفلتين ـ ما الذي كانتا تنتظرانه ؟) . وهاكم نص البرقية :

ـ «سأصل يوم السبت على متن الباخرة بيرنغاريا . التوقيع : حبيبتك» .

هذه المرة صرت (ماك كوي) حقيقياً . كنت أراقبها وهي نازلة على المعبر الخشبي . إنها هي ، هي... إنها اكثر سحراً واكثر فتنة من ذي قبل . كانت تحمل بالإضافة إلى حقيبة السفر الصفيحية الصغيرة حقيبة ملابس وحقيبة قبعات محشوة بالحاجيات الصغيرة . ولكن أين كانت ستاسيا ؟

ستاسيا في باريس . لكنها لم تكن تعرف متى ستعود .

رائع! قلت لنفسي . لا داعي للمزيد من الاستفسارات .

عندما كنا راكبين في التاكسي ، حكيت لها عن الغرفة التي استأجرتها ، فسُرَّت بالخبر وعلقت بقولها : «سنجد مكاناً أفضل منها فيما بعد» .

قلت في نفسي : «يا يسوع . لا! ولماذا المكان الأفضل ؟»

كان لدي ألف من الأسئلة التي كنت أتحرق لطرحها عليها ، لكنني تمكنت من ضبط نفسي . حتى أنني لم أسألها عن سبب تغيير الباخرة ؛ إذ ما الذي كان يهمني مما حدث البارحة أو منذ شهر أو منذ خمس سنوات ؟ لقد عادت وهكذا يكفي . لم يعد هناك من ضرورة لطرح الأسئلة . فقد كانت على

أحـر من الجـمـر لتـحكي لـي عن كل شـيء . كـل عليَّ أن أرجـوها أن تبطئ في الكلام وألا تقول كل ما عندها دفعة واحدة . قلت لها :

ـ « وفري بعضاً من الكلام إلى ما بعد » .

بينمـا كـانـت تفتش في حقيبـة السـفـر حيث كـانت قد جلبت مـعـهـا كل أصناف الهدايا بمـا في ذلك اللوحات والمـنحوتات والألبومـات الفنية . لم أقدر على مقـاومـة رغبـتـي في مضـاجعتهـا . وقد فعلنا ذلك على الأرض وسط الأوراق والكتـب واللوحـات والمـلابس والاحـذية وكل مـوجـودات الغـرفـة . لـكن هذا الفـاصل نفسـه لم يستطع كبح سيلان الكلام ، كان لديهـا الكثيـر ممـا يقـال ، والكثير من الأسماء التي لا بد من ذكرها . وكان كل ذلك يتوارد إلى مسـامعي مثل خطبة جنونية .

قلت لها مقـاطعاً على حين غرة : « أخبـريني شيئاً واحداً ـ هل أنت متأكدة من أنني سأحب الحياة هناك ؟ »

ارتسمت على وجهها تعابير النشوة المطلقة . قالت لي :

ـ « ستحبها ؟ قال ، إنها الشيء الوحيد الذي كنت تحلم به طوال حياتك . إنك تنتمي إلى هناك أكثر ممـا انتمي أنا . فهناك ستجد كل شيء ممـا تبحث عنه ولا تجده هنا » .

ثم انطلقت تصف لي كـل شيء : الشـوارع الملتـفـة والمنحنيـة ، الأزقـة ، الطرق المسـدودة ، أماكن التسلية ، الجادات العريضة الكبيرة كتلك المتفرعة عن الايتوال Etoile ، ثم هناك الاسواق ودكاكين الجزارين ، واكشـاك الكتب والجسور وشرطة الدراجات والمقاهي والكباريهات والحدائق العامة والنوافير وحتى المـراحيض . وهكذا استـمـرت تحدثني وتصف لي رحلتهـا كإنهـا إحدى رحلات كوك . إن كل مـا كـان بمـقـدوري فـعله هو أن أدير عيني وأهز رأسي وأشبك يدي .

قلت في نفسـي : « لو كانت الأمـور بهذه الروعه كـما تزعم لكان شيـئـا عجيبا بالفعل » .

ثمة ملاحظة مقيتة فقط تتعلق بالنساء الفرنسيات. كانت تريد إفهامي أنهن لسن جميلات. هن جذابات ، نعم. لكنهن لسن حسناوات مثل نسائنا الامريكيات. أما الرجال ، من ناحية آخرى ، فهم ممتعون وحيويون مع أنهم شديدو الالتصاق ويصعب التملص منهم. كانت تعتقد أنني سأحب الرجال الفرنسيين ، ولكنها كانت تأمل في أنني لن اكتسب عاداتهم المتعلقة بفرط الاهتمام بالنساء. وحسب رأيها ، فإن للرجال في فرنسا نظرة قروسطية إلى المرأة ؛ إذ يحق للرجل أن يضرب المرأة على مرأى من الناس.

قالت بلهجة خطابية :

-« من المرعب أن ترى ذلك. لاأحد يجرؤ على التدخل. حتى رجال البوليس يشيحون بوجوههم لدى رؤيتهم مثل هذا المشهد »أخذت هذه الفكرة على محمل الشك والتحفظ كما هي العادة مع ما كانت تقوله. إنها وجهة نظر المرأة. أما فيما يتعلق بمسألة الجمال الأمريكي ، فلتحتفظ أمريكا بحسناواتها لنفسها. بالنسبة لي لم يكن فيهن أية جاذبية على الاطلاق.

قالت لي :«لقد صار لزاما علينا أن نعود إلى هناك» ، متناسية أننا (نحن) لم نسافر إلى هناك مع بعضنا.

-« إنها الحياة الوحيدة التي تناسبك ، يا ڤال ، فهناك سوف تكتب ، أعدك بذلك ، حتى لو أصابنا الجوع. إذ يبدو أن لاأحد هناك يمتلك المال. ومع ذلك فهم يتدبرون أمورهم- أما كيف ذلك فهذا مالا أعرفه. على كلٍ ، أن تكون مفلسا هناك ليس أصعب من كونك مفلسا هنا. هنا كل شيء قبيح. أما هناك... فكل شيء يسير على مايرام ، إنه شيء رومانسي كما أظنك ستقول : لكننا لن نكون مفلسين عندما نعود. يجب علينا في الوقت الحالي أن نكدح ، أن نوفر نقودنا بحيث نتمكن من قضاء سنتين أو ثلاث سنوات هناك» كان شيئا رائعا ان اسمعها تتحدث بهذه الجدية عن «العمل».

أمضينا اليوم التالي /يوم الأحد/ في المشي والكلام. لاشيء سوى الخطط للمستقبل. ففي سبيل التوفير قررت البحث عن مكان نستطيع الطهو

فيه. كنا نريد شيئا أكثر بساطة ، أكثر عائلية من حجرة النوم التي كنا نستأجرها أو مكاناً (نستطيع العمل فيه) كما كان يحلو لها أن تقول. كان هذا النموذج مألوفاً جداً. دعها تفعل كما يحلو لها.

هكذا كان رأيي. وفي كل الأحوال فإنها ستفعل ما يحلو لها.

قالت معلقة : « لابد أن عملك متعب بشكل مخيف »

قلت لها وكنت أعرف ما ستقول : « ليس سيئاً جداً »

- « أرجو ألاتستمر فيه الى الأبد ؟ »

- « لا يا عزيزتي ، فقط إلى أن اتفرغ للكتابة مرة أخرى » .

قالت لي :« هناك (في فرنسا) يبدو أن الناس يتدبرون أمورهم أفضل من هنا وبتكاليف أقل من هنا بكثير. فإذا كان المرء رساماً فهو يرسم ، وإذا كان كاتباً فإنه يكتب. لامجال لتسويف الأمور حتى يصبح كل شيء وردياً » .

توقفت عن الكلام لحظة لاعتقادها- دون شك- أنني سأبدي ارتيابي فيما تقوله : ثم استأنفت قولها مع تغير في نبرة الصوت :

- « أنا أعرف ، ياڤال ، أنك تكره أن تراني أقوم بأفعال لمجرد الوصول لغايات سعيدة. أنا شخصياً لاأحب ذلك. لكنك لاتستطيع أن تشتغل وتكتب- هذا واضح. إذا كان لابد لاحد منا أن يضحي ، فليكن أنا. بصراحة ، إن ما أقوم به ليس تضحية. إن كل هدفي في الحياة هو أن أراك تفعل ما تريد فعله. يجب عليك أن تثق بي لكي أفعل ماهو الافضل لأجلك. عندما نصل الى أوربا فإن الأمور سوف تنحل ، ستصبح مختلفة. إنك ستزدهر هناك ، أنا أعرف ذلك. فالحياة التي تحياها هنا هزيلة وحقيرة. هل تأكدت ، ياڤال ، أنك بالكاد قد كسبت صديقاً من غير الذين تهمك رؤيتهم ؟ ألا يعني لك ذلك شيئاً ؟ فهناك يكفي أن تتخذ لنفسك مقعداً في أحد المقاهي حتى تجد نفسك محاطاً بالأصدقاء فوراً . وعلاوة على ذلك ، فهم يحدثونك عن الأشياء التي تحب الحديث عنها . إن أولريك هو الصديق الوحيد الذي تتكلم معه بتلك الطريقة . أما مع الآخرين ، فإنك لست مهرجاً - الآن صار ذلك حقيقة ، أليس كذلك ؟ » .

كان علي أن أعترف بأن ذلك هو الشيء الوحيد الحقيقي أكثر مما يجب . إن الحديث بهذه الطريقة ، قلباً لقلب ، قد جعلني أحس بأنها ربما كانت تعرف أفضل مني ما هو جيد بالنسبة لي ، وما هو خلاف ذلك . فأنا لم أكن متحمساً لايجاد حل سعيد لمشاكلنا ، لا سيما وأن مشكلة العمل في هذا الروتين هي النظر إلى الآخرين عيناً بعين .

عندما عادت لم يكن في جزدانها سوى سنتات قليلة . كان النقص في المال هو السبب في تغيير الباخرة في آخر لحظة ـ حسب قولها . وكانت هناك أسباب أخرى غير ذلك بالطبع . فعمدت إلى مزيدٍ من التفسيرات المتقنة ، لكنها كانت جميعها متسرعة و« ملخبطة » بحيث انني لم استطع الربط فيما بينها ، إن ما كان يدهشني هو أنها بلمح البصر قد وجدت لنا مسكناً جديداً لكي ننتقل إليه ، وفي واحد من أجمل شوارع بروكلن . لقد وجدت المكان المناسب تماماً ودفعت أجرة شهر سلفاً واستأجرت لي آلة كاتبة ، وملأت لي الثلاجة بما لا يعلمه إلا الله ، مما أثار فضولي لمعرفة كيف تدبرت النقود . خطرت ببالي تلك الجهود العرجاء التي بذلتها لاستجداء قليل من الدولارات الحقيرة ، والديون التي لا تزال بذمتي لتوني .

قالت لي : « أنت تعلم أن الجميع سعداء جداً لرؤيتي وقد عدت من السفر ، فهم لا يردون لي طلباً » .

إن كلمة (الجميع) هذه ترجمتها بدوري بمعنى « شخص ما » .

كنت أعرف الخطوة التالية التي ستقدم عليها وهي أن « اترك ذاك العمل الكريه » . وكان توني يعرف ذلك أيضاً ، إذ قال لي يوماً :

ـ « أعرف أنك لا تبقى معنا مدة أطول من ذلك ، ومن ناحية أخرى فأنا أحسدك . عندما تترك العمل لا تجعلنا نفقد الاتصال ببعضنا ، سأفتقدك أيها (العرص) » .

حاولت أن أخبره كم كنت أقدر كل ما فعله من أجلي ، لكنه تجاهل ذلك . قال لي : « لو كنت مكاني لفعلت نفس الشيء . ومع ذلك ، هل أنت جاد فعلاً

في المضي في تفرغك للكتابة في هذا الوقت ؟ أرجو ذلك ، إذ يمكننا الحصول على حفاري قبور في أي وقت ولكن ليس بإمكاننا الحصول على كاتب » .

لم يكن انصرم اسبوع حتى وجدت نفسي أودع توني . كانت آخر مرة أراه فيها . صرت فيما بعد أرد نقوده بالقطارة . أما الآخرون الذين كنت مديناً لهم فقد استردوا أموالهم بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً . والقلائل هم أولئك الذين ماتوا قبل أن أسدد لهم . هكذا هي الحياة ، أو (جامعة الحياة) كما كان يسميها مكسيم غوركي .

كانت الأحياء الجديدة رائعة جداً . استأجرنا النصف الخلفي من الطابق الثاني في بيت عتيق من الحجر البني اللون . كانت كل وسائل الترفيه والراحة مؤمنة ، بما في ذلك السجاد الناعم ، البطانيات الصوفية السميكة ، البراد ، الحمام والدوش ، الخزانات الكبيرة ، المدفأة الكهربائية... الخ ما هنالك» .

أما صاحبة الدار فقد كانت مفتونة بنا إلى أقصى حد . كانت امرأة يهودية ذات أفكار ليبرالية ومولعة بالفن بشكل عاطفي . بالنسبة لها أن تؤوي كاتباً أو ممثلة ـ كانت مونا قد فبركت ذلك لها ـ فذاك انتصار مزدوج لها . كانت فيما مضى تعمل معلمة في إحدى المدارس إلى أن توفي زوجها فجأة ، هذا إلى جانب ميولها نحو التأليف . أما التأمينات التي حصلت عليها بعد وفاة زوجها فقد مكنتها من الاستغناء عن مهنة التعليم . كانت تأمل في أن تتمكن سريعاً من البدء بالكتابة . وبوجودي أنا ، ربما اتمكن من اعطائها بعض التعليمات القيمة ـ كلما سمح لي الوقت بذلك ـ هذا كل ما في الأمر . كان الوضع ممتازاً من كافة النواحي أما كم سيدوم ذلك فهذا هو السؤال الذي كان يدور دائماً في ذهني وأفضل ما في هذا الوضع هو أنه كان يتيح لي المجال للاستمتاع برؤية مونا عندما تصل إلى البيت كل يوم بعد الظهر ومعها حقيبة التسوّق المملوءة كان شيئاً جيداً أن أراها تبدّل ملابسها ، ترتدي الصدرية (المريول) وتطهو طعام العشاء . إنها صورة الزوجة المزفوفة بسعادة .

وبينما كان الطعام قيد الطهو ، كان هناك شريط تسجيل نستمع إليه وهو

دائماً من التسجيلات المثيرة مما لم أكن أقدر على تحمل تكاليف شرائه بنفسي . وبعد العشاء نتناول مشروباً لذيذاً مع القهوة . ومن حين لآخر ، كنا نذهب لحضور فيلم سينمائي ، أو نقوم بمشوار عبر الأحياء الارستوقراطية المحيطة بنا . إنه صيفٌ هندي بكل معنى الكلمة .

وهكذا عندما أخبرتني ، ذات يوم ، في نوبة من نوبات المصارحة بوجود رجل مسن ثري ، غريب الأطوار كان قد تولّع بها وكان يظنها كاتبة . كنت أصغي إليها بصبر ودون أدنى مظهر من مظاهر الانزعاج أو التحسس . لقد انكشف السبب الكامن وراء هذه النوبة من المصارحة . فلو كان بمقدورها أن تبرهن لهذا المعجب ـ غريب كيف استطاعت أن تبدل هذا الاسم ـ أن بإمكانها أن تؤلف كتاباً ، أو رواية ، على سبيل المثال ، فإنه سينظر في إمكانية نشر كل ما تكتبه . والأهم من هذا ، فقد عرض أن يدفع لها مرتَّباً اسبوعياً محترماً لا بأس به في فترة انشغالها بالكتابة وبالطبع ، فقد كان يتوقع منها أن تعرض عليه كل اسبوع صفحات مما تكتبه . مجرد مشروع ـ ماذا ؟

ـ «وليس هذا كل شيء ، يا ڤال . سأحكي لك الباقي فيما بعد عندما تكون قد قطعت شوطاً في تأليف الكتاب . من الصعب عليَّ ألا أخبرك . صدقني . ولكن يجب أن تثق بي ـ ما قولك ؟ »

أصبت بالدهشة لدرجة أنني لم أعرف ما الذي أقوله :

ـ « هل يمكنك القيام بذلك ؟ هل ستقوم بذلك ؟ »

ـ « يمكنني المحاولة ، لكن... »

ـ «لكن ماذا ، يا ڤال ؟ »

ـ «ألن يكون قادراً على التمييز مباشرة بين كتابة رجل وكتابة امرأة ؟ »

ـ «لا ، يا ڤال ، لن يكون! » هكذا كان ردها المفاجئ .

ـ « كيف عرفت ذلك ؟ كيف أمكنك التأكد من ذلك ؟ »

ـ «لأني وضعته تحت الاختبار . لقد قرأ بعضاً من أعمالك ، حيث نقلت له أنها من أعمالي ولم يراوده الشك في شيء » .

ـ « هكذا... هم م م... أنت لا تفوتك حيلة ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « إذا كنت ،ترغب في مزيد من المعلومات ، فلتعلم بأنه كان مهتماً إلى أقصى حد . قال إنه ما من شك في أنني امتلك موهبة . كان بصدد أن يعرض بعض الصفحات على ناشر من أصدقائه . ألا يقنعك ذلك ؟ »

ـ « ولكن رواية ـ هل تعتقدين بصدق أنني قادر على كتابة رواية ؟ »

ـ « لم لا ؟ بإمكانك أن تفعل أي شيء . يكفي أن تركز ذهنك . ليس من المفروض بها أن تكون رواية تقليدية . كل ما يهمه هو أن يكتشف إن كنت امتلك روح المثابرة . وهو يقول أنني غريبة الأطوار ، متقلبة ، مستسلمة للنزوات » .

قلت لها : « بالمناسبة ، هل يعرف أين تسكن ـ أقصد أين تسكنين ؟ »

ـ « بالطبع ، لا! وهل تظنني مجنونة ؟ لقد أخبرته أنني أسكن مع والدتي المقعدة » .

ـ « وماذا يعمل ليكسب عيشه ؟ »

ـ « إنه يعمل في مهنة الفراء ـ كما أظن »

وبينما كانت تنطق بهذا الجواب . كنت أقول لنفسي كم هو ممتع أن أعرف كيف أمكنها الوصول إليه ، لا بل وحتى كيف نجحت في إحراز كل هذا التقدم في وقت قصير . لكن تساؤلاتي هذه ما كانت لتلقى سوى الإجابات المراوغة . أضافت قائلة :

ـ « إنه يمارس تجارة البورصة أيضاً . وربما كان يمتلك الكثير من المصالح الأخرى » .

ـ « هكذا ، إذن ، فهو يعتقد أنك امرأة وحيدة تعيش مع أم مقعدة ؟ »

ـ « لقد أخبرته أنني قد تزوجت وتطلقت . لقد أعطيته اسمي المسرحي » .

ـ « يبدو وكأنك قد اتقنت حبكها من كافة النواحي . حسناً . على الأقل لن يكون عليك أن تمضي الليالي في المراوغة ـ أليس كذلك ؟ »

فما كان منها إلا أن بادرت إلى القول :

ـ « إنه مثلك . فهو يكره الريف وكل ذلك الهراء البوهيمي . أقولها بجد ، يا ڤال ، إنه شخص على قدر من الثقافة . إنه متعلق بالموسيقا من أجل شيء واحد فقط . فقد كان يعزف على الكمان ، في وقت من الأوقات » .

ـ « بلى... وماذا يدعى هذا العجوز الغريب ؟ »

ـ « بوب »

ـ « بوب ؟ »

ـ « وكم عمره... تقريباً ؟ »

ـ « أوه ، أعتقد أنه قد قارب الخمسين »

ـ « معنى هذا أنه ليس عجوزاً... ؟ »

ـ « لا ، لكنه رصين في سلوكه ولهذا يبدو أكبر سناً »

قلت لها من قبيل إقفال الموضوع .

ـ « حسناً ، كل هذا ممتع للغاية . من يدري ، فربما قد يؤدي ذلك إلى شيء ما . دعينا ،نذهب في مشوار ـ ما قولك في ذلك ؟ »

قالت : « بالتأكيد أنا مستعدة لأي شيء تريده » .

/ أي شيء تريده/ هذه العبارة لم أسمعها من شفتيها حتى في كثير من أوقات الفراغ . هل كان للرحلة إلى أوروبا ذاك الأثر السحري ؟ أم كان هناك شيء ما يتم الإعداد له وليست مستعدة لإخباري به ؟

لم أكن متحمساً لإثارة الشكوك . لكن الماضي كان ماثلاً أمامي بكل ندوبه الدالة عليه . إن كل هذه الفرضية حول بوب تبدو الآن صريحة وصادقة . ومن الواضح أنها قد حشرت لمصلحتي وليس لمصلحتها هي . ماذا لو كانت تنتابها الفرحة لاعتبارها كاتبة بدلاً من اعتبارها ممثلة ؟ لقد كانت تفعل ذلك لمجرد أن تجعلني أبدأ الكتابة ، وكانت هذه هي طريقتها الخاصة في حل مشاكلي .

ثمة جانب من جوانب هذا الموضوع كان يغيظني بشكل كبير وأتيحت لي الفرصة للإطلاع عليه فيما بعد لدى استماعي اليها وهي تنقل لي أحاديث

معينة تبادلتها مع بوب ، أحاديث من تلك المتعلقة بـ « عملها » .

إن بوب لم يكن مغفَّلاً بالمرة على ما يبدو . فهو يكثر من الأسئلة ؛ الاسئلة الصعبة أحياناً ، أما هي ، ولكونها ليست كاتبة ، فمن الصعب أن يتوقع المرء منها أن تعرف أن الإجابة على سؤال مباشر من نوع « لماذا قلت هذا ؟ » هي بعبارة « لا أعرف » . ونظراً لأنها من المفروض أن تعرف ذلك ، فإنها ستدلي بأكثر التفسيرات إثارة للغرابة ، تلك التفسيرات التي يفخر بها أي كاتب لو أسعفته بديهته للإهتداء إليها سريعاً . كان بوب يستمتع بهذه الإجابات ، والأهم من ذلك كله أنه لم يكن كاتباً .

قلت لها : « هاتي المزيد! »

وتستمر في الكلام مع أن الكثير مما تقوله ربما كان من وحي خيالها . فأستند بظهري إلى الوراء ، وأزأر بضحكة مجلجلة . في إحدى المرات كنت مسروراً جداً ، فقلت لها :

ـ « كيف تعرفين أنك من غير الممكن أن تصبحي كاتبة أيضاً ؟ »

ـ « لا ، يا ڤال ، لست أنا . لن أصبح كاتبة ، فأنا لست أكثر من ممثلة »

ـ « تقصدين أنك دجالة ؟ »

ـ « أقصد أن ليست لدي أية موهبة حقيقية لأي شيء » .

قلت لها : « لم تكوني تفكرين بهذه الطريقة دائماً »

وقد آلمني أنها قد أجبرت على اعترافٍ كهذا .

ـ « بل كنت! لقد أصبحت ممثلة... أو بالأحرى ، لقد واظبت على التمثيل لمجرد أن أثبت لأهلي أنني أكثر مما كانوا يظنونني . وفي الواقع ، أنني لم أكن أحب المسرح . كنت ارتعب في كل مرة أقبل فيها دوراً . كنت أحس كأنني محتالة . عندما أقول أنني ممثلة ، فأنا أعني دائماً أنني اتظاهر . أنا لست ممثلة حقيقية . أنت تعرف ذلك ، ألا ترى ذلك دائماً من خلال مشاهدتك لي ؟ إنك ترى من خلال كل شيء كل ما هو زائف أو مدع . أتساءل أحياناً كيف تتحمل العيش معي . صدقاً إنني استغرب ذلك » .

كان كلاماً غريباً ذاك الذي كان يصدر عنها . حتى في هذه اللحظة ، على الرغم من كونها صادقة ونزيهة إلى درجة كبيرة فقد كانت تمثل . في هذه اللحظة كانت تدعي أنها مجرد مدعية وهي مثل الكثيرات من النساء ذوات الموهبة المسرحية . عندما تكون ذاتها الحقيقية موضع تساؤل فهي إما أن تقلل من شأنها أو تعظم ذاتها . ولقد كان من الممكن لها أن تكون طبيعية فقط عندما كانت ترغب في أن تترك انطباعاً ، أن تمارس تأثيراً على شخص ما . كانت هذه طريقتها في تجريد الخصم من سلاحه . كم كنت أضحي في سبيل أن استرق السمع إلى بعض الأحاديث مع بوبا وخاصة عندما كانا يتناقشان حول الكتابة ـ كتابتها . من يدري ؟ قد يكون ذاك العجوز الغريب ـ كما كانت تسميه على مضض ـ قد تمكن من سبرها ؟ ربما كان يتظاهر فقط بأنه يجربها (بمهمة الكتابة هذه) لكي يسهل عليها أن تتقبل النقود التي كان يعرضها عليها .

ومن المحتمل أنه كان يعتقد أنه بمجرد السماح بالتفكير بكونها تكسب هذه النقود إنما يوفر الإحراج على نفسه . ومن المعلومات التي جمعتها ، أنه من الصعب أن يكون من ذاك الطراز الذي يقترح عليها صراحة أن تصبح خليلته . وهي لم تقل ذلك بصراحة ، إنما ألمحت إلى أنه كان من الناحية الجسدية مثير للاشمئزاز . منفر (وكيف يمكن لامرأة أن تعبر بغير هذا [illegible]

[illegible]

لها ـ وهي [illegible] صديقاتها [illegible] (ومن لدي يمكن أن يكون أكثر إطراء لها ـ من غيرها من أن تعتبر ممتعة بشكل جدي ؟ » ، ربما ستتولى القيام [illegible] مسبقة دون أن يطلب منها ذلك انطلاقاً من مجرد العرفان بالجميل . للمرأة عندما تشعر فعلاً بالامتنان للاهتمام الذي تلقاه فإنها ، في كافة الأحوال تقريبا . تعمد إلى تسليم جسدها . لقد شاءت الأقدار ، بالطبع ، أن تبادل قيمة بقيمة . وقد حصل هذا منذ البداية تماماً .

هذا النوع من التأملات لم يعكر بأي شكل من الأشكال صفاء العلاقة التي أقمناها . عندما تسير الأمور بالشكل الصحيح يصبح من المدهش إلى أي مدى يشطح الذهن دون أن يسبب للروح أي أذى .

كنت استمتع بالمشاوير التي كنا نقوم بها بعد العشاء . فقد كانت هذه المشاوير شيئاً جديداً في حياتنا . كنا نتحدث بحرية وبعفوية أكثر . ومما كان يساعدنا في ذلك أيضاً . هو حقيقة أننا كنا نمتلك نقوداً في جيوبنا . فقد كان ذلك يتيح لنا المجال للتفكير والتحدث حول أمور أخرى غير محنتنا الاعتيادية البائسة . كانت الشوارع من حولنا عريضة ، انيقة ، فسيحة ، والشقق القديمة التي كانت تشيخ بوقار تحت غبار الزمن تلفها نفحة من الجلال . في واجهات بعضها كان يقف زنوج فولاذيون هم المعالم الباقية من الأيام الغابرة . كانت الممرات تظللها العرانش الوارفة الظلال و تسورها المروج المرتبة الأنيقة التي تتلألأ بخضرة كهربائية . وفوق كل هذا السكون الرائق الذي يلف الشوارع كان بمقدور المرء أن يسمع وقع الأقدام على بعد بناية .

لقد كان جواً من ذاك النوع الذي يدفع المرء إلى الكتابة . من النوافذ الخلفية لمسكننا كنت أطل على حديقة جميلة كانت تحتوي على شجرتين ضخمتين وارفتين . ومن خلال النافذة المفتوحة كانت تتطاير في الهواء أنغام الموسيقا العذبة . ومن حين لآخر كان يتناهى إلى مسامعي صوت قائد جوقة التراتيل ـ سيروتا أو روزنبلات ـ لأن صاحبة الدار اكتشفت أنني أعبد الموسيقا الكنيسية . في بعض الأحيان كانت تقرع الباب وتقدم لي قطعة من الفطير المنزلي أو قطعة من السترودل* من صنع يديها .

صارت تلقي على طاولتي نظرة متريثة حيث كانت الطاولة مغطاة دائماً بالكتب والأوراق ثم تنصرف مبتعدة يغمرها الامتنان ـ كما يبدو ـ لما حصلت عليه من امتياز إلقاء نظرة مختلسة على خلوة كاتب .

في أحد المشاوير المسائية التي كنا نقوم بها توقفنا عند المتجر الواقع

* السترودل : ضرب من المعجنات تشتمل على الفاكهة والجبن .

عند زاوية الشارع حيث كانت تباع (البوظة) والصودا وذلك لشراء بعض السجائر . كان المتجر عبارة عن مؤسسة قديمة تديرها عائلة يهودية . وقد أعجبت بالمحل فور دخولي إليه ، فقد كان يمتاز بتلك النفحة الناعسة الباهتة للدكاكين الصغيرة التي اعتدت التردد إليها في صباي عندما كنت أبحث عن قطعة كريما بالشوكولاتة أو كيس من الفول السوداني . كان صاحب المحل جالساً إلى طاولة في زاوية مظلمة من المتجر يلعب الشطرنج مع أحد أصدقائه . لقد ذكرتني الطريقة التي كانا ينحنيان بها فوق الرقعة باللوحات الشهيرة وخاصة لوحة لاعبي الورق من أعمال سيزان . بقي الرجل البدين ذو الشعر الأشيب والقلنسوة الكبيرة المائلة فوق عينيه يتمعن في رقعة الشطرنج ، بينما قام صاحب المحل بتلبية طلباتنا .

أخذنا سجائرنا ثم قررنا تناول بعض البوظة .

قلت له ، عندما أعطانا حاجاتنا :

ـ «لا تدعني ألهيك عن اللعب ، فأنا أعرف ما الذي يعنيه أن تقاطع لاعب الشطرنج» .

ـ «إذن ـ أنت تلعب الشطرنج ؟»

ـ «نعم ، ولكن بشكل ضعيف . لقد ضيعت كثيراً من السهرات عليه» .

ثم ، وبالرغم من أنني لم يكن في نيتي احتجاره ، فقد أبديت له بعض الملاحظات حول الجادة الثانية ونادي الشطرنج الذي كنت أتردد عليه كثيراً ، والمقهى الملكي ...الخ . عندئذ نهض الرجل ذو القلنسوة واقترب منا . وقد تأكدت من الطريقة التي حيّانا بها أنه كان يعتبرنا يهوداً ـ مما منحني شعوراً بالاطمئنان .

قال لي : «إذن ، أنت تلعب الشطرنج . هذا شيء رائع . لماذا لا تنضم إلينا ؟»

فأجبته بقولي :

ـ «ليس هذه الليلة . فنحن خارجان في شمة هواء»

ـ « هل تسكنان في هذا الجوار ؟ »

أجبته : « في آخر الشارع تماماً » . ثم أعطيته العنوان بالتفصيل .

قال لي : « إنه دار السيدة سكولسكي . أنا أعرفها جيداً . إذ أنني امتلك محلاً لبيع الملابس الرجالية بعد بناية أو بنايتين من هنا . في شارع ميرتل ـ لماذا لا تأتي لزيارتنا في وقت من الأوقات ؟ »

ثم بسط ذراعيه وقال :

ـ « إسمي إسن . زد إسن » . ثم صافح مونا يداً بيد .

قدمنا له اسمينا ، ثم عاود مصافحتنا . كان يبدو مسروراً بشكل غريب .

قال : « أنت لست يهودياً ، إذن ؟ »

قلت له : « لا ، ولكني في معظم الأحيان يظنني الناس يهودياً »

ـ « ولكن زوجتك ليست يهودية ـ أليس كذلك ؟ »

وكان ينظر إلى مونا بتركيز خاص .

قلت له : « لا ، إنها نصف غجرية ونصف رومانية ، من بوكوڤينا »

هتف قائلاً : رائع! آب ، أين تلك السجائر . قدم العلبة للسيد ميلر! »

ثم التفت إلى مونا وقال :

ـ « ما رأيك ببعض الفطائر الحلوة للآنسة »

قلت لهما : « ولعبة الشطرنج ؟ »

قال لي : « دعك منه . كنا نقتل الوقت فقط . شيء ممتع أن يتحدث المرء إلى شخص مثلك ، ومثل زوجتك الفاتنة ـ إنها ممثلة ـ أليس كذلك ؟ »

هززت رأسي دلالة الموافقة .

قال لي : « لقد تمكنت من التعرف عليها بمجرد نظرة واحدة » .

وهكذا كانت بداية الحوار . ولا بد أننا قد استطردنا في الكلام لساعة أو أكثر . إن ما كان يغيظه فيما بعد هو ولعي بالأشياء اليهودية . كان عليَّ أن أعده بزيارة إلى متجره في القريب العاجل . فهناك سنلعب الشطرنج إذا كنت أرغب في ذلك .

صار يشرح لي أن المحل قد أصبح مثل معرض الجثث . فهو لا يدري لماذا كان مستمراً فيه ؛ إذ لم يتبق له سوى حفنة من الزبائن .

ثم وبينما كنا نتصافح مرة أخرى ، قال إنه يأمل في أن نشرفه بمقابلة عائلته . قال إننا جيران ، باباً إلى باب تقريباً . فقلت له ، معلقاً ، بينما كنا نترجل إلى الشارع :

ـ « هاقد كسبنا صديقاً جديداً » .

قال مونا :

ـ « إنه يعبدك ـ كما رأيت » .

ـ « لا بل إنه كان مثل كلب يرغب في التمسيد والمداعبة ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « إنه رجل وحيد ، دون شك »

ـ « ألم يقل إنه كان يعزف على الكمان ؟ »

قالت مونا :

ـ « نعم ، ألا تذكر ذلك . فقد ذكر أن الفرقة الرباعية الوترية كانت تلتئم في بيته مرة كل اسبوع... أو شيئاً من هذا » .

ـ « صحيح ، يا إلهي . هؤلاء اليهود كم يحبون الكمان! »

ـ « إني اشك في أنه قد ظنك تملك في عروقك قطرة واحدة من الدم اليهودي ، يا ڤال ؟ »

ـ « ربما كان فيَ دم يهودي . بالتأكيد ما كنت لأخجل من ذلك لو كان حقيقة »

عندئذ خيم صمت حذر .

قلت أخيراً :

ـ « أنا لم أقصد ذلك بالطريقة التي فهمتيها » .

فأجابت :

ـ « أعرف ، لا بأس في ذلك » .

فقلت في نفسي ، وكأني أحدث نفسي :

- « إنهم جميعاً يلعبون الشطرنج أيضاً ، كما أنهم يحبون تقديم الهدايا - ألم تلاحظي ذلك ؟ »

- « ألا يمكننا التحدث في موضوع آخر ؟ »

- « طبعاً ، طبعاً ، يمكننا ذلك! أنا آسف ، إنهم يثيرونني - هذا كل ما في الأمر . عندما ألتقي بيهودي حقيقي أشعر أنني في بيتي ، لا أدري لماذا ؟ »

قالت : « ربما لأنهم دافئون وكرماء مثلك »

- « السبب في ذلك أنهم شعب قديم - هذا ما أعتقده »

- « لقد خُلقتَ لعالم آخر غير أمريكا ، يا ڤال ، فأنت تكتسب الشهرة لدى أي شعب سوى شعبك - أنت منبوذ هنا » .

- « وماذا عنك أنت ؟ فأنت لا تنتمين إلى هنا أيضاً »

قالت :

- « أعرف ، أعرف ، حسناً . لِتُنهِ كتابة الرواية وبعدها نصفي أمورنا . فأنا لا يهمني إلى أين تأخذني . ولكن لابد لك من زيارة باريس أولاً » .

- « عظيم ، ولكنني أرغب في زيارة أماكن أخرى أيضاً ، مثل روما ، بودابست ، مدريد ، ڤيينا ، القسطنطينية ، كما أرغب في زيارة بلدك ؛ بوكوڤينا ذات يوم أيضاً . وهناك أيضاً روسيا - موسكو ، بطرسبورغ ، فيجني نوفغورود... آه ، ما أروع أن تمشي في شارع نيفسكي بروسبكت على وقع أقدام دوستويفسكي - يا له من حلم! »

- « يمكننا القيام بذلك ، يا ڤال ، لا يوجد أي مانع ، إن شئنا ذلك إلى أي مكان في العالم » .

- « هل تعتقدين ذلك حقاً ؟ »

- « أعرف ذلك » ثم قالت بحماس فاضح :

- « إني اتساءل أين تكون ستاسيا الآن »

- « ألا تعرفين ؟ »

- « طبعاً ، لا أعرف . فأنا لم أتلقَّ منها أية كلمة منذ عودتي . إن لدي

شعوراً بأني قد لا أسمع عنها شيئاً بالمرة » .

قلت لها :

ـ « لا تقلقي ، سوف تسمعين عنها ما يسرك لا بد أنها سوف تعود يوماً » .

ـ « لقد كانت هناك إنسانة مختلفة تماماً »

ـ « ماذا تقصدين بذلك ؟ »

ـ « لا اعرف بالضبط ، كانت مختلفة ، هذا كل ما في الأمر . ربما كانت أكثر طبيعية . كانت تبدو منجذبة نحو نمط معين من الرجال ، مثل ذاك النمساوي الذي حكيت لك عنه . كانت تعتقد بأنه بالغ اللطف ، وبالغ الاحترام وبالغ الذكاء والفهم » .

ـ « هل تظنين أنه كان بينهما شيء ؟ »

ـ « من يدري ؟ لقد كانا مع بعضهما بشكل دائم ، كما لو كانا قد جُنّا بحب بعضهما » .

ـ « كما لو ـ تقولين ـ ما معنى ذلك ؟ »

ترددت في الإجابة ، ثم ردت بانفعال كما لوأنها ما تزال تشعر بالندم :

ـ « لا توجد امرأة من الممكن أن تقع في غرام مخلوق مثل ذاك! لقد كان يتملقها ، يأكل من يدها ، وكانت هي تعبد ذلك . ربما كان ذلك يجعلها تشعر بالأنوثة »

قلت لها :

ـ « إنها لا تبدو وكأنها ستاسيا . هل تعتقدين أنها قد تغيَّرت ؟ »

ـ « لا أدري ماذا أقول ، يا فال ، إني أشعر بالحزن ، هذا كل ما في الأمر ، لقد فقدت صديقة عظيمة » .

قلت لها :

ـ « هراء! فالمرء لا يفقد صديقاً بهذه السهولة » .

ـ « كانت تقول إني تملكية جداً ، أي أحب التملك » .

ـ « ربما كنتِ كذلك معها » .

ـ « لا أحد يفهمها أفضل مني . كل ما كنت أتمناه هو أن أراها سعيدة وحرة » .

ـ « هذا ما يقوله كل من يقع في الحب » .

ـ « لقد كان شيئاً اكثر من الحب يا قال ، اكثر من ذلك بكثير » .

ـ « كيف يمكن أن يوجد شيء أكثر من الحب ؟ فالحب هو كل شيء ، أليس كذلك ؟ »

ـ « ربما مع النساء ثمة شيء آخر لا يمتلك الرجال الحذاقة الكافية لإدراكه » .

ونظراً لخوفي من هبوط النقاش إلى مستوى المجادلة فقد غيرت الموضوع بمهارة قدر المستطاع . أخيراً تظاهرت بالجوع ، فأثارت دهشتي بقولها :

ـ « وأنا أيضاً »

عدنا أدراجنا إلى البيت ، وبعد أن تناولنا وجبة خفيفة لذيذة مكونة من ديك رومي بارد وسلطة كرنب باردة ، غسلنا معدتنا بالموسيل اللذيذ . عندها شعرت أن باستطاعتي المضي إلى الآلة الكاتبة والشروع في الكتابة . ربما كان الدافع المشجع على ذلك هو الكلام عن السفر والمدن الغريبة والحديث عن حياة جديدة . أو أنني قد نجحت في منع حوارنا من أن يتحول إلى شجار (حول ذلك الموضوع الشيِّق ـ ستاسيا) ، أو ربما كان ذلك اليهودي (زد إسن) وإثارة الذكريات العرقية ، أو ربما لم يكن شيئاً أكثر من حسن ترتيب مسكننا ، والشعور بالدفء والراحة في السكن . مهما يكن ، بينما كانت تمسح الطاولة ، قلت لها :

ـ « آه لو يستطيع المرء أن يكتب كما يتحدث... أن يكتب مثل غوركي أو غوغول وكنوت هامسون »

فرمقتني بنظرة كتلك التي توجهها الأم أحياناً إلى ولد تحضنه بين ذراعيها :

قالت لي :

ـ « ولماذا تكتب مثلهم ؟ اكتب مثلما أنت ، فهذا أفضل بكثير »

ـ « أتمنى لو كنت أفكر هكذا ، يا يسوع! هل تعرفين ما هي مشكلتي ؟ أنا حرباء ـ فكل مؤلف أقع في حبه أتمنى أن أقلده . آه لو كان بمقدوري أن أقلد ذاتي! »

قالت لي :

ـ « متى ستريني بعض الصفحات مما تكتب ؟ فأنا أرغب في معرفة إلى أي مدى وصلت » .

قلت لها : « حالاً »

ـ « وهل تدور حولنا نحن ؟ »

ـ « اعتقد ذلك ، وهل ثمة شيء آخر اكتب عنه ؟ »

ـ « بإمكانك أن تكتب عن أي شيء ، يا ڤال » .

ـ « هذا ما تظنينه . يبدو أنك لا تفهمين تقييداتي . أنت تعرفين أي صراع أخوض . أحياناً اشعر بالهزيمة تماماً ، وأحياناً أتساءل ما الذي أوحى إليَّ أن بمقدوري أن أكتب . ومع ذلك ، فمنذ دقائق قليلة كنت أكتب كالمجنون . ولكن ، في رأسي مرة أخرى . لكني ما إن أجلس إلى الآلة الكاتبة حتى أصبح كتلة من تراب . إنها تستولي عليَّ ، تهزمني » .

قلت لها : « هل تعلمين أن غوغول ذهب إلى فلسطين في أواخر حياته ؟ إنسان غريب ذاك الغوغول . تصوري أن روسياً مخبولاً كهذا يموت في روما! إني أتساءل أين سأموت » .

ـ « ماذا أصابك يا ڤال ؟ عم تتحدث ؟ لقد بقي أمامك ثمانون عاماً لكي تعيشها . اكتب! لا تتحدث عن الموت » .

كنت أشعر بأنني مدين لها بالحديث قليلاً عن الرواية .

قلت لها : « احزري ـ ماذا سميت نفسي في الكتاب! »

بالطبع لم تتمكن من أن تحزر ذلك . فقلت لها :

ـ «لقد أخذت اسم عمك الذي يسكن في ڤيينا . أظن ،أنك كنت قد حكيت لي أنه كان يخدم في صفوف الهوسار* ، إذ يمكنني أن أتصوره على أنه كولونيل من كولونيلات كتيبة الموت الرئيسية» .

ـ « إنه يهودي ، ومع ذلك فأنا أحبه... أحب كل شيء حكيت لي عنه ، وهذا هو السبب في أنني أخذت اسمه . »

ثم ساد الصمت برهة من الزمن .

ـ « إن ما أود عمله بهذه الرواية الدموية ـ حيث أن بوب ،هو الوحيد الذي لا يمكنه أن يحس بنفس الطريقة ـ هو أنني قد أتهم من خلالها بأنني قوزاقي ثمِل» .

روسيا ، روسيا إلى أين تتجهين ؟ تقدمي ، تقدمي كالزوبعة!

إن الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أحقق بها ذاتي هي تحطيم الأشياء . فأنا لن أؤلف كتاباً لإرضاء الناشرين . لقد تم تأليف الكثير من الكتب ، أكثر مما ينبغي ، إنها كتب مسرنمة ـ أظنك تفهمين قصدي من ذلك . ملايين وملايين الكتب . كلها في الرأس . لقد تعبت من صنع التحف . لقد سقمت من هذه الاتهامات الفروسية ـ في الظلام .

كل كلمة أصوغها الآن يجب أن تكون سهماً منطلقاً نحو الهدف مباشرة ، سهماً مسموماً ، أريد اغتيال الكتب والناشرين ... والقراء . فالكتابة لعموم الناس لا تعني شيئاً بالنسبة لي . إن ما أود كتابته هو للمجانين... أو للملائكة» .

توقفت عن الكلام ، فارتسمت على وجهي ابتسامة فضولية غريبة للفكرة التي دخلت رأسي .

ـ «أتساءل أية فكرة ستأخذها صاحبة الدار لوسمعتني اتكلم بهذه الطريقة . فهي طيبة معنا أكثر من اللزوم ، ألا تعتقدين ذلك ؟ إنها لا تعرفنا

---

* الهوسار : وحدات عسكرية أوروبية منظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري في القرن الخامس عشر (م)

على حقيقتنا ، وهي لن تصدق أي مسخ أكون أنا ، كما أنها ليست لديها أية فكرة عن سبب حماسي الشديد نحو سيروتا وتلك الموسيقا الكنسية الدموية» .

توقفت برهة ، ثم استأنفت بقولي :

- «ماذا بحق الجحيم كان على سيروتا أن يفعل بهذه الموسيقا ، بأي حال من الأحوال ؟ »

- «قال ، نعم ، إنك منفعل جداً ، دوِّن ذلك في الكتاب ، لا تضيع نفسك بالكلام! »

الفصل الثالث عشر

في بعض الأحيان كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة ساعات دون أن أكتب سطراً واحداً . إذ بينما أكون منشغلاً بفكرة ـ فكرة غير مترابطة في أغلب الأحيان ـ تأتي الأفكار الأخرى سريعة متلاحقة بشكل يفوق قدرتي على الإمساك بها وتدوينها على الورق . عندها أصبح متخلفاً عن الركب مثل محارب مصاب في المعركة مربوط إلى عربة الخيول التي كان يقودها قبلئذ . وإلى يميني على الجدار كانت هناك أنواع المفكرات المسمَرة فوقي . قائمة طويلة بالكلمات التي كانت تسحرني والتي كنت أنوي تثبيتها في فروة الرأس إن دعت الضرورة ، ونسخ طبق الأصل للوحات اوتشيللو ، دلافرانشيسكا ، بروغل ، غيوتو ، مملينغ ، وعناوين كتب كنت أنوي أخذ مقاطع منها . عبارات سرقتها من الكتّاب المفضلين ، ليس بهدف الاستشهاد بها ، بل بقصد تذكير نفسي بالكيفية التي تحرق بها الأشياء في بعض الأحيان . فعلى سبيل المثال : «الدودة التي كانت تقرض مثانتها» . أو «اللب الذي تآكل خلف جبهته» . في الكتاب المقدس كان ثمة قصاصات من الورق تشير إلى مكان وجود النفائس . فالكتاب المقدس كان منجماً للماس الحقيقي . في كل مرة كنت أطالع مقطعاً منه كنت أصير ثملاً . في القاموس كنت أضع علامات تدل على مكان وجود قوائم بنوع أو آخر من الأزهار ، الطيور ، الأشجار ،

الزواحف ، الجواهر ، السموم .الخ . عندما أتأمل كلمة مثل Praxis أو Pleroma ، على سبيل المثال ، فإن ذهني يحوم مثل دبّور سكران . وربما ينتهي بي المطاف إلى صراعٍ يائس لاستذكار ذاك المؤلف الموسيقي الروسي المتصوف الثيوصوفي* . الذي ترك أعظم أعماله دون إكمال ، والذي كتب عنه أحد النقاد يقول :

« إنه وقد تخيل نفسه أنه الله وأن كل شيء ، بما في ذلك هو ذاته ، من خلقه هو ، وهو الذي كان قد حلم بأن يدمر الكون بألحانه ، قد مات من وذمة » .

سكريابين ، ذاك هو ، لقد أخرجني عن طوري لعدة أيام . في كل مرة كان اسمه يرد إلى ذهني ، كنت أعود فجأة بذاكرتي إلى الوراء ، إلى الجادة الثانية ، في الزاوية الخلفية من أحد المقاهي ، كنت أجلس محاطاً بالروس (البيض منهم عادة) واليهود الروس نستمع إلى عبقري مجهول يعزف السوناتات والمقدمات الموسيقية والمقطوعات التعليمية التي ألفها سكريابين . ومن سكريابين إلى بروكوفييف ، إلى السهرة التي سمعته فيها لأول مرة ، ربما كان ذلك في قاعة كارنيجي ، هناك في الطابق الفوقاني من الصالة ، وكنت مثاراً إلى درجة أنني عندما وقفت لأصفق أو أهلل ـ فقد كنا جميعاً نهلل كالمجانين ـ كدت أن أهوي عن البلكون . كان شكلاً بشرياً نحيلاً طويل القامة ، يرتدي سترة سوداء تصل إلى ركبتيه ـ كان يشبه شيئاً من (أوبرا القروش الثلاثة) ، كان مثل Monsieur les pompes funbres ، من بروكوفييف إلى ليوك رالستون الراحل ـ الذي كان ناسكاً أيضاً ـ صاحب الوجه الشبيه بقناع الموت للمسيو آرويه . إن صديقاً طيباً ـ هو ليوك رالستون ـ هو الذي كان ، بعد زيارته لسوق الخياطين على طول الجادة الخامسة

* الثيو صوفية : هي معرفة الله عن طريق الكشف أو التأمل الفلسفي وقد ظهرت على شكل معتقدات لحركة حديثة نشأت في الولايات المتحدة عام ١٨٧٥ وبنيت في المقام الأول على التعاليم البوذية والبراهمية . (م)

وعرضها يحمل معه نماذج من الملابس الصوفية المستوردة ، يعود إلى البيت و يتمرن على الأغاني الألمانية ، بينما كانت أمه التي حطمته بحبها ، تطبخ له عظام الخنازير والملفوف المخلل ، وتخبره للمرة الألف .

كم كان بالنسبة لها ذلك الولد الطيب الغالي . ومن سوء الحظ أن صوته الناعم المهذب كان ضعيفاً لدرجة أنه لم يكن منسجماً مع الألحان المشحونة لفنانه المفضل هوغو ڤولف الذي كان دائماً يطعّم برامجه الموسيقية بألحانه .

في سن الثالثة والثلاثين يموت متأثراً بالتهاب الرئة ، كما يقولون ، ولكن ربما مات نتيجة لإنكسار القلب... وسط ذلك كله تأتي الذكريات حول أشكال بشرية منسية أخرى . فهناك المغنون الجوالون وعازفو انفلوت ، وعازفو الفيولونسيل ، وعازفات البيانو اللواتي كن يرتدين التنانير مثل تلك التي كانت تدرج معزوفة الكرنفال لشوبرت ضمن برامجها الموسيقية (كانت تذكرني كثيراً بشخصية مود : تلك الراهبة التي أصبحت ذواقة للفن . وكان هناك الآخرون أيضاً من ذوي الشعر القصير والطويل على حد سواء ، كلهم موشعون مثل سيجار هاڤانا* . كان بعضهم من ذوي الصدور التي تشبه صدور الثيران الذين كان بمقدورهم أن يحطموا الثريات بصرخاتهم الڤاغنرية (نسبة إلى ڤاغنر) . والبعض منهم كان مثل الجيسيكات الجميلات ، شعورهم مفروقة إلى الأسفل : مادونّات لطيفات (يهوديات في معظمهن) ممن لم يلجأن حتى اللحظة إلى سلب الثلاجات في كل ساعات الليل . ثم هناك عازفات الكمان ذوات التنورات والعسراويات أحياناً ، وغالباً من ذوات الشعر الأحمر أو البرتقالي المتسخ والنهود التي تقع في مسار قوس الكمان .

كما قلت ، فإن الأمر لا يعدو كونه مجرد نظرة إلى كلمة أو لوحة أو كتاب ، وفي بعض الأحيان لمجرد النظر إلى العنوان وحده ، كأن يكون عنواناً من قبيل (قلب الظلام) ، أو (تحت نجمة الخريف) . مرة أخرى ، كيف بدأت تلك القصة العجيبة ؟ لألق نظرة ، لأرى ، لأقرأ صفحات قليلة ثم أرمي الكتاب

---

* السيجار الموشع : سيجار غليظ الوسط مستدق الطرفين يشبه الوشيعة (م) .

جانباً . شيء فريد من نوعه ـ ولكن كيف بدأت ؟ اقرأه مرة أخرى ، افتتاحية بول مورفي التخيلية . ضعيفة ، ضعيفة ، ضعيفة ، بشكل بائس . في بعض الأحيان أرتمي على الطاولة ، انزل إلى أرض الغرفة بحثاً عنه ، وبينما أكون جاثياً على يدي وركبتي أجد شقاً في أرض الغرفة يغيظني . إنه يذكر بشيء ـ ما هو ؟ أبقى على هذه الحالة كما لو كنت انتظر من يضاجعني من الخلف كالنعجة . تدور الأفكار في دماغي ، ثم تخرج من الفتحة الموجودة في أعلى جمجمتي . أحاول الوصول إلى سنادة رقيقة وأدوّن بضع كلمات على عجل . مزيداً من الأفكار ، الأفكار الموبوءة (إن ما سقط عن الطاولة لم يكن سوى علبة كبريت) . كيف سأحشر هذه الأفكار في الرواية ؟ دائماً نفس المأزق ـ ومن ثم يخطر ببالي (الرجال الإثنا عشر) . ليتني أتمكن في مكان ما من عمل مقطع صغير واحد يكون له ذاك الدفء والحنان والشفقة (التي يتصف بها ذاك الفصل الذي يدور حول بول درسلر) . ولكني لست درايزر وليس لي أخ اسمه بول .

إنه شيء بعيد المنال ـ على ضفاف واباش ـ لا بل أبعد من ذلك بكثير ـ أبعد من موسكو أو كرونشتات ـ أو بلاد القرم الدافئة الرومانسية إلى حد مطلق ... لماذا ؟ روسيا ، إلى أين تسيرين ؟ إلى الأمام! ech konne! . يخطر ببالي اسم غوركي . مساعد الخباز بوجهه المبيض من الطحين والفلاح البدين الكبير ـ في قميص النوم ـ في الوحل مع خنازيره المحبوبة (جامعة الحياة) . غوركي : الأم . الأب ، الرفيق . غوركي المتشرد ، المحبوب ، الذي يكتب سواءً كان يتسكع ، يبكي ، يتبوّل ، يصلي ، أم يشتم . غوركي ذاك الذي كتب بالدم . كان صادقاً مثل قرص الشمس . كل هذا بفعل النظر إلى عنوان كتاب ـ كما قلت .

وهكذا ينقضي النهار مثل كونشرتو بيانو للعازفين العسروايين . كم كنت محظوظاً ـ لو كانت هناك صفحة أو صفحتان أظهرهما مقابل كل هذا العذاب والإثارة ـ الكتابة! كانت مثل اجتثاث شجرة بلوط سام من جذورها أو مثل البحث عن رجال من ذهب .

عندما كانت تراودني الرغبة في دفن رأسي بين يدي ثم الشروع في نوع من النشيج فتقول لي : «لا تضغط نفسك ، لا تقسرها ، يا ڤال» .

ولكنني قسرت نفسي ، لقد قسرتها وقسرتها وضغطتها حتى لم يتبق في قطرة كاكا واحدة . وفي أغلب الأحيان يحدث أن يبدأ تدفق الأفكار تماماً في اللحظة التي تقول لي : «العشاء جاهز!»

إلى جهنم! ليكن بعد تناول العشاء . أو ربما بعد أن تذهب إلى النوم . مانيانا .

على المائدة اتحدث عن العمل كما لو أنني الكساندر دوماس آخر أو بلزاك آخر . دائماً أنوي فعل ما لا يجب فعله أبداً . إن لدي موهبة تجاه اللا محسوس الناقص ، تجاه الذين لم يولدوا بعد .

ـ «ويومك ؟» هكذا كنت أقول أحياناً .

ـ «كيف كان يومك ؟»

(كان ذلك بهدف الخلاص من الشياطين التي تمرضني أكثر مما كان بهدف سماع التفاهات التي كنت احفظها تماماً عن ظهر قلب) .

بينما كنت أصغي بإذنٍ واحدة ، كان بمقدوري أن أتصور (بوب) كلباً وفياً ينتظر أن ترمي له عظمة . هل سيجد عليها دهناً كافياً ؟ هل ستتفتت في فمه ؟ وسأذكر نفسي بأن ما كان ينتظره فعلاً ليس صفحات الكتاب ـ بل لقمة سائغة أكثر من ذلك ـ إنها هي ، مونا . لا بد أنه سيكون صبوراً ، وسيكون قنوعاً راضياً ـ لفترة على الأقل ، بالنقاشات الأدبية . طالما أنها كانت تحرص أن تظل أنيقة المظهر ، وطالما كانت مواظبة على ارتداء الثياب المثيرة التي كان يلح عليها أن تختارها بنفسها . وطالما كانت تقبل بكل امتنان كل الخدمات الصغيرة التي كان يغدقها عليها . أو بمعنى آخر ، طالما كانت تعامله معاملة الكائن البشري . طالما أنها لم تكن تخجل من الظهور برفقته (هل كان حقاً يعتقد ـ كما كانت تؤكد ـ أنه كان يبدو مثل الضفدع ؟)

كان يكفيني أن أغمض عيني نصف إغماضة حتى أتخيله منتظراً عند زاوية

الشارع أو في ردهة فندق شبه ارستوقراطي أو في مقهى أجنبي (في تجسيد آخر) من قبيل مقهى « Zum Hiddigeigei » .

كنت أتصوره دائماً مرتدياً مثل جنتلمان بجزمة أو عكازة أو بدونهما . كان نوعاً من المليونير الغامض ـ تاجر فراء أم سمسار بورصة ، ليس من ذاك النمط النهاب ، ولكن كما يوحي كرشه ، فقد كان من ذاك النوع الذي يفضل الأشياء الجميلة في الحياة على الدولار الكلي القدرة . الرجل الذي كان ذات يوم عازفاً للكمان . رجل يتحلى بالذوق على نحو لا يقبل الجدل . باختصار إنه ليس dummox . ربما كان متوسط الحال لكنه ليس عادياً .

ربما كان واضحاً من خلال غموضه ، ومن المحتمل أنه كان مليئاً ببذور البطيخ والبذورات الصغيرة الأخرى . ومن المحتمل أيضاً أنه كان مبتلى بزوجة معتلة ما كان يخطر بباله أن يؤذيها . (انظري حبيبتي ، ماذا جلبت لكلا بعض السمك من نوع رنكة ماتييس ، بعضاً من مشتقات الألبان وأبريقاً من قرن الوعل المخلل من أرض الوعول .

وعندما يقرأ هذا المليونير التافه صفحات الافتتاحية ـ المقدمة ـ سيهتف قائلاً : « آها ، إني أشم رائحة جرذ »

وبينما هو يخلد دماغه السلكي إلى النوم ، يتمتم لنفسه بكل بساطة قائلاً :

ـ « إنها قطعة جميلة من كرشة حيوان . إنها قصة حب آتية من عصور الظلام ، من القرون الوسطى » .

أما صاحبة دارنا ، السيدة سكولسكي الطيبة ـ ماذا سيكون رد فعلها إن هي اختلست نظرة على هذه الصفحات ؟ هل سترطب سروالها الداخلي من الإثارة ؟ أم هل ستعمد إلى سماع الموسيقا حيث لا يوجد سُوى تشويش المسجل الزلزالي ؟ (كنت قادراً على تصورها وهي تهرع إلى الكنيس بحثاً عن قرون كبش) .

في يوم من الأيام سيكون لزاماً علينا أن نقلع عن مهنة الكتابة هذه .

فإما المزيد من السترودل أو مزيد من (سيروتا) أو (غاروت) . آه لو كنت أعرف قليلاً من البيدية .

دعني راب! تلك كانت كلمات الوداع التي ودع بها (زيد إسن) . يا لهذا العذاب الشديد ، يا لهذه المهزلة ـ الكتابة! أحلام يقظة المجانين ممزوجة بنوبات الاختناق وما يطلق عليه السويديون إسم (ماردرومن) . تماثيل مقرفصة مطوقة بعمامات ماسية ، عمارة باروكية ، لوغاريتمات قبلانية* ، ميزوزات ، دواليب تعذيب المصلين ، عبارات عجيبة (قال الأوك « لاتدع أحداً ، فتش هذا الرجل تحديداً! ») . سماوات من النحاس الأخضر المزرق مزركشة بخطوط شريطية تزيينية ذات شمسية بغرافاتات داعرة .

بلعام الحمار يلحس مؤخرته ، أبناء عرس ينبتون هراءً . خنزيرة تحيض . كل ذلك لأنني ـ كما عبرت عنه ذات مرة ـ كنت امتلك فرصة العمر . في بعض الأحيان كنت أبحر فيه بجناحين سوداوين ضخمين ، ثم يخرج كل شيء شذر مذر ، مختلطاً حابله بنابله ، صفحات وصفحات ، مواعين من الصفحات ، لكن لم تكن أية صفحة منها تنتمي إلى الرواية ولا حتى إلى (كتاب الظلام الأبدي) . وهكذا بينما كنت استعرضها ، تكون لدي انطباع بأنني اتفحص اثراً قديماً : غرفة في مسكن قروسطي ، امرأة عجوز تجلس على قدر ، طبيباً يقف ازاءها يحمل ملقطه الحامي حتى الإحمرار ، وفي الزاوية قرب الصليب ثمة فأر يزحف باتجاه قطعة من الجبن . أو لنقل أنه مشهد من الطابق الأرضي . فصل من تاريخ البؤس المستديم ، الفسوق ، الأرق ، والنهم التي تستوقف الفنان باعتبارها من النِعم الثلاثة . وكلها كانت مرسومة بالزئبق والبنزن وبرمنغنات البوتاسيوم . يوم آخر وصار من الممكن ليدي أن تطوفا فوق المفاتيح بنفس السلاسة اتي يتمتع بها مخلب بورجيا الفتاك . وباختياري لتقنية التقطيع كنت بصدد أن أقلد المراوغين

* القبلانية : Cabalism فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً (م) .

أو المواربين من الـ Ghibellines أو كنت سأتظاهر بأنني Sal-timbangue يقوم بدور عاهل أبله .

في اليوم التالي : أحد رباعيات الأقدام ، كل شيء بضربات الحافر ، كتل البلغم ، بالنخرات والضرطات . حصان (ech!) يعدو فوق بحيرة متجمدة وفي احشائه طوربيدات . كلها ألحان موسيقية تحتاج إلى براعة في الأداء ، كما يقال ، ومن ثم ، وعندما يهدأ الإعصار ، ستنساب مثل أغنية بهدوء ، بانتظام ، مع اللمعان الثابت للمغنزيوم ، كما لو كانت ترتل البهاغافاد جيتا . كاهن في ثوب زعفراني اللون يمجد أعمال السميع العليم ـ الكلي المعرفة .

لم أعد كاتباً ، صرت قديساً ، قديساً من إحدى بعثات سانهدرين التبشيرية .

بارك الله بالمؤلف!

ما أمتع أن أكتب مثل الأورغان في وسط البحيرة! فلتلسعيني ايتها القملات القميئات ـ السعيني حينما أمتلك القوة!

لم أقدر على تسمية (ريب) مباشرة . كنت دائماً أخاطبه باسم السيد إسن وكان دائماً يخاطبني باسم السيد ميلر . ولكن لو أن أحداً كان ينصت إلينا ونحن نتحدث ، لظنّ أننا كنا نعرف بعضنا طوال العمر . كنت أحاول أن أشرح ذلك لمونا في إحدى السهرات ـ بينما كنا مضطجعين على الأريكة . كان مساءً دافئاً ، وكنا نمضيه بظرافة وسلاسة . فإلى جانبي كان يوجد شراب بارد ، ومونا تنتقل حولي في قميصها الصيني القصير ، كان لدي مزاج للتكلم بإسهاب (فلقد كتبت قليلاً من الصفحات الرائعة في ذاك اليوم) . كان المونولوج قد بدأ ، ليس عن زيد إسن ودكانه المتعفّن الذي قمت بزيارته في اليوم السابق ، وإنما عن مزاج تخريبي معين دن يسيطر في كل مرة كان القطار الصاعد يتأرجح حول منعطف ما ، ولا بد أن الحاجة إلى الحديث عنه قد تغلبت عليّ الآن لأن ذاك المزاج الأسود كان يتعارض بقوة بالغة مع المزاج الراهن الذي كان رائقاً بشكل استثنائي . ومع التفافي حول المنعطف تمكنت

من النظر جيداً إلى داخل نافذة الغرفة حيث كنت لأول مرة أمر بها عند النافذة عندما كنت أغازلها .

في كل اسبوع اعتاد أحد الشبان ـ وكان يهودياً مثل زيد إسن ـ أن يعرّج عليهم ليقبض دولاراً أو خمساً وثلاثين سنتاً من ثمن الأثاث الذي اشترته منه بالتقسط . وإذا حصل أن كانت لا تملك قيمة القسط كان يقول لها :

ـ « حسناً ، ليكن في الاسبوع القادم » .

لقد كان الفراغ والبؤس وعقم تلك الحياة أكثر وضاعة بالنسبة لي من حياة البلاليع (لقد قمت هنا بأولى محاولاتي الكتابية . أتذكر جيداً أنها كانت محاولة بعقب قلم الرصاص . لم أكتب أكثر من دزينة من الأسطر ، ومع ذلك فقد كانت كافية لإقناعي بأني كنت خالياً من الموهبة تماماً) . في كل يوم كنت استقل القطار الصاعد من وإلى العمل ، أمر بالبيوت الخشبية نفسها . وينتابني المزاج الأسود الماحق نفسه . كنت أتمنى أن أقتل نفسي ، لكني كنت أفتقد الشجاعة . كما أنني لم أكن قادراً على التخلي عنها وهي في أمس الحاجة إليّ . لقد حاولت ذلك ـ ولكن عبثاً . كلما كافحت لتحرير نفسي ، ازددت ارتباطاً . وحتى بعد انقضاء سنوات عديدة ، عندما تحررت منها ، كان يستبد بي شعور غامض عندما أجتاز ذاك المنعطف .

سألت قائلاً : « كيف يمكنك أن تفسّر ذلك ؟ »

كان الأمر يبدو كما لو كنت قد تركت جزءاً مني في جدران ذاك البيت ـ جزءاً لم يتحرر أبداً . كانت جالسة على الأرض مستندة إلى ساق الطاولة . وكانت تبدو باردة مسترخية وفي مزاج يؤهلها للإصغاء . من حين لآخر كانت تلقي عليّ سؤالاً ـ عند النافذة ـ من الاسئلة التي تتجنبها النساء عادة . لم يكن عليّ سوى أن أنحني قليلاً لكي أضع يدي على بظرها . كان مساءً من تلك المساءات الرائعة حيث كل الأشياء تتضافر لتحقيق الانسجام والتفاهم ، عندما كان بوسع المرء أن يتحدث بسهولة وبشكل طبيعي إلى زوجته حول الأمور الحميمة الخصوصية جداً . لم يكن هناك استعجال في الوصول إلى أية

غاية ولا حتى للحصول على مضاجعة طيبة ، مع أن الفكرة كانت قائمة باستمرار وتحوم فوق النقاش . في تلك اللحظة كانت تعود بي الذاكرة ـ إلى رحلة من رحلات قطار جادة ليكسنغتون الصاعد ، كما لو كان شيئاً من تجسيد المستقبل ؛ إذ أنه لم يكن مجرد شيء بعيد المنال فقط ، بل كان شيئاً لا يمكن تصوره . أما الشيء الذي كنت متأكداً منه فهو أن ذاك النوع الخاص من الكآبة واليأس لم يعاود مهاجمتي أبداً .

في بعض الأحيان أفكر في أن السبب في ذلك هو أنني كنت بريئاً للغاية . لقد كان مستحيلاً بالنسبة لي أن أصدق أنه كان من الممكن إيقاعي في الشرك بتلك الطريقة . اعتقد أنني كنت سأصبح في حال أفضل . ولكنت قد عانيت أقل مما عانيت ، لو أنني قد تزوجتها كما كنت أتمنى حينئذ ـ من يدري ؟ ربما كنا سنصبح سعداء لسنوات قليلة فقط » .

ـ « قال ، أنت تقول دائماً بأن الشفقة هي التي كانت تمنعك ، أما أنا فأقول أنه كان الحب . اعتقد أنك تحبها فعلاً ، والأهم من ذلك كله هو أنكما لم تكونا تتنازعان » .

ـ « لم أقدر... ليس معها . هذا هو بالضبط ما جعلني في وضع غير مؤاتٍ . ما زال بإمكاني أن أتذكر كيف كان شعوري عندما كنت أتوقف ـ كما كنت أفعل يومياً لأحدق في صورتها المعروضة في واجهة أحد المحلات . كان في عينيها نظرة أسى جعلتني أجفل منها . ويوماً بعد يوم كنت أعود لأنظر في عينيها ، لأتمعن في تلك التعابير الحزينة لأتساءل عن مسببها . ومن ثم ، بعد أن كنا قد تعرفنا لبعض الوقت ، كنت أرى تلك النظرة تعود إلى عينيها بشكل اعتيادي بعد أن أكون قد آذيتها بطريقة طائشة حمقاء . وكانت تلك النظرة أكثر إدانة وأكثر تدميراً من كل الكلمات... أي كلمات . بقينا لحظة دون أن ينبس أحدٌ منا بكلمة . كان النسيم الدافئ العبق يهفهف الستارة . وفي الطابق الأرضي كان صوت الفونوغراف يصدح بأغنية يهودية . عندما سمعتها مددت يدي ومررت أصابعي فوق بظرها ثم استأنفت الكلام قائلاً :

ـ « أنا لم أقصد الخوض في هذا كله ؛ إذ أنني كنت أنوي الحديث عن زيد إسن . لقد قمت البارحة بزيارته إلى دكانه . إنه من أكثر المحلات التي وقعت عيناك عليها بؤساً وكآبة . لكنه محل ضخم .

إن زيد يجلس هناك طوال النهار يطالع كتاباً أو يلعب الشطرنج إذا صادف أن مر به أحد أصدقائه . حاول أن يحملني بالهدايا ـ القمصان ، الجوارب ، ربطات العنق وكل ما أرغب فيه . كان من الصعب أن أرفض هديته . إنه مخلوق وحيد كما قلت ، وسيكون من الصعوبة بمكان أن أتخلص من براثنه . أوه . لكني كدت أنسى ما بدأت أحدثك به . ماذا تخمنين أنني وجدته يطالع ؟ »

ـ « دوستويفسكي ؟ »

ـ « لا ، احزري مرة أخرى »

ـ « كنوت هامسون »

ـ « لا ، الليدي موراساكي ـ (حكاية الجنية) . أنا لا استطيع إكمالها . يبدو أنه يقرأ كل شيء . فالروس يقرأهم بالروسية والألمان بالألمانية ، كما يستطيع القراءة بالبولندية أيضاً ، وباليبدية طبعاً »

ـ « بوب يقرأ مارسيل بروست »

ـ « لا ، حسناً ، مهما يكن ، هل تعلمين ما الذي يتلهف للقيام به ؟ أن يعلمني قيادة السيارة . عنده سيارة بويك كبيرة ذات ثمان اسطوانات يرغب في إعارتها لنا عندما أتعلم السياقة . يقول إن بمقدوره أن يعلمني السياقة في ثلاثة دروس » .

ـ « ولكن لماذا ترغب في السياقة ؟ »

ـ « أنا لا أرغب فيها ، لكنه يعتقد أنه سيكون شيئاً ظريفاً لو أخذتك في نزهة بين الفينة والفينة » .

ـ « لا تفعل ذلك ، يا ڤال! أنت لم تُخلق لكي تقود سيارة »

ـ « هذا بالضبط ما قلته له . لو عرض عليَ دراجة لكان الأمر مختلفاً » لم تقل شيئاً .

قلت لها : « يبدو أنك غير متحمسة للموضوع » .

ـ « أنا أعرفك ياڤال ، إن صار عندك دراجة فلن تعمل شيئاً » .

ـ « ربما كنت على صواب . على كلٍ ، لقد كانت فكرة سارة . إضافة إلى أنني قد أصبحت في سن لا يناسبني لركوب الدراجة » .

طفقت تضحك . قالت :

ـ « كبرت في السن ؟ أنت ـ كبرت في السن ؟ أنا واثقة من أنني سأراك تشعل الجمر في الثمانين . أنت برنارد شو آخر . أنت لن تكبر في السن بما يمنعك من فعل أي شيء » .

ـ « بل سأكبر ، إذا كان عليَّ أن أكتب مزيداً من الروايات . الكتابة تستهلك المرء ـ هل تفهمين ذلك ؟ قولي هذا لبوب ذات يوم . إني اتساءل إن كان يعتقد أنك تشتغلين في الرواية ثمان ساعات يومياً ؟ »

ـ « إنه لا يفكر بأمور كهذه يا ڤال » .

ـ « ربما كان لا يفكر ، لكن لا بد أن تكون المرأة الجميلة كاتبة أيضاً » .

ضحكت : « إن بوب ليس مغفلاً . فهو يعرف أنني لم أولد كاتبة . كل ما يريد مني البرهنة عليه هو إن كنت قادرة على إنهاء ما بدأته . هو يريدني أن أضبط نفسي ، أن أتدرب على ضبط النفس » .

قلت لها : « غريب » .

ـ « ليس إلى هذه الدرجة ... هو يعرف أنني أحرق نفسي وأنني أمضي في كافة الاتجاهات بآن واحد » .

ـ « لكنه يكاد لا يعرفك ، لا بد أنه ذو حدسٍ لعين » .

ـ « إنه واقع في حبي ـ ألا يفسر هكذا ؟ وبالطبع إنه لا يجرؤ على قول ذلك . فهو يعتقد أنه لا يروق للنساء » .

ـ « هل هو قبيح إلي هذا الحد ؟ »

فابتسمت وقالت : « أنت لا تصدقني فيما أقول ـ أليس كذلك ؟ حسناً . لا أظن أحداً يمكن أن يصفه بالوسامة . إنه يبدو كما هو تماماً ـ رجل أعمال .

وهو يخجل من ذلك . إنه إنسان تعيس . وحزنه لا ينضاف إلى جاذبيته »

ـ « إنك توشكين أن تجعليني أشعر بالأسى عليه ـ هذا المسكين » .

ـ « أرجوك ألا تتكلم عنه بهذه الطريقة ، يا ڤال ، فهو لا يستحق ذلك »

ساد الصمت لحظة .

ـ « هل تتذكرين عندما كنا نسكن مع عائلة ذاك الطبيب في البرونكس ـ كيف كنت تلحيّن عليَ لآخذ غفوة بعد العشاء لكي أتمكن من ملاقاتك خارج الكباريه في الساعة الثانية صباحاً ؟ كنت تظنين أنني سأكون قادراً على فعل ذلك من أجلك وأن أستيقظ نضراً كالاقحوانة ومستعداً لمباشرة العمل في الساعة الثامنة صباحاً ـ هل تذكرين ؟ ولقد فعلت ذلك بالتأكيد عدة مرات بالرغم من أن ذلك كاد أن يقتلني . كنت تؤمنين بأن الرجل يجب أن يكون قادراً على فعل أي شيء من هذا القبيل إذا كان يحب المرأة فعلاً ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « عندها كنت صغيرة ، ناهيك عن أنني لم أكن اريدك مطلقاً أن تبقى في ذاك العمل . ربما كنت آمل أن أجعلك تترك العمل عن طريق إرهاقك » .

ـ « لقد نجحتِ في ذلك تماماً . وليس بوسعي أن أقدم لك الشكر الكافي على ذلك . لو ترك لي الأمر فمن المحتمل أنني كنت لا أزال هناك ضائعاً بين التسريح والتشغيل » .

عندها ساد الصمت...

ـ « ثم عندما صار كل شيء يسير على ما يرام بدأت الأمور تأخذ منحى آخر . لقد قَسَوْتِ علي مرة ـ هل تعلمين ذلك ؟ أو ربما أنني أنا الذي قَسَوْتُ عليك مرة » .

ـ « دعنا من كل هذا ، يا ڤال ، أرجوك » .

ـ « حسناً ، لا أدري أصلاً لماذا تطرقت إليه . انسي ذلك! »

ـ « أنت تعرف ياڤال ، أنه لن يكون إبحاراً سلساً بالنسبة لك . فلو لم أكن أنا التي جعلتك بائساً لكان هناك واحدة أخرى غيري تقوم بذلك . أنت تبحث عن المتاعب ـ لا تغضب الآن . ربما كنت بحاجة إلى المعاناة . فالمعاناة

لن تميتك ـ هذا ما أقوله لك . وفي كل الأحوال فإنك سوف تجتاز محنتك بالرغم من كل ما يحدث . أنت مثل الفلينة التي كلما دفعت نحو القاع عادت لتطفو على السطح من جديد . في بعض الأحيان يخيفني أن أرى إلي أي عمق بإمكانك أن تغوص . فأنا لست هكذا . إن قابليتي للطفو هي قابلية جسدية ، أما قابليتك فهي روحية . لكن ذلك ليس دقيقاً تماماً ـ إنها قابلية حيوانية بهيمية . أنت تمتلك بنية روحية قوية ، لكن فيك من الحيوان أكثر مما لدى معظم البشر . أنت ترغب في أن تحيا بأي ثمن ـ أن تحيا كإنسان أو بهيمة أو حشرة أو جرثومة... »

قلت لها : « ربما أصبت في ذلك... بالمناسبة ، لم أحكِ لك ـ هل حكيت ؟ حول الحادثة الغريبة التي حصلت معي ذات ليلة حينما كنت مسافرة ؟ حكاية مع جنية . لقد كان شيئاً مضحكاً في غرابته فعلاً ـ لكنه في حينه لم يكن مضحكاً بالنسبة لي » .

كانت تنظر إلي بعينين مفتوحتين على اتساعهما تعبيراً عن الإجفال ـ « نعم ، لقد حدث ذلك بعد سفرك بفترة . كانت عندي رغبة يائسة في اللحاق بك إلى درجة أنني لم اكترث بما يجب عليّ فعله لتحقيق ذلك . حاولت الحصول على عمل على متن باخرة ولكن دون جدوى . ثم ، وفي إحدى الليالي ، و في المطعم الايطالي الواقع في طرف المدينة ـ أنت تعرفين ذاك الرجل ـ هرعت إلى رجل كنت قد قابلته سابقاً ـ أظنه مهندس ديكور . لا بأس ؛ فقد كان من النوع المحترم تماماً .

بينما كنا نتحادث... وكنا وقتها نتناقش حول رواية « ما تزال الشمس تشرق » خطر ببالي أن أطلب منه نقوداً من أجل تذكرة السفر . وبينما كنت أحدثه عنك وعن رغبتي اليائسة في اللحاق بك ، صارت الدموع تنهمر من عيني . عندها لاحظت أنه قد بدأ يلين . أخيراً أخرجت محفظة الجيب لأريه صورتك ـ تلك الصورة التي أجن بها . تأثر بالموقف فقال لي :

ـ « إنها جميلة! إنها رائعة فعلاً . ما هذا الهيام ، ما هذا الفجور! »

قلت له : «أنت تفهم ما أقصده»

قال لي : «نعم ، لقد فهمت لماذا يتحرّق أي واحد لأجل امرأة كهذه»

وضع الصورة على الطاولة ـ كما لو كان سيتمعن فيها . وطلب لنا المشروبات ولسبب من الأسباب حوّل موضوع النقاش فجأة إلى كتاب همنغواي .

قال لي إنه يعرف باريس وأنه قد سافر إليها عدة مرات... الخ .

سكتُ لحظة لأرى كيف كان رد فعلها . كانت تنظر إليَ بابتسامة فضولية .

قالت : «تابع ، أنا كلي آذان صاغية»

ـ «حسناً ، في النهاية ، أحطته علماً بأنني مستعد لفعل أي شيء بغية جمع الأموال اللازمة للسفر»

قال لي : «أي شيء ؟»

قلت له : «نعم أي شيء ،عدا القتل»

عندها تأكدت من نوعية الإنسان الذي كنت واقفاً إزاءه . على كلٍ ، فبدلاً من تهدئتي وتعزيز آمالي . فقد عمد إلى تغيير مجرى الحديث إلى مواضيع أخرى كصراع الثيران وعلم الحفريات (الاركيولوجيا) ، وشتى الموضوعات اللامترابطة . بدأت أشعر باليأس . فقد كان يفلت من يدي . كنت أصغي إليه طالما أنني كنت قادراً على ذلك . ثم هتفت للنادل وطلبت الفاتورة . قال لي : «ألن تتناول مشروباً آخر ؟»

فقلت له أنني متعب وأريد الذهاب إلى البيت . وفجأة تبدلت سحنته . قال لي : «فيما يتعلق بالسفر إلى باريس ، لماذا لا تتوقف في محلي لدقائق قليلة لكي نتكلم في الموضوع ؟ ربما أتمكن من تقديم العون لك»

كنت أعرف ما يدور في ذهنه طبعاً . صار قلبي يعلو ويهبط . تجاهلت الموضوع لكنني قلت في نفسي بعدئذ :

ـ «ماذا بحق الجحيم . فهو لا يقدر على فعل شيء ما لم أطلب منه ذلك ، سوف استنطقه بخصوص ذلك... أقصد بخصوص النقود» .

ـ « وبالطبع ، فقد كنت على خطأ ـ لقد اكتشفت اللعبة عندما عرض علي مجموعة من الصور الإباحية . كانت تلك الصور « شيناً » يابانياً . ،على كلٍ ، وبينما كان يريني إياها أسند يده على ركبتي ، ومن حين لآخر كان يتوقف وينظر إلى إحدى الصور متعمداً ، ثم يقول : « ما رأيك بهذه ؟ »

ثم ينظر إليَ نظرة استعطاف . حاول أن يزلق يده فوق ساقي . وأخيراً تخلصت منه . قلت له :

ـ « أنا ذاهب » .

عندها تغير اسلوبه . لقد صار هذه المرة حزيناً .

قال لي : « لماذا تذهب إلى بروكلن دفعة واحدة ؟ يمكنك المكوث عندي هذه الليلة . لست ملزماً بالنوم معي إذا كان ذلك يضايقك . يوجد سرير صغير في الغرفة الأخرى » .

مضى إلى خزانة الملابس وأخرج منها بيجامة لأجلي .

ـ « لم أكن أعرف ماذا أقول سواء كان يلعب لعبته مباشرةً أم لا... ترددتُ ، فكرت في نفسي ، إنه في أسوأ الحالات ستكون ليلة أرق » .

قال لي : « هل يجب عليك أن تصل غداً إلى باريس ؟ لو كنت مكانك ما كنت لأرهق أعصابي بهذه السرعة »

كان تعليقاً ذا حدين مما حملني على تجاهله .

قلت له : « أين السرير ، سنتحدث عن ذلك فيما بعد » .

آويت إلى الفراش وعيناي مفتوحتان لئلا يقوم بتلك الفعلة الشنيعة لكنه لم يفعل . من الواضح أنه كان مشمئزاً مني ، أو ربما كان يفكر بالصبر قليلاً حتى تنطلي الحيلة . على كلٍ ، لم يغمض لي جفن لحظة واحدة . بقيت اتقلّب في الفراش حتى الفجر ، ثم نهضت بهدوء بالغ وليست ثيابي . وفيما كنت أزلق رجلي في السروال وقعت عيني علي نسخة من رواية (أوليس) فالتقطتها وجلست على كنباية قرب الشباك الأمامي . وقرأت مناجاة مولي بلوم ، مما أغراني بالإجهاز على الرواية بأكملها . ولكني بدلاً من ذلك ، خطرت ببالي

فكرة أفضل . خرجت إلى الصالون على رؤوس أصابعي نحو حجرة الملابس . فتحتها بلطف وفتشت جيوبه وحقيبته وكل شيء . كانت حصيلة ذلك لا تتجاوز سبعة دولارات وبعض «الفراطة» . فأخذتها وانصرفت فوراً .

ـ «وأنت ـ ألم تشاهده بعد ذلك ؟»

ـ «لا ، لم أعد إلى المطعم بعد ذلك أبداً» .

ـ «ڤال ، افرض أنه عرض عليك أجور السفر بشرط أن...»

ـ «من الصعب الإجابة على ذلك . ما زلت أفكر بالموضوع منذ ذاك الوقت . كنت أعرف أنه لا يمكنني أن أمارس ذلك ـ حتى ولو من أجلك أنت»

ـ «في مثل هذه الحالة من الأسهل على الإنسان أن يكون إمرأة»

ثم صارت تضحك وتضحك .

قلت لها : «ما هو المضحك في ذلك إلى هذا الحد ؟»

فصاحت قائلة : «أنت! تحب رجلاً!»

ـ «كيف ذلك ؟ هل كنت تفضلين أن استسلم له ؟»

ـ «أنا لا أقول ذلك يا ڤال ، كل ما أقوله وهو أن رد فعلك كان بطريقة ذكورية نموذجية»

فجأة تذكرت ستاسيا واستعراضاتها الطائشة .

قلت لها : «أنت لم تحدثيني عما حدث لستاسيا ، هل تأخرت عن الباخرة بسببها ؟»

ـ «ما الذي جاء بهذه الفكرة إلى ذهنك ؟ لقد أخبرتك كيف حدث لي أن تأخرت عن الباخرة ـ ألا تذكر ذلك ؟»

ـ «صحيح ، لقد أخبرتني ، لكني لم أكن مصغياً بشكل جيد . على كلٍ ، غريب أنك ،لم تتلقي منها كلمة واحدة طوال هذه المدة . أين تعتقدين أنها الآن ؟»

ـ «من المحتمل أنها في أفريقيا»

ـ «أفريقيا ؟»

ـ « نعم ، آخر ما سمعته عنها أنها كانت في الجزائر »

ـ هم م ...... »

ـ « نعم ، ڤال ، فلكي أعود إليك كان عليَ أن أعد رولاند ... الرجل الذي أخذني إلى ڤيينا ـ بأن أبحر معه . وافقت بشرط أن يرسل لستاسيا النقود اللازمة لعودتها من افريقيا .

لم يفعل ذلك ، ولم أكتشف إلا في آخر لحظة أنه لا يملك النقود من أجل ذلك . أما أنا فلم أكن بدوري أملك النقود اللازمة لكي أتصل بك لإعلامك بتأجيل السفر . على كلٍ ، لم أبحر مع رولاند بل رجعت معه إلى باريس . جعلته يقسم يميناً معظماً بأنه سيجد ستاسيا وسيأتي بها سليمة . هذه هي القصة » .

ـ « بالطبع ، لم يفعل ذلك أيضاً ؟ »

ـ « لا ، إنه مخلوق ضعيف فاسد لا يهمه سوى نفسه . كان قد تخلى عن ستاسيا وصديقها النمساوي في الصحراء عندما أصبح السير شاقاً . لقد تركهما دون مليم واحد . كنت على استعداد لقتله عندما عرفت ذلك » ـ « هذا ، إذاً ، كل ما تعرفينه ؟ »

ـ « نعم ، حسب معلوماتي ـ ربما كان الآن في عداد الأموات » .

نهضت لأفتش عن سيجارة . وجدت العلبة على الكتاب والمفتوح الذي كنت أطالعه في وقت مبكر من النهار . قلت لها وأنا أقرأ مقطعاً كنت قد دونت عليه علامة :

ـ « اسمعي هذا : [إن الغاية من الأدب هي مساعدة الإنسان على معرفة ذاته وتعزيز إيمانه بذاته ودعم كفاحه في سبيل الحقيقة] »

قالت لي متوسلة :

« استلقِ . أنا أريد أن اسمعك تتكلم لا أن تقرأ » .

ـ « مرحى للأخوة كرامازوف! »

ـ « كفى ، يا ڤال ، دعنا نتحدث قليلاً ـ أرجوك »

ـ « عظيم ، إذاً ، ماذا عن ڤيينا ؟ هل زرت عمك أثناء إقامتك هناك ؟

فأنت لم تحدثيني شيئاً تقريباً عن ڤيينا ـ هل لاحظت ذلك ؟ أعرف أنه موضوع حساس... رولاند وكل ما يتعلق بهما... هل مازالا... ؟ »

شرحت لي أنهما قد أمضيا الوقت الكثير في ڤيينا . هذا علاوة على أنها ،لم تكن تحلم بزيارة أقاربها دون إعطائهم نقوداً . لم يكن رولاند من النوع الذي يتصدق بنقوده على الأقارب الفقراء . في كل الأحوال ، فقد عمدت هي إلى القيام بذلك وجعلت رولاند يصرف النقود بسخاء كلما مرا بفنان محتاج .

قلت لها : « جيد! وهل مررتما بأي واحد من المشاهير في عالم الفن ؟ مثل بيكاسو أو ماتيس ؟ »

أجابت : « أول شخص تعرفت عليه كان زادكين النحات » .

قلت لها : « لا ـ حقاً ؟ »

ـ « ثم جاء بعده إدعار ڤاريز »

ـ « ومن يكون هذا ؟ »

ـ « مؤلف موسيقي . شخص رائع يا ڤال ، لا بد أنك ستعبده »

ـ « ومن غيرهم ؟ »

ـ مارسيل دوشامب ـ أنت تعرفه طبعاً ؟ »

ـ « لا بد أني أعرفه ـ كيف كان كشخص ؟ »

جاء ردها المباغت :

ـ « إنه اكثر الناس تحضراً ممن قابلتهم » .

ـ « إن ذلك يوحي بالشيء الكثير » .

ـ « أعرف ذلك ، يا ڤال ، لكنها الحقيقة »

ثم راحت تحكي لي عن آخرين التقت بهم ، فنانين لم أسمع بهم... هانز رايشل ، تيهانيي ، ميكونز ، وكلهم رسامون .

وبينما كانت تتحدث إليَ كنت أركب صورة ذهنية لذلك الفندق الذي كانت تنزل فيه في ڤيينا ـ فندق موللر أم غرابن . لو قيض لي أن أذهب إلى ڤيينا ذات يوم فسألقي نظرة على سجل الفندق لأرى تحت أي اسم قد سجلت نفسها .

ـ « ما أظنك قد زرت قبر نابليون ؟ »

ـ « لا ، لكننا دخلنا إلى (مالميزون) وكنت على وشك أن أشهد إعداماً » .

ـ « أنت لم تفوتي أشياء كثيرة حسب تخميني ؟ »

يا للشفقة! قلت في نفسي . بينما كانت تتحدث إلي على نحو مفكك . إن أحاديث كهذه من النادر جداً أن تحصل . ما كنت استمتع به بشكل خاص هو الطبيعة الكلايدوسكوبية المتقطعة لهذه الأحاديث . في أغلب الأحيان ، وفي اثناء فترات الصمت التي كانت تتخلل التعليقات ، كنت أصطنع أجوبة ذهنية كاملة مع تغيير في المفردات على شفتي . وبالطبع ، فقد كان ثمة نكهة إضافية يضفيها جو الغرفة والكتب الملقاة هنا وهناك... وأزيز ذبابة طائرة ووضعية جسد مونا والشعور بالراحة على الأريكة... لم يكن يوجد أي شيء يتطلب تركيباً أو تثبيتاً أو صيانة . لو أن جداراً كان سينهار لكان قد انهار . كانت الأفكار تخفق مثل غصينات في جدول يصدر خريراً .

روسيا ـ هل ما يزال الطريق يصدر دخاناً تحت عجلاتك ؟ هل تهدر الجسور كلما عبرتِها ؟ هل من إجابات ؟ ما الحاجة إلى الإجابات ؟ آه ، ايتها الخيول ـ أي خيول! ما معنى الزبد على الفم ؟

بينما كنت استعد لنزع السروال تذكرت أنني كنت قد رأيت ماك غريغور في ذاك الصباح . ذكرت لها ذلك بينما كانت تصعد من فوقي لتنزلق تحت الأغطية . قالت لي :

ـ « آمل ألا تكون قد أعطيته عنواننا »

ـ « لم نتبادل كلمة واحدة ـ فهو لم يرني »

ـ « جيد »

قالت ذلك وهي تمسك بعضوي

ـ « هذا جيد ؟ »

ـ « أنه لم يرك ؟ »

ـ « حسبتكِ تقصدين شيئاً آخر! »

الفصل الرابع عشر

في معظم الأحيان عندما كنت أخرج من البيت في نزهة لشم الهواء ، كنت أعرج على /زيد إسن/ لنتجاذب أطراف الحديث . وفي كل المرات التي زرته فيها لم يصدف سوى مرة واحدة أن شاهدت زبوناً يدخل دكانه . لقد كان الدكان يحتفظ بظلمة وبرودة كافيتين لحفظ البضاعة في داخله صيفاً شتاء .

أما واجهتا العرض فكانتا مكتظتين بالقمصان التي بهتت ألوانها بتأثير الشمس وكانت تغطيهما أوساخ الذباب .

كان من عادته أن يقبع في أقصى زاوية من الدكان تحت ضوء مصباح كهربائي خافت معلق إلى السقف بحبل طويل تتدلى منه قصاصات من أوراق الذباب الملأى بالذباب العالق بها . وكان قد أصطنع لنفسه مقعداً مريحاً ، بأن وضع مقعد سيارة فوق صندوقين . وإضافة إلى المقعدين كانت هناك مبصقة كان يستعملها عندما يمضغ سيكارة الباكي .

وكان من عادته أن يضع بين اسنانه غليوناً قذراً ، وفي بعض الأحيان كان يدخن سيجار الآوْل OWL . أما قلنسوته الكبيرة الثقيلة فكان لا ينزعها عن رأسه إلا عندما يأوي إلى الفراش . كانت ياقة معطفه دائمة البياض بفعل قشرة الرأس ، وعندما كان ينشم انفه من حين لآخر ـ مثل فيلٍ يصدر بواقاً ، فقد كان يستعمل منديلاً أزرق مزركشاً عرضه ياردة واحدة .

في الجانب الآخر من الدكان كانت إلى جانبه أكداس الكتب والمجلات والصحف ، حيث كان ينتقل من صنف إلى صنف آخر تبعاً لمزاجه . وإضافة إلى مادة المطالعة هذه كانت هناك بشكل دائم علبة من الحلويات القصيفة المصنعة بالفتسق . فكان يغوص فيها كلما تعرض للاستفزاز . وكان واضحاً من مقاس خصره أنه كان أكولاً شرهاً . وقد حكى لي عدة مرات أن زوجته طباخة رائعة جداً ، وكان هذا هو الجانب الأكثر جاذبية فيها من بين كل الجوانب التي لمستها ، مع أنه كان دائماً يضيف إلى ذلك قوله بأنها كانت واسعة الإطلاع والمعرفة . وفي أي وقت من أوقات النهار كنت أمر عليه كان يهرع إلى إخراج زجاجة من الفودكا ويقول لي :

ـ « مجرد جرعة واحدة » . فكنت اتناول معه المشروب لكي أجامله ، وعندما أشيح بوجهي جانباً كان يقول لي :

ـ « ألا تحبه كثيراً ؟ لماذا لا تجرب قطرة من ويسكي الجاودار ؟ »

ذات صباح ، وبينما كنا نحتسي ويسكي الجاودار عاود التعبير عن رغبته في أن يعلمني سياقة السيارة . قال لي :

ـ « كل ما تحتاجه ثلاثة دروس فقط ، لا معنى لترك السيارة تقف عاطلة عن العمل . ما إن تتمكن من قيادتها حتى يصيبك الهوس بها . انظر! لماذا لا تذهب معي في جولة سريعة يوم السبت بعد الظهر ؟ سأتدبر من يهتم بالدكان » .

لم استطع مقاومة حماسه وإصراره الشديدين .

في يوم السبت التقيته في الكراج . كانت سيارة/سيدان/ الكبيرة ذات الأبواب الأربعة مصفوفة عند الحاجز الحجري المخصص لذلك . إن نظرة واحدة إليها كانت كافية لإفهامي بأنها أكثر مما استحق . على كلٍ ، كان لا بد لي من التمعن فيها . اتخذت مكاني وراء المقود ، شغلت الغيارات ، تعرفت على دواسة البنزين والفرامل . كان درساً موجزاً . أما المعلومات الإضافية الأخرى فكانت بانتظاري حالما نخرج من المدينة .

صار ريب (السيد إسن) شخصاً آخر وراد المقود . فأي مكانٍ كنا نتجه صوبه كنا نسير بالسرعة القصوى صارت فخذاي تؤلماني من الفرملة قبل أن نجتاز نصف المسافة . قال لي وهو يمسك المقود بيديه لكي يحرف اتجاه السيارة :

- «ها أنت ترى ، ليس فيها شيء ، إنها تسير من تلقاء نفسها» .

رفع قدمه عن دواسة البنزين وصار يشرح لي كيفية استعمال الفرامل اليدوية ، وكأنه درس على تشغيل القاطرة .

في ضواحي المدينة كنا نتوقف هنا وهناك لجمع الأجور (أجور المساكن) ، إذ كان يمتلك عدداً كبيراً من البيوت هناك وفي أماكن أخرى بعيدة ، وكلها تقع في الأحياء المتهدمة . وكلها كانت مسكونة بالعائلات الزنجية . وقد شرح لي بأن على المرء أن يجمع الاجرة كل اسبوع . فالملونون لا يعرفون كيف يدبرون النقود . توقفنا في قطعة أرض شاغرة قرب أحد تلك الأكواخ ، حيث صار يعطيني مزيداً من التعليمات حول السيارة . في هذه المرة صار يعلمني الانعطاف والتوقف المفاجئ . وكيفية اصطفاف السيارة والرجوع . قال لي :

- «الرجوع مهم جداً» .

صار العرق يتصبب مني بفعل الإجهاد والحركة ، فقال لي :

- «حسناً ، دعنا نمضي ، سوف نسلك الاوتوستراد فوراً ، ثم سأترك السيارة على هواها . سوف تسير كالريح ، سترى... اوه ، بالمناسبة إذا حصل ذات مرة أن أصبت بالذعر ولا تعرف ماذا تفعل يكفي أن تطفئ المحرك وتدعس على الفرامل» .

دخلنا في الأوتوستراد . كان وجه إسن مشعاً بالفرح . انزل قلنسوته فوق عينيه وقال لي : «تشبَّث جيداً» .

فـ ت ت ت...! وهكذا انطلقنا . وكان يبدو لي أننا لا نلامس الأرض . نظرت إلى عداد السرعة : كانت السرعة المسجلة عليه خمساً وثمانين وصار

يعطيها مزيداً من البنزين . قال لي : «بإمكانها أن تسير بسرعة مائة دون أن تشعر بذلك . لا تقلق فأنا مسيطر عليها » .

لم أنطق بكلمة ، بل اكتفيت بتشبيت نفسي وإغماض عيني نصف إغماضة عندما خرجنا من الأوتوستراد أقترحت عليه أن يتوقف بضع دقائق لكي أمطط ساقي .

صاح قائلاً : «تسلية ، أليس كذلك ؟» ثم قال لي :

ـ «ذات يوم ، بعد أن نجمع الأجور سآخذك إلى مطعم أعرفه حيث يطهون فيه فراخ البط الشهية . أو يمكننا أن ننزل إلى الجانب الشرقي إلى أحد المحلات البولندية . أو ما رأيك ببعض الأكلات الهولندية ؟ أي شيء ترتأيه ، إن رفقتك ممتعة جداً »

في مدينة لونغ ايلاند قمت بجولة لشراء بعض الحاجيات والأطعمة . اشتريت سمك الرنكة ، السمك الأبيض المدخن ، والـ begelsوالـ lachs والمخللات ، وخبز الذرة ، والزبدة الحلوة والعسل وجوز البقان والجوز العادي والـ niggertoes والبصل الأحمر والثوم والكاشا..الخ .

قال لي : «ـ إذا لم نفعل شيئاً آخر فإننا سنأكل جيداً . طعام لذيذ وموسيقا عذبة وحديث طيب... فماذا يحتاج المرء إلى أكثر من ذلك ؟ »

قلت له دون تفكير : « زوجة طيبة ... ربما »

قال لي : «لقد حظيت بزوجة طيبة . كل ما في الأمر أننا لسنا منسجمين في الوقت الحاضر . فأنا عادي أكثر من اللزوم بالنسبة لها . إنها تعاملني وكأنني عامل سيرك »

قلت له : « إنك لا تصدمني بهذه الطريقة »

ـ « أعتقد أنني قد بدأت أفقد سلطتي . انني هرم . ذات يوم كنت بارعاً جداً في استعمال اليدين ، الأمر الذي سبب لي الكثير من المتاعب . كنت معتاداً على لعب القمار أيضاً . .إنه شيء سيء أن يكون لك زوجة مثل زوجتي .

بالمناسبة ، هل سبق لك أن لعبت لعبة الأحصنة ؟ أنا ما زلت أضع المراهنات القليلة من حين لآخر . لا استطيع أن أعدك بأن أجعل منك مليونيراً . لكن في كل الأحوال ، فأنا قادر على مضاعفة نقودك . أخبرني في أي وقت تشاء ـ ولا تنس أن نقودك ستكون بأمان معي » .

كنا نتجه صوب غرينبوينت . كان مشهد خزانات الوقود يثير لدي وخزة عاطفية . ومن حين لآخر كانت هناك كنيسة تذكرني بروسيا تماماً . صارت اسماء الشوارع أكثر إلفة شيئاً فشيئاً .

سألته : « ما رأيك بالتوقف أمام شارع ديفو ١٨١ ؟ »

ـ « بالتأكيد ، لم لا ؟ هل تعرف أحداً هناك ؟ »

ـ « كان من عادتي أن أتردد عليه ، إنه حبي الأول . أود أن ألقي نظرة على البيت . هذا كل ما في الأمر » .

فما كان منه إلا أن ضغط على دعسة البنزين بشكل أوتوماتيكي .

طلعت لنا إشارة وقوف أمامنا مباشرة ، فاندفع نحو اليمين .

قال لي : « الإشارات لا تعني لي شيئاً . ولكن لا تحذُ حذوي » .

في الشارع١٨١ ترجلت من السيارة ممسكاً قبعتي بيدي (كما لو كنت أزور قبراً) . واقتربت من الدرابزون الموجود أمام بقعة من العشب . نظرت إلى الأعلى باتجاه نوافذ غرفة الاستقبال . كانت الستائر مسدلة كما هي الحال دوماً .

بدأ قلبي يخفق ، كما كان يفعل منذ سنوات ، عندما كنت أصاب بالملل وأتضرع و أنا أتطلع إلى النوافذ بأن ألمح ستارتها تنزاح جانباً . لم أتمكن من الوقوف هناك سوى لحظة أو لحظتين ثم وليت هارباً . في بعض الأحيان كنت التف حول العمارة ثلاث أو أربع مرات .

كنت أقول لنفسي : « أيها الحقير البائس ، ما تزال تلف حول تلك العمارة »

وبينما كنت عائداً إلى السيارة سمعت باب الطابق الأرضي يطقطق ، فإذا بامرأة كهلة تطل برأسها إلى الخارج . صعدت إليها وأنا أكاد ارتجف وسألتها

إن كان آل جيفورد مازالوا مقيمين في جوارهم . نظرت إليَّ نظرة فاحصة ـ كما لو أنها قد رأت شبحاً . ثم قالت :

ـ «لا أحد والله ، لقد انتقلوا من هنا منذ سنوات»

الأمر الذي سبب لي تجمداً في عروقي .

قالت لي : «لماذا ، وهل كنت تعرفهم ؟»

ـ «نعم ، كنت أعرف واحدة منهم ، لكني لا أظن أنها سوف تتذكرني . كان اسمها أونا . هل تعرفين ماذا حل بها ؟»

ـ «لقد ذهبوا إلى فلوريدا» (قالت ذهبوا ولم تقل ذهبت)

ـ «شكراً ، شكراً جزيلاً لك!» . انزلت قبعتي كما لو كنت أحيي واحدة من أخوات الرحمة . وحالما وضعت يدي على باب السيارة هتفت بي قائلة : «يا سيد! يا سيد! إذا كنت تريد معرفة المزيد عن أونا ، فهناك سيدة في الطابق السفلي لديها المعلومات...»

قلت لها : «لا بأس ، ليس مهماً» .

كانت الدموع تتدحرج على خدي ، بالرغم مما في ذلك من غباء .

قال ريب : «ما الأمر ، ما بك ؟»

ـ «لا شيء ، لا شيء ، مجرد ذكريات»

فتح حجرة القفازات وأخرج زجاجة مشروب . أخذت جرعة من ذاك المشروب الذي يشفي كل شيء . كان مشروباً كحولياً صافياً . صرت ألهث .

قال لي : «إنه لا يخيب ـ ألا تشعر بالتحسن الآن ؟»

ـ «إنك تراهن» في اللحظة التالية وجدت نفسي أقول له :

ـ «يا يسوع! إن ما يسحقني هو التفكير بكون المرء قادراً على الإحساس بمثل هذه الأشياء . ماذا كان سيحدث لو أنها ظهرت لي ومعها طفلها ؟ إنه شيء مؤلم ـ ما زال يؤلمني ، لا تسألني عن السبب . كانت لي . هذا كل ما يمكنني قوله الآن» .

ـ «لا بد أنها كانت قصة حب بكل معنى الكلمة» .

إن عبارة (قصة حب) هي التي افقدتني توازني .

قلت له : « لا ، كانت إجهاضاً صرفاً ، كانت إغتيالاً ، ربما كما لو كنت واقعاً في حب الملكة جنيڤر... لقد أذللت نفسي - هل تفهم ذلك ؟ كان شيئاً تعيساً . أظن أنني لن أتجاوزه . خراء! ولماذا أتكلم عنه ؟ »

بقي ريب الطيب ساكتاً يفكر في الحياة ملياً وهو يعطي السيارة مزيداً من البنزين . بعد مضي فترة من الزمن قال لي بكل بساطة :

- « ينبغي أن تكتب عن ذلك ذات يوم » . فأجبته على الفور :

- « أبداً ، فأنا لم أتمكن من ايجاد تلك الكلمات الملائمة لذلك » .

عند وصولنا إلى الزاوية حيث كان حانوت القرطاسية ، ترجلت من السيارة .

قال ريب وهو يمد يده الضخمة الكثيفة الشعر :

- « دعنا نعيدها مرة أخرى - ما رأيك ؟ في المرة القادمة سأعرفك على أصدقائي الملونين » .

تمشيت في الشارع مروراً بالقواطع الحديدية المتشابكة والمرجات الخضراء الفسيحة الكبيرة . وكنت لا أزال أفكر بأونا جيفورد . لو كان بإمكاني أن أراها مرة أخرى... ولو نظرة واحدة... لا أكثر - وبعدها لأطوي هذه الصفحة إلى الأبد .

وهكذا تابعت سيري مروراً بذاك البيت ، وكنت ألتقي بالزنوج الحديديين ذوي الأفواه البطيخية والقرنفلية والبلوزات المقلمة ، وكنت أمر أمام القصور الفخمة والشرفات المكسوة بالعاج .

فلوريدا - دفعة واحدة . لماذا لا تكون كورن وول أو آڤالون ، أو قلعة كاربونك ؟ بدأت أدندن لنفسي :

There was never knight in all this world so noble, so unselfish *

---

* لم يوجد في هذا العالم قاطبة فارس بهذا النبل والتضحية بالذات (م)

ماركو! كان يتدلى من سقف دماغي ـ ماركو الذي شنق نفسه . ألف مرة كان قد أخبرها (مونا) بحبه ، ألف مرة كان قد مثَّل دور الأحمق ، ألف مرة كان قد أنذرها بأنه سيقتل نفسه إن هو لم يلق من عينيها عطفاً . أما هي فكانت تسخر منه وتضحك عليه وتحتقره وتهينه . وبغض النظر عن كل ما قالته أو فعلته ، فقد كان يواظب على إذلال نفسه ، واستمر يغدق عليها الهدايا . إذ أن رؤيتها أو سماع صوتها أو ضحكتها الساخرة ، كل ذلك كان كافياً لجعله متذللاً ومتزلفاً إلى أقصى حد . وحتى تلك اللحظة لم يكن هناك من شيء قادر على قتل حبه ـ عبادته لها . عندما كانت تطرده كان يعود إلى عليته ليؤلف النكات (فقد كان المسكين يكسب عيشه من تأليف النكات للمجلات) . كان يحول لها كل قرش يكسبه ، وكانت هي تأخذه دون أن تشكره حتى . (اذهب ـ يا كلب!) .

في أحد الصباحات وجد مشنوقاً يتدلى من إحدى العوارض الخشبية السقفية في عليته البائسة . لكن لا رسالة ولا من يحزنون . كان مجرد جثة تتأرجح في ظلمة الغبار . تلك كانت آخر نكاته .

عندما نقلت إليَّ الخبر قلت لها :

ـ « ماركو ؟ ومن يكون ماركو بالنسبة لي ؟ »

صارت تبكي وتذرف دموعاً مرة . كل ما بوسعي أن أقوله لها ـ من قبيل الترويح عنها :

ـ « كان عليه أن يفعل ذلك عاجلاً أم آجلاً . لقد كان القدوة »

فردت علي بقولها :

ـ « أنت فظ . ليس عندك قلب » .

كان ذلك صحيحاً تماماً . لقد كنت بلا قلب . لكن ثمة أناس آخرون كانت تعاملهم معاملة مقيتة ودون تمييز . فأنا ، بطريقتي الفظة الخالية من الرحمة ـ قد ذكرتها بهم . قلت لها :

ـ « ومن يكون الضحية التالية ؟ »

فما كان منها إلا أن اسرعت بالخروج من الغرفة ويداها فوق أذنيها . كان

شيئاً رهيباً أكثر مما يطاق .

بينما كنت استنشق عبير الليلج والبوغنفيليا و الورد الأحمر الغامق قلت لنفسي :

- « ربما كان ذاك الشيطان البائس - ماركو - يحبها مثلما كنت أحب أونا جيفورد . ربما كان يؤمن بأن معجزة من المعجزات ستحول احتقارها وازدراءها له إلى حب في يوم من الأيام ، عندما ستراه على حقيقته قلباً عظيماً دامياً ينبض بالحنان والتسامح ، وربما كان في كل ليلة ، عندما يكون في غرفته ، يجثو على ركبتيه ويصلي .

ولكن لا حياة لمن تنادي . ألم أكن أتأوه كل ليلة عند صعودي إلى السرير ؟ ألم أكن أصلي أيضاً ؟ وكم كان مخزياً ذاك التوسل وتلك الصلاة ، وذاك النشيج والأنين . آه لو أن صوتاً ما قال لي :

- « إنه شيء ميؤوس منه . فأنت لست بالرجل المناسب لها » ، لكان من الممكن لي أن أقلع عن ذلك ، وربما كنت سأفسح المجال لشخص آخر غيري ، أو على الأقل لكنت كفرت بالله الذي خصني بمثل هذا المصير .

ماركو المسكين! لم تكن تتوسل لأن تكون محبوباً - بل لكي يتاح لك المجال لكي تحب . لقد حكم عليك بأن تؤلف النكات! الآن فقط فهمت ما الذي كنت تعانيه ، ما الذي كنت تكابده - يا عزيزي ماركو . الآن صار بمقدورك أن تستمتع بها من عليائك . صار بمقدورك أن تحرسها ليل نهار . فإذا كانت في الحياة الدنيا لم ترك على حقيقتك ، فإنك أنت الذي تراها الآن على حقيقتها . لقد كان لك قلب أكبر من قدرة جسدك الضئيل على احتوائه . جنيفر ذاتها لم تكن تستحق ذاك الحب العظيم الذي ألهبته . لكن الملكة تطأ بخفة زائدة حتى عندما تسحق قملة » .

عندما دخلت وجدت المائدة مرتبة وكان طعام العشاء بانتظاري . كانت مونا في مزاج طيب على غير عادتها . عندما رأتني صاحت قائلة وهي تلفني بذراعيها :

- « كيف كانت الرحلة ؟ هل استمتعت بها ؟ »

لاحظت وجود أزهار في الأصيص وزجاجة نبيذ قرب صحني . كان نبيذ نابليون المفضل الذي كان يحتسيه ، حتى عندما كان منفياً في جزيرة سانتا هيلانة . تساءلت قائلاً :

- « ماذا يعني هذا ؟ »

كانت مونا تموربالفرح . قالت لي :

- « يعني أن بوب يرى أن الخمسين صفحة الأولى رائعة . كان شعلة من الحماس » .

- « كان ماذا ؟ احكِ لي عن ذلك - ماذا قال لك بالضبط ؟ »

كانت هي نفسها مذهولة لدرجة أنها لم تقدر على تذكر الكثير . في هذه اللحظات جلسنا إلى المائدة لتناول الطعام . قلت لها :

- « كلي لقمة! سوف تستعيدين ذاكرتك » .

هتفت : « أوه ،لقد تذكرت . قال إن الرواية تذكره قليلاً بكتابات هيرمان ملفل المبكرة وبكتابات درايزر أيضاً »

غصصت بلقمة .

- « نعم وبكتابات لافكاديو هيرن » .

- « ماذا ؟ وهل يقرأه بوب أيضا ؟ »

- « قلت لك إنه مطالع كبير »

- « أما كنت تعتقدين أنه يدعي ذلك ؟ »

- « ليس تماماً . كان مفرط الجدية . أقول لك إنه مخدوع فعلاً »

صببت نبيذاً ، قلت لها :

- « وهل إن بوب هو الذي اشترى هذا ؟ »

- « لا ، أنا التي اشتريته » .

- « وكيف عرفت أنه كان نبيذ نابليون المفضل ؟ »

- « الرجل الذي باعني إياه هو الذي قال لي ذلك »

احتسيت جرعة لا بأس بها .

ـ « حسناً ؟ »

ـ « لم أذق أفضل منه . كان نابليون يشرب منه يومياً ؟ يا له من شيطان محظوظ! »

قالت لي :

ـ « قال ، لقد صار عليك أن تدربني قليلاً على الإجابة على بعض الأسئلة التي يطرحها بوب عليّ »

ـ « كنت أظن أنك تعرفين كل الأجوبة »

ـ « هذا اليوم كان يتحدث عن النحو والخطابة . وأنا لا أعرف شيئاً عنهما » .

ـ « ولا أنا ـ بالشرف . أنت على الأقل دخلت المدرسة ـ أليس كذلك ؟ إنك خريجة مدرسة وِلسْلي وينبغي أن تعرفي شيئاً ما... »

ـ « أنت تعلم أنني لم أدخل الجامعة » .

ـ ولكنك قلتِ لي أنك دخلت الجامعة »

ـ « ربما كان ذلك عندما قابلتك لأول مرة . إذ لم أكن أريدك أن تحسبني جاهلة » .

قلت لها : « بئس الجحيم ، فأنا لم يكن يهمني إن كنت قد أنهيت منهاج النحو ، لم يكن عندي أي تقدير . إنها مجرد هراء مسألة النحو والخطابة هذه . فكلما قلت معرفتك بهذه الأمور ، كان ذلك أفضل وخاصة إذا كنت كاتبة » .

ـ « ولكن بفرض أنه اكتشف الأغلاط ـ ماذا سيكون عندئذ ؟ »

ـ « قولي له قد تكون مصيباً في ذلك . سأنظر في الأمر . أو من الأفضل أن تقولي :

« كيف يمكن برأيك أن تكون ؟ عندها تكونين قد وضعتِه في موقع الدفاع عن النفس ـ هل لاحظت ذلك ؟ »

ـ « في بعض الأحيان أتمنى أن تكون في مكاني »

ـ « وأنا كذلك . عندها سأكتشف إن كان ذاك الحقير صادقاً أم لا » .

قالت لي متجاهلة ملاحظتي هذه :

ـ «هذا اليوم كان يتحدث عن أوروبا . كان يبدو وكأنه يقرأ أفكاري . كان يتحدث عن الكتّاب الأمريكيين الذين عاشوا ودرسوا في الخارج . قال إنه من المهم أن يعيش المرء في مثل ذاك الجو لأن في ذلك غذاء للروح» .

ـ «وماذا قال غير ذلك ؟»

ترددت لحظة قبل أن تنطق بالجواب :

ـ «قال انني إذا اكملت الكتاب فإنه سوف يعطيني النقود اللازمة للإقامة في أوروبا لمدة عام أو عامين» .

قلت لها : «رائع ، ولكن ماذا عن موضوع والدتك المقْعَدَة ـ أو بمعنى آخر ـ عني أنا ؟»

فكرت قليلاً في الإجابة ثم قالت :

ـ «ربما سوف يتحتم علي أن أقتلها» . ثم أضافت أنه مهما دفع من المال سيكون كافياً لكي نسافر سوية ، إذ أن بوب رجل كريم .

قالت لي : «ها أنت ترى أنني لم أكن مخطئة بحق بوب ، يا ڤال ، أنا لا أريد أن أضغط عليك... ولكن...»

ـ «أنت تطلبين مني أن استعجل وأنهي الكتاب ـ أليس كذلك ؟»

ـ «نعم ، كم من الوقت يستغرق ذلك حسب تقديرك ؟»

قلت لها أن ليس لدي أي فكرة عن ذلك .

ـ «ثلاثة أشهر ؟»

ـ «لا أدري»

ـ «وهل كل شيء واضح ـ ما الذي عليك أن تفعله ؟»

ـ «ليس الأمر كذلك»

ـ «أليس ذلك ما يضايقك ؟»

ـ «بالطبع ، ولكن ما الذي بإمكاني أن أفعله ؟ فأنا أكتب بأفضل ما عندي من معرفة»

ـ « ألا تخرج عن الموضوع ؟ »

ـ « إن حدث ذلك فإني اتدارك الموقف فوراً ـ على كلٍ ، هذا ما أرجوه »

ـ « أنت تبغي السفر إلى أوروبا ـ أليس كذلك ؟ »

فرمقتها بنظرة مطولة قبل أن أرد عليها بقولي :

ـ « هل أبغي الذهاب إلى أوروبا ؟ يا امــرأة! أنا أبغي الذهاب إلى كل مكان ، إلى آسيا ، وافريقيا ، واستراليا ، البيرو ، المكسيك ، سيام ، شبه الجزيرة العربية ، جاوة ، بورنيو ... والتبت والصين أيضاً .

وما أن ننطلق في السفر حتى تراودني الرغبة في الابتعاد إلى ما شاء الله أريد أن أنسى أنني ولدت هنا . أريد أن أبقى متنقلاً متجولاً وهائماً في الدنيا . أريد المضي إلى نهاية كل طريق... »

ـ « ومتى ستكتب ؟ »

ـ « حالما أغرب من هنا »

ـ « ڤال ، إنك حالم »

ـ « بالتأكيد ، ولكني حالم ايجابي ـ ثمة فرق » ثم أردفت قائلاً :

ـ « كلنا حالمون ، لكن البعض منا فقط هم الذين يستيقظون في وقت من الأوقات ليدونوا قليلاً من الكلمات . من المؤكد أنني أنوي الكتابة . لكني لا أعتقد أن ذلك هو كل شيء بالنسبة لي وهو غاية الغايات ـ لا أدري كيف أعبر لك ؟ الكتابة مثل الكاكا التي تضعينها في نومك . إنها لذيذة بالتأكيد ، بيد أن الحياة هي التي تأتي أولاً ثم تأتي الكاكا ـ فالحياة تبدل وحركة وسعي ـ اندفاع نحو الأمام لملاقاة المجهول ، اللامتوقع . قليلون من الناس فقط هم الذين يستطيعون أن يقولوا عن أنفسهم (لقد عشت!) وهذا هو السبب في أننا نمتلك الكتب ـ لكي يتمكن الناس من الحياة بالنيابة عن الآخرين بشكل تعويضي . أما عندما يعيش المؤلف أيضاً بشكل تعويضي...! »

عندها خرجت عن صمتها وقالت :

ـ « ڤال ، احياناً عندما استمع إليك أحس بأنك تريد أن تحيا ألف حياة في

حياة واحدة . فأنت قانع بشكل أبدي بالحياة كما هي ، وقانع بنفسك وبكل شيء تماماً . أنت منغولي تنتمي إلى سهوب آسيا الوسطى »

قلت لها وقد تحمست للموضوع :

ـ « أنت تعرفين أن أحد الأسباب في أنني اشعر بالتفكك على هذا النحو هو وجود القليل من كل شيء في داخلي . فأنا قادر على وضع نفسي في أي عصر من العصور والشعور معه بالإلفة . عندما أقرأ شيئاً من عصر النهضة أشعر كأنني إنسان من عصر النهضة . وعندما أقرأ حول إحدى السلالات الصينية الحاكمة أشعر تماماً كأنني صيني من ذاك العهد . فأياً كان العنصر البشري أو العصر أو الشعب ؛ مصرياً ، أزتكياً ، هندوسياً أو كلدانياً أذوب فيه كلياً باعتباره عالماً غنياً مزداناً بالرسوم والصور بشكل دائم وعجائبه لا تنضب . هذا بالضبط ما اتوق اليه : عالم من صنع بشري ، عالم يستجيب لأفكار الإنسان ، لأحلام الإنسان ، لرغبات الإنسان . إن ما ينفرني من حياتنا هذه ـ الحياة الأمريكية ـ هو أننا نقتل كل ما تقع عليه أيدينا . خذي مثلاً . المنغوليين والهونيين : لقد كانوا فرساناً شهاماً إذا ما قورنوا بنا .

هذه الحياة قميئة ، خاوية ، مقفرة . إني أرى ابناء بلدي من خلال عيون اسلافي . إنهم بشر جُوَّف ، مهترئون ، يتآكلهم الدود » .

تناولت زجاجة من مشروب جفري شامبرتان وملأت الكاسين . كان هناك ما يكفي لجرعة جيدة .

قلت لها : « نخب نابليون! ذاك الرجل الذي عاش الحياة بكل معانيها » .

ـ « ڤال ، إنك تخيفني أحياناً بالطريقة التي تتكلم بها عن امريكا . هل أنت تكرهها فعلاً إلى هذا الحد ؟ »

قلت : « ربما كان ذلك حباً ـ حباً مقلوباً ، منحرفاً ، لا أدري » .

ـ « أرجو ألا تدخل شيئاً من هذا في الرواية »

ـ « لا تقلقي . فالرواية ستكون خالية بقدر خلاء الأرض التي تنحدر منها . لن يكون عليَّ أن أقول : كل الشخصيات المذكورة في هذا الكتاب هي

من نسج الخيال ، أو أية عبارة من العبارات التي يسوقونها في مقدمات الكتب . لن يتعرف أحد على أحد ، ولا على المؤلف على أقل تقدير . الشيء الجيد هو أنها ستكون بإسمك . كم ستكون نكتة كبيرة لو أنها صارت في قائمة الكتب الأكثر رواجاً . لو أن المراسلين الصحافيين جاؤوا يقرعون الباب لإجراء مقابلة معك! »

هذه الفكرة بحد ذاتها قد أخافتها . ولم تأخذ الأمر على محمل الهزل مطلقاً . قلت لها :

- « أوه ، ها أنتِ قد أطلقتِ عليَّ صفة الحالم منذ لحظات . دعيني أقرأ لك مقطعاً صغيراً من قصيدة /رابية الأحلام/ . ولا بد لك من مطالعة هذا الكتاب في وقت من الأوقات . إنه حلم كتاب - حلم بكتاب .

مضيت إلى رف الكتب وفتحت على الفقرة التي كانت في ذهني .

- « إنه يحكي عن قصيدة ملتون التي تحمل عنوان/ ليسيداس/ . ويعلل السبب في أنها ربما كانت أكثر الأعمال كمالاً من بين الأعمال الأدبية الصرفة التي برزت إلى الوجود » . ثم يقول ماخن :

[الأدب هو الفن الحسي القائم على إثارة الانطباعات الحادة عن طريق الكلمات] ولكن هاهو المقطع التالي يقول حرفياً :

[ومع ذلك فثمة شيء آخر ، أكثر من ذلك . فإلى جانب الفكرة المنطقية التي كانت في معظم الأحيان عائقاً مزعجاً بالرغم من كونها جزءاً لا يتجزأ ، وإلى جانب الإحساس الذي كان شيئاً ممتعاً ومبهجاً.. إلى جانب كل هذه العوامل - كانت هناك الصورة الذهنية التي لا يمكن تحديدها ولا التعبير عنها ويكرسها كل الأدب الجميل في الذهن . وكما أن الكيميائي في تجاربه يصاب أحياناً بالدهشة لدى اكتشاف العناصر المجهولة اللامتوقعة في الحوجلة ، وحيث أن عالم الأشياء المادية يعتبر من قبل البعض حجاباً رقيقاً للكون اللامادي ، كذلك فإن من يقرأ نثراً أو شعراً رائعاً يكون واعياً للإلهامات والايحاءات التي لا يمكن صياغتها بالكلمات والتي لا تنبثق عن المعنى

المنطقي وتكون موازية للبهجة أكثر من كونها مرتبطة بها . إن العالم المكتشف على هذا النحو ـ هو إلى حد ما ـ عالم الأحلام ، العالم الذي يحياه الأطفال أحياناً ، عالم سريع الظهور ، سريع التلاشي ، عالم يتجاوز كل تعبير أو تحليل ، فلا هو عالم الفكر ولا هو عالم الأحاسيس...]

قالت لي عندما وضعت الكتاب جانباً :

ـ « رائع ، ولكن إياك أن تحاول الكتابة هكذا! دع ارثر ماخن يكتب على هواه إذا كان يرغب في ذلك . أما أنت فيجب أن تكتب بطريقتك الخاصة » .

رجعت إلى المائدة . كانت زجاجة شارتروس إلى جانب فنجان القهوة . وبينما كنت اسكب في كأسي مقداراً صغيراً جداً من الليكور الأخضر الناري .

قلت لها : « لا ينقصنا الآن سوى شيء واحد : حرملك » .

قالت لي : « إن بوب هو الذي زودني بالشارتروس . لقد فرح كثيراً بتلك الصفحات » .

ـ « دعينا نعيش على أمل أنه سيحب الخمسين صفحة التالية » .

ـ « قال ، أنت لا تؤلف الكتاب لأجله ، إنك تؤلفه لأجلنا نحن الأثنين »

قلت له : « صحيح . أنا أنسى ذلك أحياناً » .

خطر ببالي أنني حتى حينه لم أخبرها شيئاً عن المخطط الحقيقي للكتاب .

فبادرت بقولي : « ثمة شيء يجب عليَّ أن أخبرك به ـ أو هل أخبرك به ؟ ربما كان علي أن أحتفظ به لنفسي أطول فترة ممكنة »

صارت تتوسل إليَّ لكي لا استفزها .

ـ « عظيم ، سأحكي لك . إنه يتعلق بالكتاب الذي أنوي تأليفه ذات يوم . لقد دونت كل رؤوس الأقلام المتعلقة بذلك . كتبت لك رسالة مطولة حول ذلك عندما كنت مسافرة إلى ڤيينا ـ أو حيث لا يعلم إلا الله . لم أتمكن من إرسال الرسالة لإنك لم تكتبي لي عنوانك . نعم ، سيكون كتاباً عن حق وحقيق... كتاباً ضخماً ، عنك وعني » .

ـ « ألم تحتفظ بالرسالة ؟ »

ـ « لا ، لقد مزقتها . إنها غلطتك ، لكنني احتفظت برؤوس الأقلام . كل ما في الأمر أنني لن أريك إياها في الوقت الحالي » .

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأنني لا أريد سماع أية تعليقات . إضافة إلى أننا إذا تحدثنا عنها فربما لن أؤلف الكتاب أبداً . ومن ناحية أخرى ، ثمة بعض الأمور التي لم أكن أريدك أن تعرفي عنها شيئاً إلى أن أكون قد فرغت من الكتابة » .

قالت لي : « يمكنك الوثوق بي » .

وصارت تتوسل إلي .

قلت لها : « لا فائدة ، لا بد لك من الانتظار » .

ـ « ولكن بفرض أن رؤوس الأقلام قد ضاعت ؟ »

ـ « بإمكاني أن أعيد كتابتها مرة أخري . ولن يسبب ذلك لي أي إزعاج » .

في تلك اللحظة ظهرت عليها علائم الغضب والاستياء ، إذ أن الكتاب ، في نهاية المطاف ، هو عنها مثلما هو عني... وهكذا سارت الأمور . لكنني بقيت متعنتاً . نظراً لمعرفتي المسبقة بأنها سوف تقلب البيت رأساً على عقب لكي تقع على المذكرات (رؤوس الأقلام) فقد أفهمتها أنني تركتها في بيت أهلي .

قلت لها : « لقد وضعتها حيث لن يجدها أحد » . ولكنني قرأت من نظراتها أنها لم تكن مقتنعة بهذا الكلام . مهما كان دافعها ، فقد كانت تتظاهر بأنها مستسلمة للأمر الواقع لكي لا أفكر في الموضوع أكثر من ذلك . ورغبة مني في ترطيب الجو فقد أخبرتها أن الكتاب إذا تم تأليفه ، وقيض له أن يرى النور فإنها ستجد نفسها مخلدة . وبما أن هذا الكلام كان له وقع طنان قليلاً فقد عقبت عليه بقولي :

ـ « ربما لن تكوني قادرة دائماً على التعرف على نفسك من خلاله لكني لا أعدك بذلك . عندما سأنتهي من رسم صورتك لن تكوني عرضة للنسيان » بدت وكأنها قد تأثرت بذلك .

قالت لي : « تبدو واثقاً من نفسك إلى أقصى حد »

ـ « إنني امتلك المبرر لذلك . فهذا الكتاب قد عشته . يمكنني البدء من أي مكان فيه وأجد فيه نفسي . إنه مثل مرجة خضراء تتوسطها ألف نافورة . وكل ما احتاجه هو أن أفتح حنفية الماء » .

ثم نقرت رأسي بأصبعي وقلت :

ـ « كل شيء موجود هنا... بالحبر اللامرئي الذي لا يمكن محوه... »

ـ « هل أنت بصدد أن تقول الحقيقة عنا نحن الإثنين ؟ »

ـ « بالتأكيد ، عن كل الناس وليس عنا فقط » .

ـ « وهل تعتقد أنك ستجد ناشراً لمثل هذا الكتاب ؟ »

ـ « لم أفكر بذلك . لا بد لي من كتابته أولاً »

ـ « وهل ستنهي الرواية أولاً ؟ كما أرجو »

ـ « قطعاً . وربما المسرحية أيضاً »

ـ « المسرحية ؟ أوه ، يا ڤال ، سيكون شيئاً رائعاً » .

عند هذه النقطة انتهت محاورتنا .

مرة أخرى عادت تلك الفكرة المزعجة إلى الظهور : كم سيدوم هذا الونام والسلام ؟ كانت الأمور تسير بشكل يكاد يكون افضل مما يجب .

خطر ببالي هوكوساي : تألقاته وانحداراته ، تبديله لمكان إقامته تسعمائة وأربعين تبديلاً ، مثابراته ، ونتاجاته التي لا تصدق . يا لها من حياة! أما أنا ـ أنا الذي لم أكن إلا على عتبة الحياة . ليتني أعيش حتى التسعين ، أو المئة ، فقد يصبح لدي ما أتفاخر به لقاء جهودي .

وردت إلى ذهني فكرة مزعجة أخرى بنفس القدر . هل سأكتب شيئاً مقبولاً . وكان الرد الذي جاء فوراً على لساني : Fuck a duck

ومع ذلك ، ثمة فكرة أخرى بقيت تشقل ذهني : « لماذا كنت مهووساً بالحقيقة هذا الحد ؟ » وكان الرد هذه المرة واضحاً نظيفاً : لأن الحقيقة هي الموجودة ولا شيء سوى الحقيقة .

لكن صوتاً صغيراً خافتاً اعترضني : «تذكر مرة أخرى أن الأدب شيء آخر!»

إذاً ، ليذهب الأدب إلى الجحيم . فكتاب الحياة هو بالضبط ما سأكتب . وبأي اسم ستوقع عليه ؟

ـ باسم المبدع... وهكذا تكون قد حلت المشكلة .

إن فكرة التعامل مع مثل هذا الكتاب ـ كتاب الحياة ـ ذات يوم قد بقيت تؤرقني طوال الليل . كانت ماثلة أمام عيني كالسراب* في الاسطورة . ولما كنت قد أقسمت بأن أجعلها حقيقة واقعة ، فقد كانت تلوح أمامي على أنها أكبر بكثير واصعب إنجازاً بكثير مما كنت قد وصفتها . في الواقع ، كانت تبدو فكرة غامرة ، ولا داعي للقول أنني كنت متيقناً من شيء واحد : ما إن أبدأ حتى تنساب من تلقاء ذاتها . ولن تكون هناك أية مشكلة في اعتصارها على شكل قطرات أو نزات . لقد خطر ببالي أول كتاب ألفته حول الاثني عشر رسولاً .

يا له من إخفاق! لقد احرزت قليلاً من التقدم منذ ذاك الحين ، حتى لو لم يكن أحد يعلم ذلك سواي . ولكن كم كان ضياعاً لمادة الكتابة! كان من المفروض أن تدور فكرتي حول كل الثمانين أو المئة ألف الذين استأجرتهم وصرفتهم خلال تلك السنوات المطشطشة العصويكونية cosmococcic .

فلا عجب في إنني كنت أفقد صوتي بشكل مضطرد . إن مجرد الحديث إلى ذاك العدد الهائل من الناس كان بحد ذاته عملاً بطولياً . لكنه لم يكن الكلام وحده ، بل كانت وجوههم ، تعابيرهم التي ترتسم على وجوههم ، الحزن ، الغضب ، المكر ، الخداع ، الخيانة ، العرفان بالجميل ، الحسد... إلى آخر ما هنالك . كما لو أنني كنت أتعامل مع مخلوقات طوطمية عوضاً عن كائنات بشرية . فهناك الثعلب والوشق وابن آوى ، وثور المسك واللاموس والعقعق ، والحمام والثعبان والتمساح والضبع والنمس والبوم... كانت صورهم

* Fata Morgana باللاتينية في الأصل .

ما تزال حية في ذاكرتي : الطيبون منهم والسيئون ، المحتالون والكذابون ، العرجان ، المسعورون ،

المتسكعون ، المقامرون ، المتطفلون ، المنحرفون ، القديسون ، الشهداء : جميعهم ، العاديون منهم والاستثنائيون . بل انني انحدرت إلى مستوى ملازم من الخيالة (سلاح الفرسان) كان وجهه مشوهاً بتأثير الحمر والسود ، بحيث أنه عندما كان يضحك كان يبكي ، وعندما كان يبكي كان يتهلل . وكان كلما خاطبني ليقدم لي شكوى ، يقف أمامي بوضعية الاستعداد العسكري كأنه حصان وليس خفيراً . أما اليوناني ذو الوجه الخيلي المتطاول ـ الرجل العلامة بما لا يقبل الشك ، والذي كان يحب قراءة مقطع من /بروميثيوس مقيداً/ (مقيداً كان أم طليقاً) لماذا كان يثير ازدرائي وسخريتي بقدر حبي له ؟ كم كان جميلاً وظريفاً ذاك المصري ذو العيون القلابة الذي انطبع الجنس على دماغه! كان لا يبارح الماء الساخن دائماً وخصوصاً عندما كان يفشل في القذف مرة أو مرتين في اليوم . أما تلك السحاقية إليادا ـ ما كانت تسمي نفسها ـ لماذا إليادا ؟ ـ فقد كانت بالغة الحسن ، بالغة التظاهر بالحشمة ، بالغة التظاهر بالخفر والحياء... وكانت موسيقية ممتازة أيضاً . أعرف ذلك لأنها كانت تجلب معها كمانها إلى المكتب كل مساء وتعزف لأجلي . وبعد أن تكون قد عزفت كل ما في جعبتها من باخ وموتسارت وباغانيني ، تقول لي بكل وقاحة أنها قد ملت من سحاقيتها وأنها ترغب في أن تصبح عاهرة ، وترجوني أن أجد لها دائرة حكومية أفضل من هذه للعمل حيث تستطيع أن تجد قليلاً من الشغل .

كانوا جميعاً يتباهون أمامي ـ كما في الماضي ـ بتقلصات وجوههم ، بتكشيراتهم ، بتوسلاتهم ، وبألاعيبهم الصغيرة الخبيثة . في كل يوم كانوا يدلقون على طاولتي من كيس طحين كبير كل مشاكلهم ومتاعبهم وآلامهم وأوجاعهم . عندما تم اختياري لهذا العمل الكريه يبدو أن شخصاً ما قد زود مروّض المؤلفين بتعليمات سرية مفادها أن : دع هذا الرجل طيباً ومنشغلاً!

ضع قدميه في مرجل الواقع ، أجعل شعره ينتصب ، أطعمه الدابوق ، حطم كل وهم جديد من أوهامه! وسواء كان ذاك المروض قد تلقى تعليمات سرية أم لا ، فهو قد فعل فعله بكل حذافيره ، وفعل ما هو أكثر منه ، لقد جعلني أتعرف على الحزن والأسى .

مهما يكن... فإن من بين الآلاف من الكتاب الذين كانوا يجيئون ويذهبون ، الذين كانوا يتوسلون ، يطلبون ، يلحون ، يبكون أمامي عراة محرومين ، يطلقون ندائهم الأخير ـ كما يبدو ـ قبل أن يسلموا أنفسهم إلى المسلخ ، كانت تظهر ثلة من الفتيان الذين ينتمون إلى بلدان نائية مثل تركيا أو بلاد فارس . وعلى هذا النحو حدث ذات يوم أن المدعو (علي) قد اكتسب ـ كأي إنسان آخر من أمة محمد ـ موهبة خطية رائعة في مكان ما من الصحراء ، وبعد أن تعرف عليَّ وعرف أنني إنسان ذو أذنين كبيرتين بادر إلى كتابة رسالة موجهة إليَّ ؛ رسالة طولها اثنتان وثلاثون صفحة دون أن يقع في غلطة واحدة ودون أن يغفل فاصلة أو فاصلة منقطة ، يشرح لي فيها (وكأنه من المهم أن أفهم) أن معجزات المسيح ـ وقد عددها واحدة واحدة ـ لم تكن بالمعجزات ، وأن تلك المعجزات (بما فيها معجزة إحياء الموتى) قد تحققت على أيدي بشر مجهولين فهموا قوانين الطبيعة ، تلك القوانين التي أصر على أن علماء بلادنا لا يعرفون عنها شيئاً البتة ، ولكنها قوانين أزلية وبالإمكان تعلمها للإتيان بما يسمى المعجزات والتي كلما تقدم الانسان الحق في معرفتها ، تسنى له الوصول إلى المعجزات . ولأن علياً هذا يمتلك السر ولكنني لست ممن يطلعون عليه لأنه قد اختار أن يكون رسولاً ويحمل «شارة الاسترقاق والعبودية» لسبب لا يعرفه إلا هو والله (تبارك اسمه) لم يكن أمامي ، عندما حان الوقت ، إلا أن أقول كلمتي... إلى آخر ما هنالك . كيف نجحت في التخلص من هذه الشخوص الضخمة القوية والاحتشاد الذي يخلقونه باستمرار ، ومن كوني مجبراً كل بضعة أيام على الوقوف على بساط التوجيه لكي أوجه هذا وذاك ، كما لو أنني قد حرضتهم على سلوكي الفردي

السخيف على نحو لا يمكن تفسيره . وليس هذا وحسب ، فأي عمل أن تحاول إقناع الراعي الكبير الذي يحمل دماغ قزم ، بأن زهور أمريكا قد نبتت من الأعضاء التناسلية لهؤلاء المعتوهين ، الوحوش البلهاء ذوي الأدمغة المشعرة ، الذين ، أياً كان مصدر الإزعاج ، يمتلكون مواهب غريبة كالقدرة على قراءة الكابالا من النهاية إلى البداية بطريقة معكوسة ، أو حساب جداء عشرة أعمدة من الأرقام دفعة واحدة ، أو الجلوس على قرص من الجليد وإظهار علائم الحمى .

بالطبع ، لم تكن أية واحدة من هذه الشروحات قادرة على التخفيف من الحقيقة الرهيبة وهي أن امرأة كهلة قد تم اغتصابها في الليلة السابقة على يد شيطان أسمر البشرة كان ينقل رسالة وفاة . كانت مهمة عسيرة ، إذ أنني لم أكن قادراً على شرح الأمور له . لم أتمكن من فعل شيء أكثر من عرض القضية على توباشنيكوف ، الطالب التلمودي الذي كان أقرب نسخة إلى المسيح الحي الذي يجوب شوارع نيويورك وفي يده بطاقات المعايدة بعيد الفصح . إما كيف أمكنني أن أقول لذاك البوم ذي السنام :

ـ «هذا الشيطان بحاجة إلى المساعدة . فوالدته تحتضر بالسرطان ، ووالده يشتغل بائعاً متجولاً يبيع أربطة الأحذية . والفتيات العرجاوات اللواتي اعتدن على اعتبار الكنيس بمثابة منزلهن ، إنه بحاجة إلى ترقية وظيفية ، إنه بحاجة إلى طعام يملأ به معدته» .

لكي أذهله ـ أو أكيده ـ كنت في بعض الأحيان أروي له حدوتات صغيرة حول رسلي مستعملاً صيغة الماضي ـ دائماً كما لو كنت أحكي عن شخص ما كان في الخدمة (مع أنه كان موجوداً على يميني متخفياً بأمان في مكتب PX أو مكتب Fu . نعم ، ما كنت أود قوله أنه كان مرافقاً ليوهان غادسكي عندما كانا يقومان بجولة في الغابة السوداء . أما الآخر فقد كان ذات مرة مع باستور في المعهد المشهور في باريس . نعم ، إن الآخر ـ أيضاً ـ قد عاد إلى الهند لكي ينهي /تاريخ العالم/ بأربع لغات . نعم ، هذه المرة عن أحد الرماة

الراحلين ـ إنه كان من أعظم الفرسان الذين عاشوا على وجه الأرض . وقد جمع ثروة بعد أن تركنا ، ثم وقع في بئر المصعد وتهشمت جمجمته .

كيف كانت الاستجابة الثابتة اللا متغيرة ؟ « ممتعة جداً » في الواقع . واظب على العمل! تذكر ألا تستخدم أحداً سوى الصبيان النظيفين الظرفاء المنحدرين من عائلات جيدة . لا يهود ، لا عرجان ، لا محكومين سابقاً ، نريد أن نكون فخورين بمقدرة مراسلينا .

ـ « نعم ، يا سيدي! »

ـ « بالمناسبة ، لا تنسَ أن تستهلك كل هؤلاء الزنوج الذين جلبتهم لإظهار القوة . نحن لا نريد زبائننا أن يكونوا فزعين فاقدين لصوابهم » .

ـ « نعم ، سيدي » .

وكنت سأمضي إلى مقعدي ، أمارس شيئاً من المراوغة ، ابعثرهم قليلاً . ولكني ما كنت أبداً لأسرح أحداً منهم ، حتى لو كان أسود مثل آس السبات .

كيف نجحت في التخلص من كتاب المراسلات ، من كل حالات الخبل العصوي الجميلة كلها ، من كل الطوافين بين النجوم ، علماء المنطق ذوي الظهور الماسية ، المصروعين من جرحى الحرب ، اللصوص القوادين ، العاهرات ، الكهنة المجردين من رداء الكهنوتية ، طلاب التلمود من كتاب القبلانية وكتب الشرق المقدسة ؟ روايات! وكأن المرء بمقدوره أن يكتب عن مثل هذه المسائل ، عن مثل هذه العينات في رواية واحدة . فأين ـ في عمل كهذا ـ سيضع المرء ـ الكاتب القلب أو الكبد أو العصب البصري أو البنكرياس أو المرارة ؟ فهم ليسوا من صنع الخيال ، إنهم أحياء يرزقون ، كل على حدة ومجتمعين ، أنهم مبتلون بالأمراض والعلل ، كل يوم يأكلون ويشربون ، يتبولون ويتبرزون ، ينهبون ويقتلون ، يزنون ويدلون بشهادات الزور ، يخونون رفاقهم ، يدفعون ابناءهم للعمل واخواتهم للبغاء وامهاتهم للتسول وأباءهم للعمل باعة جوالين يبيعون أربطة الأحذية وأزرار الياقات

ويجلبون إلى البيت أعقاب السجائر والجرائد القديمة وقليلاً من النقود النحاسية من طاسة متسول أعمى . فأي مكان في الرواية لمثل هذه الوقائع! نعم لقد كان الخروج جميلاً من تاون هول في ليلة ثلجية بعد سماع العرض السمفوني الصغير . كان الجمهور على قدر كبير من الثقافة التي كان ينم عنها ذاك التصفيق المتحفظ وتلك التعليقات الذكية . في هذا الوقت كانت لمسة الثلج الخفيفة ، السيارات المندفعة بعيداً ، الأضواء المتوهجة المتشظية مثل قطرات الجليد المتدلية ، والسيد بارير مع أعضاء فرقته الصغيرة ينسلون خارجين من المدخل الخلفي لكي يقيموا حفلة خاصة في منزل أحد الأثرياء من سكان جادة بارك . كان هناك ألف من الممرات التي تؤدي إلى الخارج من قاعة الحفلات الموسيقية ، وفي كل ممر كان ثمة عدد مأساوي من البشر الذين يتبعون مصيره . كانت الممرات تتقاطع في كل مكان : الوضيعون والرائعون ، السمحاء والمستبدون ، الأثرياء والمعدمون . في كثير من المرات كنت أحضر حفلة خاصة في أحد معارض الجثث الموسيقية الجوفاء ، وفي كل مرة كنت أخرج فيها من الحفل لم أكن أفكر بالموسيقا التي سمعتها ، بل بإحدى مكتشفاتي ، بواحد من الطاقم العصويكوني الذي شغلته وسرحته في ذاك اليوم والذي لم يستطع أي هايدن أو باخ أو سكارلاتي أو بيتهوفن أو بيلزيبوب أو شوبرت أو باغانيني أو أي موسيقي من عازفي الفصيلة النفخية أو الوترية أو البوقية أو الصخبية أن يبدد ذاكرته . ولقد قيض لي أن أرى هذا الشيطان البائس يغادر المكتب ومعه حقيبة المراسلات ملفوفة في طرد بني اللون يتوجه نحو الطريق الصاعد عند جسر بروكلن حيث يزمع ركوب أحد القطارات المتجهة إلى طريق فرنشبوند أو جادة بتكين ، أو ربما إلى شارع كوشيوسكو ، ومن هناك ليدخل في سرب الجراد البشري ويمسك بقطعة مخلل حامضة ، يتفادى رفسة على قفاه ، يقشر البطاطا ، يزيل القمل من الفراش ، يتلو الصلاة على روح جده الكبير الذي مات على يد بولندي سكير لأن رؤية لحية تتماوج في الهواء كانت بالنسبة له شيئاً محرماً كما

قدر لي أن أجد نفسي سائراً علي امتداد جادة بتكين أو شارع كوشيوسكو بحثاً عن كوخ ـ أم تراني كنت أبحث عن حظيرة كلاب وأنا أقول لنفسي كم أنني محظوظ لكوني قد ولدت مسيحياً وأتكلم الانكليزية بشك متقن جداً (هل ما زلت في بروكلن ؟ أين أنا ؟) .

في بعض الأحيان كان بمقدوري أن اشم رائحة البطلينوسات في الخليج البحري أو ربما رائحة المجارير . واينما كنت أذهب بحثاً عن المفقودين والملعونين كنت أجد بشكل دائم سلالم النجاة مثقلة بالشراشف ، ومن تلك الشــراشف كـانـت تتـســاقط تشكيلة من القـمـل والبق والخنافس البنيــة والصراصير والقشور الحرشفية للسلامي البائت . ومن حين لآخر ، كنت اشتري لنفسي قطعة مخلل غضة أو سمكة رنكة مدخنة ملفوفة بقطعة من جريدة . يا لتلك البرتسلات الدسمة الكبيرة ـ كم كانت طيبة! كانت كل أيادي النسـاء محـمـرة ، وأصـابعـهن مـزرقـة من البـرد ، من الفـرك والجلي والشطف ولكن الإبن العفريت كانت أصابعه طويلة مستدقة الأطراف ذات أنامل متصلبة حيث كان ذاهباً لكي يعزف في صالة كارينجي) . لم يخطر ببالي في أي مكان من العالم المسيحي المفروش بالأثاث الذي كنت أنحدر منه أنني سوف التقي بعفريت أو شبه عفريت . لا بل ، إنه كان من الصعب أن تجد حتى متجراً واحداً لبيع الكتب . فالروزنامة يتولى بيعها البقالون أو الجزارون . لا أثر لهولباين أو كارباتشيو أو هيروشيغي أو غيوتو أو حتى رامبراندت .

أما وسلر فربما لن تجد له سوى لوحة أمه ؛ تلك المخلوقة ذات المظهر الهادئ ، المكللة بالسواد والتي تعقد يديها فوق حضنها خنوعة للغاية ومحترمة للغاية . لا ، لم يكن بيننا ، نحن المسيحيين الكئيبين ، من كان يشم رائحة الفن . فنحن ليس لدينا سـوى حوانيت لحم الخنزير المـزخـرف والكرشـات والقـوانص من كل الأصناف . وبالطبع ، هناك المــشــمع الأرضي والمكانس وأصص الأزهار . كل شيء من مملكة الحيوان ومملكة النبات ، إضافة إلى

الخردوات والكعك الألماني والسجق والمخللات . وهناك كنيسة في كل ساحة . شيء محزن كما لو أن اللوثريين والمشيخيين هم القادرون على التوالد من أعماق إيمانهم العقيم .

المسيح كان نجاراً! لقد شيد كنيسة ، لكنه لم يشيدها من العصي والحجارة .

الفصل الخامس عشر

بقيت الأمور على خير ما يرام . كانت تلك الأيام شبيهة بالأيام الأولى من يوميات عش الغرام الياباني . فكنت إذا خرجت في مشوار ، تصبح حتى الأشجار مصدر إثارة بالنسبة لي ، وإذا زرت ريب في حانوته أعود محملاً بالأفكار ، إضافة إلى القمصان وربطات العنق والقفازات والمناديل . عندما كنت التقي بصاحبة الدار ، لم أكن أجد ضرورة للقلق حول موضوع أجرة البيت ؛ فلقد أصبحنا الآن ندفع كل ما علينا من التزامات في كل مكان ، ولو كنا نطلب شيئاً بالدين لحصلنا عليه بوفرة . أيام العطل اليهودية كانت تمضي على نحوٍ مفرح بوليمة في هذا البيت ووليمة في ذاك . لقد كنا نغوص عميقاً في الهاوية ، لكن ذلك لم يعد يحزنني كما كان من قبل . ربما كان الشيء الوحيد الذي كنت افتقده هو الدراجة . حتى هذا الوقت كنت قد تلقيت دروساً أخرى على قيادة السيارة . وصار بإمكاني أن أتقدم بطلب للحصول على رخصة السياقة في أي وقت أشاء . وعندما أحصل عليها كنت مصمماً على أخذ مونا في نزهة ، كما كان ريب يلح عليّ في ذلك . في هذه الأثناء تعرفت على المستأجرين الزنوج . كانوا أناساً طيبين ، كما قال ريب . في كل مرة كنا نخرج لجمع الأجور ، كنا نعود إلى البيت راضين مسرورين . عرض عليّ أحد المستأجرين ، وكان يعمل مفتشاً في الجمارك ، أن يعيرني كتباً . كان يمتلك مكتبة مذهلة تحتوي على الكتب

الجنسية والكاتالوكات المصورة ، وكلها كان قد صادرها من أرصفة الموانئ في سياق عمله الوظيفي . لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذا الكم من الكتب البذيئة والصور الفوتوغرافية الإباحية القذرة ، مما جعلني اتساءل عما تحتويه مكتبة الفاتيكان الشهيرة في مجال المحرمات . من حين لآخر ، كنا نذهب إلى المسرح عادة لنشاهد مسرحية أجنبية لكتاب من امثال جورج كايزر ، ارنست تولر ، فيديكند ، فيرفل ، زودرمان ، تشيخوف ، اندرييف... كما أن المسرحيين الايرلنديين كانوا قد جاؤوا بمسرحية / جونو والطاووس/ و/ المحراث والنجوم/ . ما أروع هذا الكاتب - شين أو كيسي! كاتب لا مثيل له منذ إبسن .

في الأيام المشمسة كنت أجلس في حديقة فورت غرين أطالع كتاباً من قبيل / أيام الكس في باتاغونيا/ أو / الورك/ أو / البطن والدجاج/ أو / المفهوم التراجيدي للحياة/ من تأليف أونامونو .

وإذا خطر ببالي ورغبت في سماع شريط مسجل ليس بحوزتي ، فقد كان بإمكاني استعارته من مجموعة ريب ، أو من عند صاحبة الدار . عندما كنا نشعر بأن لا رغبة لدينا في عمل شيء كنا نلعب الشطرنج ، أنا ومونا . وهي لم تكن تلك اللاعبة الماهرة ، ولا أنا أيضاً . وقد وجدت أن الاكثر متعة هو دراسة اللعبات المدونة في كتب الشطرنج ، وعلى الأخص كتاب (بول مورفي) ، أو حتى قراءة كل ما يتعلق بالتطورات الجارية على اللعبة أو الاهتمام بها من قبل الايسلنديين أو المالايانيين . وحتى فكرة زيارة الناس بمناسبة عيد الشكر - لم تكن بحد ذاتها قادرة على إشغالي . صار بمقدوري الآن أن أخبرهم - كانت مجرد شبه كذبة - بأنني مكلف بتأليف كتاب وأنني أتلقى بعض المال لقاء أتعابي . كم كان ذلك يدغدغ مشاعرهم!

صرت الآن خالياً من أي شيء سوى الأفكار اللطيفة . صارت كل الأفكار الجيدة التي سبق أن راودتني تطفو الآن على السطح . كنت أشعر وكأنني جالس لأكتب لهذا ولذاك . لم لا ؟ ثمة أماكن أيضاً وجدت نفسي ملزماً بتقديم الشكر لها ، لأنها وفرتْ لي لحظات مباركة . ولقد أبديت من السذاجة ما

جعلني أقوم برحلة خاصة ذات يوم إلى حديقة ماديسون سكوير ، لأقدم التشكرات الصامتة للجدران من أجل تلك اللحظات المجيدة التي عشتها في الماضي ، عندما كنت اتفرج على بوفالو بيل وهنود الباوني وهم يحتفلون ويعربدون من أجل الامتياز الذي نلته بالتفرج على جيم لوندوس ، هرقل الصغيرالذي يحمل على رأسه بولنديا عملاقاً لمدة ستة أيام من سباق الدراجات وما شهدته من مآثر التحمّل التي لا تصدق .

في خضم هذه الحالات النفسية المليئة بالبهجة والتي كنت فيها محلقاً إلى السماء ، لم يكن غريباً من السيدة سكولسكي ، عندما كنت ألتقي بها في طريقي ، سواء كنت داخلاً أم خارجاً ، أن تتوقف وتنظر إليّ بعينين مستديرتين كبيرتين عندما كنت في بعض الأحيان أمضي استراحة قصيرة مؤقتة ريثما ينقضي النهار ، استراحة قد تدوم نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة كنت أتحرر خلالها من عبء عناوين الكتب وأسماء الشوارع الغريبة والأحلام والحمام الزاجل وزوارق السحب وأي شيء ورد في ذهني أو كان يرد في تلك اللحظة . لأنني كنت سعيداً ، مسترخياً ، خالياً من الهم ، وفي أفضل حالٍ من الصحة والعافية .

بالرغم من أنني لم أقم بأية حركة مضللة ، فقد كنت أعرف كما كانت تعرف هي أن ما كان ينبغي علي فعله هو أن أطوقها بذراعي وأقبلها واعانقها وأجعلها تحس بأنها امرأة وليست صاحبة الدار .

ـ «نعم» . هكذا كانت ستقول ، ليس بشفتيها ، ولكن بثدييها . «نعم» ستقولها ببطنها الدافئ اللين . «نعم» دائماً .لو أنني قلت لها : «ارفعي تنورتك ، وأريني بظرك!» لكان ردها بنعم أيضاً . لكنني كنت أمتلك التصميم المسبق على تجنب مثل هذا الهراء . لقد كنت حريصاً على البقاء بنفس الصورة التي كنت قد ظهرت بها : نزيلاً مهذباً ثرثاراً يختلف عن غيره بشكل من الاشكال . كان بمقدوري أن أراها عارية أمامي مع طبق من الكارتو فل كلوز المغطى بطبقة من الصلصة السوداء وما كنت لأمد يدي إليها .

لا ، فلقد كنت أكثر سعادة واكثر اكتفاء من أن أفكر بمضاجعات الصدفة .

وكما قلت سابقاً أن الشيء الوحيد الذي كنت افتقده هو الدراجة . إن سيارة ريب التي كان يريدني أن اعتبرها بمثابة سيارتي لم تكن تعني لي شيئاً . إذ ما الذي كنت أطلبه أكثر من سيارة (ليموزين) وسائق ينقلني من مكان لآخر . حتى السفر إلى أوروبا لم يعد يعني لي شيئاً في ذاك الوقت . آنذاك لم تكن بي حاجة إلى اوروبا . شيء جميل أن أحلم بها ، أن أتحدث عنها وأن استفهم عنها .

لكنني كنت على خير ما يرام حيث أنا . ما الذي كنت أطلبه أكثر من الجلوس كل يوم لتدوين بضع صفحات وقراءة الكتب التي أرغب في قراءتها ، سماع الموسيقا التي أتوق إلى سماعها . والخروج في مشوار ومشاهدة عرض مسرحي وتدخين سيجار كلما رغبت في ذلك ؟ لقد ولى عهد المنازعات والنظرات المختلسة والتلصص والانتظار طوال الليل . كان كل شيء يسير على ما يرام . بما في ذلك مونا ذاتها . صار من الممكن لي على الفور أن اتشوّق إلى سماعها وهي تتحدث عن طفولتها ـ تلك الأرض الغريبة المشاعة التي تفصل بيننا . لدى رؤيتها وهي تسير إلى البيت وذراعاها محملتان ، خداها متوردان ، وعيناها تلمعان ـ هل كان يهمني من أين كانت آتية ، أو كيف تمضي نهارها ؟ كل ما يهمني هو أنها سعيدة وأنني كنت سعيداً . حتى العصافير في الحديقة كانت سعيدة هي الأخرى إذ أنها كانت تغرد طوال النهار ، وعندما يأتي المساء كانت تمد مناقيرها نحونا وتقول لبعضها بعضاً بلغة السقسقة :

ـ «انظروا الى هذين الزوجين السعيدين! دعونا نغني لهما قبل أن نخلد إلى النوم» .

وأخيراً جاء اليوم الذي كنت سآخذ فيه مونا في نزهة خارج المدينة . لقد صرت الآن مؤهلاً لقيادة السيارة بمفردي على حد زعم ريب . على كلٍ ، فأن تنجح في الاختبار شيء وأن تكون روح زوجتك في يدك شيء آخر .

إن عملية الرجوع والخروج من الكراج ، كانت كافية لأن تثير أعصابي مثل أعصاب القط . كان ذاك الشيء اللعين ضخماً جداً ـ أقصد السيارة . كانت ثقيلة الحركة إلى حد كبير ، وكانت تتطلب جهداً زائداً . صرت أتصبب عرقاً قبل أن

أنجح في إخراجها من الكراج ، وكنت اوقفها دائماً كلما قطعنا بضعة أميال حيث توجد فسحة من الأرض لمعاودة الإقلاع بشكل مريح ، أو لكي استريح قليلاً .

كنت أختار الطرق الفرعية كلما أمكن ذلك ، لكنها كانت دائماً تنتهي بي إلى الأوتوستراد الرئيسي . عندما قطعنا عشرين ميلاً ، وجدت نفسي منقوعاً بالعرق . كنت آمل بالذهاب إلى (بلوبوينت) ، حيث كنت أقضي تلك العطل الصيفية الرائعة في سن الصبا ، لكننا عدلنا عن الفكرة . وكان في ذلك شيء من الحكمة ، لأنني عندما زرتها آخر مرة أصابني الغمّ والهم ؛ فقد تبدلت معالمها بشكل يصعب معه التعرف عليها .

بينما كنت ممدداً على جانب الطريق أتفرج على البلهاء الآخرين يمرون بسياراتهم بجانبي ، أقسمت أنني لن أعاود سياقة السيارة مرة أخرى .

ولقد سُرَت مونا لهزيمتي هذه ، إذ قالت لي :

ـ « أنت لم تخلق من أجل ذلك »

وافقتها على ذلك وقلت لها :

ـ « لم أكن أعرف ما الذي سأفعله لو أنها (انطفأت) معي » .

سألتني : « ما الذي كنت ستفعله ؟ »

أجبتها : « أخرج منها وأمشي » .

قالت : « وأنا كذلك » .

قلت لها متوسلاً :

« لا تقولي لريب عن رأيي في ذلك . فهو يعتقد أنه يقدم لنا معروفاً كبيراً ، وما كنت اريد احباطه » .

ـ « هل يجب علينا أن نذهب إلى هناك لتناول العشاء ؟ »

ـ « طبعاً »

ـ « دعنا ننطلق باكراً ـ إذاً ؟ »

أجبتها : « القول أسهل من الفعل »

في طريق العودة حدث عطل بالسيارة . ومن حسن الحظ أن سائق سيارة

شاحنة قد جاء لنجدتنا . بعد ذلك اصطدمت بالطرف الخلفي لسيارة عتيقة مضروبة ، ودون أن ينتبه السائق إلى ذلك . ثم عندما وصلت إلى الكاراج حرت في أمري كيف سأدخلها في الممر الضيق ؟

وعندما وصلت بها إلى منتصف المسافة غيرت رأيي . وعند إرجاعها إلى الوراء تفاديت الاصطدام بعربة متحركة . تركتها واقفة ، نصفها على الرصيف والنصف الآخر في البالوعة الموجودة على جانب الطريق .

همهمت قائلاً : « ......! لتصلحها على نفقتك! »

بقي أمامنا شارع أو شارعان لنجتازهما سيراً على الأقدام . ومع كل خطوة كنت أبتعد بها عن الوحش ، كان يزداد شعوري بالارتياح . كنت سعيداً وأنا أهرول قطعة واحدة ، وحمدت الله على أنه جعلني مغفّلاً في الميكانيك وربما في مجالات أخرى أيضاً . كان هناك الحفارون على الخشب والرسامون بالألوان المائية وسحرة العصر الميكانيكي .

أما أنا فكنت أنتمي إلى المزلجات المدَوْلبة والدراجات ثلاثية العجلات . كم كنت محظوظاً لأن لي ذراعين وساقين جيدتين وقدمين رشيقتين وشهية حادة! كان بمقدوري أن أسير إلى كاليفورنيا جيئة وذهاباً على قدمين . أما فيما يتعلق بالسفر بسرعة خمسة وسبعين ميلاً في الساعة ، فقد كان بمقدوري أن أسير بأسرع من ذلك ـ في الحلم . كان بمقدوري أن أذهب إلى المريخ وأعود منه في غمضة عين ، دون أن تحدث معي انطفاءات في المحرك .

كانت أول وجبة نتناولها مع آل إسن . لم نكن قد قابلنا السيدة إسن من قبل ولا ابن ريب وابنته . كانوا بانتظارنا وقد رتبوا المائدة وأضاؤوا الشموع واشعلوا النار ، وكانت الرائحة الشهية تفوح من المطبخ . قال لي ريب ، بادئ ذي بدء وهو يمسك كأسين من البورت الثقيل :

ـ « خذ جرعة! كيف كانت السيارة ، هل « نرفزتك » ؟ »

قلت له : « ليس قليلاً . قطعنا كل الطريق المؤدية إلى بلوبوينت »

ـ « في المرة القادمة ستكون الرحلة إلى مونتوك بوينت »

في هذه اللحظة تدخلت السيدة إسن في الحديث . كانت إنسانة طيبة كما قال ريب من قبل . ربما كانت مهذبة في الحديث أكثر مما يجب قليلاً . ثمة منطقة ميتة في مكان ما ، ربما كانت في الخلف .

لاحظت أنها نادراً ما كانت تتوجه بالكلام إلى زوجها . ومن حين لآخر كانت توبخه على وقاحته وبذاءته ، وكان باستطاعة المرء أن يلاحظ من الوهلة الأولى أنه لم يكن يربطهما أي شيء آخر . إن مونا ، من ناحيتها ، قد تركت انطباعاً حسناً لدي البنت والابن اللذين كانا في سن المراهقة (كان واضحاً أنهما لم يتعرفا على مثل نوعيتها) . كانت البنت بدينة ، بسيطة المظهر ، وقد وهبت ساقين نحيفتين أكثر من المعتاد . صارت تبذل قصارى جهدها لكي تخفيهما كلما جلست . وكانت خجولة جداً .

أما بالنسبة للإبن فقد كان من النوع الناضج قبل الآوان ، يتكلم أكثر مما يجب ، يعرف أكثر مما يجب ، يضحك أكثر مما يجب ، ودائماً يقول ما لا يقال . ولما كان مليئاً بالحيوية الزائدة ، وسريع الاهتياج ، فقد كان دائماً يتعثر بالأشياء أو يدوس على أقدام الآخرين . كان بيبيرو عبقرياً ـ له ذهن يثب مثل الكنغر . عندما سألت عما إذا كان لا يزال يرتاد الكنيس برم وجهه ، ضغط منخريه بأصبعيه ، وقبض على ذقنه ، كما لو كان سيقتلعها . سارعت الوالدة إلى إفهامي أنهم قد نقلوه إلى جمعية التربية الأخلاقية . وقد سرّها أن تعلم أنني كنت في الماضي أتردد على هذه الجمعية لحضور الاجتماعات هناك...

قال ريب : «دعونا نتناول مزيداً من الشراب»

كان واضحاً أنه قد مل من الحديث عن التربية الأخلاقية والفكر الجديد والبهائيين* وكل هذا الهراء .

تناولنا مزيداً من مشروب البورت ذي اللون الأسمر المصفر . كان طعمه لذيذاً ، لكنه ثقيل جداً .

---

* البهائيون : أتباع حركة دينية نشأت في بلاد فارس في القرن التاسع عشر واستمرت حتى الوقت الحاضر وهي ذات انتشار قوي في الولايات المتحدة تؤكد على وحدة البشر الروحية (م)

قال ريب : «بعد العشاء ، سوف نُسْمِعكما عزفاً» ، ويقصد هو وابنه .

قلت في نفسي :(سيكون شيئاً مخيفاً) . وسألت إن كان الصبي قد قطع شوطاً كبيراً في العزف» .

قال لي : «أكيد ، ولكنه لم يصبح ميشا إلمان Misha Elman» ثم التفت إلى زوجته وقال :

ـ «أليس العشاء جاهزاً الآن ؟»

نهضت من جلستها بأسلوب جليل ، مسِّدت شعرها بيدها وردته عن جبينها ، و توجهت نحوالمطبخ وهي تكاد تشبه المسرنم

قال ريب : «دعونا نجلس إلى المائدة . لا بد أنكما جائعان» .

كانت السيدة إسن طباخة ماهرة ، لكنها كانت مسرفة أكثر من اللزوم . فقد كان على المائدة من الطعام ما يكفي لضعفي عددنا من الأكَلَة . كان النبيذ رديئاً ، فاليهود نادراً ما يمتلكون تذوقاً للنبيذ الجيد ، كما لاحظت .

ثم قدموا لنا مع القهوة والفاكهة شيئاً من الكيمل والبندكتين . ارتفعت معنويات مونا ، فقد كانت تحب الليكورات . أما السيدة إسن ـ كما لاحظت ـ فلم تشرب شيئاً سوى الماء . لكن ريب كان منطلقاً مع ذاته أو ـ إذا جاز لي القول ـ أنه كان ثملاً قليلاً ، فقد كان حديثه ركيكاً وإيماءاته خليعة ومتخبطة .

لقد كان شيئاً رائعاً أن أراه هكذا على حقيقته ، على الأقل . أما السيدة إسن فقد كانت تتظاهر ، طبعاً ، بأنها غير مدركة لحالته تلك . بيد أن الإبن كان مبتهجاً ، وكان مستمتعاً برؤية والده العجوز وقد جعل من نفسه أحمق .

كان ذاك الجو العائلي غريباً إلى حد ما ، ومخيفاً إلى حد ما أيضاً . فمن حين لآخر كانت السيدة إسن تحاول رفع النقاش إلى مستوى أعلى حتى أنها اقترحت اسم هنري جيمس كموضوع للمناقشة ، ولكن عبثاً . كان لريب اليد العليا . فصار يوجه الشتائم بطلاقة واصفاً الحاخام بأنه مغفل ، وأنه سيقاطعه في الجال ، وأن الاسلوب الوحيد للتعامل معه هو الملاكمة والمصارعة .

صار يمدنا بالحقائق المجردة حول بيني ليونارد ، شاجباً في الوقت ذاته

سترانغلر لويس الذي كان يكن له احتقاراً .

ولكي استحثه قلت له : « وماذا عن رد كاب ويلسون ؟ »

(الذي كان يعمل لدي بصفة مراسل ليلي ذات مرة ـ كان بغلاً أصم كما أذكر) . فاستهجن ذكر اسمه بفظاظة قائلاً :

ـ « إنسان سيء جداً ، من المرتبة الثالثة »

قلت له : « إنه مثل باتلينغ نيلسون »

هنا تدخلت السيدة إسن مقترحة أن ننتقل إلى الغرفة الأخرى ، إلى الصالون .

قالت : « هناك تستطيعان التحدث بارتياح اكثر » .

عندها جمع السيد قبضته وخبطها بقوة على الطاولة وصاح قائلاً :

ـ « ولماذا الانتقال ، السنا نتصرف هنا على نحو مستقيم ؟ إنت تريدين أن نغير الموضوع ـ هذا كل ما في الأمر » .

ثم مد يده إلى زجاجة الكيمل .

ـ « هنا ، دعونا نشرب مزيداً منه ، جميعنا ـ إنه لذيذ ، ما رأيكم ؟ »

نهضت السيدة إسن وابنتها لتنظيف الطاولة . لقد قامتا بذلك بصمت واتقان كأي ام وابنتها ولم تتركا سوى الزجاجات والكؤوس . لكزني ريب بمرفقه لكي يفضي إليّ بما كان يعتبره مجرد همسة في أذني :

ـ « إنها ما إن تراني مستمتعاً حتى تزداد صرامة في معاملتي . هكذا تجد أن النساء لك بالمرصاد » .

قال الابن : « تعال يا بابا ، لنخرج الكمنجات الى هنا » .

صاح ريب : « أخرجها ، من الذي يمنعك ؟ ولكن لا تعبث بالدوزان . إنه يعجبني جداً هكذا »

ارتحلنا إلى الصالون حيث توزعنا على الأرائك والكراسي المريحة . لم أكن مكترثاً بما كانا يعزفانه . ارحت نفسي قليلاً من كل ذاك النبيذ الرخيص والليكورات . ومع مجيء الموسيقيين كانت اصناف الكعك بالفاكهة تدور على

الحاضرين ، ثم تلاها الجوز والبقان المكسّر .

اختارا للعزف مقطوعة ثنائية من مؤلفات هايدن كبداية للحفل . ومع بدء الفاصل الموسيقي للافتتاحية كان عزفهما نشازاً . لكنهما بقيا متشبثين ببنادقهما على أمل أن يصلحا الخطو فيما بعد . كانت مثيرة للقرف تلك الطريقة التي كانا يحركان بها رِيَش العزف بشكل متبدل كالمنشار . في حوالي منتصف المعزوفة استسلم العجوز قائلاً ، وهو يسند كمانه على الكرسي :

ـ «اللعنة عليها ؛ إنها تبدو رهيبة . اعتقد أننا لا نلتزم بالشكليات مثلكم» . ثم قال وهو يلتفت إلى ابنه :

ـ «يجب عليك أن تتمرن أكثر من ذلك قبل أن تعزف في حضرة أي إنسان» .

تطلّع حواليه كما لو كان يفتش عن الزجاجة ، لكنه تلقى نظرة متجهمة من زوجته ، فأذعن وجلس على كرسي مريح . صار يتمتم معتذراً بأنه قد صار واهناً بفعل الشيخوخة . فم يرد عليه أحد شيئاً . صار يتثاءب بصوت مرتفع ثم قال :

ـ «لماذا لا نلعب الشطرنج ؟»

هنا تدخلت السيدة إسن قائلة :

ـ «أرجوكما ـ ليس هذه الليلة!»

طوى نفسه وهو يتمطمط حتى قدميه وقال :

ـ «إن جو الغرفة فاسد هنا ، إني ذاهب في مشوار ، لا تهرب! سأعود فوراً» .

وعندما انصرف حاولت السيدة إسن أن تبرر سلوكه غير اللائق :

ـ «لم يعد يكترث بشيء . إنه يعيش عزلة أكثر من اللازم» .

كانت تتكلم عنه كما لو أنه في عداد الأموات .

قال الإبن : «ينبغي عليه أن يأخذ إجازة» .

قالت البنت : «نعم ، نحن نحاول إقناعه بزيارة فلسطين» .

قالت مونا : «ولماذا لا ترسلونه إلى باريس ـ فربما يستعيد نشاطه

هناك ؟ » .

بدأ الولد يضحك بشكل هستيري .

سألته : « ما المشكلة ؟ »

عندها ازدادت حدة ضحكته ثم قال لي :

ـ « إذا ذهب إلى باريس فلن نراه بعدئذ » .

قالت الوالدة : «الآن! الآن!»

ـ «أنت تعرفين البابا ، سيُصاب بالجنون لدى رؤيته لكل الفتيات والمقاهي... »

قالت السيدة إبسن :

ـ « ما هذه الطريقة في الكلام! ما بك تتكلم هكذا ؟ »

فأجابها معاكساً بنفس الأسلوب :

ـ « أنت لا تعرفينه . أنا الذي اعرفه . إنه يريد أن يعيش ، وهكذا أنا أيضاً » .

قالت مونا : « لماذا لا تسفَّرين الاثنين معاً إلى الخارج ؟ وبذلك يتولى الوالد أمور الابن ويتولى الابن أمور الوالد » .

في هذه اللحظة رن جرس الباب . كان أحد الجيران قد سمع بأننا نقوم بزيارة لآل إسن ، وقد جاء لكي يتعرّف علينا .

قالت السيدة إسن : «أقدم لكما السيد إلفنباين» .

لم يكن يبدو عليها أنها مسرورة برؤيته . وهكذا تقدم السيد إلفنباين بمرفقين محنيين ويدين مشبكوتين لكي يسلم علينا . كان وجهه مشعاً والعرق يتفصّد من جبينه . قال بلهجة خطابية :

ـ « أية فرصة سعيدة هذه ، وأي امتياز » . انحنى قليلاً ثم أمسك ايدينا وصار يشد عليها بقوة . ثم تابع يقول :

ـ « لقد سمعت عنكما الكثير ، وأرجو أن تعذراني على هذا التطفل ـ هل تتكلمان اليديية أم الروسية ؟ »

كان يحني كتفه ثم يحرك رأسه من جانب إلى آخر وعيناه تتابعان حركة رأسه مثل إبرتي بوصلة . نظر إليَ مثبتاً تكشيرته نحوي قائلاً :

ـ « أخبرتني السيدة سكولسكي أنك مغرم بكانتور سيروتا » .

شعرت كأنني طير أفلت من قفصه . نهضت إلى السيد إلفنباين وعانقته عناقاً حاراً .

قلت له : « هل أنت من مينسك أم من بينسك ؟ »

أجابني : « بل من بلاد المؤابيين* »

ثم رمقني بنظرة مشرقة ومسّد لحيته بيده . وضع الصبي كأساً من الكيمل في يده . كانت خصلة شعر تائهة منتصبة مثل عرف الديك على نافوخ السيد إلفنباين المائل إلى الصلع . شفط كأس الكيمل وتناول قطعة من الكعك بالفاكهة ، وعاد مرة أخرى إلى شبك يديه فوق صدره وقال :

ـ « يا لفرحتي بالتعرف على يهودي مثقف يؤلف الكتب ويتكلم إلى العصافير ـ يقرأ الروسية ويتابع يوم التكفير ، وله من الذوق المرهف ما يجعله يتزوج من فتاة من بوكوفينا ـ غجرية دفعة واحدة وممثلة! أين ذاك المتسكع زد ؟ هل عاد إلى السكر مرة أخرى ؟ »

صار يلتفت حواليه مثل بومة عجوز ذكية على وشك أن تطلق نعيباً .

ـ «ايتها الراهبة ، إذا درس المرء كل حياته ثم اكتشف أنه أبله فهل يكون مصيباً في ذلك ؟ الجواب بنعم ولا . في قريتنا نقول أن على المرء أن يهذب سفاسفه لا أن يهذب سفاسف غيره . وفي الكابالا ثمة قول مفاده...... لكننا يجب الا نشطح كثيراً في المجادلة بأمور تافهة . من مينسك جاءت المعاطف المصنوعة من فرو المنك . ومن بينسك لم يأتِ سوى البؤس . إن اليهودي القادم من الرواق* لا يمسه الشيطان أبداً . موبيشه آخت كان يهودياً من هذا النوع أو لنقل عمي بمعنى آخر . لقد كان على خلاف دائم مع الحاخام . عندما يأتي الشتاء كان يحبس نفسه في صومعة الحبوب . فقد كان

* المؤابيين : شعب سامي قديم (م) .

صانعاً لعدة الخيول » .

توقف فجأة ثم نظر إلي بابتسامة شيطانية . عندها بادرت إلى الكلام قائلاً : « في سفر أيوب »

ـ « ليكن سفر الرؤيا . إنه اكثر شبهاً بالبلازما الخارجية » .

بدأت مونا تقهقه . انسحبت السيدة إسن بحذر . بقي الصبي وحده . صار يقوم بإشارات من خلف ظهر السيد إلفنباين كما لو كان يمسك سماعة هاتف مثبتة إلى صدغه .

كان السيد إلفنباين يقول :

ـ « عندما تبتدئ بقطعة موسيقية جديدة ، فبأي لغة تصلي أولاً ؟ »

أجاب على الفور : « بلغة آبائنا : ابراهيم ، اسحق ، حزقيال... »

فقلت مقاطعاً إياه : « وداوؤد وسليمان وآستير وروث » .

كان الصبي قد أعاد ملء كأس السيد إلفنباين الذي شفطه بدوره بجرعة واحدة . قال السيد إلفنباين وهو يلمظ شفتيه :

ـ « سيصبح هذا الولد من قطاع الطرق . إنه لا يعرف شيئاً من شيء . لو كان بكامل عقله لأصبح فقيهاً . هل تذكر ذلك في /المدانون والمعاقبون/ ... ؟ »

قال الولد : « تقصد /الجريمة والعقاب/ »

ـ « بالروسية /الجريمة وعقابها/ . أجلس ولا تقم بحركات من خلف ظهري أنا أعرف أنني ميشيغا لكن هذا السيد ليس كذلك . دعه يكتشف بنفسه ـ أليس كذلك يا سيد ؟ ثم قام بانحناءة تهكمية . تابع الحديث وهو يفكر بالسيدة إسن ، دون شك :

ـ « عندما يتحول اليهودي عن دينه فإن ذلك يشبه تحول الدسم إلى ماء . فأن تكون مسيحياً أفضل من أن تكون واحداً من هؤلاء التافهين » .

قطع حديثه لبرهة من الزمن مراعاة لآداب الحديث . ثم تابع قائلاً :

---

* الرواق قطعة من الأرض ضيقة تمتد عبر أراضي دولة أخرى إلى مرفأ (م) .

ـ «المسيحي عبارة عن يهودي يحمل في يده صليباً . فهو ليس بمقدوره أن يتسى أننا قتلنا يسوع الذي كان بدوره يهودياً ـ كأي يهودي إنما أكثر تعصباً . لكي تقرأ تولستوي فأنت غير ملزم بأن تكون مسيحياً . فاليهودي يفهمه بنفس القدر تماماً . إن الشيء الجيد الذي امتاز به تولستوي هو أنه قد امتلك الشجاعة أخيراً على الهرب من زوجته ، والجرأة على أن يهب أمواله للغير ـ كان المجنون يعيش في النعيم . فهو لا يكترث بالمال . المسيحيون عبارة عن مجانين زائفين ، فهم يحملون معهم شهادات التأمين جنباً إلى جنب مع المسبحة وكتب الصلوات .

اليهودي لا يصطحب معه المزامير ـ فهو يحفظها عن ظهر قلب . وحتى عندما يبيع أربطة الأحذية تراه يهمهم لنفسه بأبيات من المزامير . أما المسيحي فعندما ينشد ترنيمة يطلق صوتاً قوياً وكأنه يشن حرباً ، كأني به يقول : إلى الأمام إيها الجنود المسيحيون! كيف يتم إنشادها ؟ كأنه مارش حربي ؟ لماذا كأنه ؟ كانوا دائماً يشنون الحرب ـ السيف في يد والصليب في اليد الأخرى» .

في هذه اللحظة نهضت مونا لتدنو منا أكثر من ذي قبل . كان السيد ألفنباين يمد يديه ـ كما لو كان يمدهما إلى شريكة رقص . صار يقيس مونا بنظراته من رأسها إلى أخمص قدميها وكأنه دلال المزاد العلني ثم قال :

ـ «ماذا مثلت في آخر عرض مسرحي... وردتي من شارون ؟ »

أجابت : «الككتوه الأخضر ، تيك تاك توك» .

ـ «وقبل ذلك ؟ »

ـ «أغنية الماعز ، ليليوم ، القديس جوان» .

رفع يديه قائلاً : «قفي! إن مسرحية / The Dybbuk/ تناسب مزاجك بشكل أفضل . إنها أكثر تخصصاً بمشاكل النساء .

ما اسم المسرحية التي تعرض الآن من مؤلفات زودرمان ؟ ليس مهماً . آه ، نعم... إنها /ماغدا/ . أنت ماغدا ولست موناڤانا . اسألك كيف كنت سأبدو في مسرحية /إله الثأر/ ؟ هل أناشيلد كراوت أم بن آمي ؟ اعطني

مسرحية /سيبيريا/ لأمثلها لا مسرحية /خادم في البيت/ . صار يربت لها تحت ذقنها بلطف وقال :

ـ «إنكِ تذكرينني إلى حد ما بإليسّالاندي . نعم مع لمسة من ناظموڤا ربما . لو كنت أكبر حجماً ربما لكنت موديسكا أخرى . إن هِداغابلر هي بالضبط التي تناسبك . أما مسرحيتي المفضلة فهي /البط البري/ ثم تأتي بعدها مسرحية /فتى الغرب المدلل/... ولكن ليس باللغة البيدية معاذ الله! »

كان واضحاً أن المسرح هو موضوعه المفضل . فقد عمل ممثلاً منذ سنوات ، أول الأمر في الـ Rummeldum Vitza أو في مكان وضيع من هذا النوع . ثم في فرقة تاليا على مسرح البويري حيث قابل (بن آمي) هناك . ثم قابل في مكان آخر بلانس يوركا ، وكان قد تعرف أيضاً على ڤستاتيلي وداڤيد وورفيلد . كان يؤمن بأن مسرحية /اندروكليوس والأسد/ هي درة من درر المسرح ، لكنه لم يكن مهتماً ببقية أعمال برنارد شو الأخرى . كان مولعاً جداً بأعمال بن جونسون وهازنكلفر وفون هوفمانستال . كان يقول :

ـ «النساء الجميلات نادراً ما يصبحن ممثلات قديرات . لا بد دائماً من وجود علة من نوع ما ـ كأن يكون الأنف طويلاً أو العينان فيهما شيء من الحول . وأفضل شيء هو وجود الصوت الغريب . فالناس يتذكرون الصوت دائماً . خذ مثلاً صوت بولين لورد . ثم التفت إلى مونا وقال :

ـ «أنت تمتلكين صوتاً جيداً أيضاً . صوت فيه سكر وقرنفل وجوز الطيب . أسوأ الأصوات هو الصوت الأمريكي ؛ إذ لا روح فيه . جاكوب بن آمي كان يمتلك صوتاً مدهشاً... مثل الحساء الجيد الذي لا يفسد أبداً . لكنه كان بطيئاً كالسلحفاة . يجب على المرأة أن تهذب صوتها قبل كل شيء . كما يجب عليها أيضاً أن تفكر أكثر بما تعنيه المسرحية... لا أن تفكر بسائق عربتها الوسيم... أقصد بمؤخرتها الفاتنة* . الممثلات اليهوديات يمتلكن من

* هنا وقع إلفنباين في التباس لفظي (قد يكون متعمداً) بين كلمة Postillion التي تعني الحوذي وكلمة Posterior التي تعني المؤخرة (م) .

اللحم أكثر مما يجب عادة . فعندما يمشين عبر خشبة المسرح يرجرجن كالهلام ـ لكن أصواتهن فيها أسى وهن غير ملزمات بأن يتصورن شيطاناً يقتلع نهداً بملقط ساخن . نعم إن الخطيئة والحزن هما أفضل المضامين وقليلاً من الخيال كما في مسرحيات وبستر أو مارلو . فالإسكافي الذي يتحدث إلى الشيطان كلما ذهب إلى دورة المياه ، أو يقع في حب ساق نبتة الفاصولياء كما في مولداڤيا . المسرحيات الأيرلندية مليئة بالمجاذيب والسكارى والهراء الذي ينطقون به رهيب . الايرلنديون دائماً شعراء ، لا سيما عندما لا يعرفون شيئاً . لقد تعذبوا كثيراً ـ ربما ليس بقدر اليهود ـ ولكن بما يكفي . لا أحد يحب أكل البطاطا ثلاث مرات يومياً أو استعمال المذراة بمثابة نكاشة أسنان . الايرلنديون ممثلون عظماء ، شمبانزيات بالفطرة . البريطانيون مهذبون أكثر مما يجب ، ومتعقّلون أكثر مما يجب . إنهم عرق ذكوري ـ لكنهم مخصيون » .

سمعنا صخباً عند الباب ، لقد كان السيد إسن عائداً من مشواره ومعه زوج من القطط الجرباء كان قد التقطهما من الطريق . كانت زوجته تحاول رميها خارج البيت . كان يهتف وهو يلوّح بقلنسوته :

ـ « إلفنباين! تحياتي! كيف جئت إلى هنا ؟ »

أجابة : « وكيف تفترض بي أن أجيء إلى هنا ؟ على قدمي أم لا ؟ »

تقدم خطوة الى الأمام ثم قال :

ـ « دعني اشم رائحة نفسك! »

ـ « ابتعد! ابتعد عني! ومتى كنت سكراناً ؟ »

ـ « عندما تكون سعيداً أكثر مما يجب ـ أولا تكون سعيداً للغاية » .

قال ريب ذلك وهو يرخي ذراعه حول كتفه بتودد :

ـ « صديق كبير ، إلفنباين هذا ، إنه الملك لير الييدي . هكذا هو ـ ما الأمر ؟ إني أرى الكؤوس فارغة »

قال إلفنباين : « مثل دماغك . نحن نشرب من الروح ، مثل موسى ، من الصخر ينبجس الماء ، ومن القارورة تنبجس الحماقة فقط . عار عليك يا ابن

الشك أن تكون ظمآناً هكذا »

ثم تشتت الحديث . كانت السيدة إسن قد تخلصت من القطط وأزالت (اللخبطة) التي سببتها في مدخل الصالون ، ثم عادت إلى تمسيد شعرها بيديها عن جبينها . كانت سيدة في كل شبر منها . لاحقد ، لا اتهامات مضادة . كانت باردة جداً بطريقتها التربوية الأخلاقية الفائقة التهذيب . اتخذت لنفسها مقعداً قرب النافذة وهي تأمل ـ دون شك ـ بأن يتخذ النقاش منحى أكثر عقلانية . كانت مغرمة بالسيد إلفنباين ، لكنه كان يزعجها بحديثه عن العالم القديم وإيماءاته الجنونية ونكاته المبتذلة . كان الملك لير الييدي في هذا الوقت عصياً على كل محاولات اللجم والإسكات ؛ فقد انطلق في مونولوغ مطول حول زندا افستاس ، مع ملاحظات جانبية سافرة بين الفينة والفينة حول كتاب الاتيكيت اليهودي كما هو مفترض ـ مع أنه كان كاتباً صينياً . ثم خلص إلى القول بأن الإنسان ـ تبعاً لرأي زرادشت ـ قد تم اختياره لكي يتابع مهمة الخلق . ثم أضاف :

ـ « إن الإنسان لا يساوي شيئاً ما لم يكن مشاركاً . فالله لا يمكن إبقاؤه حياً عن طريق الصلوات والحقن . لقد نسي اليهودي كل ذلك ، أما المسيحي فهو مشلول روحياً » .

ثم تبع هذه العبارات نقاش مضطرب ، كان بحد ذاته كافياً لتسلية السيد إلفنباين . إذ أنه بدأ وسط هذه المعمعة يغني بأعلى صوته :

Rumcinie, Rumeinie, Rumeinie, ... a mameligele...
apastramele ... akarnatsele... un agleizele wne Ah!

ثم قال ، عندما هدأ الهرج والمرج :

ـ « ها أنت ترى ، حتى في اسرة ليبرالية ، إن إدخال الأفكار شيء محفوف بالمخاطر . لقد ولى ذلك الزمان الذي كانت فيه مثل هذه الأحاديث بمثابة الموسيقا للأذن . كان الحاخام يأخذ شعرة ويفلقها بسكين مثل موسى الحلاقة إلى ألف شعرة . لم يكن أحد ملزماً على الأتفاق معه ، فقد كان ذلك

تمريناً يشحذ الذهن ويجعلنا ننسى الخوف . عندما كانت تعزف الموسيقا لم تكن بحاجة إلى شريكة ، كنت ترقص مع زوف أو توفت أو غيمل . أما الآن فعندما نتجادل نضع أعصبة فوق عيوننا .

نذهب لمشاهدة توماشفسكي ونحن نبكي كالخنازير ولسنا نعرف شيئاً عمن يكون بتشورين أوأكساكون . وإذا حدث على خشبة المسرح أن قام يهودي بارتياد ماخور ـ ربما بطريق الخطأ ـ ترى الجميع يحمرون خجلاً من المؤلف . لكن اليهودي الجيد ـ الصالح ـ هو الذي يستطيع الجلوس في المسلخ ويبقى تفكيره محصوراً بيهوه .

ذات مرة في بوخارست شاهدت رجلاً متديناً يأتي على زجاجة فودكا بكاملها لوحده ، ثم صار يتحدث بالمواعظ لمدة ثلاث ساعات دون توقف . كان حديثه يدور حول الشيطان . كان مثيراً للاشمئزاز بفعل الروائح التي كانت تصدر عنه . وعندما غادرت المقهى كان كل شيء يبدو شيطانياً بالنسبة لي . وكان عليّ أن أذهب إلى ماخور ـ عذراً ـ لكي أتخلص من الكبريت . كان المكان متوهجاً كالفرن هناك وكانت كل النساء ملائكة قرمزية ، وحتى المدام ـ صاحبة الماخور ـ التي كانت نِسرة بالفعل . آهٍ لذاك الوقت الذي أمضيته تلك الليلة! حدث كل ذلك لأن زاديك كان قد تناول من الفودكا أكثر مما يجب .

نعم ، إنه لشيء رائع أن ترتكب خطيئة في وقت من الأوقات دون أن تجعل من نفسك خنزيراً . ارتكب الخطيئة بعينين مفتوحتين ، أعرف نفسك في ملذات اللحم البشري ، ولكن لا تنسَ أن تبقى معلقاً بشعرة . الكتاب المقدس مليء بالبطاركة الذين انغمسوا في اللحم البشري لكنهم لم يفقدوا بصيرتهم لله الواحد الأوحد . كان اسلافنا رجال روح ، لكنهم كانوا يمتلكون لحماً يغطي عظامهم . كان بمقدور الواحد أن يتخذ محظية ويبقى محافظاً على احترامه لزوجته . ومع ذلك ، فقد كان باب المعبد هو المكان الذي تتعلم فيه البغيُّ أسرار مهنتها . بلى ، لقد كانت الخطيئة واقعية أيضاً ـ وكذلك كان الشيطان . أما الآن فقد صار لدينا أخلاقيات ، أطفالنا يصيرون صناع ملابس ، قطاع

طرق ، مايستروهات ، وقريباً جداً سيجعلون من أنفسهم فنانين بهلوانيين ولاعبي هوكي... »

قال ريب من أعماق الأريكة التي كان يجلس عليها :

- « نعم ، لقد صرنا الآن أقل من العدم . ذات يوم كان لنا عِزٌ... »

قاطعه إلفنباين قائلاً :

- « لقد أصبح لدينا اليهودي الذي يتكلم مثل المسيحي إذ يقول أن لا شيء يهمه سوى النجاح . اليهودي الذي يرسل ابنه إلى الأكاديمية العسكرية لكي يتعلم قتل رفيقه اليهودي . أما ابنته فيرسلها إلى هوليوود لكي يجعل منها نجمة سينمائية - هنغارية كانت أم رومانية - عن طريق إظهار عريها وبدلاً من الحاخامات العظماء صار لدينا ملاكمون محترفون من الوزن الثقيل . لا بل أنه صار عندنا لوطيون weh is wir ، وقريباً سيصبح لدينا قوزاق من اليهود » .

وظل ريب يكرر متنهداً : « رب ابراهيم لا سواه » .

قال إلفنباين : « دعهن يظهرن عريهن ، ولكن بشرط ألا يتظاهرن بأنهن وثنيات همجيات . دعهن يتذكرن آباءهن الذين كانوا باعة جوالين وعلماء سقطوا تحت أعقاب السفاحين » .

وهكذا تابع الكلام وهو يقفز من موضوع إلى موضوع مثل حيوان الشامو الذي يقفز في الهواء الطلق . كانت تتناثر من شفتيه أسماء من قبيل مردخاي آهاسورس مع الليدي مندرمير وسدوم وعمورة . في إحدى شطحاته عرَّج على ذكر مسرحية / عطلة الإسكافي / ، وقبائل بني اسرائيل المفقودة ، وكان دائماً مثل داء صيفي يعود إلى ذكر علة المسيحيين التي كان يشبهها بـ eine Arehk-ra kheit . انتهت مصر مرة أخرى . لكن دون فخامة ، ودون معجزات . كانت العلة هذه المرة في الدماغ . النزوات وبذور الخشخاش . حتى اليهود يتطلّعون إلى يوم البعث . إذ أن هذا اليوم ، بالنسبة لهم ، - كما قال - سيكون مثل حرب بدون رصاص دمدم . في هذه اللحظة بدأ يفقد توازنه في الكلام . لم يكن يشرب شيئاً سوى ماء السلتزر . إن عبارة النعيم الدنيوي التي تلفّظ بها كانت تسبب له

انفجاراً في الرأس . ما هو النعيم ؟ نوم طويل في القنوات الفالوبية أم جنود ألمان بدون رعب . والدانوب دائم الزرقة في ڤالس شتراوس .

بلى ، لقد اعترف بأن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم تحوي الكثير من الهراء المكتوب ، ولكنها لا تخلو من المنطق . إن سفر العدد لم يكن كله جرجاراً ؛ لقد كان يتصف بالاثارة الغانية . أما فيما يتعلق بالختان ، فلربما تكلم المرء أيضاً حول السبانخ المفروم نظراً للأهمية التي يكتسبها . كان كل كيس تفوح منه رائحة المواد الكيماوية ومسحوق الصراصير . كان الـ Amel kites هم الصراصير الروحيون لذلك العصر مثلما أن القائلين بتجديد العماد* هم صراصير هذا العصر » .

قال بلهجة خطابية وهو يحدجنا بنظرة مخيفة :

ـ « لا عجب أن كل شيء صار على شكل هيكل ، ولكم كانت صادقة كلمات زاديك ، إذ قال : « إذا استثنياه ، جل جلاله ، فلا شيء واضح فعلاً » .

اوف! كان ينفخ ، لكن كان لديه الكثير مما لم يقله . لقد قام الآن بوثبة متألقة من أعماق ترامبولينه . ثمة كائنات بشرية قليلة كان عليه أن يذكر اسماءها : باربوس ، طاغور ، رومان رولان ، باغوي ، على سبيل المثال . أصدقاء الإنسانية كانوا كلهم كائنات بطولية . حتى أمريكا كانت قادرة على انتاج كائن انسانوي ، الشاهد يوجين . ف . هوبز » .

وأضاف قائلاً أن هناك الفئران التي ترتدي البزات العسكرية الخاصة بالفيلدمارشات والآلهة التي تنتقل بين ظهرانينا مثل الشحاذين . لقد كان الكتاب المقدس يعج بالعمالقة ، المردة الأخلاقيين والروحيين . من كان يجاري الملك داؤود ؟ من كان بعظمة ، لا بل بحكمة سليمان ؟ كان سبع يهوذا ما يزال حياً يزأر . لم يستطع أي مخدّر أن ينّوم هذا السبع تنويماً متواصلاً .

---

* القائلين بتجديد العماد Anabaptists : طائفة بروتستانتية نشزت في اوروبا بعيد عام ١٥٢٠ وتميزت بالشروط القاسية التي وضعتها لعضوية الكنيسة وبإصرارها على إعادة تعميد البالغين ورفض عماد الأطفال (م) .

قال : «سيأتي زمن نجد فيه أن أثقل المدافع يتم التقاط قذائفها بأعشاش العناكب وجيوشاً تذوب كالثلج . إن الأفكار تتداعى كالجدران العتيقة . العالم ينكمش مثل قشرة بندق الليتش . والبشر ينضغطون إلى بعضهم مثل أكياس رطبة وهم يتعفنون بالخوف . عندما ينضب الأنبياء فلا بد للحجارة أن تتكلم . البطاركة لم يكونوا بحاجة إلى أبواق . كانوا يقفون بصمت ينتظرون الرب لكي يتبدى لهم . أما الآن فإننا ننط مثل الضفادع من بالوعة مجرور إلى أخرى ونتكلم كلاماً خالياً من المعنى . لقد بسط الشيطان شبكته فوق العالم ونحن نتخبّط مثل السمك المعد للقلي . كان الانسان جالساً وسط حديقة عارية ، مجرداً من الأحلام . فكل مخلوق قد نال مكانه وظرفه . وكانت الوصية أن (أعرف مكانك!) وليس (اعرف نفسك!) . لا تصير الدودة فراشة إلا عندما تصبح مسكرة بجلال وعظمة الحياة .

ـ «لقد استسلمنا لليأس ، ووجدت النشوة طريقها إلى الثمالة . فالإنسان الثمل في الحياة يرى الأخيلة ولا يرى الأفاعي . فهو لا يحمل رواسب الماضي . في هذه الأيام صار لدينا طائر أزرق في كل بيت ـ طائر مفلّن (بالفلين) ومعبأ في قارورة . في بعض الأحيان يطلقون عليه اسم / كنتوكي معتّق/ وفي أحيان أخرى يكون عبارة عن رقم رخصة Vat 69 . وكلها تكون مسمومة حتى عندما تكون مخففَة» .

توقف عن الكلام لكي يسكب قليلاً من ماء السلتزر في كأسه . كان ريب يغط في نوم عميق . كان وجهه يكتسي بنظرة تنم عن سعادة مطلقة كما لو أنه قد شاهد جبل سيناء .

قال إلفنباين وهو يرفع كأسه

ـ «هاكم الآن ، دعونا نشرب نخب عجائب العالم الغربي علها تكف عن الازدياد! لقد تأخر الوقت ـ وأنا قد احتكرت أرض الغرفة . ربما سأحكي لكم عن أيامي مع كارمن سيلنا ـ أقصد المقهى وليس الملكة . مع أني استطيع القول بأني قد نمت في قصرها ذات مرة... في الاصطبل ـ أقصد . ذكرني بأن احكي

لك المزيد عن جاكوب بن آمي... لقد كان فيه شيء آخر غير الصوت» .

وبينما كنا نستأذن بالانصراف ، سأل إن كان بوسعه مرافقتنا إلى الباب فقلت له :

- «بكل سرور» .

وبينما كنا نمشي في الشارع توقف لتهوية جسمه المتعرق .

قال لي : «هل لي أن اقترح عليك فيما بعد أن تضع لكتابك عنواناً هو : /هذا العالم النصراني/ . إذ أنه سيكون اكثر ملائمة حتى ولو كان خالياً من المعنى . استعمل اسماً مستعاراً مثل بوغوسلافسكي مثلاِ ؛ إذ أن ذلك سيزيد من تشويش القارئ» . وأضاف قائلاً :

- «أنا لست مهذاراً بهذا الشكل دائماً . لكنكما انتما الاثنان من نوع غرانز وبالنسبة لمنبوذ من ترانسلفانيا ، فإن ذلك يبدو وكأنه نوع من المقبلات لقد كنت دائماً أرغب في كتابة الروايات الحمقاء على طريقة ديكنز ، روايات من نوع /السيد بيكويك/ بدلاً من أن أصبح ولداً مستهتراً .

حسناً ، سأقول لكما تصبحان على خير الآن! إن إلفنباين هو اسمي المستعار ، أما اسمي الحقيقي فإنه سوف يفاجئكما . عُد إلى سفر التثنيه - الاصحاح الثالث عشر واقرأ ما يلي :

(يهوذا نهض بينكم) - في هذه اللحظة أصابته نوبة عطاس قوية .

قال : «إنه ماء السلتزر» .

- «ربما كان عليَ أن أذهب إلى حمام تركي . لقد حان الوقت للإصابة بالانفلونزا . تصبحان على خير الآن! إلى الأمام كما إلى الحرب . إلى الأمام! لا تنس سبع يهوذا! بإمكانك أن تشاهده في السينما عندما تبدأ الموسيقا» .

وصار يقلد الزئير ، ثم قال :

- «هكذا» . لكي يبرهن على أنه ما زال مستيقظاً .

الفصل السادس عشر

« لماذا ينبغي علينا دائماً أن نخرج عن طورنا لكي نصف حقارة ونقاصات الحياة ، وننبش الأشخاص من الزوايا الموحشة القصية لأوطاننا ؟ »

هكذا يبدأ غوغول الفصل الحادي عشر من روايته غير المكتملة .

كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به في الرواية ـ أقصد روايتي ـ لكني كنت لا أزال لا امتلك أية فكرة واضحة عن النهاية التي كانت تقودني إليها ، كما أن ذلك لم يكن يهمني باعتبار أن بوب كان مسروراً بكل ما عرض عليه حتى الآن ، وكانت النقود ترد مقدماً بشكل دائم ؛ فكنا نأكل ونشرب جيداً ، والعصافير قل تواجدها لكنها بقيت تغرد . كان عيد الشكر قد جاء دوره وولى ، وسجلت تحسناً في لعب الشطرنج إلى حد ما . وعلاوة على ذلك لم يكن قد قدر لأحد أن يكتشف مكان وجودنا ، أقصد (أحد) من أصدقائنا المزعجين . لذا فقد كنت قادراً على استكشاف الشوارع كلما شئت ذلك ، وكنت أفرط في القيام بذلك لأن الهواء كان قارساً ولاذعاً ، وكانت الريح تصفر ، وحتى دماغي الذي كان في دوامة قد جعلني أهيم على وجهي وكان يجبرني على استكشاف الشوارع والذاكرات ، والأبنية والروائح الكريهة للخضراوات المتعفنة ، ومزلقانات السفن ، وأصحاب الحوانيت الذين ماتوا منذ زمن طويل ، والصالونات التي تحولت إلى حوانيت رخيصة ، والمقابر التي لا

تزال تعبق بهراء النائحين .

كانت كل الأرض الموحشة والبعيدة من حولي على مرمى حجر فقط من الحدود التي تتاخم ضاحيتنا الارستقراطية . لم يكن عليَّ سوى أن أعبر الخط الفاصل لكي أصبح في عالم الطفولة الأليف في بلاد البؤساء المعتوهين بسعادة . في ساحة الخردة حيث كان كل شيئ مهرباً ، عديم الفائدة ، وموبوءاً بالجراثيم قد وفرته الجرذان التي كانت ترفض أن تهجر السفينة . بينما كنت أتجول محدقاً في واجهات المحلات أنعم النظر في الأزقة ولا أرى سوى الخراب الكئيب ، كنت أفكر بالزنوج الذين أزورهم بانتظام وكيف كانوا يبدون بمنأى عن الإفساد . إن داء المسيحيين لم يكن قد خرب ضحكتهم وموهبتهم في الكلام وعاداتهم البسيطة . كان عليهم أن يصارعوا كل أمراضنا ومظالمنا (وأحكامنا المسبقة أيضاً) ، ومع كل ذلك ، فقد حافظوا على مناعتهم . صار ذاك الرجل الذي يمتلك مجموعة من الكتب الجنسية شديد التعلق بي ، فوجدت نفسي ملزماً على الاحتراس ، لئلا يسندني إلى قرنية وينسف مؤخرتي . لم أكن أحلم ذات يوم بأن تطال يده مؤلفاتي أيضاً ويضمها إلى مجموعته المذهلة .

كان عازفاً رائعاً للبيانو ؛ إذ كان يمتلك تقنية (الدعسة الجافة) التي كنت استمتع بها كثيراً لدى كونت باسي وفاتس وولر ، فقد كان هذان الظريفان يعزفان على آلة ما ، وإذا لم يجدا آلة موسيقية فقد كانا يصنعان الموسيقا بأصابعهما وراحات أكفهما ، على الطاولات ، على البراميل ، أو أي شيء آخر يقع تحت أيديهما . لم أكن قد قدمت في روايتي أية (شخصية منبوشة) حتى حينه . كنت لا أزال جباناً . صرت مولعاً بالكلمات أكثر من ولعي بعمليات استئصال المهابل المثيرة نفسياً* . وكنت على استعداد لقضاء ساعات متواصلة مع والتر باتر ، أو حتى مع هنري جيمس على أمل أن اقتطف عبارة متقنة الصياغة . أو قد أجلس وأحدق في صحيفة يابانية أو قل في (الطراز المتقلب)

* Psychopathetic devaginations

لأوتامارو في محاولة لإيجاد ارتباط قسري بين شبح مبهم حالم لصورة وكليشة خشبية ملونة حية . كنت أتسلق السلالم بشكل مسعور لكي أقطف تينة ناضجة من حديقة الماضي الشهية العملاقة . وكانت الصفحات المصورة لمجلة « الجغرافي » قادرة على أن تشدني اليها مسحوراً لبضع ساعات .

كيف اشتغل في مرجع معقد يعود لمنطقة نائية مثل آسيا الصغرى ، أو لموقع مجهول كان قد ترك فيه مسخُ عاهلٍ حثي تماثيل هائلة إحياء لذكرى أناه الملوثة بخراء البراغيث . أو قد أنقب في كتاب تاريخي قديم ـ أو لنقل في أحد مؤلفات مومسن لكي أتوصل إلى مقارنة ذكية بين وادي وول ستريت المليء بناطحات السحاب ومقاطعات روما المكتظة تحت حكم الأباطرة . أو أنني قد أصبح منشغلاً بالمجارير ـ مجارير باريس الكبيرة أو أية عاصمة أخرى ـ حيث كان هوغو ، أو أي كاتب فرنسي آخر ، قد استغل مثل هذه الفكرة ، فكنت أعكف على قراءة هذا الروائي وحده لأكتشف ما الذي دفعه لأن يولي المجارير مثل هذا الاهتمام .

في هذه الأثناء ـ كما قلت « كانت الزوايا القصية الموحشة من بلادنا » تحت موضع اليد . إذ كان كافياً أن أقف واشتري باقة فجل حتى أنبش شخصية غريبة الأطوار . لو كان موكب جنازة ايطالية يثير اهتمامي وفضولي لاقتحمت الموكب واستفسرت عن ثمن التابوت . فكل شيء كان يقع وراء الخط الفاصل كان يثيرني . لقد اكتشفت أن بعضاً من شخصياتي اللئيمة العصويكونية المنقرضة قد سكنت أرض الخراب هذه . وكان عالم الآثار المصرية باتريك غارستن واحداً منها . (فقد كان يبدو منقباً عن الذهب أكثر مما يبدو عالم آثار » . كما أن دوناتو قد عاش هنا أيضاً . دوناتو ذاك الفتى الصقلي الذي لم يحالفه الحظ عندما هوى على والده العجوز ببلطة سوى بقطع ذراع واحدة فقط . أية طموحات كان يمتلك ذاك القاتل الناشيء . في السابعة عشرة كان يحلم بالحصول على وظيفة في الفاتيكان ، لكي يصبح ـ على حد قوله ـ أكثر قرباً من القديس فرنسيس . لدى قيامي بهذه الجولات متنقلاً من سرير قلوي إلى

آخر ، كنت أجدد كل معارفي ومعلوماتي الجغرافية والاثنولوجية والفولكلورية وفنون الرماية . كان فن العمارة يعج بالشذوذات التآسلية atavistic . فقد كانت هناك منازل نُقلت ـ كما يبدو من الظاهر ـ من شواطئ بحر قزوين ، وأكواخ من حكايا أندرسن الخرافية ، وحوانيت من متاهات فاس الباردة ، ودواليب عربات وصلكيات Sulkiesبدون محاور ، وأعداد وفيرة من أقفاص الطيور الفارغة دوماً ، ونونيات مهجعية مصنوعة من الماجوليكا ومزخرفة بأزهار الثالوث وعباد الشمس ، ومشدات نسائية للأرداف والخصور ، وعكاكيز وقبضات واسياخ شمسيات... عدد كبير لا حصر له من متجر الأشياء العتيقة* الموصومة كلها بعبارة (صنع في هاجياترياداا . يا لها من أشياء متقزمة! أما ذاك الذي كان يدَّعي أنه لا يتكلم سوى البلغارية ؛ فقد كان بالفعل رجلاً مولدافياً يعيش في وجار للكلاب في قفا كوخه . كان يأكل مع الكلب من نفس الصحن المصنوع من الصفيح . عندما كان يبتسم لم يكن يظهر من أسنانه الكبيرة كأسنان الكلب سوى اثنين فقط . كان بوسعه أن ينبح أو يشمشم أو يهرهر مثل كلب هجين . لم أجرؤ على إدخال شيء كهذا في روايتي . لا ، فلقد حافظت على الرواية بمثابة مخدع وليس بمثابة مزبلة . ليس معنى ذلك أن كل الشخصيات كانت محترمة أو خالية من العيوب . آه ، لا ، إن البعض ممن كنت قد قصدتهم من قبيل التنويع كانوا حلياً بسيطة أو قل ايوراً بدون قلفات . إن البطل الذي كان راوياً أيضاً ، والذي كنت أحمل شبهاً طفيفاً به ، كانت لديه نغمة إنسان عقلاني شبه منحرف .

ألم يكن هدف بوب أن يعرف أين يكمن عنصر الغرابة والنشاز ؟ لقد استغرب علناً ـ كيف يمكن لإمرأة شابة (يقصد مؤلفة الرواية) أن تأتي بمثل هذه الافكار وهذه التخيلات ، ولم يكن يخطر ببال مونا أن تقول : « إنه من استحضار شخص آخر »

أقول بصراحة إنه كان من الصعب أن أعرف ما الذي سأقوله لو كنت

* bric a bric بالفرنسية في الأصل .

مكانها . إن بعض الصور الأكثر حماقة قد سرقت من الرزنامة والبعض الآخر كانت وليدة الأحلام الرطبة . وكما يبدو ، فإن بوب كان يستمتع حقاً بإدخال كلب أو هر بين الفينة والأخرى . (لم يكن بمقدوره طبعاً أن يعرف أنني كنت أموت خوفاً من الكلاب و أنني كنت أقرف من القطط) .

إن تبريري الحقيقي لإدخال هذه المخلوقات الحقيرة هو لإظهار مدى احتقاري لشخصيات معينة في الكتاب كانت قد أفلتت من قبضتي . والكلب إذا أُثير بالشكل المناسب يمكنه أن يستحمر ملكة . ناهيك عن أني لو كنت راغباً في السخرية من فكرة راهنة بغيضة على قلبي ، فما كان عليَّ إلا أن أمثل شخصية كلب هجين وأرفع ساقي الخلفية ثم أبول عليها .

لا داعي للقول إنني رغم كل الحماقات وكل الخداعات فقد نجحت في ايجاد نوع من الزجاجيات القديمة الطراز . كان هدفي من ذلك هو إضفاء اللمعان والمظهر العتيق بحيث تومض كل صفحة مثل غبار النجوم . هكذا كانت مهنة التأليف كما فهمت فيما بعد .

اصنع بريكات من الطين إذا دعت الضرورة . ولكن لا تنسَ أن تجعلها تعكس الورنيش المجري . عند إعطاء الأبله صوتاً أضف إليه الثرثرة مع التلميحات الطنانة إلى موضوعات مثل علم المستحاثات أو المعادلات الرياضية من الدرجة الثانية . أو علم الاصقاع الشمالية القصوى Hyperboreanism ، كما أن سطراً واحداً من أحد القياصرة المجانين قد يكون وثيق الصلة بالموضوع ، أو شتيمة من شفاه قزم ملوث أخلاقياً . أو مجرد عبارة هامسونية من قبيل :

[فروكن ذاهبة في مشوار . شفاه البقرة تذوي من العطش]

وتكمن البراعة هنا في تلميح هامسون إلى عادة فروكن في بسط ساقيها والتبول عندما كانت تعتقد أنها مخفية عن الأنظار ، بالرغم من كون هذا التلميح متكلفاً . إن النزهات التي كنت أقوم بها بهدف الاسترخاء أو الحصول على شمة هواء نظيفة طرية ، وفي أغلب الأحيان لتهوية الخصيتين ـ هذه

النزهات كان لها تأثير مزعج على العمل بشكل مستمر . وإذا حدث أن استدرت بزاوية قدرها ستون درجة كنت أجد نفسي داخلاً في حوار مع مهندس مقطورات أو حمَّالٍ عاطلٍ عن العمل ـ حوار ينتهي مبكراً بخمس دقائق قبل أن يتطور إلى حوار ثنائي مطول ومبالغ فيه بحيث أنني كنت أجد من المستحيل لدى عودتي إلى مكتبي أن أستأنف الإمساك بخيوط الرواية . لأن أية فكرة ما إن تدخل إلى رأسي ، حتى يصبح لمساعد البنَّاء أو أي شخص آخر تعليقات يطلقها . كان النقاش يستمر بغض النظر عما كنت أرد به على الأسئلة المطروحة . وكان الأمر يبدو كما لو أن تلك النكرات الفلينية الثملة قد عزمت على إخراجي عن طوري .

من حين لآخر ، كان هذا النوع من الخديعة يبدأ بالتماثيل ، لا سيما المضروبة والمفككة منها . وقد صار من الممكن لي أن أتسكع في ساحة خلفية شارد الذهن محدقاً في رأسٍ رخامي عديم الأذنين . كان يتحدث إلي بسرعة ، وبلهجة نائب قنصل . كما أن حاجة مجنونة كانت تدفعني لمداعبة الملامح المشحونة لكي يبتسم لي ، كما لو أن لمسة من يدي قد أعادته إلى الحياة ، ولا داعي للقول أنها ابتسامة عرفان بالجميل . بعد ذلك يحدث لي شيء غريب ؛ فبعد انقضاء ساعة على ذلك ، وبينما كنت أمر بقرب النافذة الزجاجية المطلة لدكان فارغ ، إذ بشخصٍ يحييني بحرارة من الأعماق المظلمة . ومن يكون ذاك الشخص سوى نائب القنصل نفسه! أصابني الذعر ، فصدمت انفي بواجهة الدكان وأنا أحدق النظر . كان قابعاً هناك وقد فقد إحدى أذنيه وقُضم أنفه وشفاهه تتحرك . تمتمت قائلاً :

ـ « ناعور شبكي » وانصرفت من المكان .

ـ « ليكن الله في عوني إن زارني في نومي! »

وهكذا ، على نحوٍ ليس مستغرباً ، نشأ لدي نوع مما يسمى (عين الرسام) . في أغلب الأحيان كان شغلي الشاغل هو العودة إلى بقعة محددة لكي أتأمل تلك الحياة الهادئة التي كنت قد أمضيتها على عجلٍ قبل يوم أو ثلاثة أيام

خلت . إن الحياة الهادئة ـ كما اسميتها ـ ربما كانت ترتيباً عشوائياً للأجسام التي ما كان لأحد بكامل قواه العقلية أن يتضايق من النظر إليها مرتين . على سبيل المثال ، بضعة أشخاص يلعبون الورق ووجوههم إلى الرصيف ، وبعدهم مباشرة يقع مسدس من ألعاب الأطفال أو رأس صوص تائه .

أو قد يكون المشهد عبارة عن باراسول مفتوح ممزق إلى مزق طولية مشكول في حذاء حطاب ، وإلى جانب الحذاء توجد نسخة مهترئة من (الحمار الذهبي) مخروزة بسكين صدئة .

وبينما كنت اتساءل عما فتنني في هذه الترتيبات العشوائية إلى هذا الحد ، اتضح لي فجأة أنني كنت قد اكتشفت صوراً مشابهة في عالم الرسامين ، ومن ثم فإن معرفة اسم الرسام والمكان الذي وقعت عيني على الصورة فيه لم تستغرق مني سوى عمل ليلة كاملة . إنه لأمر استثنائي عندما يتعهد المرء بملاحقة مثل هذه التهيؤات أن يكتشف أية تفاهات مذهلة وأي جنون محض تبتلى به بعض روائع الفن العظيمة .

لكن ابرز السمات التي كانت على ارتباط بهذه الرحلات والجولات والغزوات والاستكشافات هي عالم الإيماء البانورامي الموجود في الذاكرة ؛ الايماءات البشرية المستعارة كلها من عوالم الحيوانات والحشرات . حتي ايماءات اولئك الأفراد «المهذبين» أو المهذبين المزيفين أمثال أولئك الذين يجهزون الموتى للدفن والتابعين المتزلفين ووكلاء التعاليم الدينية والقهرمانات . لقد بقيت عالقة في معدتي لمدة طويلة طريقة أحد النكرات في إرجاع رأسه إلى الوراء والصهيل بعد عجزي عن استنكار كلماته وأفعاله . ولقد اكتشفت أن ثمة روائيين كانوا متخصصين في استغلال مثل هذه الخصوصيات المزاجية والذين لا يفكرون في شيء سوى اللجوء إلى حيلة صغيرة كصهيل الحصان عندما يرغبون في تذكير القارئ بشخصية ورد ذكرها منذ ستين صفحة .

إنهم محترفون ـ فنانون ـ كما يسميهم النقاد . وإنهم بارعون بكل تأكيد . وليس هذا وحسب ، بل كنت في تعثري واضطرابي أقوم بكل أنواع

الإكتشافات ، وأهمها هو أن ليس بمقدور المرء أن يخفي هويته تحت غطاء ضمير الغائب المفرد ولا أن يؤسس لنفسه هوية من خلال استعماله الضمير المتكلم المفرد . أما الاكتشاف الآخر فهو أن [لا تستسلم للتفكير إذا كنت أمام صفحة بيضاء] .

(Ce n'est pas moi, le roi, c'est l'automne)

بمعنى آخر ، ليس أنا بل الأب الموجود في داخلي .

إنه مجرد تمرين على جعل الكتابة تقطر دون تهويتها بريشة أو تحريكها بملعقة فضية . وتعلم الانتظار ، الانتظار بصبر . كطير جارح مع أن الذبابات تلسع بشكل مسعور والعصافير تزقزق بشكل جنوني .

قبل ابراهام ـ نعم قبل ابراهام ، وقبل غوته الاوليمبي ، قبل شكسبير العظيم ، قبل دانتي الإلهي أو هوميروس الخالد : كان الصوت ، كان الصوت موجوداً لدى كل إنسان . فالإنسان لم تكن تعوزه الكلمات أبداً . لم تظهر المشكلة إلا عندما أرغم الإنسان الكلمات على أداء فهل الوجود الهذي Id-dhis being . كن ساكناً وانتظر قدوم الرب! امحُ كل الفكر ، راقب حركة السماء الساكنة! كلها جريان وحركة ، ضوء وظل . فأي شيء أكثر سكوناً من المرآة الزجاجية الجامدة! ومع ذلك فأي هيجان ، وأي عنف يستطيع سطحها الساكن أن يحرك .

ـ «حبذا لو تكرمت واوعزت إلى عمال قسم الحدائق بأن يقلموا ويشذبوا ويزيلوا كل الأغصان اليابسة...»

ذاك هو النوع من الرسائل التي كنت أود إرسالها في فترات زمنية إلى رب العالم الأدبي ، علني اتخلص من التشويش وأنجو من الفوضى وأتحرر من الاعجاب الهوسي بالمؤلفين ، الأحياء منهم والأموات ، الذين كانت كلماتهم وعباراتهم وصورهم تسد علي طريقي .

وما الذي كان يمنع أفكاري الفريدة من نوعها من البروز والسيلان على الصفحة ؟ لقد مضت علي الآن عدة سنوات وأنا أعدو جيئة وذهاباً مثل جرذ

المستودعات ، استعير هذا وذاك من الاساتذة المحبوبين أخفي كنوزي بعيداً ، أنسى المكان الذي خزنتها فيه . ودائماً ابحث عن مزيد ، ثم المزيد . في حفرة عميقة منسية كانت مطمورة كل الأفكار والخبرات التي كان من الممكن أن أدعي الشجاعة لإحيانها . هل كان أحد قد سلط علي سحره بحيث أنني كنت سأعمل بسلاميات مفصلية بدلاً من قبضتين واضحتين ؟ هل كان شخص ما قد وقف فوقي اثناء نومي وهمس في أذني قائلاً :

ـ « أنت لن تفعلها ، لا تفعلها أبداً! »

(لم يكن ستانلي بالتأكيد ، لأنه كان يترفع عن الهمس . ألم يكن قادراً على الفحيح كالثعبان ؟ من ـ إذا ؟ أم تراه حدث ذلك لأنني كنت لا أزال في مرحلة الشرنقة ، كنت دودة لم تسكر وتختمر بجلال وعظمة الحياة ؟ كيف يتسنى للمرء أن يعرف أنه ذات يوم سيتخذ لنفسه جناحاً ، وأنه مثل طائر رئام سيرتعش وسط السماء وينبهر بالبريق الساطع ؟ إن المرء لا يعرف ذلك . فهو يتضرع وينطح رأسه بالجدار . لكنه هو الذي يعرف ، وهو الذي يستطيع انتظار فرصته الملائمة . هو الذي يعرف أن كل الأخطاء ، كل الأنحرافات وكل الإخفاقات والإحباطات ستتم الاستفادة منها . إذا ولد المرء نسراً ، فيجب عليه أن يعتاد على الأعالي ، وإذا ولد كاتباً فيجب عليه أن يتعلم كيف يعيش منفرداً . إن الكاتب ، كالقرد الكسلان ، يتعلق بأطرافه ، بينما تجيش الحياة وتضطرب تحته على نحو متسارع . وعندما يكون على أهبة الاستعداد ، يسقط في التيار الجارف ويصارع من أجل الحياة . ألا يبدو أن في الأمر شيئاً من هذا القبيل ؟ أم هل توجد أرض واسعة رحبة يعزل فيها الكاتب الناشيء في سن مبكرة وينقن أصول فنه ويتلقى الهداية على أيدي اساتذة عطوفين ، وبدلاً من السقوط والارتطام بالتيار ، فإنه ينزلق مثل الحنكليس وسط الوحل والحمأ والسبخ .

لقد كان لدي الوقت الكافي اللامحدود من أجل ممارسة هذه التقلبات في الأهواء في سياق حياتي الروتينية اليومية . كانت تنبت بقربي مثل أشجار

الحور ، كلما أعملت تفكيري ومشيت في الشوارع طلباً للهواء العليل ، أو كلما وضعت رأسي على الوسادة بغية الإخلاد إلى النوم .

ما أروعها من حياة ـ تلك الحياة الأدبية! في بعض الأحيان كنت أحدث نفسي ، أعني بذلك هذا العالم البين ـ بين المزدحم بالأغصان والأفرع والأوراق واللواحق والجذيرات المتشابكة المتعاصرة... إلى آخر ما هنالك .

إن النشاط المعتدل المتعلق بـ «عملي» لم يفشل فقط في تصريف طاقتي ، بل إنه قد حفزها . وقد بقيت أطن إلى الأبد . وإذا كنت من حينٍ لآخر أشكو من الإنهاك ، فقد كان ذلك لأنني لم أكن قادراً على الكتابة ، وليس من كثرة الكُتَّاب . هل كنت أخشى في اللاوعي ، إن نجحت في ترك نفسي على سجيتها ؛ أن أتكلم بصوتي الخاص ؟ هل كنت أخشى في حال وجدت الكنز المدفون الذي أخفيه ألا أعرف الطمأنينة مرة أخرى ، وألا اعرف التوقف عن الكدح أبداً ؟ إن فكرة الابداع بحد ذاتها ـ كم هي عصية على المنال بشكل مطلق! أو الوصول إلى نقيضها : العماء .

من المستحيل أن نفترض شيئاً كهذا لا يخضع للإبداع والخلق . فكلما أمعنا النظر بعمق أكثر ، اكتشفنا النظام في الفوضى والقانون في التسيُّب ، والنور في الظلام . إن النفي ، غياب الأشياء ، غير واردٍ أبداً ــ فهو مجرد شبح لفكرة . إن كل ما هو مدندن ، متدافع ، متنامٍ ، متضائل ، متبدل ، هو هكذا منذ الأزل . وكل ذلك تبعاً لضروات ، لقوى : عندما نتعرف عليها ، فإننا نطلق عليها اسم القوانين . العماء! لا نعرف شيئاً عن العماء . الصمت! الأموات وحدهم الذين يعرفونه . العدم! لتضرب بما تشاء من قوة ؛ فهناك دائماً شيء ما يتبقى .

متى وأين يتوقف الابداع ؟ وما الذي يستطيع مجرد كاتب أن يبدعه ولما يتم إبداعه من قبل ؟ لا شيء . الكاتب يعيد ترتيب المادة الرمادية في رأسه . يصنع بداية ونهاية ـ نقيض الإبداع تماماً! وبين هذه وتلك ، حيث ينتقل من مكان لآخر ، أو بالأصح ينقل من مكان لآخر ، يولد تقليد للواقع ، أي

الكتاب . إن بعض الكتب قد غيرت وجه العالم . إعادة ترتيب لا أكثر . أما مشاكل الحياة فتظل قائمة . من الممكن إزالة الوجه ، لكن عمر المرء لا يمكن محوه . الكتب لا تأثير لها . المؤلفون ليس لهم تأثير . لقد تم تكريس التأثير في القضية الأولى .

[أين كنت (أنت) عندما خلقت (أنا) العالم ؟]

إذا أجبت على هذا السؤال ، تكون قد توصلت إلى حل لغز الإبداع! إننا نكتب ونحن عارفون أننا مهزومون قبل أن نبدأ . في كل يوم نتوخى عذاباً جديداً كلما حككنا وخدشنا ، تحسن إحساسنا . وعندما يبدأ قراؤنا أيضاً يحكون ويخدشون ، فإننا نشعر بالتسامي . لا تدع أحداً يموت في الفراغ . يجب أن تعج الأجواء بسهام الفكر التي يطلقها رجال الأدب . الأدب ـ تذكر ذلك! كيف السبيل إلى وضع الآداب معلقة بالأسلاك المشحونة بالتيارات المغناطيسية اللاموزونة ؟ إن كل هذا العذاب المفروض على الدماغ الذي كان مقدراً له أن يعمل مثل تعويذة ، أن يعمل دون عمل . هل ذاك الذي يرد إليك شخص أم ذهن ؟ إنه ذهن مقسم إلى كتب ، وصفحات ، وجمل متخمة بالفواصل والشحطات والنقاط المزدوجة والنجيمات .

وفي الوقت الذي ينال أحد المؤلفين جائزة أو مقعداً في أكاديمية لقاء جهوده ، نرى مؤلفاً آخر ينال عظمة يتآكلها الدود . . وفي حين أن اسماء البعض من المؤلفين تطلق على الشوارع والبوليفارات ، نرى أسماء البعض الآخر تذهب إلى المشانق وملاجئ الفقراء . وعندما تكون هذه «الإبداعات» قد قرأت بشكل نهائي وهضمت ، سيكون الناس لا زالوا يلوطون بعضهم بعضاً . لم يكن اي كاتب ـ حتى أعظم الكتاب ـ قادراً على التملص من تلك الحقيقة الباردة القاسية .

الحياة الكبرى هي نفسها تماماً ـ أقصد الحياة الأدبية ـ من الذي يريد تغيير العالم ؟ (دع العالم يتعفن ، دعه يموت ، دعه يتلاشى!)

تتراتزيني Tetrazzini (التي تمارس ارتعاشاتها الصوتية ، كاروسو

الذي يحطم الثريات ، كورتوت الذي يرقص الفالس مثل فأر أعمى ، فلاديمير العظيم الذي يرتعب من لوحة المفاتيح .

هل كان ما يفكرون به هو الإبداع أم الخلاص ؟ ربما لم يكونوا يفكرون حتى بالإمساك . الطريق يدخن تحت حوافر حصانك ، الجسور تقعقع ، السماء تنحسر إلى الوراء ، ما معنى كل ذلك ؟ الهواء يندفع ممزقاً إلى مزق طولية . كل شيء يطير محاذياً الأجراس ، أزرار الياقات ، الشوارب ، الرمان ، القنابل اليدوية . إننا نتنحّى جانباً لنفسح لك الطريق أيتها الخيول النارية . ولكم أيها الأعزاء يا شاهايغتز ، جوزف شيغيتي ، مينوهين ، إننا نتنحى ـ هل تسمعون ؟ لا جواب ، لا صوت سوى أجراس ياقاتهم .

في الليل ، عندما يمضي كل شيء منسلاً ، عندما تنسل كل الشخصيات المنبوشة من مخابئها لتؤدي عروضها على سطح دماغي ، تتجادل ، تصرخ ، تيودل* ، تدور وتصهل أيضاً... ويا لها من أحصنة! اعرف أن تلك الحياة هي الحياة الوحيدة ، حياة الكاتب هذه ، وأن العالم من الممكن أن يبقى على ما هو عليه ، وأن يسير نحو الأسوأ ، وأن يمرض ويموت ، وكل ذلك يحدث دفعة واحدة ، لأنني لم أعد انتمي إلى العالم ، إلى عالم يمرض ويموت ، عالم يطعن ويُطعن ، عالم يتمايل مثل سرطعون أبتر . إنني إمتلك عالمي الخاص ، مزقة من عالم مصطخب بالمباول والميروهات والهايدغرات والبيديهات والبيشيفا بوخرات وقواد جوقات الترتيل الذين ينشدون مثل الكلارينيتات ومغنيات الدرجة الأولى اللواتي يسبحن في شحمهن ، ونافخي الأبواق الذين يندفعون كالريح . نابليون لم يكن له مكان هنا ، ولا غوته ، ولا حتى أولئك البشر النبلاء الذين لهم سلطة على العصافير امثال القديس فرنسيس ، وميلوش الليتواني وڤتغنشتاين . وحتى عندما أكون مستلقياً على ظهري مثبتاً من قبل الأقزام والـ gremlins ، فإن سلطتي تكون شاملة وعنيدة . يطيعني المرؤوسون وهم يفرقعون مثل حبات الذرة على الصاج وهم ينطلقون كالدوامة متحولين إلى أسطر

* تيودل : يغني مكثراً من الانتقال من صوت عادي إلى صوت عالي الطبقة (م)

ثم جمل وفقرات وصفحات . وفي مكان بعيد ، في يوم سماوي آتٍ سوف يستجيب للنداء أناس آخرون متكيفون مع موسيقا الكلمات ، وتثور السماء نفسها لتنشر اهتياجاً لا حصر له . من يدري لماذا يجب أن تكون هذه الأشياء ، أو لماذا توجد الكانتاتات والموشحات الدينية ؟ الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أن سحرها قانون ، وأننا بمراقبتها والاهتمام بها وتبجيلها نضيف فرحة إلى فرحة . وبؤساً إلى بؤس وموتاً إلى موت .

ليس ثمة شيء قادر على الابداع كالإبداع نفسه ، هابيل أنجب بوغول ، وبوغول أنجب موغول ، وموغول أنجب زوبل...

حرف يضاف إلى حرف فيصنع كلمة ، كلمة إلى كلمة تصنع عبارة ، عبارة تضاف إلى عبارة ، جملة إلى جملة ، مقطعاً إلى مقطع ، وفصلاً بعد الآخر . كتاباً بعد الآخر ، وملحمة بعد الأخرى .

إن برج بابل يكاد يكون ممتداً ـ ليس تماماً ـ إلى شفتي العظيم ـ أنا .

«التواضع هو الكلمة ، أو كما يشرحه استاذي العزيز الحبيب « يجب أن تتذكر علاقتنا الحميمة بأشياء كالحشرات والزواحف المجنحة والعظائيات والعظايات العمياء والمناجذ* والظربانات الأمريكية ، وتلك السناجب الصغيرة الطائرة المسماة Polatouches ولكن لا تدعونا ننسى أيضاً عندما يجرنا الإبداع من شعرنا أن كل ذرة ، كل جزئ وكل عنصر منفرد من عناصر الكون هي في تحالف معنا ، تحالف يحثنا إلى الأمام ويعنِّفُنا لكي يذكرنا بأننا يجب ألا نفكر بالقذارة كقذارة ، ولا بالله كألله ولكن بهما مجتمعين . وهما يجعلاننا نتسابق ونعدو خلف أذيالنا ، وبذلك ندحض الحركة والمادة والطاقة وكل الهراءات المنهجية الأخرى المتصلة باست الإبداع مثل رأس سهمٍ دائم .

(إن قبعتي القشية تختلط مع القبعات القشية لزارعي الرز)

ليس ضرورياً في هذا العالم الجانح أن نقيم الولائم على الروث البشري . أو نتضاجع مع الموتى أسوة بسلوك بعض الأشخاص المؤدبين ، وليس من

* المناجذ هي صيغة الجمع من خلد (م) .

الضروري الامتناع عن الطعام والكحول والجنس والمخدرات أسوة بسلوك الزاهدين ، وليس إلزامياً بالنسبة لأحد أن يجرب من ساعة إلى ساعة السلالم الموسيقية الكبرى والصغرى أو توقيع النغمات بسرعة arpeggio أو العزف بنقر الأوتار بالأصابع Pissicato أو إيقاعات الخطو Cadenzas كما كان يفعل أولاد أبناء ذرية فرانز ليست وتشيرني وغيرهما من عازفي الكمان المولعين بالألعاب النارية . وليس مفروضاً على المرء أن يكدح لكي يجعل الكلمات تنفجر كالمفرقعات النارية وفقاً للأنظمة الباليستية لعلماء المعاني المخمورين . بل يكفي ويزيد أن يتمطى المرء ويتثاءب ، يصفر ، ويضرط ويصهل . فالقواعد للبربريين ، والتقنية لساكني الكهوف ، فليغرب عنا الشعراء الجوالون ، حتى أولئك المنحدرون من كابادوشيا .

وهكذا ، وبينما كنت أقلد بدأب ووضاعة أساليب الأساتذة ، أو بمعنى آخر الأدوات والتكنيك ـ كانت غرائزي تثور . فإذا كنت أتوق إلى القوى السحرية ، فلم يكن ذلك لكي اشيد بنى جديدة ، ولا لكي أضيف شيئاً إلى برج بابل ، بل لكي أدمر ، ولكي أقوِّض . كان عليَّ أن اكتب الرواية ـ إنها مسألة شرف ـ ولكن ماذا بعد ؟

بعد ذلك يأتي الانتقام! خراب! تمتد الأرض يباباً ، سأجعل من الحضارة مجروراً مفتوحاً تبقى رائحته العفنة في منخري الذاكرة إلى الأبد . سأضحي بكل أصنامي التي كنت امتلك منها بانثيوناً* حقيقياً . سأستخدم ما منحوني إياه من مقدَّرات لفظية في الشتم والتجديف . ألم يكن انبياء العصور القديمة قد وعدوا بالدمار ؟ هل كانوا يترددون في توسيخ كلامهم لكي يوقظوا الأموات ؟ إذا لم يكن لي رفاق سوى المنبوذين والمتشردين ـ ألم يكن ذلك لهدفٍ ما ؟ هل كانت أصنامي عبارة عن منبوذين ومتشردين بالمعنى العميق ؟ ألم يكونوا يعومون على مد الحضارة ، ألم يكونوا مبعثرين هنا وهناك مثل البؤساء والجهلة الموجودين في العالم المبتذل ؟ ألم تكن عفاريتهم بنفس فظاظة وتحجر أي

* البانثيون : مدفن عظماء الأمة (م)

مراقب للعمال ؟ ألم يكن كل شيء متآمراً ـ فالأعمال الكبيرة النبيلة الجليلة جنباً إلى جنب مع الأعمال الحقيرة والخسيسة لجعل الحياة غير ممكنة يوماً بعد يوم ؟ ما الفائدة من قصائد الموت ، من حكم ونصائح الحكماء ، من دساتير ولوائح المشرعين ، ماذا كان نفع الزعماء والمفكرين ورجال الفن ، إذا كانت العناصر المكونة لنسيج الحياة عاجزة عن التحول ؟ وحده الذي لم يجد طريقه هو الذي يسمح له بأن يسأل كل الأسئلة المغلوطة ، أن يطأ كل المسالك المغلوطة ، أن يأمل ويصلي من أجل دمار كل الأنماط والأشكال القائمة . بينما كنت مرتبكاً محتاراً ، مخلوعاً ، مشوشاً ، مسكراً ، أكافح واشتم ، أسخر وأهزأ ، وأتعجب قليلاً من أنني في صميم فكرة ما ، كنت في بعض الأحيان أقبض على نفسي محملقاً إلى الأمام ، شارد الذهن كالشمبانزي ، متلبساً بفعل اعتلاء شمبانزية . بهذه الطريقة أنجب هابيل بوغول ، وبوغول أنجب موغول . لقد كنت آخر السلالة ، كلباً من كلاب زوبل أمسك عظمة بين فكيه . لا هو قادر على مضغها ولا هو قادر على سحقها ، يجردها من اللحم ويعضعضها ثم يبصقها ويتبرز عليها . ثم ما كان منه إلا أن طمرها بعد أن تبول عليها . لقد كان اسم العظمة (بابل) .

إن الحياة الأدبية حياة رائعة ما كنت أريدها أفضل من ذلك . يا لهذه الأدوات! يا لهذا التكنيك! كيف يتسنَى لأي واحد ما لم يعانقني مثل ظلي أن يعرف الأعداد الهائلة من الأماكن الخربة التي كنت أتردد عليها بحثاً عن المعدن الخام ؟ وأصناف الطيور التي كانت تغرد لأجلي عندما كنت أحفر حفري وممراتي ؟ والمسلات أو الأقزام الخرافيون والجنيون الذين كانوا يجيشون ويهللون والذين كانوا يحرسونني بينما كنت أكدح ، الذين كانوا يدغدغون قدمي بكل إخلاص أو يرددون أبياتي أو يشكفون لي الألغاز المخفية في الحصى والغصينات والبراغيث والقمل وحبات الطلع ؟ من كان بمقدوره أن يعرف الأسرار التي كانت تكشفها أصنامي التي كانت ترسل لي خطابات ليلية ، أو الرموز السرية التي كانت تفشي لي عندما تعلمت قراءة ما

بين السطور وتصحيح المعلومات السيرية والاستهانة بالتعليقات الروحية . لم تعد تحت قدمي أية يابسة صلبة أخرى عندما كنت أتشبث بهذه الحيلة سوى عالم عائم ابتدعه مخربو الحضارة الذين تعلمت في النهاية أن أدير لهم أستي .

اسأل : من سوى « استاذ الواقع » يمكنه أن يتصور أن الخطوة الأولى إلى عالم الإبداع لا بد أن تكون مصحوبة بضرطة مدوية كريهة الرائحة ، كما لو كانت اختباراً للمرة الأولى لمدى أهمية الرمي بالقنابل ؟

تقدم دائماً! فجنرالات الأدب ينامون بعمق في أسرتهم الوثيرة . أما نحن البشر المشعرون ، فإننا نقاتل من الخندق الذي لا رجعة منه لمن يؤخذ إليه . قفوا وراءنا ، أيها المكللون بغار الشيطان! إذا كانت السواطير هي ما يجب أن نقاتل به . فلنستغلها أحسن استغلال . Faugh a bella خذ تلك البطانات المشحمة!

إلى الأمام! إلى الأمام! فالمعركة لا نهاية لها . وهي لم تكن لها بداية ولن تكون لها نهاية . نحن الذين نبقبق والزبد على فمنا ـ ما زلنا فيها منذ الأزل . وفروا علينا مزيداً من التعليمات! هل سنقوم بصنع مروج خضراء إذا تقدمنا من خندق إلى خندق ؟ هل نحن رسامو مناظر طبيعية بقدر ما نحن جزارون ؟ هل يجب علينا أن ننطلق إلى المعركة ونحن معطرون كالعاهرات ؟ لأجل من نقوم بالتطهير من بقايا جيش العدو ؟ كم كنت محظوظاً لأنني لم يكن لي سوى قارئ واحد! ومثل هذا القارئ المتسامح أيضاً!

في كل مرة كنت أجلس لكتابة صفحة لأجله . كنت أعيد تسوية الجزء المتدلي من قميصي تحت البنطلون وأرتب تسريحة شعري وأطلي أنفي بالمساحيق . آه . لو أنه تمكن من رؤيتي وأنا أقوم بعملي ـ ذاك البوب، المغفل! لو أنه كان يعرف الآلام التي كنت أقاسيها لإعطاء روايته القالب الأدبي المناسب! أي مريوس كان سيجد فيّ! أو أي ابيقوري!

قال بول فاليري في مناسبة ما : « إن ما هو ذو قيمة بالنسبة لنا (يقصد للشعراء) ليس له قيمة . هذا هو قانون الأدب »

Tsch' Tsch' حقيقة الأمر أن فاليري هنا كان يناقش فن الشعر . كان يناقش

مهمة الشاعر وغرضه ، مبرر وجوده . أنا شخصياً لم أفهم الشعر كشعر أبداً . فبالنسبة لي كان أثر الشاعر موجوداً في كل مكان ، في كل شيء .

إن تقطير الفكر إلى أن يتكثف عالقاً في أمبيق قصيدة دون أن يكشف لطخة واحدة أو خيالاً واحداً ، أو نفثة غازية واحدة من الشوائب التي استخلص منها ، كان بالنسبة لي مهنة عديمة المعنى عديمة القيمة حتى بالرغم من كونها الوظيفة المقدسة والملعونة للخادمات اللواتي يكدحن باسم الجمال والشكل والذكاء... الى آخر ما هنالك .

انني اتكلم عن الشاعر لأنني كنت في حالتي الجنينية السعيدة أكثر قرباً من ذي قبل . فأنا لم أكن أعتقد أبداً كما كان يعتقد ديدرو بأن (أفكاري هي عاهراتي) . ولماذا أريد العاهرات ؟ لا... إن أفكاري كانت حديقة مسراتي . كنت الجنائني الأبله الذي برغم حذره وانتباهه لم يكن يعلق كبير أهمية على وجود الأعشاب والأشواك والقراص ، بل كان يتوق فقط إلى متعة التردد على هذا المكان لوحده ، هذا الحقل الأليف المأهول بالشجيرات والبراعم والأزهار والنحل والعصافير والحشرات من كل صنف .

فأنا لم أكن أتمشى في الحديقة كقواد نساء ، ولا حتى في إطار من التفكير بالزنا . كما أنني لم أكن استثمرها ، كأنني عالم نبات أو عالم حشرات أو خبير بستنة . لم أكن أدرس شيئاً حتى مجرد الأشياء التي كانت تثير دهشتي ، ولا كنت أعمد أي شيء مقدس . كان يكفيني مجرد النظر إلى زهرة أو شم عبيرها . أما كيف حصل أن وجدت الزهرة ؟ أو كيف حصل أن وجد أي شيء ؟

لو كنت أود الاستفهام لسألت :

- «هل أنت هناك يا صديقتي الصغيرة ؟ هل لا تزال قطرات الندى معلقة ببتلاتك ؟»

ما الذي بإمكانه أن يكون أكثر مراعاة للمشاعر - أفضل سلوكاً من اعتبار الأفكار والخواطر والومضات الايمائية بمثابة أزهار بهجة ؟ وهل هناك عادات عمل أفضل من تحيتها بابتسامة كل يوم أو التمشي فيما بينها متأملاً في

مجدها الزائل ؟ في الحقيقة ، من الممكن ـ من حين لآخر ـ أن امتلك الجرأة على قطف زهرة واحدة لأجل عروتي ، أما أن استغلها ، أن أصدرها للعمل كعاهرة أو سمسار بورصة ، فهذا شيء غير وارد .

بالنسبة لي ، كان يكفي أن أصاب بالإلهام لا أن أكون ملهماً إلى الأبد . فأنا لم أكن شاعراً ولا كادحاً . لقد كنت ببساطة خارج الخطوة . كنت بلا وطن . قارئي الوحيد ... سوف استبدله لاحقاً بالقارئ المثالي ، ذاك الوغد الحميم ، ذاك النذل المحبوب ، الذي ربما أتكلم إليه ، كما لو أن لا شيء يمتلك أية قيمة إلا بالنسبة إليه ـ بالنسبة إلي .

ولماذا إضافة إليَّ ؟ هل يمكن أن يوجد قارئ مثالي آخر غيره ـ my al-ter ego ـ ولماذا يخلق المرء علمه الخاص إذا كان لا بد له أيضاً من أن يسبغ المعنى على كل من هب ودب ؟

ألا يمتلك الآخرون هذا العالم اليومي الذي يدعون أنهم يحتقرونه ـ مع أنهم يتعلقون به كالجرذان الغريقة ؟

أليس غريباً كيف أن من يرفضون ـ أو الذين يتقاعسون عن خالق عالمهم الخاص هم الذين يصرون على غزو عالمنا الخاص نحن ؟ من هو الذي يطأ مساكب الأزهار ليلاً ؟ من هو الذي يبول على البنفسج المتفتح ويلوي أزراره ؟ نحن نعرف كيف تَنهب صفحات الأدب بحثاً عما يسرك . إننا نكتشف آثار دوساتك ، آثار روحك المتخبطة المضطربة في كل مكان .

إنك أنت الذي تقتل العباقرة ، تكبل العمالقة ، أنت ، إما من خلال الحب والهيام أو من خلال الحسد والحقد والكراهية . إن من يكتب لأجلك إنما يكتب مذكرة موته .

[أيها الدوري الصغير
انتبه ـ أخرج من الطريق
فالسيد الحصان قادم]
هكذا كتب ايساسان . قل لي ما قيمة ذلك!

الفصل السابع عشر

في حوالي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ، بعد رحيل مونا إلى المدينة بدقائق قليلة ، قرعت السيدة سكولسكي الباب . كنت قد اتخذت مكاني وراء الآلة الكاتبة وكنت في مزاج جيد للكتابة .

قلت لها : « ادخلي! »

دخلت مترددة ، توقفت باحترام ثم قالت :

ـ « ثمة شخص في الطابق الأرضي يريد مقابلتك يقول إنه من أصدقائك »

ـ « ما اسمه ؟ »

ـ « هو لم يذكر اسمه . قال إنه لن يضايقك إن كنت مشغولاً »

(من يكون بحق الجحيم ؟ فأنا لم أعط عواننا لأحد) .

قلت لها : « قولي له أنني سأجيء خلال دقيقة » .

عندما وصلت إلى أول السلم كان واقفاً يتطلع إلى فوق مترقباً ظهوري بتكشيرة عريضة . كان ماك غريغور لا غيره . آخر انسان على وجه البسيطة كنت أتمنى رؤيته .

قال بصوتٍ عال : « أراهن على أنك مسرور برؤيتي . أراك معتزلاً لوحدك كالعادة . كيف حالك أيها العرص العتيق ؟ »

ـ « اصعد! »

ـ «هل أنت متأكد من أنك لست مشغولاً جداً ؟» قالها بتهكم تام .
أجبته : «بوسعي دائماً أن أضحي بعشر دقائق كرمى لصديق قديم»
صعد السلم . قال لي بينما كان يهم بالدخول :
ـ «إنه مسكن ظريف ـ كم مضى عليك هنا ؟ بئس عليك ـ ألا تفكر بإخباري ؟»
جلس على الصوفا ورمى بقبعته على الطاولة .
قال لي وهو يلتفت إلى الآلة الكاتبة :
ـ «ما تزال مواظباً عليها ـ ايه ؟ كنت أظن أنك قد أقلعت عن ذلك منذ زمن طويل . يا ولد ، إنك شره للعقاب»
سألته : «كيف اهتديت إلى هذا المكان ؟»
قال لي : «بسهولة ، مثل أكل الفطر . اتصلت بوالديك هاتفياً . فلم يعطوني عنوانك بل أعطوني رقم الهاتف . أما الباقي فكان سهلاً»
ـ «اللعنة عليّ!»
ـ «ما المشكلة ـ ألست مسروراً برؤيتي ؟»
ـ «بالتأكيد ـ بالتأكيد»
ـ «لا داعي لأن تنزعج . لن أحكي لأحد . بالمناسبة . هل تلك ـ ما اسمها ـ ما تزال معك ؟»
ـ «تقصد مونا ؟»
ـ «نعم . مونا . لم أقدر على تذكر اسمها»
ـ «بالتأكيد . إنها معي ـ ولماذا لا تكون معي ؟»
ـ «لم أكن أظن أنها ستبقى معك طوال هذه المدة . هذا كل ما في الأمر . حسناً ، شيء جيد أن أعرف أنك سعيد . أنا لست كذلك! أنا في ورطة . أنا في جحيم من الورطات ولهذا السبب أتيت إليك . فأنا بحاجة إليك»
ـ «لا ، لا تقل ذلك! كيف ـ بحق الجحيم ـ يمكنني أن اساعدك ؟» أنت تعرف أنني...»

ـ « كل ما أريده منك أن تفعله هو الإصغاء . لا تجفل ، فأنا واقع في الحب . هذا كل ما في الأمر »

قلت له : « شيء ظريف . وما الخطأ في ذلك ؟ »

ـ « هي لا تريدني »

فضحكت : « هل هذا كل شيء ؟ هل هذا ما يقلقك أيها الأحمق البائس ؟ »

ـ « أنت لست فاهماً . الوضع مختلف هذه المرة . هذا هو الحب . اسمح لي أن أحكي لك عنها... »

سكت لحظة ثم استأنف الكلام :

« إلا إذا كنت مشغولاً »

توجه بنظره إلى طاولة المكتب . فلاحظ وجود ورقة بيضاء موضوعة في الآلة الكاتبة ثم أضاف :

ـ « ما هي هذه المرة ـ أهي رواية ؟ أم بحث فلسفي ؟ »

قلت له : « لا شيء . لا شيء ذا أهمية »

قال : « غريب . ذات مرة كان كل ما تفعله مهماً ، شديد الأهمية . تعال! لماذا تتحفظ بهذا الشكل ؟ أعرف أنني سببت لك ازعاجاً ـ لكن ذلك ليس مبرراً لكي تجاملني »

ـ « إذا كنت فعلاً تريد أن تعرف ـ فأنا اشتغل برواية »

ـ « رواية ؟ يا يسوع . هنري ، لا تحاول ذلك ـ فأنت لن تكتب رواية »

ـ « لماذا ؟ ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك بهذا الشكل ؟ »

ـ « لأنني أعرفك ـ هذا هو السبب ـ ليس عندك أية موهبة للحبكة »

ـ « هل يفترض بالرواية دائماً أن تكون لها حبكة ؟ »

فعارضني قائلاً : « انظر . أنا لا أريد أن ألصق الكلمات إلى بعضها لكن... »

ـ « لكن ماذا ؟ »

ـ « لماذا لا تبقى متشبثاً ببندقيتك ؟ يمكنك كتابة أي شيء إلا الرواية »

ـ «ما الذي يجعلك تعتقد أن بإمكاني الكتابة أصلاً ؟»

لوى عنقه كما لو كان يفكر بإجابة...

قلت له : «أنت لم تفكر بي كثيراً على أساس أنني كاتب . إذ لا أحد يفعل ذلك» .

قال لي : «أنت كاتب ممتاز ـ ربما أنك لم تنتج شيئاً يستحق النظر إليه في الوقت الحالي ، لكنك تمتلك الوقت لذلك ، مشكلتك هي أنك عنيد» .

ـ «عنيد ؟»

ـ «عنيد ، نعم ، إنك حرون ولك رأس بغل . أنت تريد الدخول من الباب العريض . أنت تريد أن تكون مختلفاً ، لكنك لا تريد دفع الثمن . انظر ، لماذا لم تتمكن من الاشتغال كمذيع ، لماذا لم تطور نفسك فتصبح مراسلاً صحفياً إلى أن تصل إلى المهنة الكبرى ؟ أجبني لماذا!»

ـ «لأنه مضيعة للوقت . هذا هو السبب»

ـ «لقد فعل غيرك الشيء نفسه ، فعله أناس أكبر منك ـ ما قولك في برنارد شو ؟»

أجبته : «كان الأمر بالنسبة له رائعاً ، أما أنا فلي طريقي الخاص بي»

ساد الصمت لحظات قليلة . ذكرته بسهرة في مكتبه منذ زمن طويل ، عندما كان قد قذف إليّ بعدد جديد من إحدى المجلات وطلب مني أن أقرأ قصة لجون دوس باسوس ، الذي كان انذاك من الكتاب الشباب .

ـ «وهل تعرف ماذا قلت لي بعدئذ ؟ لقد قلت : هنري ، لماذا لا تجرب عضلاتك في هذا المجال ؟ أنت قادر على الكتابة بالمستوى نفسه في أي يوم تشاء . اقرأها وفكر بالموضوع!»

ـ «أنا قلت ذلك ؟»

ـ «نعم ـ ألا تذكر ـ آه ؟ حسناً ، تلك الكلمات التي تفوهت بها دون مبالاة في تلك الليلة قد علقت في سقف دماغي . وفيما أنني سأكون بنفس مستوى جون دوس باسوس فليست المشكلة هنا أو هناك! الشيء المهم هو

أنك ذات مرة كنت تميل إلى الأعتقاد بأنني من الممكن أن أكتب »

ـ « وهل كنت قد قلت شيئاً مختلفاً يا هنري ؟ »

ـ « لا ، ولكنك تتصرف على نحو مختلف ـ كما لو كنت تسايرني في عمل طائش ،كما لو كنا في وضع ميؤوس منه من كافة النواحي . أنت تريدني أن أفعل مثل الآخرين ـ بطريقتهم هم ، أن أكرر أخطاءهم هم... »

ـ « يا يسوع ، لكأنك حساس جداً ، تابع ، اكتب روايتك الدموية ، دوّن رأسك إن شئت ذلك! كنت فقط أحاول إعطاءك قليلاً من النصائح الأخوية . على كلٍ ، ليس هذا ما جئت لأجله ـ أقصد الكلام عن الكتابة . أنا واقع في ورطة . أنا بحاجة إلى المساعدة وأنت الوحيد الذي بمقدوره أن يساعدني »

ـ « كيف ؟ »

ـ « لا أدري . لكن اسمح لي أن احكي لك قليلاً في البداية ، ومن ثم ستفهم المشكلة بشكل أفضل . أليس بإمكانك أن تضحي بنصف ساعة من وقتك ؟ »

ـ « اعتقد ذلك »

ـ « حسناً ، إذاً ، وهاك مشكلتي... هل تذكر ذاك الملتقى (الكافتيريا) الذي اعتدنا الذهاب إليه في الريف أيام السبت بعد الظهر ؟ المحل الذي كان يتردد عليه جورج دائماً ؟ كان ذلك منذ حوالي شهرين على ما أظن . عندما قمت بزيارة غير متوقعة . لا تدقق الأمور... لم تكن قد تغيرت كثيراً... إذ كان نفس النوع من الفتيات يترددن على ذاك المكان . لكنني كنت ضجراً . تناولت نوعين من المشروبات لوحدي . إذ لم أتعثر بأحد ممن يشاركونني الشرب ، بالمناسبة أظن أنني كنت أشعر بشيء من الحزن على نفسي لكوني قد كبرت في السن إلى هذا الحد . عندما لمحت على نحو مفاجئ فتاة على بعد طاولتين مني ـ كانت وحيدة مثلي » .

ـ « كانت حسناء فاتنة ـ على ما اعتقد ؟ »

ـ « لا ، هنري ، لا ، لم أكن لأقل ذلك ، لكنها كانت مختلفة . على كلٍ ، لقد غمزتها وطلبت منها أن تراقصني ، وعندما انتهت الرقصة جاءت وجلست

معي . لم نعاود الرقص بل جلسنا نتحدث إلى أن حان وقت إغلاق المحل . كنت أريد أن آخذها إلى البيت لكنها رفضت ذلك . طلبت منها رقم هاتفها فرفضت ذلك أيضاً .

قلت لها : « هل من الممكن أن أراك يوم السبت القادم ؟ »

أجابتني : « ربما »

وهكذا تم الأمر .

ـ « ألا يوجد حواليك مشروب ـ هل عندك شيء ؟ »

ـ « بالتأكيد ، عندي مشروب »

ومضيت إلى الخزانة وأخرجت زجاجة . قال لي وهو يمسك بزجاجة ڤيرماوث :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت له : « هذا مستحضر مقوي للشعر . اعتقد أنك تريد ويسكي سكوتلندية »

ـ « نعم ، إن كان عندك منه شيء . وإذا لم يكن عندك فأنا أحمل معي قليلاً منه في سيارتي » .

أخرجت زجاجة الويسكي السكوتلندية ، وصببت له جرعة كبيرة .

ـ « وماذا عنك أنت ؟ »

ـ « أنا لا أذوقه ، ناهيك عن أن الوقت لا زال مبكراً »

ـ « صحيح . يجب عليك أن تنجز تلك الرواية ـ أليس كذلك ؟ »

قلت له : « حالما ترحل من هنا تماماً » .

ـ « سأجعل زيارتي قصيرة ، يا هنري ، أعرف أنك قد مللت . لكني لا أسبب لك أية مضايقة . كل ما عليك هو أن تسمعني أفضي بما عندي... إلى أين وصلت ؟ ... آه... نعم... قاعة الرقص . حسناً ، في يوم السبت التالي عدت إلى انتظارها . لكن دون أن أجد أي أثر لها . جلست هناك طوال فترة العصر دون القيام بأية رقصة إفرادية . لم تكن هناك لا غيلدا ولا من يحزنون »

ـ « ماذا ؟ غيلدا ؟ هل هذا هو اسمها ؟ »

ـ « نعم ، وما العيب في ذلك ؟ »

ـ « اسم مضحك ـ هذا كل ما الأمر . ماذا تكون ، ما هي جنسيتها ؟ »

ـ « اعتقد أنها سكوتلندية ـ ايرلندية . إذا كان هذا ما تفكر به ، فما الذي يهمني من كل ذلك... »

ـ « لا ، لا شيء ، مجرد فضول » .

ـ « هي ليست غجرية . إذا كان ذلك ما تفكر به . لكن فيها شيء ما يأسرني : إذ لا استطيع الانقطاع عن التفكير بها ـ أنا واقع في الحب . هذا كل ما في الأمر . ولا اعتقد أنني قد وقعت في الحب من قبل بهذه الطريقة ، بالتأكيد »

ـ « إنه بالتأكيد شيء مضحك أن اسمعك تقول ذلك »

ـ « اعرف ذلك ، يا هنري ، بل إنه اكثر من مضحك ، إنه مأساوي »

عندها وجدت نفسي أضحك...

ردد قائلاً : « نعم ، مأساوي ، لأنني لأول مرة في حياتي أقابل من يستكثر الخراء علي »

قلت له : « كيف عرفت ذلك ؟ وهل قابلتك بعد ذلك ؟ »

ـ « قابلتها بعد ذلك ؟ يا رجل! ما زلت اتتبع خطواتها منذ ذاك اليوم . بالتأكيد لقد رأيتها مرة أخرى . وقد نجحت ذات ليلة في استدراجها إلى البيت . كانت تترجّل من حافلة عند صالة بورو . هي لم تكن تراني طبعا ؟ . في اليوم التالي . اتصلت بها ، كانت حانقة . صارت تسألني عما كنت أقصده بالاتصال بها هاتفياً ؟ وكيف حصلت على رقم هاتفها ؟ وهكذا... حسناً . بعد ذلك بأسابيع قليلة كانت موجودة في قاعة الرقص . في هذه المرة كان عليَّ حرفياً أن أركع على ركبتي لكي اقنعها بمراقصتي . طلبت مني ألا أضايقها ، وقالت أنني لم أكن أهمها في شيء ، وأنني كنت أخرق... وكل وما شابه ذلك من ألفاظ . كما أنني لم استطع جعلها تجلس معي أيضاً . بعد ذلك بأيام قليلة

ارسلت لها باقة من الورد ولكن دون نتيجة . حاولت الاتصال بها مرة أخرى ، لكنها ما إن سمعت صوتي حتى أقفلت الخط » .

قلت له : « ربما كانت مجنونة بك » .

ـ « أنا بالنسبة لها بمثابة السم . هذا كل ما في الأمر »

ـ « وهل اكتشفت ما الذي تعمله لتكسب عيشها ؟ »

ـ « نعم ، إنها معلمة مدرسة »

ـ « معلمة ؟ هذا يفوق كل شيء . أنت تطارد معلمة مدرسة . الآن صار بإمكاني أن أتصوّرها جيداً ـ نوعاً من مخلوق كبير صعب المراس ، بسيطة جداً لكنها ليست قبيحة ، وهي نادراً ما تبتسم ، وتلف شعرها »

ـ « لقد قاربت أوصافها يا هنري ، لكنك ابتعدت أيضاً . صحيح أنها من النوع الضخم والكبير . ولكن بشكل ظريف . أما عن مظهرها فلا يمكنني قول شيء . إذ أنني لا أرى سوى عينيها الصينيتين الزرقاوين ـ كما أنهما ترفان وتغمزان بشكل دائم » .

ـ « مثل النجوم » .

قال لي : « البنفسج ، مثل البنفسج . باقي الوجه لا يهمني . صدقاً ، أظن أن لها ذقناً مرتدة إلى الوراء » .

ـ « وماذا عن ساقيها ؟ »

ـ « ليستا جيدتين كثيراً . إنهما تميلان إلى السمنة قليلاً . لكنهما ليستا ساقي بيانو! » .

ـ « ومؤخرتها . هل تتمايل عندما تمشي ؟ »

قفز واقفاً على قدميه . ثم قال لي وهو يضع يده عليّ :

ـ « هنري ، إن مؤخرتها هي التي تأخذ لبي . لو أتمكن من مداعبتها ولو مرة واحدة . عندها سأموت سعيداً » .

ـ « بمعنى آخر ، إنها مفرطة الاحتشام » .

ـ « لا يمكن لمسها » .

ـ « وهل استطعت أن تقبلها حتى الآن ؟ »

ـ « هل أنت مجنون ؟ أقبلها ؟ لكانت قد ماتت أولاً » .

قلت له : « اسمع ، ألا تعتقد أنه ربما كان السبب في هوسك بها إلى هذا الحد هو لأنها ببساطة لن تفيدك في شيء . لقد كانت في متناول يديك فتيات أفضل منها ، حسب تصوري لشكلها . كل ما عليك فعله هو أن تنساها . هذا هو أفضل شيء . إن ذلك لن يؤدي إلى تحطيم قلبك . أذ أنك لا تمتلك قلباً بالأساس . لقد ولدت دونجواناً »

ـ « يكفي يا هنري ، أنا لا أستطيع النظرإلى فتاة أخرى . أنا رهينتها » .

ـ « وكيف بإمكاني أن اساعدك حسب اعتقادك ؟ »

ـ « لا أدري ، كنت اتساءل إن... إذا كان من الممكن أن تقابلها من أجل خاطري وتتكلم معها وتحكي لها عن مدى جديتي أو أي شيء من هذا القبيل » .

ـ « ولكن كيف لي أن أتوصل إليها بصفتي مبعوثاً من سيادتك ؟ فهي سوف تطردني فوراً عندما ترانيـ أليس كذلك ؟ »

ـ « صحيح . ولكن ربما قد تتمكن من ايجاد وسيلة لمقابلتها دون أن تعرف أنك صديقي . استعمل اساليبك الخاصة لتطييب خاطرها ومن ثم... »

ـ « ومن ثم اقفز فوقها... ايه ؟ »

ـ « وما العيب في ذلك ؟ إنه شيء ممكن ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « كل شيء ممكن . فقط لو... »

ـ « فقط ـ ماذا ؟ »

ـ « حسناً ، وهل خطر ببالك أنني ربما قد أقع في غرامها ؟ »

(من ناحيتي لم يكن عندي أي خوف من ذلك طبعاً ، ولكني قلت ذلك لمجرد أن أعرف رد فعله) .

إن هذه الفكرة العبثية قد جعلته يضحك ضحكة خافتة مقوقئة .

قال : « إنها ليست من صنفك يا هنري ، لا تقلق بهذا الشأن . أنت تبحث

عن النساء المثيرات . إنها سكوتلندية ـ ايرلندية كما قلت لك من قبل . حاول أن تتصور نفسك وأنت ترافع عن قضية . ولتكن قضيتي . بإمكانك أن تهبط من عليائك وتفعل شيئاً صغيراً كهذا ـ إكراماً لصديق قديم... أليس كذلك ؟ »

قلت له : « إن ذلك قد يحتاج إلى قليل من المال »

ـ « المال ؟ لماذا ؟ »

ـ « للمصروف . الأزهار ، سيارات الأجرة ، . المسرح ، الكباريهات »

قال لي : « دعك من هذا! أزهار ـ ربما . ولكن لا تفكر بالموضوع على أنه حملة طويلة الأمد . يكفي أن تتعرف عليها وتبدأ الكلام . ليس مفروضاً بي أن أقول لك كيف تتصرف . ذوّبها ـ هذا كل ما هو مطلوب منك . ابكِ ، إذا دعت الضرورة لذلك . يا يسوع! لو أنني استطيع الوصول إلى بيتها ومقابلتها لوحدها . عندها سأسجد عند قدميها وألحس أصابع قدميها ، وأدعها تطأني . أنا جاد في ذلك ، يا هنري . فأنا ما كنت لأبحث عنك لو لم أكن يائساً » .

ـ « عال ، سأفكر بالموضوع . اعطني فرصة زمنية... »

ـ « أنت لا تتملّص مني ؟ عدني بذلك ؟ »

ـ « أنا لا أعدك بشيء . إن الأمر يحتاج إلى تفكير . سأبذل قصارى جهدي ـ هذا كل ما بإمكاني قوله » .

قال لي : « لنتصافح إذاً! » ومد يده ليصافحني .

ـ « أنت لا تدري كم أشعر بالارتياح لسماعي إياك تقول ذلك يا هنري . لقد فكرت بطلب المعونة من جورج . لكنك تعرف جورج سيأخذ الموضوع على أنه نكتة . أما الموضوع فهو أي شيء إلا أن يكون نكتة . انت تعرف ذلك ـ أليس كذلك ؟ بحق الجحيم ـ أنا أذكر عندما كنت تتكلم عن انفجار دماغك بسبب ـ لا أذكر ماذا وكان اسمها... ؟ »

قلت له : « مونا » .

ـ « نعم ، مونا . يوم كان لا بد من أن تنالها... ؟ أنت سعيد الآن ـ كما أظن ـ يا هنري . إنني لا أطلب حتى أن أكون سعيداً معها . كل ما أطلبه هو أن

أنظر إيها . أن أعبدها ، أن أؤلهها . إن ذلك يبدو صبيانياً ـ أليس كذلك ؟ لكني أقصد ذلك . فأنا مهزوم ، وإذا لم أتوصل إليها فإنني سأجن » .

سكبت له كأساً أخرى .

« لقد اعتدت أن أضحك عليك ـ هل تذكر ؟ كنت دائم الوقوع في الحب . هل تذكر كم كانت تكرهني أرملتك تلك ؟ لقد كان لديها المبرر الجيد لذلك . بالمناسبة ـ ماذا حل بها ؟ »

هززت رأسي .

ـ « لقد كنت مجنوناً بها ـ ألم تكن كذلك ؟ الآن عندما أتذكرها أذكر أنها لم تكن من الصنف الرديئ . ربما كانت مسنة قليلاً ، كئيبة قليلاً لكنها كانت جذابة . ألم يكن عندها ولد في مثل سنك ؟ »

قلت له : « نعم ، ولقد توفي منذ سنوات قليلة » .

ـ « لم تكن تتصور أنك ستخرج من تلك الورطة ـ صحيح ؟ يبدو وكأن ذلك قد حصل منذ ألف سنة ـ وماذا عن أونا ؟ هل تعتقد أنك قد نسيتها ؟ »

قلت له : « لا أظن ذلك » .

ـ « هل تعرف ماذا يا هنري ؟ إنك محظوظ ، يأتي الله لنجدتك في كل مرة . انظر ، أنا لست بصدد إلهائك عن عملك أكثر من ذلك . سأعطيك خاتماً بعد أيام قليلة ونرى كيف ستتم الطبخة لا تدعني أصل إلى حد الأنهيار ـ هذا كل ما أرجوه منك » .

التقط قبعته ومشى باتجاه الباب قائلاً ، وهو يتنحنح ويشير بأصبعه نحو الآلة الكاتبة :

ـ « بالمناسبة ، ما هو عنوان الرواية التي تنوي كتابتها ؟ »

أجبته : « / خيول فلاديفستوك الحديدية/ »

ـ « بدون مزح! »

ـ « أو ربما ؟ هذا العالم النصراني/ »

قال لي : « بالتأكيد إن ذلك كافٍ لجعلها الأكثر رواجاً »

ـ « بلغ تحياتي وتمنياتي لغيلدا عندما تتصل بها ثانية! »
ـ « استبشر خيراً الآن ـ ايها العرص! بلغ حبي إلى... »
ـ « مونا... »
ـ « آه مونا... تاتاتا...! »

في وقت متأخر من ذاك النهار طرق الباب مرة أخرى . هذه المرة كان الطارق هو زيد إسن . كان يبدو منفعلاً ومضطرباً .

اعتذر بشكل مبالغ فيه لتطفله عليّ . وبدأ الحديث بقوله :

ـ « كان عليّ أن أراك وكلي أمل أنك سوف تسامحني . اطردني بعيداً إن كنت منهمكاً بشيء ما... »

قلت له : «اجلس ، اجلس ، فأنا لست مشغولاً إلى درجة تمنعني من رؤيتك ـ هل أنت في مشكلة ؟ »

ـ «لا ، لا مشكلة ولا من يحزنون . كنت وحدي . قد أكون مشمئزاً من نفسي . كنت جالساً هناك في الظلمة فوجدت نفسي ازداد كآبة . كنت على وشك الانتحار وفجأة خطرتَ ببالي . قلت لنفسي :

ـ «لماذا لا ترى السيد ميلر فيروّح لك عن نفسك» .

وهكذا تركت المحل واتيت إلى هنا . تركت الولد يتولى أمر الدكان . حقاً إنني خجل من نفسي ، لكني لم استطع تحمل الوضع أكثر من ذلك» .

نهض عن الأريكة ومشى متجهاً نحو صورة فوتوغرافية معلقة على الجدار قرب طاولتي . كانت صورة لإحدى لوحات هيروشيغي من مجموعته المعنونة : / المراحل الثلاثة والخمسون للنوكائيدو/ .

صار ينظر إليها بإمعان . ثم تحول ببصره إلى اللوحات الأخرى . في هذه الاثناء تحولت تعابير وجهه من القلق والكآبة إلى الفرح المحض . وأخيراً عندما أدار وجهه باتجاهي كانت الدموع قد ملأت عينيه .

ـ «يا ميلر ، يا ميلر ، يا لهذا المسكن الذي تسكنه ، يا لهذا الجو الذي تنعم به! يكفي أن أقف هنا في حضرتك ، محاطاً بكل هذا الجمال لكي أشعر

بأنني إنسان جديد . كم أتمنى لو كان بمقدوري تبادل المسكن معك . أنت تعرف أنني شخص جلف ، لكني أعشق الفن بكل أشكاله . كما أنني مغرم ، على وجه الخصوص ، بالفن الشرقي ، وفي رأيي أن كل اليابانيين شعب رائع . إذ أن كل شيء يفعلونه له صبغة فنية . نعم ، نعم... إنه شيء جيد أن تعمل في غرفة كهذه... فأنت تجلس هنا مع أفكارك وكأنك ملك الدنيا . ما أروع هذه الحياة النقية! هل تعرف أنك ، يا ميلر ، في بعض الأحيان تذكرني بأحد العلماء العبرانيين . أنت فيك شيء من القديس أيضاً . وهذا ما جعلني أجيء إليك . أنت تمنحني الأمل والشجاعة ، حتى عندما لا تقول شيئاً . ألا تنزعج من استمراري في الكلام على هذا النحو ؟ إنني مضطر لإخراجه من صدري »

توقف عن الكلام ، كما لو كان يستجمع شجاعته . ثم أضاف :

ـ « أنا إنسان فاشل . ولا مجال للف والدوران حول هذا الموضوع . أنا أعرف ذلك وقد أذعنت له . لكن الشيء المؤلم هو أن أرى ابني يفكر نفس التفكير ايضاً . أنا لا أريد أن يشفق علي . أن يحتقرني ، لا بأس ، أما أن يشفق عليّ فلا » .

قلت له : « ريب ، أنا لم أنظر إليك على أنك انسان فاشل ، فأنت تكاد تكون ، بالنسبة لي ، بمثابة الشقيق الأكبر ـ والأكثر من ذلك أنك لطيف وعطوف ومتسامح مع الخطأ » .

ـ « أتمنى لو كانت زوجتي تسمعك الآن » .

ـ « لا بأس . ليس مهماً ما تفكر به هي . فالزوجات قاسيات على من يحببن » .

ـ « الحب ، لم نعرف شيئاً اسمه الحب ، ولو لبضع سنوات . لقد كان لها عالمها الخاص ، وكان لي عالمي الخاص بي » .

ساد صمت حرج .

ـ « هل تعتقد أن ذلك سيفيد في شيء فيما لو أنني تواريت عن الأنظار ؟ »

ـ « أشك في ذلك ، يا ريب . وما الذي ستفعله ؟ إلى أين ستذهب ؟ »

ـ « إلى أي مكان . أما فيما يتعلق بكسب عيشي . أقول لك الصدق ، أنني سأكون سعيداً لو عملت ماسحاً للأحذية . المال لا يعني لي شيئاً ، أنا أحب الناس ، أحب خدمة الناس » .

عاود النظر إلى الجدار مرة أخرى . صار يشير إلى لوحة مصورة من لوحات هوكوساي من مجموعته التي تحمل عنوان /الحياة في عاصمة شرقية/ .

قال لي : « هل ترى كل هذه الأشكال البشرية ـ أناس عاديون يعملون أشياء عادية كل يوم . هذا بالضبط ما كنت أوده : أن أكون واحداً منهم ، أن أعمل شيئاً ما عادياً ، كأن أكون صانع براميل أو سمكرياً ـ ما الفرق ؟ ـ أن أكون جزءاً من الموكب ـ هذا هو المطلوب لا أن أجلس في مخزن فارغ أقتل الوقت طوال النهار . اللعنة! انني لا أزال أصلح لشيء ما . ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني ؟ »

قلت له :

ـ « ريب ، لقد كنت في مثل وضعك تماماً في يوم من الأيام . نعم لقد اعتدت الجلوس طوال النهار في دكان والدي دون أن أفعل شيئاً . كنت اعتقد أنني سأجن . كرهت الدكان ، لكنني لم أكن أعرف كيف أتخلّص منه » .

ـ « وكيف تم ذلك ـ إذاً ؟ »

ـ « أظن أن القدر هو الذي أخرجني منه . ولكن لا بد لي من إخبارك بهذه... فبينما كنت اعتصر قلبي كنت أصلي أيضاً . في كل يوم كنت أصلي لذاك الكائن المجهول ـ ربما كان الله ـ لكي يفتح الطريق أمامي . وكنت أفكر بالكتابة أيضاً ـ حتى منذ ذلك الوقت السحيق . لكن ذلك كان حلماً أكثر مما كان إمكانية . ولقد احتجت إلى عدة سنوات حتى بعد أن تركت محل الخياطة . لكي يبدأ المرء بالكتابة ـ يجب عليه ألا يصاب باليأس... »

ـ « لكنك كنت ولداً أنذاك ـ أما أنا فإنني أزحف نحو الشيخوخة » .

ـ « حتى في هذه الحالة فإن السنوات المتبقية أمامك هي ملك لك ، وإذا كان هناك شيء تريد فعله فما زال أمامك الوقت لذلك » .

قال لي بشكل يكاد يكون فاجعاً :

ـ « سيد ميلر ، لا يوجد في داخلي أي حافز إبداعي . كل ما أطلبه هو أن أخرج من المصيدة . أريد أن أحيا حياة ثانية . أريد العودة للدخول في التيار . هذا كل ما الأمر » .

ـ « ما الذي يمنعك ؟ »

ـ « لاتقل ذلك ، أرجوك! لا تقل ذلك! (ما الذي يمنعني ؟) ، كل شيء : زوجتي ، أولادي ، التزاماتي ، أنا نفسي في معظم الأحوال . لقد صار لدي تصور بائس عن نفسي » .

لم استطع تمالك نفسي عن الابتسام . ثم أجبته كما لو أني أقول لنفسي :

ـ « نحن بني البشر وحدنا الذين نمتلك تصوراً حقيراً عن أنفسنا . خذ الدودة مثلاً ـ هل تظن أن الدودة تحتقر نفسها ؟ »

قال لي : « شيء رهيب أن يحس المرء بالذنب ـ ومن أجل ماذا ؟ وما الذي فعلته ؟ »

ـ « إنه بسبب مالم تفعله ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم ، نعم ، بالطبع » .

ـ « هل تعلم ما هو الأكثر أهمية من فعل شيء ما ؟ »

قال ريب : « لا »

ـ « أن تحقق ذاتك »

ـ « ولكن ماذا لو كنت لا شيء ؟ »

ـ « إذاً ـ لتكن شيئاً ـ ولكن على نحو مطلق »

ـ « إن ذلك يبدو جنونياً »

ـ « إنه هكذا ، لهذا السبب يبدو سليماً بهذا الشكل »

قال لي : « تابع ، إنك تجعلني أشعر بالتحسن »

ـ « في الحكمة يكمن الموت . لقد سمعت بهذا القول ـ ألم تسمع به ؟ أليس من الأفضل أن تكون مجنوناً صغيراً ؟ من الذي يقلق بشأنك ؟ أنت فقط . عندما لا تستطيع الجلوس في المحل اكثر من ذلك لماذا لا تنهض وتقوم بمشوار ؟ أو تذهب إلى السينما ؟ أغلق المحل واقفل الباب . إن نقصان زبون أو زيادة زبون لن يؤثر على حياتك أليس كذلك . متّع نفسك! اذهب لصيد السمك مرة كل فترة . حتى لو لم تكن تجيد صيد السمك . أو خذ سيارتك واخرج في نزهة إلى الريف ـ إلى أي مكان . اصغِ إلى العصافير ، اجلب إلى البيت ازهاراً أو بعض المحار الطري » .

كان منحنياً إلى الأمام ، كله آذان صاغية وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة . قال لي :

ـ « قل لي المزيد . إن حديثك رائع » .

ـ « حسناً . خذ هذه... إن المحل لن يفلت من يديك ، كما أن الشغل لن يتحسّن بأي شكل من الاشكال . لا أحد يطلب منك أن تحبس نفسك طوال النهار . أنت انسان حر . إذا كانت اللامبالاة والتجاهل يسعدانك ـ فمن الذي سيلومك على ذلك ؟

سأقدم لك اقتراحاً آخر . بدلاً من التنزه لوحدك خذ معك أحد المستأجرين عندك من الزنوج . افسح له مجالاً لقضاء وقت طيب . اعطه بعض الملابس من محلك . اسأله إن كان بمقدورك أن تقرضه بعض المال . اشترِ لزوجته هدية صغيرة لكي يأخذها معه إلى البيت . هل تفهم ما أقصده ؟ »

بدأ يضحك :

ـ «هل أنا أفهم ؟ إن ذلك يبدو شيئاً عظيماً ، ذاك بالضبط ما كنت أزمع القيام به » .

قلت له محذراً :

ـ « لا تسرف في الإنفاق دفعة واحدة . خذ الأمور ببساطة وسهولة . اتبع غرائزك . على سبيل المثال ، ربما شعرت ذات يوم أنك تحب أن تضع لنفسك

قطعة من ذيل . لا تشغل ضميرك بشكل سيء في الموضوع . جرِّب قطعة لحم داكنة من حين لآخر . إن ذلك أسهل عملاً وأقل كلفة . المهم أي شيء يريحك . لا تنس ذلك . عامل نفسك دائماً معاملة جيدة . إذا كان عندك شعور بأنك دودة فلتزحف على بطنك ، إذا كنتَ تشعر بأنك طير فلتبادر إلى الطيران . لا تقلق بشأن أولادك ، إذ أنهم سيهتمون بأنفسهم . أما فيما يتعلق بزوجتك ربما أنها عندما تراك سعيداً فإنك ستفقد نغمتها . زوجتك امرأة طيبة ـ كل ما الأمر أنها معتدة بنفسها اكثر من اللزوم . إنها بحاجة إلى الضحك ولو مرة من حين لآخر . هل حاولت أن تلقي عليها ليمركية*؛ هاك واحدة لك :

[كان ثمة صبية من البيرو
حلمت بأن يهودياً يغتصبها
استفاقت في الليل
مع صرخة فرح
لتجد أن ذلك حقيقة]

فهتف قائلاً :

« جيد ، جيد! هل تعرف واحدة أخرى ؟ »

قلت له : « نعم ، لكن يجب عليَ الآن أن أعود إلى العمل ـ هل تشعر بالتحسّن الآن ؟ غداً سنقوم بزيارة للزنوج ـ ما رأيك ؟ ربما ذات يوم من أيام الأسبوع القادم سأرافقك بالسيارة إلى بلوبوينت ـ ما رأيك بذلك ؟ »

ـ « صحيح ـ ستفعل ذلك ؟ أوه ، سيكون ذلك شيئاً رائعاً ـ رائعاً تماماً . بالمناسبة ، ماذا طرأ على الكتاب ؟ هل قاربت على الانتهاء منه ؟ إنني أموت شوقاً إلى قراءته ـ كما تعلم . وكذلك الأمر مع السيدة إسن » .

ـ « ريب! لن يعجبك الكتاب مطلقاً . يجب أن أخبرك ذلك بصراحة » .

صاح بكل ما أوتي من قوة :

ـ « كيف يمكنك أن تقول ذلك ؟ »

---

* الليمركية : قصيدة فكاهية مكونة من خمسة أبيات .

ـ «لأنه ليس جيداً» .

نظر إليّ كما لو كنت فاقداً عقلي . بقي لحظة لا يعرف ما يقول .

قال : «ميلر ، إنك مجنون! من غير الممكن أن تكتب كتاباً رديئاً . إن ذلك مستحيل ، أنا أعرفك جيداً» .

قلت : «إنك تعرف جانباً مني فقط . وأنت لم ترَ الوجه الآخر ـ صحيح ؟ هذا هو أنا ـ الأرض المجهولة* . خذها مني : أنا لست سوى مترَهْبن مبتدئ . ربما أنني بعد عشر سنوات من الآن سيكون لدي ما أريك إياه» .

ـ «ولكن هاقد مضى عليك سنوات وأنت تكتب» .

ـ «تقصد أنني أتدرّب ـ على الأوزان» .

ـ «أنت تمزح . إنك مفرط في تواضعك» .

ـ «هنا يكمن خطأك . فأنا أي شيء إلا أن أكون متواضعاً . أنا مغرور بكل معنى الكلمة . هذا هو أنا . لكني واقعي أيضاً ـ مع نفسي على الأقل»

قال ريب : «إنك تستخف بنفسك . لذا سأعود لأذكّرك بكلماتك ألم تقل : لا تزردِ نفسك! »

ـ «حسناً ، لقد ربحت»

كان متجهاً نحو الباب . فجأة وجدت في نفسي الدافع للإفضاء بمكنوناتي قلت له :

ـ«انتظر لحظة . ثمة شيء ما أريد قوله لك»

أقفل راجعاً إلى الطاولة ، ووقف هناك مثل ساعي البريد وكله انتباه لما سأقول . كان انتباهاً ينم عن احترام . فتساءلت عما كان يعتقد أنني على وشك أن أقول له . بدأت بقولي :

ـ «عندما دخلت منذ دقائق قليلة كنت في منتصف جملة ـ في منتصف فقرة طويلة ـ هل ترغب في سماعها ؟»

انحنيت فوق الآلة الكاتبة وقرأتها عليه . كانت واحدة من تلك المقاطع

* terra incognita باللاتينية في الأصل (م) .

الجنونية التي لم أكن أنا نفسي أعرف رأسها من ذيلها . كنت أرغب في سماع رد فعل عليها ـ ولكن ليس من بوب أو مونا . فجاءني الرد سريعاً في الحال .

صاح قائلاً : « ميلر ، ميلر ، هذا رائع تماماً . تبدو وكأنك روسي لا أدري ما تعنيه ولكنها تسمو الى مرتبة الموسيقا »

ـ « هل تعتقد ذلك بالشرف ؟ »

ـ « طبعاً أعتقد ذلك . أنا لاأكذب عليك »

ـ « شيء جميل . إذاً ـ سأتابع ، سأنهي الفقرة » .

ـ « وهل كل الكتاب هكذا ؟ »

ـ « لا ، اللعنة ، هذه هي المشكلة . فاالفصول التي أحبها لن يحبها غيري ـ على الأقل لن يحبها الناشرون »

قال ريب : « إلى الجحيم بهم . إن لم يقبلوا نشرها لك فسآخذها أنا وأنشرها على نفقتي الخاصة » .

أجبته : « لا أنصحك بذلك . تذكر ألا تبذر نقودك كلها فوراً » .

ـ « ميلر ، لو احتاج الأمر إلى دفع أخر سنت أملكه ، فأنني سأدفعه . سأفعل ذلك لأنني أؤمن بك » .

قلت له : « لاتشغل نفسك بالموضوع أكثر من ذلك . فأنا قادر على التفكير بطرق أفضل لصرف نقودك »

ـ « ليس أنا! سأشعر بالفخر والسعادة لكوني آخذ بيدك . وكذلك زوجتي وأولادي . إنهم يقدرونك تقديراً . أنت بالنسبة لهم بمثابة واحد من الأسرة » .

ـ « يسرني سماع ذلك يا ريب ، أتمنى أن أكون جديراً بهذه الثقة . غداً موعدنا ـ إذاً ؟ دعنا نجلب معنا شيئاً طيباً ـ للملونين ما رأيك ؟ »

عندما انصرف بدأت أقيس الغرفة جيئة وذهاباً ، بهدوء و اتزان . متوقفاً بين الحين والآخر لأحملق في كتلة خشبية أو نسخة لوحة ملونة من لوحات

غيوتو أو دلا فرنشيسكا أو اوتشيلو ، أو بروغل أو كارباتشيو ، ثم أعيد الخطو مرة آخرى وقد صرت أكثر امتلاءً ـ أقف صامتاً ، أحدق النظر في الفضاء ، اطلق العنان لخيالي ، ادعه يستقر حيث يشاء ، أصير أكثر صفاءً ، انشحن بالجمال أكثر فأكثر ـ الجمال المشبع بروح الماضي ، مسروراً من نفسي لكوني جزءاً من هذا الماضي(ومن المستقبل أيضاً) مهنئاً نفسي على العيش في هذا النوع الرحمي أو اللحدى من الوجود . . . نعم ، لقد كانت في الواقع غرفة جميلة ، مسكناً جميلاً ، فيه كل شيء . كل شيء كنا قد ساهمنا به لجعل هذا البيت قابلاً للسكنى ، ولجعله يعكس الفتنة الداخلية للحياة ، حياة الروح .

[يكفي أن تجلس هناك مع أفكارك لكي تصبح ملكاً على الدنيا] . إن هذه العبارة البريئة التي صدرت عن ريب قد استقرت في دماغي ومنحتني رباطة جأش ، بحيث أنني بقيت لفترة من الزمن أشعر بالفعل أنني أعرف ما يعنيه أن أكون ملكاً على الدنيا! king هذا يعني أن يكون المرء قادراً على تقديم الولاء إلى الأعلى وإلى الأسفل ، وأن يكون بالغ الحساسية ، بالغ الأدراك ، بالغ التنوّربالحب ، بحيث لا يستطيع أي شيء أن يفلت من انتباهه وادراكه . باختصار ، أن يكون الشفيع الشعري ، ليس بمعنى أن يحكم العالم ، ولكن أن يعبده مع كل شهقة . مرة أخرى أقف أمام العالم اليومي لهوكوساي ـ لماذا كان على هذا الأستاذ الكبير في مسك الفرشاة أن يتخذ الآلام وسيلة لتصوير كل عنصر مألوف أكثر مما يجب في هذا العالم ؟ ألكي يكشف عن مهارته ؟ هراء . للتعبير عن حبه ، للإشارة إلى أن حبه كان يمتد طولاً وعرضاً ، وإنه يتضمن أضلاع البرميل ونصلة ورق العشب وعضلات المصارع المفتولة ، وميلان المطر مع الريح ، واسنان الموجة وعظام السمكة ـ وباختصار ـ كل شيء . كانت مهمة شبه مستحيلة لولا أنها كانت من أجل المتعة المتضمنة .

قال لي أنه مولع بالفن الشرقي . بينما كنت أردد لنفسي كلمات ريب برزت أمامي ، وعلى نحو مفاجئ ، القارة الهندية برمتها . هناك وسط خلية النحل البشري المكتظة كانت البقايا الوجيبة النابضة لعالم كان وسيبقى إلى

الأبد يثير الذهول حقاً . لم يكن ريب قد لاحظ ، أوأنه لم يقل إن كان قد لاحظ ، وجود الصفحات الملونة الممزقة من الكتب الفنية التي كانت تزين الجدران : نسخ من صور معابد واسطوبات* من الديكان ، صور كهوف ومغاور منحوتة ورسوم جدارية ولوحات جصية تصور الأساطير والخرافات الغامرة لشعب مُسْكر بالشكل والحركة ، بالعاطفة والنماء ، بالفكرة ، بالوعي ذاته . إن مجرد نظرة إلى سلسلة المعابد القديمة المنبثقة من حرارة وخضرة التربة الهندية كانت تعطيني دائماً شعوراً بأنني أحدق بالفكر ذاته ، مع إنه كان يجاهد لتحرير نفسه ، مع أنه كان يصير لدناً ، متماسكاً ، أكثر إيحاءً واكثر إثارة للذكريات والعواطف واكثر إثارة للرهبة ، هذا الذي يتم

عرضه هكذا بالآجر أو بالحجر أكثر مما يمكن للكلمات أن تعبر عنه . كنت في أغلب الأحيان كلما قرأت كلماته صرت عاجزاً عن استظهاره . لقد صرت الآن تواقاً لذاك الفيض من الصور الغزيرة ، تلك العبارات والجمل والفقرات الكبيرة المفعمة بالعواطف ، إنها كلمات الرجل الذي فتح عيني على هذا الابداع المذهل لبلاد الهند : إنه إيلي فاور مددت يدي لأتناول المجلد الذي كنت أتصفحه في أغلب الأحيان . إنه المجلد الثاني من / تاريخ الفن/ . وعدت إلى المقطع الذي يبدأ بعبارة [بالنسبة للهنود كل الطبيعة مقدسة . . . إن الشيء الوحيد الذي لا يكذب في الهند هو الايمان . . .] ثم تلتها السطور التي جعلت دماغي يصاب بالدوار عندما صادفتها لأول مرة : [في الهند جاء زمن حدث فيه أن الملايين من الكائنات البشرية قد رحلت إلى الشمال أو إلى الجنوب مدفوعة بتأثير غزو أو مجاعة أو هجرة وحوش برية . وهناك على شاطئ البحر أو عند سفح جبل كانوا يصادفون جداراً ضخماً من الغرانيت . بعدئذ كانوا يدخلون جميعاً في الغرانيت ، في ثناياه كانوا يسكنون ، يعشقون ، يعملون ، يموتون ، يولدون ، وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة قرون يعاودون الخروج منه على بعد فراسخ مخترقين الجبل من طرف إلى طرف .وحيث كانوا

* الاسطوبات : أبراج بوذية على شكل قباب أو أهرام (م)

يخلّفون وراءهم الصخر المجّوف بردهاته المجّوفة في كل الاتجاهات ، وجدرانه المنحوتة المحفورة وأعمدته الطبيعية او الاصطناعية وقد تحولت الى تخريمات عمقها عشرة آلاف من الصور المرعبة او الساحرة والآلهة التي لا حصر لها ولا أسم ، والنساء والرجال والوحوش ـ سيلاً من الحياة الحيوانية يتحرك في الظلام . في بعض الأحيان عندما كانوا لا يجدون أرضاً مقطوعة الشجر كانوا يجّوفون هاوية في مركز كتلة الصخر للإحتماء بحجر اسود صغير .

[هنا في هذه المعابد المونوليثية وعلى جدرانها القاتمة او على واجهاتها المسفوعة بالشمس ، حيث ينفق عباقرة الهند الحقيقيون كل قواهم الرهيبة ، هنا يصير الكلام المضطرب للدهماء المضطربة مسموعاً . هنا يعترف الانسا ن دون مقاومة بقوته وعدميته . . .] .

وهكذا كنت أتابع القراءة وأنا مسكر كما كنت دائماً . الكلمات لم تعد كلمات ، بل صوراً حية ، ، صوراً طرية من القالب ، ما تزال تومض ، تنبض ، تموج ، تخنقني بذاتناميتها excrescence

[. . . العناصر ذاتها لن تمزج كل هذه الحيوات مع فوضى الأرض بنجاح أكثر مما فعله النحات . في بعض الاحيان يجد المرء في الهند فطوراً من الحجر في أعماق الغابات ، تلمع في الظل الأخضر مثل النباتات السامة . في أحيان أخرى ، يجد المرء فيلة ضخمة وحيدة تماماً ، مكسوة بالطلحب ، خشنة الجلد كما لو كانت حية ، انها تمتزج مع الكروم الملتفة ، تتطاول الأعشاب الى بطونها ، تغطيها الأزهار والأوراق ، وحتى عندما تعود أنقاضها الى الارض ، فأنها لن تذوب بشكل كامل في ثمالة الغابة . . .] . ما أروعها من فكرة . . . هذه الأخيرة ، حتى عندما تعود الى الارض . . . آه . . والآن الى هذا النص ـ :

[لم يعد الانسان في مركز الحياة . لم يعد زهرة الدنيا بأكملها التي صممت على تشكيله وانضاجه . لقد صار ممتزجاً مع كل الأشياء ، صار في المستوى نفسه مع كل الاشياء . صار جسيماً ، جزءاً من اللانهاية ، لم يعد

أكثر أو اقل أهمية من الجسيمات الأخرى ، الأجزاء الأخرى من اللانهاية . الأرض تتحول الى شجرة ، الشجرة تتحول الى ثمار ، الثمار الى انسان وحيوان ، الأنسان أو الحيوان الى أرض . وهكذا فإن دودة الحياة تندفع بقوة وتولد كوناً مضطرباً تبرز فيه أشكال الثانية من الزمن فقط ثم تنغمر وتعاود الظهور متخطية بعضها بعضاً ، نابضة بالحياة ، مخترقة بعضها بعضاً كما لو كانت تمور كالامواج . لا يعرف الانسان اذا لم يكن البارحة هو نفس الأداة التي سيجبر هو نفسه بها المادة على إطلاق الشكل الذي ربما سيتخذه غداً . كل شيء مجرد مظهر . وتحت هذا التنوع ، هذا الاختلاف في المظاهر ، فإن البراهما ، روح العالم ، المتوحد ، الضائع كأنه في لجة المحيط المكون من الأشكال والطاقات الممتزجة ، هل يعلم إن كان لايزال شكلاً أم روحاً ؟ هل ذاك الشيء الماثل أمامنا كائن

مفكر ، أو حتى كائن حي ، كوكب ، أم هو كائن مقتطع من الحجر ؟ إن النشوء والتحجر يحدثان دون توقف . لكل شيء حركته الثقيلة ، مادته المنبسطه التي تخفق مثل القلب . ألا تكمن الحكمة في أن نغوص فيه لكي نتذوق ثمالة اللاوعي ، كما يكتسب المرء ملكية القوة التي تحرك المادة ؟] .

أحب الفن الشرقي ـ ومن لا يحب الفن الشرقي ؟ ولكن أي شرق ـ الأدنى أم الأقصى ؟ أنا احببت الأثنين معاً . من الممكن انني قد أحببت هذا الفن بشكل مختلف للغاية عن فننا ، لأن الانسان ـ حسب كلمات ايلي فاور« لم يعد هو مركز الحياة » . ربما كان هذا التسطيح أو« الترقية » للإنسان ، هذا الامتزاج مع كل الحياة ، هذا الصغير بشكل محدود والكبير بشكل لا محدود في نفس الوقت وبآن معاً هو الذي انتج مثل هذا الشعور المفرط بالأهمية عند مواجهتهم بأعمالهم . أو لنعبر عن ذلك بطريقة أخرى ، لأن الطبيعة كانت عندهم شيئاً آخر ، شيئاً أكثر من مجرد ستارة خلفية . ولأن الانسان ـ مع أنه إلهي مقدس ـ لم يكن أكثر قدسية من ذاك الذي تحدر منه . وربما أيضاً لأنهم لم يخلطوا بين اضطراب وفوضى الروح واضطراب وفوضى الفكر . ولان الذهن

ـ أو الروح أو الجوهر ـ كان يتألق من خلال كل شيء خالقاً إشعاعاً إلهياً . وهذا بالرغم من كون الانسان مقهوراً ومعاقباً فإنه لم يتسطّح إبداً ، لم يحبط ، لم يطمس ، ولم يحط من قدره . لم يخلق لكي يتذلل أمام الجليل بل لكي يندمج فيه . فلو كان هناك مفتاح للألغاز التي كانت تلفه وتتخلّله وتغذيه لكان مفتاحاً بسيطاً متاحاً للجميع . لم يكن هناك أي لغز حوله .

نعم ، لقد أحببت هذا العالم الهندي الهائل المذهل الذي ـ من يدري ـ كان من الممكن في يوم من الايام أن آراه بأم عيني .

لقد احببته ، لانه كان غريباً وبعيداً ، لأنه كان بالفعل أقرب إليَ من فن الغرب . لقد أحببت الحب الذي لم يكن يجد طريقة للتعبير لو لم يكن حب الجماهير وا لحب النابع منها وإليها . أحببت الجانب المجهول من ابداعاتهم المذهلة . كم هو مريح ومنعش أن تكون عاملاً متواضعاً مجهولاً ،حرفياً وليس عبقرياً ، واحداً من بين الآلاف تشارك في ابداع ما يعود الى الجميع . أن لا تكون أكثر من نقّال ماء فهذا يحمل من المعاني بالنسبة لي أكثر من ان تكون بيكاسو او رودان ، او ميكيل أنجلوا أودافنشي .

اذا استعرضنا بانوراما الفن الأوروبي نجد أن اسم الفنان هو الذي يبرز دائماً مثل إبهام متقرح . وكما هي العادة فيما يتعلق بالاسماء الكبيرة ، تنتشر حكاية الكرب والآسى وسوء التفاهم الفظ . لقد صارت كلمة (عبقري) بالنسبة الينا ـ نحن ابناء الغرب ـ شيئاً تكتنفه الرهبة ، أو هو ذاك الذي لا يتكيف ، العبقري هو الذي يموت في البالوعة أو في المنفى أو على الخازوق .

حقيقة الأمر أنني كانت لي طريقتي في اغاظة أصدقائي الحميمين عن طريق تمجيد فضائل الشعوب الاخرى . فقد كانوا يجزمون بأنني كنت أفعل ذلك للتباهي ، أي أنني كنت أدعي فقط انني أقدر وأقيم وزناً لأعمال الفنانين الأجانب ، أي أنها كانت طريقتي الخاصة في انتقاد شعبنا ومبدعينا بقسوة . وهم لم يكونوا مقتنعين أبداً بأنني كنت قادراً على التكيف مع كل ما هو غريب ، مثير ، وأجنبي في الفنون فوراً ، وأن ذلك لم يكن يتطلب أي

استعداد أو إطلاع أو معرفة بتاريخها او تطورها .« ماذا يعني ذلك ؟ ما الذي يحاولون قوله ؟ » .

هكذا كانوا يسخرون مني ويتهكمون كما لو أن الشروحات لم تكن تعني شيئاً ، وكما لو أنني كنت أهتم بما « كانوا » يقصدونه . والأهم من ذلك كله ، أن ما كان يزعجني هو الوحشة والعبث في أن يكون المرء فناناً . وعلى مدى حياتي كلها فقد قابلت كاتبين فقط ممن استطيع تسميتهم بالفنانين . إنهما جون كاوبرا باويس وفرانك هاريس . الأول عرفته من خلال حضوري لمحاضراته ، والثاني من اشتغالي بالخياطة . أو بالأحرى بوصفي الصانع الذي كنت اسلمه ثيابه وأساعده على ارتداء سرواله . هل كانت غلطتي - ربما - أنني قد بقيت خارج الدائرة ؟ كيف كان لي أن أقابل كاتباً آخر أو رساماً أو نحاتاً ؟ هل اندفع إلى مرسمه وأحكي له أنني كنت أيضاً اتوق إلى الكتابة أو الرسم أو النحت - أو الرقص وما شابه ذلك ؟ أين كان الفنانون يجتمعون في عاصمتنا الفسيحة . يقال في قرية غرينويتش . لقد سكنت في القرية ، تمشيت في شوارعها في كل الأوقات ، قمت بارتياد مقاهيها ومشارب الشاي فيها . زرت صالاتها وستوديوهاتها ، مكتباتها وباراتها الرخيصة وأماكن اللهو فيها . بلى ، لقد تعرفت في أحد البارات القذرة على أشخاص من امثال ماكسويل بودنهايم ، ساداكيشي هارتمان ، غيدو برونو لكنني لم ألتقِ أياً من دوس باسوس أو شيروود اندرسون أو والدو فرانك أو كمينغز أو تيودور درايزر أو بن هكت ولا حتى شبح او هنري . اين كانوا يختبئون ؟ البعض منهم كان في المهجر يحيا سعادة حياة المنفي أو المنشق ؛ فهم لم يكونوا يبحثون عن فنانين آخرين ولا عن مبتدئين امثالي . كم كان شيئاً رائعاً في تلك الأيام ، عندما كان ذلك يعني لي الكثير لو أنني تمكنت من مقابلة تيودور درايزر أو شيروود اندرسون اللذين كنت اعبدهما! ربما كنا نجد ما نقوله لبعضنا ، شيئاً خاصاً كما كنت فيما بعد . ربما كنت ساستمد الشجاعة على البدء حالاً (أو الهرب) بالبحث عن مغامرة في بلدان أجنبية .

هل كان الخجل والجبن وفقدان الذات هو الذي أبقاني مستقلاً خلال هذه السنوات القاحلة ؟ هنا تقفز إلى الذهن حادثة مضحكة نوعاً ما . ذات مرة بينما كنت أتجول مع أومارا بحثاً عن شيء من الجدة أو الإثارة أو أي شيء نلهو به ، عرّجنا ذات ليلة لحضور محاضرة في مدرسة راند . كانت واحدة من تلك الأمسيات الأدبية التي يطلب فيها إلى الحاضرين أن يدلوا بآرائهم حول هذا المؤلف أو ذاك . ربما في تلك الأمسية بالذات كنا قد استمعنا إلى محاضرة حول كاتب معاصر يفترض بأنه « ثوري » . ويبدو لي الآن أننا كنا قد استمعنا ، لأنني عندما وجدت نفسي ـ فجأة ـ واقفاً اتحدث ، تأكد لي أن ما أقوله لم تكن له أية علاقة بما جرى من قبل . ومع انني كنت مبهوراً ، فقد كانت تلك المرة الأولى التي انبرى فيها للكلام أمام الناس . وحتى في جو غير رسمي كهذا ـ فقد كنت مدركاً ، أو شبه مدركٍ بأن جمهوري كان منوماً تنويماً مغناطيسياً . وقد راودني شعور ـ أكثر مما هو رؤية ـ بأن وجوههم المقلوبة كانت تتوتر لالتقاط الكلمات . كانت عيناي مثبتتين نحو الأمام إلى الشخص القابع خلف طاولة المنبر والذي كان يجلس مسترخياً في مقعده محدّقاً في أرض القاعة . وكما قلت فقد كنت مبهوراً إلى أقصى حد ـ فلم أكن أعرف ماذا كنت أقول ولا إلى أين يقودني ما أقوله . كنت أتكلم بطلاقة كما يفعل المرء في ذروة النشوة . وما الذي كنت اتحدث عنه ؟ عن مشهد من روايات هامسن ، عن شيء يتعلق بتوم المتلصص . اتذكر ذلك جيداً ، لأنني عندما تطرقت إلى الموضوع ـ وربما أنني قد أسهبت في وصف المشهد ، سمعت ضحكة مكبوتة خافتة من بين الجمهور تبعتها فوراً حالة سكون عميق ينم عن انتباه مستغرق . عندما انتهيت من الكلام انطلقت عاصفة من التصفيق ، ثم ، ألقى عريف الحفل خطاباً متملقاً حول الفرصة السعيدة التي اتيحت لهم بسماع هذا الضيف غير المدعو ـ وهو كاتب بدون شك ، مع أنه كان آسفاً لكونه يجهل اسمي... وهكذا دواليك . ولما تفرّق الحضور نزل عن المنصة واندفع نحوي يهنئني من جديد ويسألني عمن أكون وماذا كتبت وأين أسكن... وهلم جرا...الخ . وبالطبع ، فقد

كان ردي غامضاً وملتبساً . أصابني الذعر هذه المرة وراودتني فكرة الهرب . لكنه أمسكني من طرف كمي ، عندما استدرت لكي انصرف وقال لي بجدية مطلقة ، محدثاً لي صدمة بحد ذاتها :ـ «لماذا لا تتولى أمر هذه الاجتماعات ؟ فأنت اكثر كفاءة مني على القيام بذلك . إننا بحاجة لواحد مثلك ممن يستطيعون إلهاب المشاعر والحماس» .

أجبته بشيء من الهمهمة واعداً اياه وعداً واهياً واتخذت سبيلي نحو باب الخروج . عندما خرجنا التفتُ إلى اومارا وسألته :

ـ «ما الذي قلته أنا ـ هل تتذكر ؟»

نظر إليّ مستغرباً متسائلاً ، دون شك ، إن كنت اتصيّد الإطراء .

قلت له : «أنا لا اتذكر شيئاً . إذ أنني في اللحظة التي نهضت على قدمي أصبحت خارج نطاق الوعي . الشيء الوحيد الذي أعرفه ، وبشكل مبهم ، هو أنني كنت أتحدث عن هامسون» .

قال لي : «يا يسوع! واسفاه! كنتَ عجيباً ؛ فأنت لم تتلكأ لحظة . كانت الكلمات تسيل من فمك سيلاناً» .

ـ «هل كان لها أي معنى ؟ هذا ما أريد معرفته»

ـ «لها معنى ؟ يا رجل لقد كنت قريباً من مستوى باويس» .

ـ «هلم ، هلم ، لا تقل لي ذلك!»

قال لي : «أنا أقصد ما أقوله يا هنري» .

كانت الدموع تملأ عينيه وهو يتكلم .

ـ «لقد كنتَ محاضراً عظيماً ـ لقد سحرتهم . كما أنهم قد صدموا ، ولم يكونوا يعرفون ما الذي عليهم فعله ، كمااعتقد» .

ـ «هل كانت محاضرتي فعلاً بهذه الجودة ؟»

قلت له ذلك وقد بدأت اتحقق مما حدث .

ـ «لقد قلت الكثير قبل أن تدخل في موضوع هامسون»

ـ «أنا ؟ مثل ماذا مثلاً ؟»

ـ « يا يسوع! لا تطلب مني أن أعيد كلامك . إذ ليس بمقدوري ذلك . يبدو أنك قد تطرقت إلى كل شيء . حتى أنك قد تحدثت عن الله ليضع دقائق » .

ـ « لا! كل هذا كان ارتجالاً ـ بالنسبة لي ـ ارتجالاً تاماً » .

قال لي : « ما أهمية ذلك ـ أتمنى لو كان بإمكاني أن أرتجل وأتكلم بتلك الطريقة »

وهكذا تم الأمر . كان حدثاً تافهاً مع أنه كان موحياً . لم ينجم عنه أي شيء . كما أنني لم أعاود المحاولة ، ولا حلمت بأن أفتح فمي أمام جمهور . فكنت إذا حضرت محاضرة ـ وقد حضرت الكثير في هذه الفترة ـ أجلس مفتوح العينين والفم والأذنين ، منتشياً ، ممتثلاً ، سريع التأثر ، مطواعاً مثل أي شكل بشري من الأشكال المحيطة بي . ولن يخطر ببالي أبداً أن أقف وأسأل سؤالاً ، أو أبدي أي شكل من أشكال الانتقاد . فلقد أتيت لكي أتلقن ، لكي اتفتح . لم أقل لنفسي أبداً : « أنت تستطيع الوقوف أيضاً وإلقاء خطاب . بإمكانك أن تسيطر على الجمهور بقوة فصاحتك . بإمكانك أن تختار مؤلفاً وتعرض فضائله باسلوب باهر » .

لا ، لم تخطر ببالي أي من هذه الأفكار . لا بل أنني عندما كنت أقرأ كتاباً كنت أرفع بصري عن الصفحة في ختام فصل أخّاذ وأقول لنفسي :

ـ « بإمكانك أن تفعل ذلك أيضاً . لقد فعلته في الواقع . كل ما في الأمر أنك لا تستطيع فعله على الأغلب بالشكل الكافي » .

ثم أتابع القراءة ، أنا الضحية الخانعة ، أنا التابع ، المريد ، المسلوب الارادة . هذا التابع الطيب عندما تحين له الفرصة ، عندما يؤاتيه المزاج ، سيكون قادراً على شرح وتحليل وانتقاد الكتاب الذي قرأته لتوي ، كما لو كان هو المؤلف ، لا باستخدام كلمات المؤلف ولكن باستخدام صورة زائفة تحمل أهمية وتفرض احتراماً . وبالطبع ، سيظل السؤال الذي يلاحقني في مثل هذه المناسبات هو : «لماذا لا تؤلف كتاباً من عندك ؟ » الأمر الذي سيجعلني أصمت مثل الأبكم أو أصير مهرجاً ـ أو أي شيء من شأنه ذر الرماد في العيون . لقد دأبت بشكل دائم على تشجيع كاتب ناشئ في حضور الأصدقاء

والمعجبين ، أو حتى المؤمنين ، لأنه كان من السهل دائماً بالنسبة لي أن أخلق هؤلاء المؤمنين . لكنني عندما صرت وحدي استذكر كلماتي وأفعالي بروية يتملكني الشعور بأنني معزول ، كنت أقول لنفسي : « إنهم لا يعرفونني » . وكنت أقصد بذلك أنهم لا يعرفونني من أجل ما أنا كائن ، وليس من أجل ما يمكن أن أصيره . لقد كانوا متأثرين بالقناع . لا يمكنني أن اسميه هكذا ، ولكن هذه بالضبط الكيفية التي اتحدث بها عن مقدرتي على التأثير في الأخرين . إذ ليس أنا نفسي الذي كنت أفعل ذلك ، بل قناعاً آخر تعلمت كيف ألبسه . في الواقع ، كان شيئاً مما يمكن لأي شخص يمتلك قليلاً من الذكاء ونزعة إلى التمثيل أن يتعلمه . بمعنى أخر ـ إنه مجرد حيل قردية . وحتى حينه ، بالرغم من أنني أنظر إلى هذه الانجازات من هذا المنظار ، إلا أنني في بعض الأحيان أتساءل ـ ربما ـ عما إذا لم أكن أنا نفسي الذي كان وراء هذه التصرفات الغريبة . هكذا كانت عاقبة العيش منفرداً ، والعمل منفرداً ، وعدم اللقاء مع أية روح بشرية شقيقة ، أو عدم ملامسة أهداب تلك الحلقة السرية الداخلية ، حيث يمكن لكل تلك الشكوك والتناقضات التي خربتني أن تخرج إلى العراء وأن يتم تشاركها ومناقشتها وتحليلها . وإذا لم يتم تبديدها فعلى الأقل أن تعرض على الملأ . إن تلك الأشكال الغريبة الخارجة من عالم الفن ـ الرسامون ، النحاتون ، ولا سيما الرسامون ـ هل كان من غير الطبيعي أن أحس بالإلفة معهم ؟ كانت أعمالهم تحدثني بطريقة صوفية . فلو أنهم استعملوا الكلمات لكنت قد أصبت بالارتباك . مهما تكن كلماتهم بعيدة عن كلماتنا فقد كانت المضامين هي نفسها : الصخور ، الأشجار ، الجبال ، الماء ، المرح ، العمل ، اللعب ، الأزياء ، العبادة ، الشباب ، الشيخوخة ، البغاء ، الرذيلة ، الشبق ، الفرح ، الحزن . إنها لفافة ورق تيبتية بمندالاتها* . وآلهتها وشياطينها ورموزها الغريبة وألوانها الممحوة بتقادم

* المندالة : رمز الكون عند الهندوس والبوذيين وبخاصة دائرة تطوق مربعاً وعلى كل جانب رسم إله (م)

الزمن ، كلها كانت مألوفة بالنسبة لي ، كانت جزءاً مني كما الحوريات والجن ، كما الغدران والغابات من رسام أوروبي .

أما أقرب شيء إليّ من الفن الصيني أو الياباني أو التيبتي فهو ذاك الفن الهندي وليد الجبال ذاتها . كما لو أن الجبال قد صارت حبلى بالأحلام فولدت أحلامها مستعملة المخلوقات البشرية البائسة التي عملت على تجويفها كما تفعل الأودات) .

كانت تلك الطبيعة الرهيبة ـ إذا جاز لنا الكلام عن الأشياء الفخمة بهذا الشكل ـ نعم ـ الطبيعة الرهيبة لهذه الابداعات هي التي كانت تروق لي على نحوٍ بالغ ، وهي التي كانت تشبع بعضاً من الحنين الكامن في وجودي بحد ذاته . ولما كنت اتنقل بين أبناء جلدتي فإنني لم أكن متأثراً بأي من منجزاتهم ، لم أشعر أبداً بوجود أي دافع ديني عميق ولا أية نزعة جمالية عظيمة ، فلم تكن هناك أية عمارة سامية ، ولا رقصات مقدسة ، ولا أي طقس من أي نوع . كنا نخوض في حشد مندفع مصممين على انجاز شيء واحد : هو أن نجعل الحياة سهلة . أما الجسور الكبيرة ، السدود الكبيرة ، ناطحات السحاب الكبيرة ، فقد كانت كلها تترك فيّ شعوراً باللامبالاة . إن الطبيعة وحدها هي التي كان بمقدورها أن تطبع في النفس شعوراً بالخشية . وقد كنا نشوه الطبيعة دائماً وفي كل مناسبة . وكثيراً ما كنت أطوف البلاد بحثاً عن شيء ، مندفعاً بقوة ، فكنت أعود دائماً خالي اليدين . لا شيء جديد ، لا شيء غريب ، لا شيء يستحق التبجيل . كنت وحيداً في بلاد ينط فيها كل واحد كالمجنون . ما كنت أتوق إليه هو أن أعبد وأن أهيم . ما كنت بحاجة إليه هو وجود رفاق يشعرون بالطريقة نفسها . ولكن لم يكن ثمة شيء للعبادة أو الهيام ، ولم يكن هناك رفاق ذوو أرواح مشابهة .

لم يكن هناك سوى قفر من الفولاذ والحديد ، من الأسهم والكمبيالات ، من المحاصيل والمنتوجات ، من المصانع والمطاحن وساحات الأخشاب ، برية من الملل والمؤسسات عديمة النفع ، برية الحب الخالي من الحب .

الفصل الثامن عشر

بعد أيام قليلة تلقيت مكالمة هاتفية من ماك غريغور :

ـ « هل تعلم ، يا هنري ؟ »

ـ « لا ، ماذا ؟ »

ـ « لقد غيّرت معاملتها لي . حدث كل شيء بمبادرة منها . ألا تعرف ما الذي جرى لها . هل ذهبت لمقابلتها ؟ »

ـ « لا ، في الواقع أنني بشق النفس وجدت فرصة لمجرد التفكير » .

ـ « أنت عرص! لكنك جلبت لي السعد . الأمر سيّان ، أو بالأحرى إن صورك قد فعلت فعلها . لا بل ، إنها تلك اللوحات اليابانية المعلقة على جدارك . لقد ذهبت واشتريت لوحتين بإطارين جميلين وارسلتهما لها . في اليوم التالي تلقيت منها مكالمة هاتفية مليئة بالإثارة . قالت لي أنها كانت تتحرق إلى مثل هذه اللوحات بالضبط . أخبرتها أنك أنت الذي أوحى لي بإرسالها فاشرأبت اذناها . وأغلب الظن أنها قد فوجئت بأن لي صديقاً يهتم بالفن على هذا النحو . الآن صارت تريد مقابلتك . قلت لها أنك رجل دائم الانشغال ، ولكنني سأتصل بك لأرى إن كان بمقدورنا المجيء إلى بيتك ذات مساء . إنها فتاة غريبة الأطوار ـ ما رأيك ؟ على كلٍ ، هذه فرصتك لكي تسوي الأمور ـ كرمى لي . يكفي أن تنثر بعض الكتب هنا وهناك ـ ما رأيك ؟ أنت

تعرف ذلك . كتباً من النوع الذي لم أقرأه أبداً . إنها معلمة مدرسة ـ تذكر ذلك . الكتب تعني لها شيئاً ـ حسناً ما قولك ؟ ألست سعيداً ؟ قل لي شيئاً ؟ »

ـ «اعتقد أنه شيء رائع . كن يقظاً وإلا فإنك ستتورط في الزواج مرة ثانية» .

ـ «لا شيء سيسعدني أكثر مما أنا سعيد . لكن يجب عليَّ أن أكون سلساً . فأنت لا يمكنك أن تضغط عليها . إن العملية مثل زحزحة جدار حجري» .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال لي :

ـ «هل أنت هنا ، يا هنري ؟ »

ـ «نعم ، أنا مصغٍ» .

ـ «كنت أرغب في الحصول منك على قليل من المعلومات قبل أن أراك . أقصد قبل أن أجلب غيلدا . مجرد حقائق قليلة عن رسامين ولوحات . أنت تعرفني ، إنني لم أزعج نفسي بالتمرن على هذا الهراء . على سبيل المثال ، هنري ما الذي تعرفه عن بروغل ؟ هل كان واحداً من العظماء ؟ يتراءى لي وكأنني قد شاهدت هذا الهراء من قبل في متجر البراويظ وفي المكتبات . تلك اللوحة التي تقتنيها أنت... فلاح يحرث حقلاً... متسلقاً جرفاً صخرياً ـ كما أذكر ـ وثمة شيء يسقط من السماء... إنسان ربما ـ متجهاً نحو المحيط . أنت تعرفها ـ ماذا تدعى ؟ »

ـ «أظن أنها /طيران ايكاروس/ »

ـ «عمن ؟ »

ـ «ايكاروس ، الفتى الذي حاول أن يطير إلى الشمس ، لكن جناحيه انصهرا ـ هل تذكر ذلك ؟ »

ـ «بالتأكيد ، بالتأكيد . أظن أنه من الأفضل أن أعرّج ذات يوم وألقي نظرة أخرى على هذه اللوحات . وأنت بإمكانك أن تطلعني على ذلك . أنا لا أريد أن أبدو بمظهر الغبي عندما تبدأ هي بالكلام عن الفن» .

قلت له : « تمام ، أي شيء ، ولكن تذكر ، لا تحجزني طويلاً! »

- « هنري ، قبل أن تضع السماعة ، أعطني اسم كتاب يمكن أن أقدمه هدية لها ، كتاباً انيقاً وشاعرياً . هل يمكن أن يخطر على بالك عنوان كتاب - فوراً ؟ »

- « نعم ، إنه يناسبها تماماً وعنوانه / القصور الخضراء / من تأليف هدسون . إنها ستحبه » .

- « هل أنت متأكد ؟ »

- « مطلقاً ، اقرأه بنفسك أولاً » .

- « اتمنى يا هنري لو كان عندي الوقت لذلك . بالمناسبة ، هل تذكر قائمة الكتب التي اعطيتني إياها منذ سبع سنوات ؟ لقد قرأت ثلاثة منها - هل تفهم قصدي ؟ »

أجبته : « أنت متشائم »

- « شيء آخر ، يا هنري ، هل تعلم أن فترة العطلة الصيفية آتية بعد مدة قصيرة . لقد خطرت ببالي فكرة أن آخذها معي إلى اوروبا - هذا إن لم ننفصل في هذه الأثناء - ما رأيك ؟ »

- « فكرة رائعة - لتكن رحلة شهر العسل! »

قالت مونا : « إنه ماك غريغور ، أراهن على ذلك »

- « صحيح ، إنه يهدد بجلب صاحبته غيلدا ذات مساء » .

- « يا له من شخص مزعج! لماذا لا تقول لصاحبة الدار أن تقول له أنك قد خرجت من البيت ، عندما يتصل بك في المرة القادمة ؟ »

- « هذا لن يفيد كثيراً . فهو يزورنا بشكل مباغت ليكتشف إن كانت تكذب عليه . هو يعرفني ، وهكذا نكون قد وقعنا في الفخ » .

كانت تعد نفسها للانصراف ، فقد كانت على موعد مع بوب . كانت الرواية قد اكتملت تقريباً . وكان بوب لا يزال متفائلاً بها بشكل ممتاز .

- « بوب سيذهب عما قريب إلى ميامي لقضاء عطلة قصيرة » .

- « هذا شيء جيد » .

ـ « ما زلت أفكر ، يا ڤال ، ما زلت اعتقد أنه ربما أمكننا أن نمضي إجازة أيضاً في فترة غيابه » .

قلت لها : « في أي مكان مثلاً ؟ »

ـ « أوه ، في أي مكان ، ربما في مونتريال أو كيبيك » .

ـ « ولكن الطقس مقبل على برودة شديدة ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « لا أدري . بما أننا سوف نسافر إلى فرنسا فقد فكرت بأنك ربما أحببت طعم الحياة الفرنسية . الربيع على وشك القدوم هنا ولا يمكن أن يكون الطقس شديد البرودة هنا » .

بعد ذلك لم نتطرق إلى موضوع الرحلة لمدة يوم أو يومين . في هذه الأثناء بقيت مونا تجمع المعلومات والاستفسارات . صارت بحوزتها كل المعلومات الهامة عن كيبيك التي كانت تعتقد أنني سأفضلها على مونتريال ؛ فهي أكثر تَفَرْنُساً كما قالت لي . والفنادق فيها ليست باهظة الأجور . بعد مضي أيام قليلة قررنا السفر . كانت مونا ترى أن تستقل القطار في حين كنت أفضل السفر بالسيارات على طريقة الأوتوستوب ، بحيث ألاقيها في محطة القطار في مونتريال .

وهكذا وجدت نفسي على الطرقات ، مرة أخرى على الطرقات . كان الربيع قد خيّم على الطبيعة ، لكن الطقس ما يزال بارداً . بوجود النقود في جيبي لم أعد قلقاً بشأن التنقلات . فإذا طال انتظاري أعمد إلى ايقاف باص أو قطار . وهكذا وقفت هناك على الاوتوستراد الخارج من باترسون ، وقد صممت على ركوب أول سيارة متجهة شمالاً بغض النظر عن كونها ذاهبة مباشرة أم فيما بعد .

أمضيت حوالي ساعة ، قبل أن أقوم بالنقلة الأولى ، حيث أدت هذه النقلة إلى تقدمي حوالي عشرين ميلاً . فجاءت سيارة ثانية أقلّتني لمسافة خمسين ميلاً أخرى . كان الريف بارداً وأجرد . فلم احرز شيئاً سوى بعض النقلات القصيرة . مع ذلك فقد كان لدي وفرة من الوقت . صرت من حين لآخر أسير

مسافات قصيرة لاستعيد رشاقتي . لم يكن معي من الأمتعة سوى فرشاة أسنان وأدوات الحلاقة والغيارات الكتانية . كان الهواء البارد المنعش يزداد نشاطاً . تعبت من المشي فوراً . لم يكن هناك ما يمكن التفرج عليه سوى المزارع التي كانت تبدو مثل المقابر . خطر ببالي ماك غريغور وصاحبته غيلدا . قلت لنفسي أن هذا الاسم يناسبها وتساءلت إن كان سيسحقها . يا له من إخضاع كئيب . لاحت من بعيد سيارة ، فأومأت لها . صعدت فيها دون سؤال عن وجهتها . كان السائق شخصاً مخبولاً متديناً لم ينقطع طوال الرحلة عن الكلام . وأخيراً سألته إلى أين يتجه فأجابني بقوله :

ـ «نحو الجبال البيضاء» .

كان يمتلك كوخاً في أعالي الجبال ، فقد كان أحد المبشرين المحليين . سألته :

ـ «هل يوجد فندق على مقربة من هنا ؟»

لم يكونوا يمتلكون فنادقاً أو نزلاً أو أي شيء . لكنه كان سعيداً بأنه سوف يأويني عنده . كان عنده زوجة وأربعة أولاد كلهم يحبون الله كما أكد لي . شكرته . لكنني لم أكن امتلك أية نية في قضاء الليل معه ومع اسرته ، فعزمت على النزول في أول مدينة نصل إيها ؛ إذ أنني لم أكن مستعداً لأن أتصور نفسي راكعاً أصلي مع ذاك الأحمق .

قال لي ، بعد صمت عميق : «يا سيد ، لا أظنك رجلاً تخشى الله كثيراً ـ صحيح ؟ ما هو دينك»

أجبته : «ليس لي أي دين»

ـ «لقد خمنت ذلك ـ ألست رجلاً سكيراً ؟»

أجبته : «إلى حد ما . اشرب بيرة ، نبيذ ، براندي...»

ـ «إن الله رحيم بالمذنب يا صديقي . لا أحد يفلت من مراقبته»

وانطلق في حديث مسهب عن الصراط المستقيم وعواقب الخطيئة والسعادة السماوية وتمجيد الصالحين... إلى آخره . لقد كان مسروراً لكونه

صادف مذنباً مثلي حيث وجد لنفسه شيئاً يتلهى به . قلت له ، بعد واحدة من خطبه الرنانة :

ـ « إنك تضيع وقتك ، فأنا مذنب لا سبيل إلى برائه ، إنني منبوذ بشكل مطلق » . مما أعطاه مزيداً من الدفع والتشجيع . قال لي :

ـ « لا أحد بدون نعمة الله » .

بقيت صامتاً استمع اليه ، وفجأة بدأ الثلج يتساقط ، فانمحت كل معالم الريف . لقد صرت الآن تحت رحمته . سألته :

ـ « هل المسافة بعيدة إلى المدينة التالية ؟ »

قال لي : « أميال قليلة » .

قلت له : « جيد ، إنني الآن مضطر للتبّول »

ـ « أفعلها هنا ، سانتظرك »

قلت له : « إنا مضطر لفعل الشيء الآخر أيضاً » .

لدى سماعه لهذه العبارة وضع قدميه على دعسة البنزين وقال :

ـ « سنكون هناك خلال دقائق قليلة . يا سيد ، إن الله يولي عنايته لكل شيء » .

ـ « حتى لأمعائي ؟ »

أجابني بوقار : « حتى لأمعائك ، فالله لا يفوته شيء » .

ـ « بفرض أن البنزين نفذ منك ، هل بمقدور الله أن يجعل السيارة تمشي كأن شيئاً لم يكن ؟ »

ـ « يا صديقي ، إن الله قادر على جعل السيارة تسير بدون بنزين . فلا شيء مستحيل بالنسبة إلى الله ، لكنها ليست طريقة الله . إن الله لا يخرق قوانين الطبيعة ، إنه يعمل بها ومن خلالها ـ لكن وهذا ما يفعله الله ـ إذا نضبنا من البنزين وكان من المهم لي أن أنتقل ـ فإنه سيجد طريقة لإيصالي حيث أريد . من الممكن أن يساعدك أنت على الوصول أيضاً . ولكن نظراً لكونك متعامياً عن طيبته ورحمته ، فإنك لن تشك في أن الله قد أمدّك بالمساعدة » .

سكت لحظة ليجعل عبارته الأخيرة تأخذ مفعولها ، ثم تابع الكلام :

ـ «ذات مرة وقعت في (زنقة) مثلك وسط مكان غير محصور ، وكان عليَّ أن أفرغ بالسرعة القصوى . ذهبت خلف أكمة من الأغصان وفرغت احشائي . ثم ، وبينما كنت أرفع سروالي لمحت ورقة نقدية من فئة عشر دولارات ملقاة أمامي على الأرض . إن الله هو الذي وضع تلك النقود هناك من أجلي وليس غيره . كانت تلك هي طريقته في هدايتي إليها ، بأن جعلني أذهب لأتغوط قربها . لا أدري لماذا أظهر لي هذا المعروف ، لكنني ركعت على ركبتي وشكرته ... . عندما وصلت إلى البيت وجدت زوجتي نائمة مع الولدين . كانوا مصابين بالحمى ، فاشتريت دواءً بتلك النقود بالإضافة إلى أشياء ضرورية أخرى... ها هي بلدتك ، يا سيد ، ربما كان الله يخبئ لك شيئاً ليُريك إياه عندما تفرغ أمعاءك ومثانتك ، سأنتظرك هناك عند المنعطف بعد أن اشتري حاجياتي... »

دخلت إلى محطة البنزين ، تبولت قليلاً بدون الفعلة الأخرى ، لم يكن يوجد أي دليل على وجود الله في المرحاض . كانت توجد لافتة كتب عليها : (يرجى مساعدتنا بالمحافظة على نظافة هذا المكان) .

قمت بتغيير طريقي لكي أتجنب منقذي وتوجهت نحو أقرب فندق . كان الظلام قد بدأ يخيم وكان البرد نفَاذاً . فالربيع لا يزال بعيداً هنا . سألت الموظف بينما كنت أوقع على سجل النزلاء :

ـ «أين أنا ؟ أقصد ـ أي مدينة هذه ؟ »

قال لي : «بيتسفيلد »

ـ «بيتسفيلد ـ ماذا ؟ »

أجابني وهو يمسحني بنظرة تنم عن برود وإزدراء :

ـ «بيتسفيلد ـ ماساشوسيتس » .

في صباح اليوم التالي نهضت من نومي مبكراً مبتهجاً . وكان الشيء الجيد أيضاً هو أن السيارات كانت قليلة والمسافات بينها متباعدة ، وكان يبدو أن لا أحد يريد أن يأخذ راكباً إضافياً . في حوالي الساعة التاسعة شعرت

بالجوع بعد كل الأميال التي قطعتها سيراً على قدمي . ولحسن الحظ ربما كان الله قد وضعه في طريقي ـ فقد كان الرجل المجاور لي في المقهى ذاهباً إلى قرب الحدود الكندية . قال إنه يسعده أن يأخذني معه . كان هذا الرجل استاذاً في الآداب ، إذ اكتشفت ذلك بعد فترة قصيرة من رحلتنا . وكان انساناً مهذباً أيضاً . كنت مسروراً بالاستماع إليه . كان يتحدث كما لو أنه قد قرأ عن كل شيء ذي قيمة باللغة الانكليزية فقد تحدث مطولاً عن بليك ، جون دون ، تراهيرن ، لورس ستيرن . كما أنه تحدث عن براوننغ ، وعن هنري أدامس وعن ملحمة ملتون المسماة Areopagitica ، أو بمعنى آخر عن الكافيار .

قلت له : « أظنك قد ألفت عدداً من الكتب بنفسك »

قال لي : « لا ، اثنان فقط » (يقصد مراجع أدبية)

أضاف : « أنا أدرس الأدب لا أصنعه » .

عندما اقتربنا من الحدود انزلني عند محطة وقود يملكها أحد أصدقائه ، إذ كان ينوي اتخاذ طريق يؤدي إلى مزرعة مجاورة . قال لي :

ـ « سيتولى صديقي إيصالك وسيؤمن لك سيارة تقلّك غداً صباحاً . تعرّفْ عليه فهو شخص مثير للاهتمام » .

كنا قد وصلنا إلى هذا المكان قبل موعد الإغلاق بنصف ساعة . اكتشفت فيما بعد أن صديقه شاعر . تناولت معه طعام العشاء في نزل دافئ صغير ثم رافقني إلى فندق صغير لكي أنام فيه . في ظهر اليوم التالي وصلت إلى مونتريال . كان عليّ أن انتظر بضع ساعات لكي يصل القطار . أصابني برد شديد . كنت أحسب نفسي وكأنني في روسيا . كانت تلك المدينة كالحة عابسة بكل ما فيها .

فتشت عن فندق ، دفأت نفسي في الردهة ثم عدت أدراجي إلى المحطة . قالت مونا بينما كنا ننطلق بالسيارة :

ـ « كيف وجدتها ؟ هل احببتها ؟ »

ـ « ليس كثيراً ، إنه البرد ـ ينفذ إلى نخاع العظم »

ـ «دعنا نذهب غداً إلى كيبيك!»

تناولت طعام العشاء في مطعم انكليزي . كان مطعماً مخيفاً . فالطعام كان مثل جيفة متعفنة مسخنة قليلاً .

قالت مونا : «سيكون الوضع أفضل في كيبيك . سنقيم في فندق فرنسي» .

في كيبيك كان الثلج أكواماً وكان قاسياً متجمداً . كان السير في الشوارع كالسير بين جبال الجليد العائمة . وفي كل مكان كنا نذهب إليه كنا نلتقي بقطعان الرهبان والراهبات : مخلوقات ذات مظاهر كئيبة يجري الجليد في عروقها . لم أكن أفكر كثيراً بكيبيك . إذ كان من الممكن أن نذهب إلى القطب الشمالي . المهم أي جو أحس فيه بالاسترخاء . على كلٍ ، لقد كان الفندق مريحاً ومبهجاً . أما الوجبات ـ تساءلت في نفسي هل يمكن أن تكون هكذا في باريس ؟ الحساء اللذيذ! لحم العجل الممتاز! الأجبان! لكن الخمور كانت أفضل الموجود على الإطلاق . أتذكر عندما سلمني النادل قائمة الخمور كيف أنني مسحتها بنظري فأصابتني الحيرة المطلقة نظراً لصعوبة الاختيار التي وقعت فيها . عندما حان وقت الطلب وجدت نفسي عاجزاً عن الكلام . نظرت إليه وقلت له :

ـ «ما رأيك أن تختار أنت لنا نوعاً ؟»

كنت أجهل كل شيء عن الخمور .

أخذ قائمة الخمور وتفحصها وهو ينظر حيناً إليّ وحيناً آخر إلى مونا ، ثم يعيد النظر إلى القائمة . كان يبدو أنه يبذل قصارى اهتمامه وعنايته . كأنه رجل يتفحص عربة السباق . قال :

ـ «أظن أن ما يجب عليكما أن تحتسياه هو الميدوك . فهو ضرب من البوردو الخفيف . وسيطري حلقيكما إذا أحببتماه سنجرب غداً خمراً آخر» .

ثم انطلق مبتهجاً مثل الملاك . عند الغداء أقترح علينا خمراً آخر هو الانجو . كان خمراً إلهياً كما حسبته . في الغداء التالي اتبعه بخمر فوفراي .

أما في أوقات العشاء فكنا إذا لم نتناول طعاماً بحرياً فقد كنا نشرب أنبذة مثل Saint -, Nuits, Pommard, Mouline -à- Vent, Macon, Clos Vougeot, George, Fleurie وغيرها . ومن حين لآخر ، كان يسرب إلينا البوردو الفاكهي ذا المذاق المخملي ، وهو خمر القصور الإقطاعية الفرنسية . لقد كان ذلك نوعاً من التثقيف (من الناحية الذهنية كنت أتصدق عليه بفكرة عجيبة) .

في بعض الأحيان كان يأخذ رشفة ليتأكد من أن المشروب يرقى إلى قيمته الإسمية . وبالطبع ، فقد كان يتكرم علينا بأروع المقدمات المتعلقة بالمأكولات التي يجب تناولها مع كل صنف من أصناف الخمور . ولقد جربّنا كل شيء . وكان كل شيء شهياً . بعد العشاء درجنا على عادة الجلوس على الشرفة الداخلية نحتسي الليكور أو البراندي المختار بعناية ونلعب الشطرنج . في بعض الأحيان كان نادل الفندق ينضم إلينا . عندئذ كنا نستوي في جلستنا ونصغي إليه يحدثنا عن La doulce France ، ومن حين لآخر كنا نستأجر عربة يجرها حصان ونطوف بها تحت جنح الظلام ونحن ملفعون بالفراء والبطانيات . حتى أننا في إحدى الليالي ذهبنا لحضور قداس إكراماً لخاطر النادل . لقد كانت هذه العطلة في مجملها من أكسل وأهدأ العطل التي قضيتها في حياتي . وفوجئت بأن مونا قد تقبلتها على علاتها بهذاالشكل .

قلت لها ذات يوم :

ـ «لا بد أنني سأجن لو كان عليَ أن أمضي بقية حياتي هنا» .

قالت : «إنها لا تشبه فرنسا إلا فيما يتعلق بالطبخ» .

قلت : «كما أنها لا تشبه أمريكا . إنها بلاد ليست ملكاً لأحد . يجب أن يستولي عليها الاسكيمو» .

مع اقتراب نهاية العطلة ـ بعد عشرة أيام ـ كنت متلهفاً للعودة إلى الرواية .

سألتني مونا :

ـ «هل ستنهيها بسرعة الآن ـ يا ڤال ؟»

فأجبتها : « مثل البرق » .

ـ « جيد! عندها نتمكن من السفر إلى أوروبا » .

قلت لها : « كلما اسرعنا كان ذلك أفضل »

عندما عدنا إلى بروكلن كانت كل الأشجار مزهرة . لا بد أن درجة الحرارة كانت أعلى بعشرين درجة عما كانت عليه في كيبيك .

استقبلتنا السيدة سكولسكي بحرارة وهي تقول : « لقد افتقدتكما » .

ثم تبعتنا إلى غرفتنا . قالت :

ـ « أوه ، كدت أن أنسى . إن صديقك الذي يدعى ماك غريغور ـ أليس كذلك ؟ قد جاء ذات مساء مع صديقته . لم يكن يبدو عليه أنه يصدقني في البداية . عندما أخبرته أنكما سافرتما إلى كندا صاح قائلاً : مستحيل! ثم سأل إن كان بوسعه أن يزور غرفة مكتبك . حرتُ فيما أقول له . كان يتصرف كما لو أنه من المهم جداً أن يري غرفتك لصديقته . قال لي : يمكنك الوثوق بنا ، فأنا أعْرف هنري منذ كان صبياً . فاستسلمت للأمر الواقع . وبقيت معهما طوال الوقت الذي أمضياه في شقتكما . صار يريها اللوحات على الجدران ـ وكذلك الكتب . كان يتصرف كما لو أنه يحاول استمالتها . ما إن جلس على كرسيك حتى بادر إلى القول لها : هنا يؤلف كتبه . أليس كذلك يا سيدة سكولسكي ؟ ثم تابع يحدثها عنك باعتبارك كاتباً عظيماً وأنك صديق مخلص...الخ . لم أعرف ما الذي كان عليَ أن أقوم به . أخيراً دعوتهما للنزول إلى الطابق الأرضي لتناول الشاي . فمكثا قرابة الساعتين ـ كما أظن ـ لقد كان شخصاً ممتعاً... »

سألتها : « عم كان يحدثك ؟ »

قالت : « عن أشياء كثيرة ـ ولكن معظم حديثه كان عن الحب . كان يبدو متيَماً بتلك السيدة الشابة »

ـ « وهل تكلمت هي كثيراً ؟ »

ـ « لا ، إذ أنها بشق النفس تكلمت كلمة واحدة . كانت انسانة غريبة

إلى حد ما... كما تراءى لي . ويبدو أنها من الصعب أن تصلح لرجل مثله » .

ـ « هل كانت وسيمة ؟ »

قال السيدة سكولسكي :

ـ « هذا يتوقف علي... صدقاً كنت أظنها بسيطة جداً وودودة . كانت ناشفة جداً . إن ما يحيرني هو : ما الذي يراه في فتاة مثلها ؟ هل هو أعمى ؟ »

قالت مونا : « إنه أحمق بكل معنى الكلمة » .

قالت السيدة سكولسكي : « إنه يبدو ذكياً... »

قالت مونا : « أرجوك يا سيدة سكولسكي عندما يتلفن أو حتى عندما يأتي إلى باب الدار أن تعملي لنا معروفاً وتقولي له أننا غير موجودين في البيت . قولي له أي شيء . المهم لا تدعيه يدخل . إنه شخص كريه ـ شخص ممل ، إنه انسان تافه بشكل مطلق » .

كانت السيدة سكولسكي تنظر إلي نظرة استغراب . قلت لها :

ـ « نعم ، إنها على حق . بل إنه اسوأ من ذلك ـ إذا أردت الحقيقة إنه ذكي بما يكفي لأن يصبح محامياً ـ أما في المجالات الأخرى فهو أبله »

كانت السيدة سكولسكي تبدو محتارة ، إذ أنها لم تكن معتادة على سماع أناس يتكلمون عن أصدقائهم بهذه الطريقة .

قالت : « لكنه كان يتحدث عنك بمودة بالغة » .

أجبتها : « هذا لا يعني شيئاً . إنه مقفل الدماغ . بليد ، أو بمعنى أدق ، سميك الجلد »

قالت مستدركة : « حسناً ، إذا كان هذا ما تريده يا سيد ميلر »

قلت لها : « لم يعد عندي أصدقاء آخرون ـ لقد تخلصت منهم جميعاً » أطلقت تنهيدة صغيرة .

قالت مونا : « إنه لا يقصد ذلك حرفياً »

قالت السيدة سكولسكي : « أنا متأكدة من أنه لا يقدر على ذلك . فهذا شيء مخيف » .

ـ « هذه هي الحقيقة ، أعجبك ذلك أم لم يعجبك . فأنا يا سيدة سكولسكي شخص لا اجتماعي بكل معنى الكلمة » .

قالت : « أنا لا أصدقك . ولكن ليصدقك السيد إسن »

ـ « سيكتشف ذات يوم . ليس معنى ذلك أنني أكرهه . أنت تفهمينني » .

قالت السيدة سكولسكي :

ـ « لا ، أنا لست فاهمة »

قلت لها وقد بدأت أضحك : « ولا أنا » .

قالت : « إنك فيك شيئاً من الشيطان ـ أليس كذلك يا سيد ميلر ؟ »

قالت مونا : « ربما ، إنه ليس من السهل فهمه » .

قالت السيدة سكولسكي :

ـ « أعتقد أنني أنا التي أفهمه . اعتقد أنه يخجل من نفسه لكونه بالغ الطيبة . بالغ النزاهة ، وبالغ الوفاء لأصدقائه » .

ثم التفتت إليّ وهي تقول :

ـ سحقاً ، يا سيد ميلر ، إنك أصدق إنسان عرفته . لا يهمني ما تقوله عن نفسك . فأنا سوف اعتقد ما أشاء . عندما تفكا احزتمكما ، انزلا وتناولا معي طعام العشاء ـ ما رأيكما ؟ »

ـ « ها أنت ترين كم من الصعب أن تجعلي الناس يتقبلون الحقيقة » .

ـ « أنت تحب أن تصدم الناس ، يا ڤال ، ثمة دائماً حقيقة فيما تقول ، لكنك تجعلها غير مستساغة » .

ـ « حسناً ، لا أظن أنها ستدع مجالاً لماك غريغور لكي يضايقنا بعد الآن ـ وهذا بحد ذاته شيء جيد » .

قالت مونا : « سيلحقك إلى قبرك » .

ـ « أليس من غريب الصدف أن نصادفه في باريس ؟ »

ـ « لا تقل ذلك يا ڤال ، إن مجرد التفكير بذلك كافٍ لإفساد رحلتنا » .

ـ « إن تمكَن ذاك الوغد من إيصالها إلى باريس فسوف يغتصبها ، إذ أنه

في الوقت الحالي غير قادر على أن يمد يده إلى مؤخرتها » .

ـ « لم لا ننساهما يا ڤال ، إن مجرد التفكير بهما يسبب لي شعوراً بالخوف والذعر ويجعل جسمي ينمّل تنميلاً » .

ولكن يستحيل أن أنساهما . فقد بقينا نتحدث عنهما طوال فترة العشاء . وفي تلك الليلة بالذات رأيت في المنام أنني قد قابلتهما في باريس . كانت غيلدا في الحلم تبدو وتتصرّف كالمومس . وتتكلم الفرنسية مثل أي مواطن فرنسي وكانت تجعل حياة ماك غريغور البائس لا تطاق بفعل أساليبها الداعرة . كان ينوح قائلاً :

ـ « لقد أردتها زوجة لا عاهرة! » وكان يتوسّل إليّ قائلاً :

ـ « اصلحها يا هنري ، ما قولك ؟ »

أخذتها إلى كاهن لكي يحلها من خطاياها ، ولكن الأمور انقلبت رأساً على عقب ، إذ وجدنا أنفسنا في ماخور ، وكانت غيلدا الفتاة رقم واحد وقد كثر عليها الطلب لدرجة أننا لم نقدر على إيجاد أية فرصة للوصول إليها . أخيراً ، أخذت معها الكاهن إلى الطابق الثاني ، حيث قامت المدام ـ صاحبة الماخور ـ بطردها عارية تماماً إلا من منشفة في يدها وقطعة صابون في اليد الأخرى .

لم يكن أمامي سوى بضعة أسابيع لكي أنهي كتابة الرواية ، فقد تفتّق ذهن بوب عن اسم ناشر الرواية ، وهو أحد أصدقائه ، وكان قد تعرّف عليه في البلد الأول . لقد قرر أن يجد لها ناشراً قانونياً ، أو أن يقوم بنشرها بنفسه على حد قول مونا . كان الحقير يشعر بالانتعاش هذه الأيام ، فقد كان يسيطر بأمواله على سوق السمسرة . كان يعد حتى بالذهاب إلى أوروبا بنفسه ، مع مونا ، كما هو مفترض (لا تقلق يا ڤال ، سأفلت منه عندما يحين الوقت لذلك . نعم ، ولكن ماذا عن النقود التي كنت ستودعينها في المصرف ؟ سأتدبر ذلك أيضاً . لا تقلق!) .

لم يكن يراودها أي شك أو خوف مما كان يبيّت له بوب . لم يكن مجدياً أن أحاول إرشادها أو حتى مجرد إبداء المقترحات لها ، فقد كانت تدرك أكثر

مني ما الذي بمقدورها أن تفعله وما الذي ليس بمقدورها أن تفعله . كل ما كنت أعرفه عن الرجل هي التي أخبرتني به . كنت أتصوره دائماً رجلاً متأنقاً مفرطاً في التهذيب يحمل حقيبة منتفخة بالأوراق النقدية الخضراء . في بعض الأحيان كنت اتساءل كيف كان يتسنّى لها أن تبقي عنوانها سراً من الأسرار ؟ فالعيش مع والدة مقعدة شيء ، وإبقاء مكان هذا المنزل سراً شيء آخر تماماً . إذ ما الذي كان يهمه . إن كان هذا الانسان أماً مقعدة أو عشيقاً أو زوجاً ، طالما أنها كانت ملتزمة بمواعيدها ؟ وربما أنه كان من اللباقة ما جعله يساعدها على حفظ ماء وجهها ؟ لكن الشيء المؤكد هو أنه لم يكن مغفلاً ولكن لماذا كان بمقدوره تشجيعها على السفر إلى أوروبا والمكوث هناك شهراً أو أكثر ؟ هنا ، بالطبع ، لم يكن عليَ سوى القيام بشيء من تبديل طرفي المعادلة : فعندما قالت لي أن «بوب يود الذهاب إلى اوروبا لفترة من الزمن كان يكفي أن أعكس الجملة وبالتالي أتخيلها تقول لبوب :

ـ «أتمنى جداً أن أرى أوروبا مرة أخرى حتى ولو لفترة قصيرة» أما فيما يتعلق بنشر الرواية ، فلربما أن بوب لم يكن لديه أية نية في فعل أي شيء من هذا القبيل ؛ إن من خلال صديقه أو من خلاله هو نفسه . ربما كان سيلتقي بها هناك لكي يقنع العشيق أو الزوج ـ أو الأم المقعدة . وربما كان أقدر على التمثيل منا كلينا! من الممكن ـ وهذه فكرة عشوائية ـ أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة حول أوروبا . ومن الممكن أنها كانت مصممة على العودة إلى هناك بأي شكل من الأشكال .

فجأة برزت أمامي صورة ستاسيا . إنه لشيء غريب أننا لم نتلقَ منها كلمة واحدة! بالتأكيد من غير الممكن أنها لاتزال تتجول في شمال أفريقيا . هل هي في باريس ـ تنتظر ؟ لم لا ؟ كان الأمر بسيطاً : أن تقتني صندوقاً في مكتب البريد و صندوقاً آخر في مكان آخر تختفي فيه الرسائل التي تكون قد كتبتها ستاسيا . لقد كان الأسوأ من لقاء ماك غريغور و صاحبته غيلدا في باريس هو مصادفة ستاسيا في باريس . كم كنت غبياً لأنني لم تخطر ببالي

المراسلات السرية! فلا عجب ، أن كل شيء كان يسير على ما يرام . كان ثمة احتمال آخر فقط و هو أن ستاسيا ربما تكون قد انتحرت . لكن من الصعب عليها أن تبقي ذلك سراً . فأية مخلوقة خرقاء مثل ستاسيا لم يكن باستطاعتها أن تفعل ذلك دون أن يتسرب خبرها ، إلا إذا ــ وهذا شيء مستبعد ــ كانا قد توغلا كثيراً في الصحراء وتاها فيها ولم يتبقّ منهما سوى كومة عظام . لا ، كانت حية . كنت واثقاً من ذلك . وإذا كانت حية فتلك مشكلة أخرى . ربما وجدت شخصاً آخر في هذا الأثناء ــ رجلاً هذه المرة . وقد أصبحت سيدة بيت صالحة تماماً . مثل هذه الأشياء تحدث في بعض الاحيان وتتكرر . . .

لا ، لقد طردت هذه الفكرة من دماغي تماماً . فهذا الشيء مخالف تماماً لستاسيا إلى حد كبير . قلت في نفسي : « . . . في ذلك كله! لماذا أزعج نفسي بمثل هذه الأمور ؟ إلى أوربا ــ ليكن ما يكون! » وأنا أقول هكذا ، كنت أفكر بأشجار الكستناء (التي تكتسي حالياً بالأزهار دون شك) وبتلك الطاولات الصغيرة والسكملات* على شرفات المقاهي المزدحمة ، وبالشرطة الراكبين على دراجاتهم يمرون أزواجاً أزواجاً . كما الطريق تماماً . بينما أختلس النظر إلى السيدات الجميلات و هن يتمشين على مهل . هل ينبغي عليَ أن أتعلم الفرنسية ؟ où sont les lavabos إذاً كنا سننال كل ما تطرقت إليه مونا ــ فلماذا لا نزور أماكن مثل ڤيينا ، بودابست ، براغ ، كوبنهاكن ، روما ، ستوكهولم ، امستردام ، صوفيا ، بوخارست ؟ لماذا لا نزور الجزائر وتونس والمغرب ؟ لقد خطر ببالي صديقي الهولندي العجوز الذي نفض عن نفسه زي المراسل ذات مساء ليسافر الى الخارج برفقة فتاته الأمريكية . . . وكان يكتب لي من صوفيا دفعة واحدة . ومن قاعة انتظار ملكة رومانيا في مكان ما في أعالي جبال الكاربات . كما خطر في بالي آومارا وأنا أتساءل عم حل به ؟ و كان ثمة زميل قديم اشتاق لرؤيته مرة أخرى . زميل . ماذا! أية قبرة ستأخذه

---

* السكملة : منضدة صغيرة بساق واحدة (م) .

معنا إلى أوروبا بمشيئة مونا (كان ذلك مستحيلاً بالطبع) . كان ذهني يلف ويدور . كنت دائماً انرفز . عندما كنت أعلم أن بمقدوري فعل ذلك أو قوله فيبدأ ذهني يلوب في كافة الاتجاهات بآن معاً . و بدلاً من الركون الى الآلة الكاتبة والعمل عليها . . . كنت أجلس إلى طاولة المكتب أخطط للمشاريع وأحلم الأحلام ، أو أكتفي بأجترار الذكريات

عن اولئك اللواتي احببتهن والأوقات الممتعة التي قضيناها معاً والأشياء التي قلناها وفعلناها . أو كنت أختلق لنفسي دور الباحث العلمي في موضوع اكتشف فجأة أنه ذو أهمية خطيرة ويجب الانكباب عليه فوراً . أو أنني كنت أتخيّل مناورة شطرنجية بارعة ، ولكي أتأكد من أنني لم أنسَ . كنت أرتب القطع ، ابعثرها وأعد الفخ الذي خططت لكي أنصبه لأول قادم . ثم ، وقد صرت أخيراً على أهبة الاستعداد لمداعبة مفاتيح الآلة الكاتبة يتراءى لي فجأة أنني قد ارتكبت خطأ فادحاً على الصفحة كذا . . . ولدى عودتي إلى الصفحة إياها ، اكتشف أن الجمل برمتها ركيكة ولا معنى لها ، وأنها تؤدي بالضبط عكس المعنى المقصود منها . ولدى تصحيحها ، فإن الحاجة الى الاتقان تدفعني الى كتابة صفحات ، أتاكد فيما بعد انه كان من الممكن حذفها تماماً . هل كان ذلك يعني وجود شيء من شأنه أن يدرأ الحدث ؟ ام هل كان ذلك يعني أنني لكي أؤلف الكتب بسلاسة وثبات كان يتوجب عليّ أولاً أن اطلق البخار واختزل القدرة وابرد المحرك ؟ يبدو أن الكتابة كانت دائماً تسير على خير ما يرام ، عندما كنت أصل الى مستوى أدنى ، أقل ارتفاعاً ، عندما كنت أقبع على السطح حيث كان السطح برمته زبداً وأمواجاً مزبدة ـ شيئاً لا يمكن أن يقوم به سوى البحّار العتيق .

كلما صرت تحت الجناح ، استعدت نشاطي السوي . كان شيئاً يشبه أكل الكستناء ، فكل فكرة كانت تستحث الأخرى . وبينما كانت اصابعي تطير كانت الأفكار المستره والدخيلة تماماً تقحم نفسها ـ لكن دون أن تضر بالدفق . فعلى سبيل المثال ، إن فكرة مثل(إن هذه الفقرة لأجلك ياأولريك ،

فأنا بإمكاني أن اسمعك تقهقه سلفاً) أو (كيف سيزور أومارا هذه ؟) ، هذه الافكار كانت ترافق خواطري مثل دلفين لعوب . كنت مثل رجل عند ذراع الدفة يراوغ سمكه تنط من فوق رأسه . وبينما كنت أبحر بكامل أشرعتي والسفينة تميل متقلقلة لكنها ثابتة في مسارها ، كنت أحيي المراكب الوهمية العابرة والوح بقميصي في الهواء . وانادي على الطيور وأهتف للجروف الصخرية الوعرة ، وأحمد الله على قدرته المنقذة والحافظة . . . وهلم جرا .

أذا كان لغوغول ترويكته* ، فقد كان لي مركبي الشراعي المزركش ، كنت ملك المجاري المائية في أوج طغيانه .

وبينما كنت أحشر الصفحات الأخيرة حشراً ، كنت قد بلغت الشاطيء لتوي وصرت أتمشى في أزقة المدينة المضاءة ، ارفع قبعتي لهذا وذاك ، أجرّب فرنسيتي بترديد عبارات من قبيل :

S'il vous plait, Monsieur _ A votre service Madame. Quelle belle journée, n'est ce pas? C'est moi qui avais tort _ A quoi bon se plaindre, la vie est belle!

Etc... Etc...

وكل ذلك بفرنسية خيالية رقيقة . لابل حتى أنني كنت أقحم نفسي الى حد الدخول في محاورة خيالية مع باريسي يفهم الانكليزية جيداً بما يكفي لكي يتابعني . أحد أولئك الفرنسيين المبهجين(الذين نصادفهم في الكتب فقط) يهتم بملاحظات الأجانب التي قد تكون تافهة . كنا قد اكتشفنا ا لدينا اهتماماً مشتركاً ، بأناتول فرانس(ما ابسط هذه

العلاقة المتبادلة في عالم احلام اليقظة) . اما أنا ، الأبله المغرور ، فقد وضعت يدي على الافتتاحية لكي اتطرق الى ذكر رجل انكليزي فضولي كان يحب فرنسا ايضاً .

ونظراً لكون صاحبي هذا قد فتن بإشارتي الى متسكع مشهور من ذاك

* الترويكا : عربة ثلاثية العجلات يجرها حصان أو أكثر (م) .

العصر البهيج ، *La fin de siècle ، فقد كان يصر على مرافقتي الى البلاس بيجال لكي يلفت نظري الى ملتقى الاضواء الأدبية لذاك العصر ـ عصر الجرذان الميتة ولسان حاله يقول :

But Monsieur, Maison, Monsieur C'est un privilège, you are too kind.

وهكذا دواليك . كل هذا الادعاء الفارغ وهذه المداهنة تحت سماء معدنية خضراء . الأرض المكسوة بأوراق الخريف ، السيفونات المتلألئة على كل طاولة دون وجود ولو حصان واحد بذيله المبتور . باختصار ، باريس الكاملة ، الفرنسي الكامل ، اليوم الكامل من أجل حوار اثناء التجول بعد الوليمة ، ختمت بالقول لنفسي :

ـ « أوروبا ، يا عزيزتي ، يا أوروبا الحبيبة ، لا تخدعيني! حتى بالرغم من أنك لست كل ما اتخيله حالياً ، واشتاق إليه واحتاجه مستميتاً في سبيله . فامنحيني على الأقل وهم الاستمتاع بهذا الاطمئنان المعسول الذي يستدعيه ذكراسمك . دعي مواطنيك يصدونني بازدراء . دعيهم يحتقروني إن شاؤوا ذلك ، ولكن افسحي المجال لكي اسمعهم يتحاورون كما كنت اتخيلهم من قبل . دعيني أشرب من هذه الأذهان المتوقدة الجوالة التي تمرح لوحدها فيما هو كوني ، من العقول المدربة منذ المهد على مزج الشعر مع الحقيقة والفعل ، من الأرواح التي تضطرم عند ذكر الفروقات اللونية الطفيفة . وتحلّق وتحلّق ، تقوم بأسمى التحليقات مع أنها تلامس كل شيء بدهاء ، بمكر . بمعرفة واسعة ، بكل ما هو مملّح ومبّهر من الأشياء الدنيوية .

لا تفعلي ذلك ، يا أوروبا الوفية ، لا تفعلي ، أرجوك . أرني الوجه المصقول لقارة منذورة للتقدم . أريد رؤية وجهك العتيق المهترئ بفعل الزمن بكل أخاديده التي حفرها النزاع السرمدي في ميدان الفكر . أريد أن أرى بأم عيني تلك النسور التي تدرّبت على الأكل على يديك . أجينك مثل حاج ورع يؤمن ، بل يعلم ، أن

* نهاية القرن ، بالفرنسية في الأصل (م) .

الوجه اللامرئي من القمر متألق بشكل يفوق كل تصوّر . لقد رأيت الوجه الطيفي المنقَّر (كالوجه المجدور) للعالم الذي يدور بنا . إنني أعرف جيداً ذاك العدد الهائل من البراكين الخامدة والسلاسل الجبلية القاحلة والصحارى الساكنة التي تتوزع شقوقها الهائلة مثل الأوردة المنتفخة فوق الخواء المتحجّر الفاجع .

تقبلوني أيها الأجلاف! تقبلوني كناشدٍ للتوبة ، كواحدٍ لم يضل طريق الصواب تماماً ولكنه غارق في الخطيئة ، متجول قُدّر له منذ الولادة أن يتيه مختفياً عن أنظار أخوته وأخواته ومرشديه وناصحيه ومعزّيه : عند انتهاء ابتهالي كان اولريك واقفاً هناك ، يبدو كما كان يوم التقيته على زاوية الجادة السادسة والشارع الثاني والخمسين . إن الرجل الذي سافر إلى أوروبا وافريقيا لا تزال اعجوبتها وسحرها تتألقان في عينيه . لقد كان يمنحني دفقة من الدم ، يصب في اوردتي الإيمان والشجاعة :

Hadie mihi, cras tibi

هناك كانت أوروبا ـ تنتظرني . لا بد أنها كما كانت دائماً ، حرباً مقبلة ، ثورة ، مجاعة ، صقيعاً وغيره... دائماً أوروبا للروح التي تتوق .

كنت أصغي إلى كلماته ، اتلقفها على جرعات . اسأل نفسي إن كان متاحاً لشخص مثلي «دائم التخلف عن الآخرين» مثل ذيل البقرة» وثمِلٍ يتلمّس طريقه كالأعمى ، لا يحمل معه عكازته ، والقوة المغناطيسية لكلماته : The Fiesole, Ravenna, the appennines, alps سهول هنغاريا ، جزيرة القديس لويس ، الشارتر . التورين le perigard كانت تسبب لي ألماً يقرض تجويف معدتي ، ألماً كان يعلن عن نفسه ببطء (كأن يتكشف ببطء عن نوع من الحنين إلى الوطن ، عن اشتياق إلى «مملكة على الجانب الآخر من الزمن والتجليات» . (آه ، هاري ، يجب علينا أن نتيه في كل هذا الكم من القذارة وأن نتعرض للذل قبل الوصول إلى البيت) .

نعم ، يا أولريك ، في ذاك اليوم زرعت في داخلي بذرة . مشيت عائداً إلى مرسمك لتحضر مزيداً من الموز والأناناس من أجل صحيفة / ساتردي

ايفنينغ بوست/ وتركتني سارحاً مع الوهم . كانت اوروبا في قبضتي . ما الذي يهمني إن كان ذلك بعد سنتين أو خمس أو عشر سنوات . لقد كنت أنت الذي سلمتني جواز السفر . أنت الذي أوقظ الدليل النائم ، الحنين إلى الوطن Ho-die tibi, Cras mihi وبينما كنت أتمشى بعد الظهر من شارع إلى شارع ، كنت أودع المشاهد المألوفة للرعب والملل ، والرتابة المرضية والعقم الصحي والحب الخالي من الحب ، عندما كنت أمر بالجادة الخامسة أشق طريقي بين المتسوقين والمتسكعين مثل حنكليس سلكي ، كان احتقاري وكرهي لكل ما يقع تحت بصري يكاد يخنقني . كنت أتضرع إلى الله ألا يطول احتمالي لمنظر هذا الوهج المستنقعي المحتضر وأبنية هذا العالم الجديد المتداعية ، وهذه الكنائس القبيحة الكنيبة وهذه المنتزهات المنقطة بالحمام والمنبوذين . بدءاً من شارع الخياطين وانتهاءً بالباوري (الطريق الذي كنت اسلكه من قبل في تجوالاتي) كنت استذكر أيام صباي التي كانت تشبه ألف عام من البؤس والنحس والمحن . ألف عام من الاغتراب . بينما كنت اقترب من (اتحاد النحاس) الذي كان دائماً دليلاً على معنوياتي المنهارة ، فإن فصولاً من تلك الكتب التي ألفتها في رأسي قد استعادت نفسها ، مثل الحواف المجعّدة لحلم يرفض التسطح كانت تلك الحواف المجعدة ترفرف هناك على الدوام... ترفرف من أفاريز تلك الأكواخ البنية الروثية القذرة ، تلك الصالونات ذات الواجهات المضلعة ، تلك الملاجئ وأماكن النجدة حيث يتسكّع المتسكعون المتبطلون ذوي الوجوه القدية والعيون الغائرة ، مثل الذباب الكسول . يا إلهي كم كانوا بائسين ، كم كانوا ضائعين ، كم كانوا شاحبين ، كم كانوا ذابلين ، وكم كانوا جُوَفاً! ومع أنه في هذا العالم المقصوف بالقنابل كان جون كاوبر باويس قد ألقى محاضرة ، كان قد أطلق في الأجواء المحملة بالسخام ، المنتنة بالنتانة ، انباءه عن العالم الأبدي للروح - روح أوروبا ، أوروباه . أوروبا سوفوكلس وارسطو وأفلاطون وسبينوزا وبيكو دِلا ميراندولا ، وايرازموس ، ودانتي وغوته وإبسن . في هذه المنطقة نفسها كان قد ظهر متحمسون ناريون

آخرون توجهوا بخطاباتهم إلى الرعاع مستشهدين باسماء عظام آخرين : هيغل ، ماركس ، لينين ، باكونين ، كروبوتكين ، انغلز ، شيلي ، بليك .

كانت الشوارع تبدو كما كانت من قبل وأسوأ من ذلك في الواقع ، تنضح بقليل من الأمل ، بقليل من العدالة ، بقليل من الجمال وبقليل من الانسجام . الآن اتيحت الفرصة ـ وهي فرصة صغيرة ـ لظهور ثورو ، أو ويتمان أو جون براون أوروبرت لي . كان رجل الجماهير يدخل في جماهيره مخلوقاً حزيناً أخرق يتم تحريكه بواسطة لوحة مفاتيح مركزية غير قادرة على قول نعم أو لا ، غير قادرة على تمييز الحق من الباطل ، لكنه دائم الترنّم بنشيد الموتى . بقيت أقول ، بينما كنت أتابع المسير : إلى اللقاء! إلى اللقاء! وداعاً يا كل هذا! لكنني لم أسمع جواباً من مخلوق واحد ـ ولا حتى من حمامة واحدة .

ـ «هل أنتم صم ، أيها الممسوسون الهاجعون ؟»

أنني أهبط إلى وسط الحضارة . وها هي على حقيقتها . فمن ناحية ، إن الثقافة تجري مثل مجرور قاذورات مفتوح ، ومن ناحية أخرى ، توجد المسالخ حيث كل شيء يتعلق على الخطاطيف مشقوقاً مفتوحاً بالدم . يعج بالذباب واليرقات . بوليفار الحياة في القرن العشرين . قوس نصر بعد الآخر ، روبوتات تتقدّم حاملة الانجيل في يد والبارودة في اليد الأخرى ، لا موسات تندفع نحو البحر . إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون ـ كما لو كنتم تسيرون إلى الحرب!

مرحى للاخوة كرامازوف! يا لها من حكمة مستهترة!

في وسط الطريق أخطو بنشاط وسط أكوام من روث الخيل . أية قذارة وأي هراء يجب أن نخوض فيهما! آه . آه يا هاري! هاري هالر ، هاري هالر ، هاري سميث . هاري ميلر ، هاري هاريير قادم يا اسموديوس ، قادم! يا لهذه الميداليات! الصليب الحديدي صليب فكتوريا ، صليب الحرب بالذهب ، بالفضة ، بالبرونز ، بالتوتياء ، بالخشب ، بالقصدير ـ خذ قطفتك!

هكذا كان على يسوع المسكين أن يحمل صليبه! الهواء يصبح أكثر حدة . إنها ساحة تشاتهام . تشايناتاون القديمة الطيبة . تحت الرصيف يوجد

قرص عسل من الاكشاك ، من أوكار الأفيون . بلاد اللوتس ، النيرفانا ، يستريحون بأمان ، عمال العالم يعملون ، كلنا نعمل ، لنبشر بالأبدية .

ها هو جسر بروكلن يتأرجح مثل قيثارة بين ناطحات السحاب ومرتفعات بروكلن . مرة أخرى يحرف السائر المرهق طريقه معرجاً نحو البيت .

بجيوب فارغة ومعدة خاوية وقلب خاوٍ . النهر من تحته والنوارس من فوقه . وفوق النوارس توجد النجوم اللامرئية . يا له من يوم رائع!

مثل هذا المشوار الذي يمكن لبوماندر ذاته أن يستمتع به . أو أناكسا ـ غوراس أو ذاك الوسيط ذو الذوق المنحرف : بترونيوس . شتاء الحياة ـ كما يحلو للبعض أن يقول ـ شتاء الحياة يبدأ منذ الولادة .

إن أشقى سنوات العمر تمتد من الواحد إلى التسعين . بعد ذلك يأتي الإبحار السلس . باتجاه الوطن تطير السنونوات .كل واحدة تحمل في منقارها كسرة خبز ، غصناً ذابلاً ، ومضة أمل ، Epluripus Unum تبرز منصة الاوركسترا ، كل العازفين الأربعة والستين يرتدون الأبيض الخالص ، ومن فوقهم تبدأ النجوم بالظهور من خلال الزرقة الليلية للسقف المقبب ، . اعظم استعراض على وجه الأرض على وشك البدء ـ كاملاً مكملاً بالفقمات المدربة والمتكلمين من بطونهم والأكروبات الهوائية .

عريف الحفل هو العم سام نفسه ، ذاك المهرج الطويل النحيل المخطط مثل حمار الوحش يجوب العالم على ساقيه اللتين تشبهان ساقي البارون مونشاوزن ، ويأتي الريح والبرد والثلج والصقيع أو الهواء الجاف . جاهزاً دوماً ليصرخ كوكا دوليدو!

الفصل التاسع عشر

بينما كنت خارجاً ذا صباح مشرق وجميل للقيام بنزهة رياضية وجدت ماك غريغور ينتظرني عند عتبة الباب .

قال لي وهو يرسم على وجهه تكشيرة كهربائية :

- « قف عندك!ها أنت أخيراً بلحمك ودمك ؟ لقد اصطدتك أخيراً ايه ؟ »

أخرج يده . ثم قال لي :

- « هنري ، لماذا يتوجب عليَ أن أقبع في انتظارك طيلة هذا الوقت ؟ أليس بإمكانك أن توفر من وقتك خمس دقائق بين الحين والآخر إكراماً لصديق قديم ؟ إلى أين وصلت في الكتاب الذي تؤلفه ؟ ما رأيك بأن أتمشى معك قليلاً ؟ »

- « اعتقد أن صاحبة الدار قد أخبرتك بأنني خارج البيت ؟ »

- « وكيف حزرت ذلك ؟ »

بدأت اتمشى . سار معي على نفس الخطو كما لو كنا في عرض عسكري .

- « هنري ، أظنك لن تتغيّر (كان يبدو شبيهاً بوالدتي على نحو مريع) في يوم من الأيام كان بإمكاني أن اتصل بك في أية ساعة أشاء . فكنت تأتيني سواءً كان الوقت ليلاً أم نهاراً ، والآن صرت كاتباً - انساناً مهماً - ولا وقت لديك للأصدقاء القدامى » .

أجبته قائلاً : « هلم ، دعك من ذلك . فأنت تعرف أن الموضوع ليس

هكذا » .

ـ « ما هو إذاً ؟ »

ـ « هي ـ أنني أضيّع الوقت . هذه مشاكلك أنت . وأنا لا أستطيع حلها . ولا أحد يستطيع ذلك سواك أنت . لستَ الرجل الوحيد الذي تنبذه امرأة » .

ـ « وماذا عنك ـ أنت ؟ هل نسيت كيف كنت تحتجزني طوال الليل وأنت تثقب أذني بالحديث عن أونا جيفورد ؟ »

ـ « كنا وقتها في سن الحادية والعشرين »

ـ « إن تقدم المرء في السن لا يعصمه عن الوقوع في الحب . في هذه السن يصبح المرء أكثر رذالة . فأنا لا أستطيع أن اتحمل فقدانها » .

ـ « ماذا تقصد بقولك : لا استطيع أن أتحمَل ؟ »

ـ « إن ذلك صعب جداً على الأنا . فالمرء لا يقع في الحب في أغلب الأوقات بتلك السهولة . أنا لا أريد أن افشل في الحب ، إذ أن ذلك سيكون شيئاً مدمراً . أنا لا أقول أن عليها أن تتزوجني ، بل صار همي الوحيد أن أعرف أنها موجودة في متناول يدي . بإمكاني أن احبها عن بعد إذا دعت الضرورة » .

ابتسمت وقلت له :

ـ « شيء مضحك أن اسمعك تقول شيئاً كهذا . لقد كنت أضرب على نفس الفكرة ذات يوم ـ في الرواية . هل تعلم ما الذي استنتجته ؟ »

ـ « أظن أن من الأفضل أن تبقى عازباً »

ـ « لا ، لقد توصلت إلى النتيجة نفسها التي يتوصل إليها كل مغفَل ... أي أن لا شيء ذا أهمية سوى أن تبقى في حالة حب . وحتى إذا كانت ستتزوَج شخصاً آخر . فبإمكانك أن تبقى على حبها ـ ما الذي تستفيده من ذلك ؟ »

ـ « القول اسهل من الفعل يا هنري »

ـ « بالتأكيد . إنها فرصتك . معظم الرجال يستسلمون . افرض انها قررت العيش في هونغ كونغ ؟ ما هو تأثير البعد في هذه الحالة ؟ »

ـ « إنك تتكلم بالفقه المسيحي . يا رجل . أنت لست عاشقاً لمريم

العذراء . لماذا يتوجب علي السكوت والتفرج عليها وهي تفر من بين يدي . إن كلامك هذا ليس له معنى » .

ـ « هذا بالضبط ما أحاول اقناعك بالقيام به . ولهذا السبب ليس من المجدي أن تحشرني في مشكلتك ـ الا ترى معي ذلك ؟ فنحن لم نعد متطابقين في وجهات النظر . لقد صرنا أصدقاء قدامى ليس بيننا أي شيء مشترك » .

ـ « هل أنت تفكر هكذا فعلاً يا هنري ؟ »

كان صوته ينم عن حزن اكثر مما كان ينم عن عتاب .

قلت له : « اسمع ، ذات مرة كنا أصدقاء حميمين مثل حبات بازلاء في قرن واحد ، أقصد أنت وجورج مارشال وأنا ـ هنري . لقد كنا مثل الأخوة . كان ذلك منذ زمن طويل . تغيرت الأمور ـ انقطع الارتباط في مكان ما . انحدر جورج مثل لص خارج من الاصلاحية ، ثم خطفته زوجته من بيننا... »

ـ « أما أنا ؟ »

ـ « أنت ـ لقد دفنت نفسك في شغل القانون الذي تحتقره . ذات يوم ستصبح قاضياً ـ تذكر كلماتي . لكن ذلك لن يغير شيئاً من اسلوبك في الحياة . فأنت قد اسلمت الروح . لا شيء يهمك بعد الآن ـ اللهمَّ إلا لعبة البوكر . وتعتقد بأن اسلوبي في الحياة مخبول . إنه كذلك . أنا اعترف بذلك ـ ولكن ليس بالطريقة التي تفكر بها » .

لقد فاجأني رده بشكل من الاشكال ، إذ قال لي :

ـ « أنت لست خارج هذه السكة ، لقد نسجنا هذا الوضع سوية أنت وجورج وأنا ، والآخرون أيضاً لنفس السبب (وكان يشير إلى جمعية زيركس) . ليس بيننا من يساوي لعنة ـ ولكن ما هي الفائدة من كل تلك الصداقة ؟ هل ينبغي أن نصبح رموزاً بشرية مهمة في العالم لكي نبقى أصدقاء ؟ إن ذلك يبدو لي كأنه نوع من النفاجية* . فنحن لم نكن ندعي ـ لا جورج ولا

---

* النفاجية : سلوك النفاج وهو المقلد لمن يعتبرهم أرقى منه والمتكبر على من يعتبرهم أدنى منه (م) .

أنا ـ بأننا سنحرق العالم . لقد كنا كما نحن الآن . أليس ذلك جيداً بما يكفي بالنسبة لك ؟ »

أجبته بقولي : «انظر ، لم يكن يهمني أنك لم تكن سوى عربيد ؛ فقد كان لا يزال بمقدورك أن تبقى صديقي وأن أبقى صديقك . كان بمقدورك أن تسخر كل شيء أؤمن به لو كنت أنت تؤمن بشيء ما . ولكنك لا تؤمن بشيء . أما فيما يتعلق باسلوبي في التفكير ، فعلى المرء أن يؤمن بما يفعل ، وإلا فإن كل ما يفعله هو عبارة عن مسخرة . لقد كنت مستعداً لأن أكون لك بكليتي لو كنت ترغب في أن تصبح عربيداً ولوأنت أصبحت عربيداً من قلبك وروحك . ولكن ماذا أنت ؟ إنك واحد من الكائنات البشرية التافهة التي كانت تملؤنا بالاحتقار عندما كنا في سن الشباب ـ عندما كنا نسهر طوال الليل نتناقش حول مفكرين أمثال نيتشه أو إبسن أو برناردشو ؛ مفكرين صاروا الآن بالنسبة لك مجرد أسماء . أنت ما كنت لتصبح مثل جدك العجوز ، لا يا سيدي هم لم يكونوا بصدد أن يصيدوك ولا أن يدجنوك . ولكنهم قد فعلوا ذلك . أو أنك أنت الذي فعلت ذلك . لقد وضعت نفسك في سترة المساجين ، سلكت أسهل الطرق ، واستسلمت حتى قبل أن تبدأ القتال» .

فصاح قائلاً : «وأنت» . ثم وهو يلوح بيده كأنه يقول لي :

ـ «اسمع! اسمع! انت ، ما الذي انجزته من أعمال تستحق الذكر ؟ ها أنت تقارب الأربعين ولم تنشر شيئاً بعد . أين العظمة التي تتبجح بها ؟ »

أجبته : «لا شيء ، إنني انسان بائس يرثى له ـ هذا كل ما في الأمر»

ـ «وهل هذا يخولك أن تلقي عليَ محاضرة!»

وجدت نفسي مرغماً على الاحتراز قليلاً فقلت له :

ـ «أنا لم أكن أحاضر فيك . لقد كان ذلك شيئاً مشتركاً بيننا ، إذا كان لا بد من مواجهة الأمور بصراحة» .

ـ «أنا لم أقل أنني كنت فاشلاً سوى لنفسي ـ ربما . كيف يمكن أن يكون المرء فاشلاً إذا كان لا يزال يكافح ، لا يزال يقاتل ؟ ربما أنني لن أحوز

على درجة علمية . وربما لن ينتهي بي المطاف لأصبح عازف ترومبون . ولكن مهما فعلت ومهما توليت من أمور ، فإن ذلك سيكون لأنني أؤمن بها . لن أعوم مع المد ، بل سأغوص فيه لكي أصارع... إنني فاشل كما تقول . إنني أكره أن أفعل مثلما يفعل الآخرون : أن أقف في الصف وأقول نعم عندما أقصد أن أقول لا » .

عندما كان يهم بقول شيء ما قاطعته بقولي :

ـ « أنا لا أقصد كفاحاً لا معنى له ، مقاومة لا معنى لها . فالمرء ينبغي عليه أن يحاول الوصول إلى الماء الصافي والراكد . يجب على المرء أن يكافح لكي يوقف الكفاح . على المرء أن يجد نفسه . هذا بالضبط ما كنت أقصد قوله » .

قال لي : « هنري ، إنك تتكلم كلاماً رائعاً ، وتقصد قصداً رائعاً ـ ولكنك مشوش . فأنت تطالع كثيراً وهذه هي مشكلتك » .

فعاجلته بقولي :

ـ « وأنت لا تنقطع عن التفكير . ولن تتقبل نصيبك من المعاناة . أنت تعتقد أن ثمة جواب لكل شيء . لا يخطر ببالك أنه من الممكن أن يوجد جواب وقد يكون الجواب الوحيد هو أنت نفسك ؛ وكيفية نظرتك إلى مشاكلك . أنت لا ترغب في المصارعة مع المشاكل ، إذ أنك تريد أن تُزال من طريقك ـ أن يتم ذلك بأسهل السبل ، هذا ما تريده . خذ مثلاً فتاتك هذه... مشكلة الحياة والموت بالنسبة لك... ألا يعني ذلك أنها لا ترى فيك شيئاً ؟ إنك تتجاهل ذلك ـ أليس كذلك ؟ (أنا أريدها ، يجب أن امتلكها!) هذا كل ما توصلت إليه من إجابة . من المؤكد لم تغير أساليبك . إذ كنت تريد أن تصنع من نفسك شيئاً ما... لو كان هناك من هو من اللطف بما يكفي لكي ينهال عليك بمطرقة ثقيلة . كنت تنوي القول :

ـ « هنري ـ أنا ابن قحبة من صنف خسيس » . لكنك لن ترفع إصبعاً واحدة لكي تغير من نفسك مثقال ذرة . أنت تريد أن تؤخذ على علاتك . وإذا وجد من لا يريدك على علاتك فلتضاجعه ـ أليس كذلك ؟ »

أمال رأسه إلى أحد الجانبين مثل قاضٍ يزن شهادة شاهد ماثلٍ أمامه ، ثم قال : «ممكن ، ممكن أن تكون على حق» .

بقينا نمشي عدة دقائق دون أن ننبس بكلمة واحدة . كان يهضم شهادتي فيه مثل طائر يمسك في مخلبه بثمرة شائكة .

ثم ، وقد انفرجت شفتاه عن تكشيرة شيطانية ، قال لي :

ـ «في بعض الأحيان تذكرني بذاك العرص تشالاكومب . يا إلهي كم كان ذاك الرجل يغضبني ؟ كان دائماً يتكلم من عليائه . أما أنت فقد كنت مغرماً بكل ذاك الهراء... لقد كنت تؤمن به ـ بذاك الخراء الثيوصوفي...»

أجبته منفعلاً :

ـ «بالتأكيد لقد فعلت ذلك . لو أنه لم يذكر شيئاً سوى اسم سوامي فيفيكاندا ، لكان ذلك كافياً لجعلي أحس بأنني مدين له بقية حياتي . هراء ـ كما تقول . هذا الهراء كان بالنسبة لي شهقة حياة . أنا أعرف أنه لم يكن يخطر ببالك كصديق . كان بالنسبة لك متغطرساً ، متكبراً أكثر من اللازم . ويكثر التعليقات أكثر مما يجب . كان معلماً وأنت لم تكن تراه معلماً . من أين كان يحصل على اوراق اعتماده... وكل ذلك ؟ لم يكن يتلقى تدريباً ولا تعليماً ولا أي شيء آخر . لكنه كان يعرف عما يتحدث . على الأقل ، هكذا كنت اعتقد . كان يجعلك تتمرغ في قينك ، دون أن تكون راغباً في ذلك . كنت تود الاتكاء على كتفه والتقيؤ من فوقه ـ ثم كان عليه أن يصبح صديقاً . وهكذا كنت تبحث عن العيوب في شخصيته ـ كنت تجد نقاط ضعفه ، كنت تنزله إلى مستواك . أنت تفعل ذلك مع أي شخص تجد صعوبة في التفاهم معه . عندما كان بمقدورك أن تسخر من زميلٍ آخر كما تسخر من نفسك فمعنى ذلك أنك سعيد... ثم يخرج كل شيء... حتى . انظر ، حاول أن تفهم هذه . كل شيء يسير على نحو خاطئ في العالم . ففي كل مكان يوجد الجهل والخرافة والتعصب الأعمى والظلم والتحزُّب . لقد حدث كل ذلك منذ بدء الخليقة تقريباً . وسيبقى كذلك إلى غدٍ وبعد غد . إذاً ـ ماذا ؟ هل هذا مبرر للشعور

بالهزيمة وللنواح على العالم ؟ هل تعلم ما الذي قاله سوامي فيفيكاندا ذات مرة ؟ لقد قال :

ـ « ثمة خطيئة واحدة فقط... إنها الضعف . فلا تضيفوا حماقة إلى حماقة . لا تضيفوا ضعفكم إلى الشر الوشيك ـ كونوا أقوياء! »

صمت لحظة بانتظار أن يتلفظ بشيء من هذا القبيل . لكنه بدلاً من ذلك ، قال لي :

ـ « تابع ، يا هنري ، هات المزيد ، إنك تتكلم كلاماً رائعاً » .

فأجبته قائلاً :

ـ « شيء جيد ، وسيبقى جيداً على الدوام . سيبقى الناس يفعلون العكس تماماً . إن أولئك الذين صفقوا له هم انفسهم الذين خانوه حالما توقف عن الكلام . إن هذا ينطبق على فيفيكاندا مثلما ينطبق على المسيح ونيتشه وماركس وكريشنا مورتي وسقراط... أذكرهم أنت إن شئت! ولكن هل أقول لك كل هذا من أجل أي شيء ؟ فأنت لن تتغيّر ، إنك ترفض النمو والنضج ، تريد الوصول بأقل جهد ممكن ، بأقل الصعوبات ، وبأقل الآلام . كل الناس يفعلون ذلك . رائع أن اسمعك تحكي عن الاساتذة ـ ولكن أن تصبح استاذاً ـ فهذا خراء! اسمع ، كنت أطالع كتاباً ـ ذات يوم . بالشرف ... لقد بقيت أقرأ فيه لمدة عام وأكثر . لا تسألني عن العنوان لأنني لن أعطيك إياه » .

ـ « إن المعنى الوحيد ، الغرض ، القصد ، السر الكامن وراء المسيح ، يا أعزائي ، ليس فهم الحياة ولا قولبتها أو تغييرها . أو حتى عشقها ، بل هو أن تشرب من جوهرها الخالد » .

ـ « أعدها مرة أخرى يا هنري ، هلا أعدتها ؟ »

ففعلت ذلك . غمغم قائلاً :

ـ « أن تشرب من جوهرها الخالد . شيء لعين ، ألن تخبرني من كتب ذلك ؟ »

ـ « لا » .

ـ « حسناً ، يا هنري ، تابع! ماذا في جعبتك غير ذلك لهذا الصباح ؟ »

ـ « هذا... كيف تسير أمورك مع صاحبتك غيلدا ؟ »

ـ « من الأفضل أن تنسى ذلك » .

ـ « آمل أنك لن تتخلى عنها ؟ »

ـ « هي التي تتخلى عني هذه المرة ـ لحسن الحظ » .

ـ « وهل تقبّلتَ أنت ذلك ؟ »

ـ « ألن تصغي إليّ ولو مرة ؟ بالطبع لا! هذا هو السبب الذي يدفعني لكي أكمن لك . ولكن ـ كما تقول ـ كل امرئ عليه أن يتبع طريقه الخاص به . ألا تعتقد أنني أعرف ذلك ؟ ربما لم يعد بيننا أي شيء مشترك... هل سبق لك أن فكرت بذلك ؟ ربما كان ذلك ؛ أكثر مما يجمعنا إلى بعضنا . ليس بمقدوري إلا أن أحبك ، يا هنري ، حتى عندما ترميني فوق أكوام الفحم . انت ابن قحبة عديم الرحمة في بعض الأحيان . لو كان هناك من هو خسيس فهو أنت وليس أنا . ولكنك تمكنت من الوصول إلى شيء ما . ليتك كنت قادراً على إظهاره . شيئاً ما للعالم . وليس لي .

هنري ، ليس من المفروض بك أن تكتب رواية ، إذ أن أي واحد يستطيع ذلك . صار لديك أشياء أخرى أكثر أهمية . أنا جاد فيما أقول . كم أتمنى أن أراك تحاضر عن فيفيكاندا ؟ أو المهاتما غاندي » .

ـ « أو بيكو دلاّ ميراندولا » .

ـ « لم أسمع به » .

ـ « ولذلك فإنها لن تجد فيك شيئاً مفيداً »

ـ « هذا بالضبط ما قالته لي . المرأة تستطيع دائماً أن تغير رأيها » .

ـ « إنها ستفعل ذلك . لا تقلق »

ـ « آخر مرة رأيتها فيها كانت لا تزال تتحدث عن قضاء العطلة في باريس » .

ـ « لماذا لم تتبعها ؟ »

ـ « هكذا أفضل يا هنري . لقد درست الموضوع من كافة جوانبه ، وعندما أعرف الباخرة التي سوف تقلها سأذهب إلى مكتب السفريات البحري وحتى لو أضطررت إلى رشوة الموظف فإنني سأتواجد هناك لكي أودعها .

سأقول لها :

ـ « أنتِ التي هناك ، يا حلوة ، يوم جميل . هذا اليوم ـ أليس كذلك ؟ »

ـ « لا بد أنها ستسَر بذلك »

ـ « من المؤكد إنها لن تقفز عن ظهر المركب » .

ـ « ولكنها قد تخبر القبطان بأنك تضايقها »

ـ « ... ي في القبطان! أنا قادر على اسكاته... بعد مضي ثلاثة أيام في البحر وسأبطحها شاءت أم أبت » .

قبضت على يده وهززتها ، ثم قلت له :

ـ « أتمنى لك حظاً سعيداً . إلى هنا واستأذن منك بالانصراف» .

ـ « تعال معي! تناول فنجاناً من القهوة! »

ـ « لا ، إني عائد إلى العمل . وكما قال كريشنا لأرجونا :

[إن توقفت عن العمل لحظة فإن الكون برمته سوف...]

ـ « سوف ماذا ؟ »

ـ « سوف ينهار ـ هكذا أظنه كان يقصد » .

ـ « حسناً ، يا هنري » . ثم استدار وبدون أن ينبس بكلمة واحدة مضى في الاتجاه المعاكس .

لم أكن قد قطعت سوى خطوات قليلة عندما سمعته يهتف :

ـ « هاي هنري! »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « سأراك في باريس ، إن لم يكن قبل ذلك... إلى اللقاء! »

قلت في نفسي :

ـ « سأراك في الجحيم » ، لكنني عندما استأنفت مسيري شعرت بوخزة

ندم . قلت في لنفسي :

ـ «ما كان يجب أن تعامل أحداً بهذا الشكل ، حتى لو كان من أفضل أصدقائك»

بقيت أتابع هذا المونولوج طوال الطريق إلى المنزل ؛ فقد وجدت نفسي أحاور ذاتي على هذا المنوال :

ـ «ماذا لو كان ألماً في الشرج ؟ بالتأكيد يجب على كل واحد أن يحل مشاكله بنفسه ـ ولكن هل يوجد مبرر لكي ترفض إنساناً . فانت لست فيفيكاندا . وغير ذلك ـ هل كان فيفيكاندا سيتصرف على هذا النحو ؟ فلا تزجر انساناً واقعاً في محنة ولا تدعه يتقيأ عليك . وبفرض أنه يتصرف كطفل ـ ماذا في ذلك ؟ هل إن تصرفك دائماً هو تصرف البالغين ؟ و ـ ألم يكن شيئاً خرائياً قولك أنه لم يعد بينكما شيء مشترك ؟ لا بد أنه كان من المفروض به أن يبتعد عنك منذ تلك اللحظة . إن ما تمتلكه من شيء مشترك يا سوامي الظريف هو هذا الضعف البشري العادي البسيط .

ربما يكون قد توقف عن النمو منذ وقت طويل ـ وهل هذه جريمة ؟ بغض النظر عن المرحلة التي قطعها في مسيرته ، فإنه لا يزال كائناً بشرياً . تحرك إذا شئت... ابقِ عينيك مشدودتين إلى الأمام... ولكن إياك أن ترفض مد يد العون إلى متقاعس مثلكِ . أين ستكون لو كنت قد مضيت لوحدك ؟ هل أنت واقف على قدميك لوحدك ؟ وماذا عن أولئك النكرات ، أولئك المغفلين . الذين كانوا يفرغون جيوبهم من أجلك ، عندما كنت محتاجاً ؟ هل صاروا عديمي القيمة بعد أن لم تعد بحاجة إليهم ؟ »

ـ «لا . ولكن... »

ـ «وهكذا إذاً ـ لا جواب لديك! إنك تتظاهر بما لست كائنه ، تخاف الانتكاس إلى اساليبك القديمة ، تتملق نفسك أنك مختلف ، لكن الحقيقة أنك لست سوى شبيه بالآخرين الذين تتسرّع بإداناتهم . لقد كان عامل المصعد محقاً معك . كان مصيباً فيما رآه فيك ـ أليس كذلك ؟ بصراحة ، ما الذي انجزته

بيديك ، أو بذاك العقل الذي تتباهى به ؟ في سن الحادية والعشرين بدأ الاسكندر المقدوني بفتح العالم ، وفي الثلاثين ملك العالم بين يديه . أعرف أنك لا تهدف إلى غزو العالم ، ولكنك ترغب في أن تصنع فيه ـ أليس كذلك ؟ إنك تود أن تكون متميزاً ككاتب . حسناً ، ما الذي يمنعك ؟ بالتأكيد ليس ماك غريغور المسكين . نعم ، ثمة خطيئة واحدة فقط ـ كما قال فيفيكاندا ـ إنها الضعف .

امضِ بها إلى الصميم ، ايها العجوز... امضِ بها إلى الصميم! انزل عن صهوة حصانك! اخرج من برجك العاجي والتحق بالجند! قد يكون في الحياة ما هو أكثر من تأليف الكتب . وما الذي لديك بهذه الأهمية لكي تقوله للناس ؟ هي أنت نيتشه آخر ؟ أنت لم تصبح حتى أنت بعد ـ هل تدرك ؛ ذلك ؟ »

عند وصولي إلى زاوية شارعنا ، كنت قد صرت مهزوماً في الصميم . وقد دب في داخلي من النشاط بمقدار ما يمتلكه القاقم الأوروبي* . ومما زاد الطين بلة أن زيد إسن كان ينتظرني عند أسفل السلم . كان طافحاً بالابتسامات . قال لي :

ـ «سيد ميلر ، لست بصدد أن آخذ من وقتك الثمين... إذ أنني لم أتمكن من الإبقاء على هذه في جيبي دقيقة أخرى أكثر من ذلك» .

ثم أخرج من جيبه مغلفاً وسلمني إياه :

قلت له : « ما هذا ؟ »

ـ «هدية صغيرة من اصدقائك . إن أولئك الملونين يؤمنون بعالمك . ستشتري بها شيئاً ما من اجل زوجتك . إنها عبارة عن مبلغ صغير جمعوه فيما بينهم» .

لشدة ذهولي أوشكت أن اذرف الدمع .

قال ريب وهو يطوقني بذراعيه :

ـ «ميلر ، ميلر ، ماذا سنفعل بدونك ؟ »

* القاقم الأوروبي : حيوان من فصيلة ابن عرس (م) .

قلت له وقد توَردت خجلاً مثل إنسان مغفل :

- « إنها مسألة شهور قليلة فقط » .

- « أعرف ، أعرف ، لكننا سوف نفتقدك . هل تتناول معي فنجاناً من القهوة ؟ لن احتجزك . ثمة شيء يجب أن أخبرك به »

استدرت عائداً برفقته إلى الزاوية ، إلى محل الحلويات ومحل القرطاسية حيث التقينا لأول مرة .

قال لي بينما كنا نتخذ أماكننا إلى طاولة البيع :

- « أنت تعرف أنني أكاد أميل الي الالتحاق بك . كل ما اعرفه هو أنني يجب أن أسير في هذا الطريق » .

فأجبته وقد ارتبكت قليلاً :

- « أظن أن كل الناس تقريباً يتمنون الذهاب إلى باريس لقضاء إجازة . ولا بد أنهم سيذهبون ذات يوم... »

نظر إليَ نظرة أذابتني في مكاني . ثم قال :

- « لقد قصدت ، يا سيد ميلر أنني أتمنى رؤيتها من خلال عينيك » .

قلت له وأنا أتجاهل كلماته :

- « نعم ، ذات يوم سيصبح من الضروري أن تستقل باخرة أو طائرة للوصول إلى أوروبا . كل ما نحتاجه هو أن نتعلم كيف نتغلّب على قوة الجاذبية . يكفي أن تجلس وتدع الأرض تدور تحتك - تحت قدميك . هذه الأرض تدور بسرعة » .

وهكذا تابعت التحدث بهذا النفس محاولاً التغلب على ارتباكي . تحدثنا عن المحركات ، العنفات ، المولدات وعن ليوناردو دافنشي .

قلت له :

- « أما نحن فإننا نتحرك كالحلزون ؛ إذ أننا لم نبدأ حتى باستخدام القوى المغناطيسية التي تلفنا . إننا ما زلنا سكان كهوف ذوي محركات تبرز من ثقوب براميلنا » .

احتار ريب المسكين فيما يفعل . لقد كان متلهفاً لقول شيء ما ، لكنه لم يكن راغباً في التصرف بوقاحة تصيبني بصدمة . وهكذا وجدت نفسي متماديا ؟ .

ـ «التبسيط : هذا بالضبط ما نحتاج إليه . انظر إلى النجوم ، فهي ليست لها محركات . هل خطر ببالك مرة ، ما الذي يجعل أرضنا مستمرة في ذورانها بهذا الشكل مثل الكرة ؟ لقد نذر نيكولاتسلا الكثير من الوقت في سبيل ذلك . وهذا ما فعله ماركوني أيضاً ، وحتى حينه لم يتوصل أحد إلى الجواب النهائي» .

كان يتطلّع إلي بحيرة مطلقة . كنت اعلم أنه مهما كان الذي يرتسم في ذهنه فهو ليس كهرطيساً .

قلت له : «أنا آسف . كنت تريد أن تقول لي شيئاً ـ أليس كذلك ؟»

قال لي : «نعم ، لكنني لا أريد أن...»

ـ «كنت أفكر بصوت عالٍ لا أكثر» .

قال وهو يصفي حنجرته :

ـ «حسناً ، إذاً... كل ما كنت أريده هو أن أقول لك هذه... إذا حدث أن وصلت إلي هناك فلا تنس أن تتصل بي ، أو إذا كنت ستمدد إقامتك فأنت تعرف أين تجدني» .

كان يحمر خجلاً وقد أشاح بوجهه عني .

قلت له وأنا الكزه بمرفقي :

ـ «ريب ، إنك طيب معي فوق كل تصوّر مع أنك بالكاد تعرفني . أو أنك قد تعرّفت علي منذ مدة قصيرة فقط . أراهن أن أحداً من أصدقائي المزعومين ما كان ليفعل هكذا... »

فبادر إلى الرد قائلاً :

ـ «أخشى أنك لا تعلم ما يقدر أصدقاؤك على فعله لأجلك ، فأنت لم تمنحهم الفرصة لذلك» .

فقلت منفعلاً :

ـ «لم امنحهم ـ ماذا ؟ يا رجل ، لقد منحتهم كثيراً من الفرص مع أنهم لا يريدون حتى سماع اسمي» .

ـ «ألا ترى أنك تقسو عليهم بعض الشيء ؟ ربما لم يكونوا يملكون ما يعطونه»

ـ «هذا بالضبط ما كانوا يقولونه ، جميعاً . لكنه ليس صحيحاً . إذا كنت لا تملك فبإمكانك أن تستدين إكراماً لصديق... صحيح ؟ ألم يقدم ابراهيم ابنه فدية ؟»

ـ «أنا لم أطلب منهم أن يقدموا الأضاحي . كل ما كنت أطلبه منهم هو طعام للصغار ، سجائر ، وجبة طعام ، ثياب مستعملة . انتظر لحظة ـ أريد أن أوضح ما قلته . كانت هناك استثناءات . اتذكر واحداً من المراسلين الذين كانوا يعملون عندي ـ كان ذلك بعد أن تركت شركة التلغراف... عندما علم هذا الفتى بأنني مفلس وأن السبل قد سدت أمامي ، ذهب وسرق لأجلي . كان يجلب لنا فراريج أو خضاراً... وفي بعض الأحيان كان يكتفي بقطعة حلوى إذا وقعت يده على ذلك .

لم يكونوا يقلبون جيوبهم لكي يظهروا لي أنهم لا يحوزون على شيء . إن الأشقياء الذين كنت أسافر معهم لم يكن يحق لهم أن يرفضوا طلباتي . إذ لا أحد منهم كان يعرف طعم الجوع . ولم نكن رعاعاً بيضاً بائسين . فقد كنا نتحدر جميعاً من بيوت لائقة ومريحة .

لا ، قد يكون اليهودي في داخلك هو ما يجعلك لطيفاً ومراعياً لمشاعر الآخرين على هذا النحو ـ لتسامحني على الطريقة التي أصيغ بها فكرتي . فعندما يرى اليهودي انساناً في محنة ، أو مجاعة ، أو مظلمة ، أو مكروه ، يرى نفسه كذلك . إنه يتماهى مباشرة مع زميله الآخر . نحن لم نذق ما يكفي من طعم البؤس والشقاء والعار والمذلة . لم يسبق لنا أن كنا منبوذين . إننا نتربع على عروشنا . ونحكم بقية العالم من فوقها» .

قال لي :

ـ «ميلر ، لا بد أنك قد نلت كثيراً من العقاب . ليس المهم ما يمكن أن أفكر به حول شعبي . إن لهم أخطاءهم هم أيضاً . لم يكن بمقدوري أن أتكلم عنهم بالطريقة التي تتحدث بها عن شعبك . إن من دواعي سروري أن اعتقد أنك بصدد إمتاع نفسك لفترة من الزمن . هذا عائد لك ـ لكن عليك أن تدفن الماضي! »

ـ «لقد صار عليَ أن أكف عن الشعور بالأسف على نفسي ـ هكذا تقصد »

رمقته بنظرة عطف وقلت له :

ـ «أنت تعرف ، يا ريب ، أنني حقاً لا أشعر بهذه الطريقة طوال الوقت . إنه ما يزال يعتمل في الأعماق ، لكنني على السطح اتقبل الناس بكل ظرافة كما يبدون . إن مالا استطيع التغلب عليه ، كما أظن ، هو أنه كان عليَ أن أتملص منهم عندما أحصل على كل شيء .

ولكن ما الذي حصلت عليه ؟ (......) إنني أبالغ طبعاً ، إذ لا أحد منهم قد أدار لي ظهره . وأولئك الذين فعلوا ذلك ربما كانوا يمتلكون الحق في أن يتصرفوا كما كانوا يتصرفون . كان شيئاً اشبه بالإبريق الذي تجلبه في أغلب الأحيان إلى البئر . لقد كنت ـ بالتأكيد ـ أعرف كيف أجعل من نفسي شخصاً مزعجاً إزاء إنسان يرغب في أكل فطيرة متواضعة ، فقد كنت متغطرساً أكثر من اللزوم . لقد كانت لي طريقتي الخاصة في إزعاج الآخرين ، لا سيما عندما يطلبون المساعدة . ها أنت ترى ، أنني واحد من أولئك الحمقى الذين يظنون أن الناس ، أو الأصدقاء تحديداً ، ينبغي عليهم أن يتكهنوا بحقيقة أن المرء بحاجة إلى المساعدة . عندما تمر بشحاذ فقير رث الملابس ، هل يتوجب عليه أن يعتصر قلبه دماً لكي تدس له قطعة نقود ؟ هذا إذا لم تكن كائناً بشرياً لطيفاً حساساً . عندما تراه خافض الرأس يفتش في كل المجارير عن عقب سيجارة مرمية أو ساندويشة باتتة ، فإنك ترفع رأسك وتطوقه بذراعيه ، لا سيما إذا كان رأسه يعج بالقمل وتقول له :

ـ «ما هذا يا صديقي ؟ هل يمكنني أن أقدم لك أية مساعدة ؟ »

فأنت لا ترده بعين مثبتة على طائر يجثم على سلك تلغراف . ولا تجعله يركض وراءك ماداً يديه . هذا بالضبط ما أقصده بكلامي هذا . لا عجب أن كثيراً من الناس يزجرون متسولاً عندما يدنو منهم . إنه شيء مهين أن تبادر بالكلام بهذه الطريقة : فهذا يجعلك تشعر بالذنب . كلنا كرماء ، بطرقتنا الخاصة . ولكن ما إن يقوم أحد باستجدائنا حتى تنغلق قلوبنا .

قال ريب وقد تأثر بهذا الانفعال ـ على ما يبدو :

ـ « ميلر ، يمكنني الآن أن اسميك يهودياً طيباً »

ـ « يسوع آخر ـ ايه ؟ »

ـ « بلى ، لم لا ؟ لقد كان يسوع يهودياً طيباً ، حتى بالرغم من أنه كان علينا أن نعاني بسببه لألفي عام » .

ـ « تقول القاعدة الأخلاقية (لا تعمل بها كثيراً) : لا تحاول أن تكون طيباً أكثر من اللزوم » .

قال ريب منفعلاً :

ـ « لا يمكن للمرء أن يكون طيباً أكثر من اللزوم » .

ـ « نعم ، يستطيع أن يفعل ما هو بحاجة إلى فعله ، وهذا جيد بما يكفي » .

ـ « وهل هذا الشيء نفسه » .

ـ « تقريباً ، المشكلة هي أن الله يرعى العالم . أما نحن فيجب أن نرعى بعضنا بعضاً . لو كان الرب الطيب بحاجة إلي المساعدة ، لكي يسيّر هذا العالم ، لكان قد منحنا قلوباً أكبر من قلوبنا . قلوباً وليس أدمغة » .

قال ريب :

ـ « يا يسوع! إنك تتكلم وكأنك يهودي . إنك تذكرني ببعض الفقهاء الذين كنت استمع إيهم عندما كنت صبياً حيث كانوا يفسرون الناموس ... لقد كانوا ينطون مثل العنزات من طرف السياج إلى طرفه الآخر . فعندما يصير المرء بارداً كانوا يسخنون ، والعكس بالعكس . مع أنهم كانوا انفعاليين

متحمسين بهذا الشكل . ، فقد كانوا دائماً يبشرون بالاعتدال . كان الانبياء بشراً متوحشين ، كانوا من فئة مستقلة . البشر الورعون لا يتبجحون ولا يهذون لأنهم طاهرون . وأنت طاهر أيضاً . أنا أعرف أنك كذلك» .

ما الذي كان لديّ لأرد عليه ؟ لقد كان ريب إنساناً بسيطاً ويحتاج إلى صديق . ليس مهماً ما قلته ، وليس مهماً كيف كنت أعامله ، فقد كان يتصرف كما لو أنني قد أثريته . كنت صديقه . ما هوالمثل القديم الذي يدور حول هذه الحالة ؟ أظن أنه (لكي تمتلك صديقاً يجب أن تكون صديقاً) . مع ذلك ، كان من الصعب أن أفهم بأي شكل كنت صديقاِ لريب ، أو لأي شخص آخر . حقيقة الأمر أن كل ما كان بمقدوري فهمه هو أنني كنت أفضل صديق لنفسي ، وأنني كنت أسوأ عدو لنفسي . بينما كنت أدفع الباب وأهم بالدخول كان عليّ أن أبدي ملاحظة .

قلت لنفسي :

ـ «إذا كنت تعرف كل هذا القدر ـ أيها الفلاح العجوز ـ فأنت تعرف الكثير» .

اتخذت مكاني المعتاد وراء الآلة الكاتبة . قلت لنفسي :

ـ «الآن ، ها قد عدت إلى مملكتك الخاصة ، الآن صار بإمكانك أن تقوم بدور الله مرة أخرى» .

إن مشهدي الهزلي وأنا أخاطب نفسي بهذا الشكل قد دفعني إلى التوقف .

الله! كما لو أنني منذ يوم فقط قد انقطعت عن التواصل معه . وجدت نفسي اتحاور معه كما كنت من قبل :

ـ «لأن الله كان يحب العالم إلى هذه الدرجة فقد منح ولده الوحيد...»

وكم كان قليلاً ما أعطيناه بالمقابل . ما الذي نستطيع أن نقدمه لك أيهاالأب السماوي مقابل نعمتك ؟ كان قلبي ينطق كما اني كنت أمتلك فكرة غامضة عن المشاكل التي كانت تواجه خالق الكون . ولم أكن خجلاً من كوني

لصيقاً بخالقي بهذا الشكل . ألم أكن جزءاً من ذاك الكل الهائل الذي كان قد أبان عن نفسه خصيصاً ، ربما لكي يحقق الأبعاد اللامحدودة لكينونته ؟ لقد مضت عليَ عصور منذ أن خاطبته بهذا الأسلوب الحميم . فأي فرق بين تلك الصلوات المتمخضة عن يأس مطلق ، عندما كنت استجيره طلباً للرحمة وليس النعمة! وبين تلك الألحان الثنائية السهلة وليدة الإدراك المتواضع . غريب! هل هو ، هذا التطرق إلى الحوار الدنيوي السماوي ؟ لا بد أنه في أغلب الأحوال سيحدث عندما ترتفع معنوياتي ، عندما كنت امتلك قليلاً من المبررات ـ لاحظ ذلك ـ لإظهار أية علامة من علامات الروح . ومن غير اللائق ـ كما يبدو لي في أغلب الأحيان ـ أن روحي كانت تحلق عالياً عندما كانت الطبيعة القاسية لقدر الإنسان تصدمني بضربة بين عيني . وعندما كت مثل دودة تشق طريقها في الطين كانت الفكرة المجنونة ـ ربما ـ القائلة بأن الحضيض مرتبط بالعلياء . ألم يحكوا لنا عندما كنا صبياناً أن الله يدوّن في مذكراته سقوط عصفور الدوري ؟ حتى وإن كنت لا أؤمن بذلك ، فلا داعي للقول بأنني قد تأثرت به . (انظروا ـ أنا الرب إله الخليقة كلها ، هل من شيء يصعب عليَ فعله ؟ إن هذا الإدراك الكلي (سواء كان قابلاً للتصديق أم غير قابل للتصديق فقد كان مرحلة عظيمة من مراحل الفكر . في بعض الأحيان عندما كان يحدث شيء ما غير اعتيادي . كنت اهتف مثل طفل :

ـ « هل رأيت ذلك ، يا الله ؟ »

ما أروع أن تعتقد أن الله موجود على مرمى نداء!

إذاً ، لقد كان الله حضوراً وليس تجريداً ميتافيزيقياً . كانت روحه تنتشر في كل شيء . كان موجوداً في كل شيء وفوق كل شيء في وقت واحد بآن معاً . ومن ثم ، بينما كنت أفكر بذك ، كنت أتظاهر بابتسامة ملائكية ـ ثم يأتي وقت ، ولكي لا اتخشب كالأموات أو أهذي كالمجانين ، كان عليَ ببساطة أن أزدريه ، أن أزدري الطبيعة العبثية الرهيبة للأشياء بعيني الخالق ، ذاك الذي كان مسؤولاً عن كل ذلك ويفهم كل ذلك .

وبينما كنت ابتعد بخطى خفيفة ـ فقد صرت الآن أعدو عدواً ـ كانت فكرة الخلق ، العين الكلية الرؤية ، الشفقة الكلية الشمول . قرب الله وبعده تلفني كالحجاب . يا لها من نكتة أن تكتب رواية حول شخصيات خيالية وأوضاع خيالية! ألم يكن رب الكون قد تخيّل كل شيء ؟ أية مسخرة في أن تبسط سيادتك على هذا العالم الوهمي! هل كان هو السبب في أنني كنت أتضرَع إلى العلي القدير أن يمنحني موهبة الكلمات ؟ إن السخرية المطلقة لحالتي قد جعلتني أصل إلى طريق مسدود . لماذا الاستعجال في الانتهاء من الكتاب ؟ برأيي كان منتهياً تماماً . كنت قد فكرت ملياً بالدراما التخيلية لنهايته التخيلية . صار بإمكاني أن ارتاح لحظة ، معلقاً فوق كينونتي النملية وأدع قليلاً من الشعرات الأخرى تشيب في رأسي . لقد تراجعت إلى الخواء (حيث الله هو كل شيء) . بشعور بالخلاص مطلق . صار بمقدوري أن أرى ذلك كله . إن تطوري الدنيوي من المرحلة اليرقية إلى المرحلة الراهنة ـ لا بل حتى إلى ما وراء الحاضر . إلامَ كان النضال ـ أو من أجل ماذا ؟ أمن أجل الوصول إلى التوحد ـ أي معنى آخر كانت تحمله الرغبة في التواصل ؟ هل هو الوصول إلى الجميع . سواء كان العلياء أم الحضيض والعودة بجواب ـ يا لها من فكرة مدمرة! أن أرتعش بشكل أبدي مثل قيثارة العالم ـ إنها فكرة مريعة إذا دُفعت إلى أقصى ما تحتمله من تأويلات .

ربما لم أكن أقصد ذلك بالضبط . ربما كان كافياً أن يقيم المرء تواصلاً مع أحد أنداده ، مع إحدى الأرواح الشقيقة .

ولكن من هم أولئك ؟ وأين كانوا ؟ من أين للمرء أن يعرف ذلك إن لم يطلق سهمه ؟

في هذه اللحظة برزت إلي العيان صورة ما . صورة العالم ، على شكل شبكة من القوى المغناطيسة . كانت هذه الشبكة مرصعة مثل النويات بالأرواح الملتهبة للأرض التي كانت تدور حولها مختلف المراتب البشرية مثل الكويكبات . ونظراً للتوزع المراتبي الهرمي للسلطات والكفاءات فقد كان

يسود نوعٌ من الانسجام الجليل . لم يكن من الممكن وجود أي نزاع . كل الصراعات ، كل القلاقل ، كل الاضطرابات وأعمال الفوضى التي كان الإنسان يسعى لضبطها عبثاً ، كانت كلها بدون معنى . إن العقل الذي كان يلف الكون أصبح عاجزاً عن التعرف عليه . كما أن النشاط الإجرامي ، الانتحاري والجنوني للكائنات الدنيوية ، لا بل حتى نشاطها الإحساني التعبدي وكافة نشاطاتها الإنسانوية المبالغ فيها ، كانت كلها خادعة . لا شيء للمضي نحوه ، ولا شيء للارتداد عنه أو للوصول إليه . إن المجال الفسيح اللامتناهي للقوة كان مثل فكرة معلقة . أيونات منذ الآن ـ وماذا كان الآن ؟ فكرة أخرى كان من الممكن أن تحل محله... كانت فكرة تثير القشعريرة . كانت عندي رغبة في الاستلقاء هناك على أرض العدم والتأمل إلى الأبد في صورة الخلق .

تبادر إلى ذهني فوراً أن عنصر الخلق ، حيث كان موضوع اهتمام الكتابة ، لم يكن له ما يفعله بالفكر .

« الشجرة لا تبحث عن ثمارها بل تنتجها » . استنتجت أن الكتابة هي أن تجني ثمار المخيلة . أن تتوغل في حياة الذهن مثل شجرة تبنت أوراقاً ، وسواء كانت فكرة عميقة أم لا . فقد كانت مريحة . بقفزة واحدة وجدت نفسي جالساً في حضن الآلهة . كنت أسمع كل الضحكات من كل جانب من حولي . لا داعي للقيام بدور الله . لا داعي لأن تصعق أحداً . خذ القيثارة وأمسك بنوتة فضية ؟ فوق كل الاهتياج ، وحتى فوق صوت الضحك ، كان يعلو صوت الموسيقا . الموسيقا المتواصلة : ذاك هو المقصود من العقل الأسمى الذي كان يلف الخلق .

هبطت السلم منزلقاً بسرعة . كانت هذه الفكرة الجميلة التي امتلكتني من ناصيتي ـ ها أنت تدعي أنك ميت ومصلوب ، ها أنت بكل تاريخك المروّع المليء بالالتباسات historia de calamities لماذا لا تعاود تمثيلها في جوهر المسرحية ؟ لماذا لا تنقلها وتستخلص منها قليلاً من الموسيقا ؟ هل هي حقيقية ـ جراحك ؟ هل ما تزال حية ـ ما تزال طرية ؟ أم أنها طلاء أظافر من

النوع الأدبي إلى هذا الحد ؟ جاءت الكادينزا .

"Kiss me, Kiss me, again!"

كنت يومها في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . أنا وماك غريغور والفتاة التي جلبها إلى الحفلة ـ طالبة في معهد الأوبرا . كانت مرهفة ، جذابة ، لا بل أنها كانت أفضل واحدة سبق له أن صادفها أو سيصادفها . بالمناسبة ، كانت تحبه حباً شهوانياً ، مع أنها كانت تعلم أنه رجل طائش وخؤون . عندما يقول لها بتلك الطريقة السهلة الخالية من التفكير : « إنني مجنون بك » ، كانت تصاب بالنشوة . ، كانا يتبادلان أغنية لم يكن يمل سماعها أبداً ويقول لها :

ـ سأغنيها مرة أخرى ، ألا تغنيها ـ لا يمكن لأحد أن يغنيها مثلك» .

فكانت تغني Kiss me, Kiss me again وكنت دائماً أصاب بغصة في الحلق لدى سماعي إياها تغنيها . لكن هذه الليلة حسبت أن قلبي سينفطر لأنني في ليلة كهذه وقد جلست في زاوية بعيدة من الغرفة وبعيداً عنها قدر المستطاع ، كانت تجلس أونا جيفورد الرائعة المستحيلة المنال ، أجمل بألف مرة من السيدة الأولى لماك غريغور هذه ، وهي أكثر غموضاً منها بألف مرة .وأبعد منالاً منها بألف مرة .

Kiss me, Kiss me, again كم كانت هذه الكلمات تنفذ إلى قلبي دون أن يكون مخلوق بشري من تلك الجماعة الصاخبة المعربدة واعياً ومدركاً لألمي . يقترب عازف الكمان لطيفاً مرحاً ملصقاً ذقنه إلى الكمان وهو يطلق كل جملة موسيقية على أوتار مخففة الصوت يعزفها في أذني بكل رقة . لم يعد بإمكاني أن ألاحظ شيئاً آخر . تنتابني الجرأة فأدفعه جانباً . أهرول مسرعاً إلى الشارع والدموع تنهمر على خدي . عند زاوية الشارع يقع بصري على حصان يتبختر في الشارع . كانت فرساً من أكثر ما وقعت عليه عين إنسان بؤساً واعتلالاً . احاول التكلم إلى هذا الرباعي الأرجل التائه . لم يعد حصاناً ؛ لقد كف عن أن يكون حصاناً ، عن أن يكون ، حيواناً . للحظة من اللحظات اعتقدت أنه كان يعي ما أقول . مرت برهة طويلة من الزمن كان ينظر خلالها

إليّ نظرة وجهية تامة ـ وجهاً لوجه . ثم ، وقد أجفل مني ، أطلق صهيلاً مريعاً وانطلق على أعقابه . أما أنا وقد كنت كئيباً ، فقد أطلقت صوتاً مثل جلجلة الناقوس وتهاويت على الأرض . كانت أصوات العربدة التي تملأ الشارع الفارغ تتناهى إلى مسامعي مثل جلبة صادرة عن ثكنة تعج بالجنود السكارى ، كانوا يقيمون حفلاً على شرفي ، وكانت هناك حبيبتي الشقراء الثلجية الحالمة العصية على المنال . ملكة الأقطار القطبية الشمالية التي لم يكن غيري يجلّها كما كنت أجلُّها . جرحاً قديماً صار جرحي . منذ زمن طويل لم يصل إليه الدم... والأسوأ من ذلك هو التدفق . أسوأ بكثير ـ بكثير .

أليس من المضحك أنه كلما كانوا يسرعون في المجيء طال انتظار المرء ؟

نعم! أن يكونوا ـ هكذا يتوقعهم ـ أكثر جسامة ، أكثر تدميراً ـ ودائماً هكذا ـ أغلقت كتاب الذاكرة . نعم ، كان ثمة موسيقا يمكن استخلاصها من تلك الجروح القديمة . لكن الوقت لم يكن قد حان بعد . دع الجروح تتقيّح في الظلام لفترة من الزمن . ما إن نصل الى أوربا حتى أنبت جسداً جديداً و روحاً جديدة . ما الذي كانت تعنيه آلام صبي بروكليني بالنسبة لورثة الطاعون الأسود و حرب المائة عام و إبادة الألبيجنسيين* وورثة الصليبيين ومحاكم التفتيش والهوغونوت و الثورة الفرنسية واضطهاد اليهود و غزوات الألمان و مجيء الأتراك ، و أمطار الضفادع و الجراد و أفعال الفاتيكان التي لاتحكى واهتياج قتلة الملوك ، والملكات المهووسات جنسياً ، والعواهل البلهاء أحفاد روبسبيير و آل القديس جوست و أحفاد آل هوهنشتاوفن و هوهنتسولرن ، وورثة مطاردي الجرذان ، و ساحقي العظام ؟ ما الذي يمكن لبواسير مؤلمة قليلة من أصل أمركي أن تعنيه لراسكولينكوفات و كرامازوفات أوربا العجوز ؟ وجدت نفسي واقفاً على طاولة ، حمامة باوتر تسقط كريات من روثها الأبيض الصغير . سطح الطاولة كان اسمه أوروبا . كان يجتمع حول

---

* الألبيجنسيون : طائفة هرطوقية مسيحية اتسع نفوذها في جنوب فرنسا حوالي عام ١٢٠٠م . يقوم لاهوتها على الثنائية المانوية ونكران ألوهية المسيح والتقمص . (م)

الطاولة ملوك وعواهل الروح غافلين عن أوجاع و آلام العالم الجديد . ما الذي كان بمقدوي أن أقوله لهم بلغة حمام الباوتر الأبيض ؟ وما الذي كان بمقدور أي ناشئ تربّى في جو من السلم و الوفرة و الأمن أن يقول لأبناء و بنات الشهداء ؟ في الواقع كان لنا نفس الجد ، نفس الأسلاف المتشابهين الذين لا اسم لهم و الذين تمزقوا على المخلعة ، الذين احترقوا على الخازوق ، الذين تجرجروا من مكان لآخر . ولكن ذكرى مصيرهم ما عادت تلهبنا . لقد أدرنا ظهورنا لهذا الماضي المغيظ ، نبتنا أفرعاً جديدة من الجذع المتفحم لتلك الشجرة الأبوية . تغذينا بمياه نهر النسيان فأصبحنا نسلاً جاحداً من العقوقين الخالين من الحبل السري ، تغمرنا سعادة فجائية بزي مصنوع من المواد التركيبية . قريباً . يا رجال أوروبا الأعزاء ، سنكون معكم بلحمنا ودمنا . إننا قادمون ـ بحقائبنا الأنيقة ، بجوازات سفرنا المذهّبة الأطراف ، بأوراقنا النقدية من فئة المئة دولار ببوليصات التأمين على المسافرين ، بكتبنا الدليلية ، بأفكارنا الطنانة ، بأحكامنا المسبقة التافهة ، بأحكامنا المتسرّعة ، بنظاراتنا الوردية التي تؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن كل شيء ينتهي على خير في نهاية المطاف ، وأن الله هو الحب وأن العقل هو كل شيء . وعندما تشاهدوننا كما نحن ، عندما تسمعوننا نثرثر مثل العقاعق ، ستعرفون أنكم لم تفقدوا شيئاً بالبقاء في أماكنكم . لكن ليس لديكم أي مبرر لكي تحسدوا أجسادنا الجديدة الطرية ودمنا الأحمر الغني . اشفقوا علينا ـ نحن الأغرار ، السريعي الانفعال ، القابلين للعطب ، الجدد إلى درجة الغضاضة ، المحافظين على بريقنا!

إننا نهلك ـ إننا نذوي .

الفصل العشرون

عندما اقترب موعد سفرنا كان رأسي يعج بأسماء الشوارع وساحات المعارك والنصب التذكارية والكاتدرائيات والربيع الذي يستحيل إلى ما يشبه قمر دراڤيدري/القلب ينبض بوحشية ، الأحلام تزداد توالداً كل خلية في جسمي كانت تهتف : المجد لله في الأعالي .

في أوقات الصباح كنت أصاب بالثمالة من عبير الربيع ، كانت السيدة سكولسكي تفتح نوافذها على مصاريعها فيتناهى إلى مسامعي صوت سيروتا الثاقب !Reizei! Reizei . لم يعد سيروتا ذاك القديم المألوف ، بل صوت مؤذن مهتاج يطلق التراتيل نحو الشمس . لم أعد أحفل بكلماته ، سواء كانت شتيمة أم نواحاً . لقد قمت بصياغة كلماتي التي تخصني لوحدي :

ـ «تقبل شكرنا أيها الكائن القدسي الذي لا اسم له!»

بينما كنت أتلو وراءه كواحد من الاتقياء ، كانت شفتاي تتحركان على وقع كلماته بصوت خافت ، وكنت أتأرجح إلى الأمام وإلى الوراء مسمَّراً على كعبي مرفرفاً رموشي ، مطرطشاً نفسي بالرماد ، مبدداً الأحجار الكريمة والتيجان في كافة الاتجاهات ، حانياً ركبتي ، ومع آخر النغمات الخفية كنت انهض على أطراف أصابعي وأقذفها نحو السماء .

بعدئذ ، وبينما كنت أرفع ذراعي وأنمل سبابتي يلامس نافوخي بخفة ،

استدرت ببطء وأنا في منتهى السعادة كانت شفتاي تطلقان صوتاً من أصوات قيثارة اليهودي ، وكما لو أن شجرة تنتفض من سباتها الشتوي ، كانت الفراشة تندفع من رأسي وهي تصرخ : «المجد لله في الأعالي! المجد لله في الأعالي! مجدت يعقوب وحزقيال ومن ثم راكيل وروث واستير .

كم كانت دافئة وصادقة تلك الموسيقا المندفعة الآتية من النوافذ المفتوحة! شكراً لك يا عزيزتي صاحبة البيت ، فأنا سأذكرك في أحلامي!شكراً لك يا أبا الحناء ذا الصدر الأحمر لمرورك بنا هذا الصباح! شكراً لكم أيها الأخوة الملونون ؛ فيومكم لا بدآت! شكراً لك يا عزيزي ريب فأنا سأصلي لأجلك في كنيس متهدم! شكراً لك أيتها البراعم الوردية الصباحية المبكرة يا من ستكرمينني بعطرك الفواح! وأنتم يا زوف وتوفت وغيمل وبيمل... اسمعوا ، اسمعوا ، اسمعوا ، إنه ينشد... قائد المنشدين الحمد الله ، المجد للملك داؤود! ولسليمان المتألق في حكمته!

البحر ينشق أمامنا والنسور تهدينا إلى الطريق . ما زالت إمامنا نغمة أخرى ، أيها المنشد الحبيب ـ نغمة عالية وآخاذة! دعها تكسر لوح الصدر للكاهن الجليل! دعها تكبت صرخات الملعونين! لقد فعل ذلك منشدي الرائع ، الرائع . ألست مجنوناً قليلاً هذا الصباح ؟ »

ـ «نعم ، نعم ، أنني كذلك . لكنني ما كنت أقدر على الجنون أكثر من ذلك . لم لا ؟ عندما يتم تحرير سجين من زنزانته ألا يفترض به أن يجن ؟ لقد خدمت ستة أجيال زائد خمساً وثلاثين سنة ونصف السنة وثلاثة عشر يوماً . والآن ها هم يعتقونني .

لأصلي لله لأن ذلك لم يكن متأخراً!

أخذتها من يديها وقمت بانحناءة شديدة كما لو كنت سأبدأ برقصة المينوية* لقد كنت أنت من جلب لي العفو . تبولي عليَّ! ألن تفعلي ذلك ؟ إذا فعلت ذلك سيكون بمثابة تبريكة . أوه ، كم كنت حالماً سائراً في نومي! » .

---

* المينوية Minuet رقصة بطيئة رزينة . (م) .

أطليت من النافذة وأخذت نفساً عميقاً من هواء الربيع (كان صباحاً من الصباحات التي يختارها شيلي بذاته لكتابة قصيدة) .

استدرت نحوها وقلت لها :

- « هل يوجد أي شيء خاص للإفطار هذا الصباح ؟ يكفي أن تتأملي :

لا استعباد ، لا تسوّل ، لا خداع . لا استجداء ولا مداهنة ، صرنا أحراراً

في أن نمشي ، نتكلم ، نفكر ، نحلم ، احرار ، احرار ، احرار! »

لكن صوتها الناعم عاجلني بقولها :

- « ولكن يا عزيزي ، يا ڤال ، لن نبقى هناك إلى الأبد ، أنت تعرف ذلك » .

- « إن يوماً سنقضيه هناك سيكون بمثابة دهر هنا . وكيف عرفت إن كنا سنمكث هناك طويلاً أم لا ؟ ربما ستندلع الحرب ، وربما لن نتمكن من العودة ، من يعرف قسمة الإنسان على الأرض ؟ »

- « ڤال ، إنك تبالغ كثيراً في ذلك . ستكون إجازة لا أكثر » .

- « ليس بالنسبة لي . إنها انقطاع . أنا أرفض البقاء مرتبطاً بوعد شرف قطعته على نفسي . لقد أتممت مدتي وأنا منتهٍ » .

ثم سحبتها إلى النافذة واستأنفت الكلام :

- « انظري! انظري إلى الخارج من هنا! تمعني جيداً . هذه هي امريكا . هل ترين تلك الأشجار ؟ هل ترين تلك السياجات ؟ هل ترين تلك البيوت ؟ أولئك الحمقى الذين يطلون هناك من النوافذ ؟ هل تعتقدين أنني سوف افتقدهم ؟ لا ابداً! » .

بدأت أحدق كالأبله . وجهت أنفي نحوهم :

- « افتقدكم ، أيها المغفلون ، أيها السذج ؟ انني لست ذاك الفلاح » .

قالت لي وهي تقودني إلى المائدة :

- « تعال ، يا ڤال . تعال واجلس ، تناول قليلاً من الإفطار » .

- « حسناً ، إذاً ، الافطار! هذا الصباح كنت أشتهي شرحة بطيخ وجناحاً

أيسر لديك رومي وقليلاً من لحم الأوبوسوم* وخبز الذرة الجيد المخبوز على الطراز القديم . فأبونا ابراهام قد اعتقني . ISE لن يعود إلى كارولينا . الأب ابراهام قد حررنا جميعاً ، هالولويا! »

قلت لها مستأنفاً نبرتي الهوائية الفارغة :

ـ « والانكى من ذلك انني اكتب الروايات . أنا عضو اختياري في فصيلة البط البري . وأنا بصدد أن اؤرخ لشقائي الشظف واعزفه على شكل لحن ـ كيف ترين ذلك ؟ »

وضعت أمامي بيضتين مسلوقتين وقطعة من الخبز المحمَّص وقليلاً من المربى .

ـ « ستكون القهوة جاهزة خلال دقيقة . تابع كلامك! »

ـ « أنت تسمينه كلاماً ـ ايه ؟ اسمعي ، هل ما زالت عندنا /قصيدة النشوة**/ تلك ؟ اسمعيني إياها إن تمكنت من العثور عليها . اسمعيني إياها بصوت عال . إن موسيقاها ترن في أذني كما يتهيأ لي أحياناً .

إن لها تلك الإثارة الكونية البعيدة ، إنها معقدة على نحوٍ شيطاني ، كلها نار وهواء . عندما سمعتها لأول مرة لم أتمالك نفسي عن تكرار عزفها كان شيئاً يشبه حماماً من الجليد والكوكائين وأقواس قزح . لقد بقيت عدة أسابيع أهيم منتشياً . شيء ما كان قد حدث لي . أما الآن فإن ذلك يبدو جنونياً لكنه حقيقي . في كل مرة كانت تستحوذني فكرة من الأفكار ينفتح باب صغير في صدري حيث يرقد العصفور في عشه الصغير ـ أجمل وألطف عصفور يمكن تخيله ، يزقزق قائلاً :

ـ « أخرجها من ذهنك! أخرجها من ذهنك ـ إلى النهاية! »

كنت أفعل ذلك ، بعون الله دون أن أبذل أي جهد ، مثل تلميذ ينزلق عن طوافة جليدية .

---

* الأوبوسوم : حيوان أمريكي من الجرابيات يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر .

** Poème d'extase بالفرنسية في الأصل (م)

بينما كنت أغوص في البيضتين المسلوقتين برفق ، ارتسمت على شفتي ابتسامة من نوع خاص .

قالت : «ما هي ؟ ماذا ـ الآن يا مجنوني ؟ »

ـ «ايها الخيول . هذا بالضبط ما افكر به . كم أتمنى أن نذهب إلى روسيا أولاً . هل تذكرين غوغول والترويكا ؟ هل تعتقدين أنه كان بمقدوره أن يكتب تلك الفقرة لوأن روسيا كانت تستخدم السيارات ؟ كان يخاطب الخيول . إن الحصان يسير كالريح . الحصان يطير . إنه حصان روحي ، على كل حال . كيف كان هوميروس سيحشد الآلهة جيئة وذهاباً

بدون تلك الخيول النارية التي كان يستعين بها ؟ هل بمقدورك أن تتخيليه وهو يناور تلك الآلهة الشرسة بسيارة رولز رويس ؟ كل ذلك لإثارة النشوة... وهذا يعيدني إلى سكريابين ـ ألم تعثري على الشريط المسجل ... ايه ؟ ... عليك أن تستفيدي من المضامين الكونية . فبالأضافة إلى الأذرع والسيقان والحوافر والمخالب والأنياب والنخاع والجريش ، عليك أن تضيفي الاعتدالين الربيعي والخريفي وحركات المد والجزر واقترانات الشمس والقمر والكواكب وهذيانات المجانين . وإضافة إلى أقواس قزح والنيازك والكواكب الشمالية ، عليك أن تحوزي على الكسوفات والخسوفات والبقع الشمسية والأوبئة والمعجزات ... وكل أصناف الأشياء بما في ذلك الحمقى والسحرة والعرافين والعرافات والمجذومين والمتهتكين والكهنة والداعرين والملوك المتخمين والقديسين... وأن تحوزي على السيارات والبرادات والغسالات وأعمدة الهاتف... يا لهذا الصباح الربيعي الجميل! هل كنت قد ذكرت شيلي ؟ إنه صباح رائع يليق بأمثاله . أو يليق بووردز وورث أو كيتس . إنه صباح من صباحات ياكوب بوهمه لا أكثر ولا أقل . فحتى الآن ، لا ذباب ، لا بعوض ، ولا حتى صراصير في المدى المنظور . رائع ، رائع تماماً (ليتها تعثر على شريط سكريابين!) .

لا بد أن صباحاً كهذا قد مرت به جان دارك عبر تشينون في طريقها إلى

الملك . ولسوء الحظ أن رابليه لم يكن قد ولد بعد ، وإلا لكان قد لمحها من مهده بقرب النافذة . آه ، ما أروع ذاك المشهد الإلهي الذي كانت عليه نافذته! نعم ، حتى لو كان ماك غريغور سيظهر فجأة ، لم يكمن بمقدوري التخلي عن النعمة الإلهية ، إذ كنت سأجلسه وأحدثه عن ماساتشيو أو عن /الحياة الجديدة/ * . وربما سأقرأ عليه من شكسبير في صباح مرهف كهذا ـ من السونيتات وليس من المسرحيات » .

عطلة ، هكذا كانت تسميها مونا . كانت هذه الكلمة تزعجني . كان بوسعها أن تسميها Coitus interruptus** .

(يجب أن أتذكر موضوع الحصول على عنوان أقاربها في فيينا ورومانيا)

لم يعد هناك من شيء قادر على احتجازي داخل البيت أكثر من ذلك . فالرواية قد اكتملت ، والنقود صارت في المصرف ، والحقيبة مرزومة ، وجوازات السفر قيد الاعداد ، وملاك الرحمة يحرس القبر . أما أحصنة غوغول المتوحشة فكانت لا تزال تسابق الريح .

قالت لي بينما كنت أتجه نحو الباب :

ـ « لماذا لا نحضر عرضاً مسرحياً أو سينمائياً ؟ »

ـ « ربما سأفعل ذلك . لا تفقسي أية بيوض قبل أن أعود » .

عند الانطلاق قررت المرور على ريب لأقول له وداعاً . ربما كانت هذه آخر مرة تطأ فيها قدمي أرض دكانه الكئيب هذا . (وهذا ما حدث فعلاً) . عندما كنت أمر بكشك الجرائد اشتريت صحيفة بورقة من فئة الخمسين سنتاً كانت في الحصالة . كان ذلك تعويضاً عن النكلات والقطع الصغيرة التي كنت اختلسها من بائع الصحف الأعمى في لابورهول .

وقدجعلني ذلك أحس بالارتياح ، مع أنني كنت قد اسقطتها في حصالة الرجل المعطلة . ثم اشتريت لنفسي جورباً من كشك أكبر من سابقه .

* Vita Nuova قصيدة ملحمية للشاعر الإيطالي دانتي . (م) .

** جماعاً متقطعاً ، باللاتينية ، في الأصل (م) .

كان ريب في مؤخرة الدكان يقوم بأعمال الكناسة .
هتف قائلاً : « حسناً ، حسناً ، انظروا من يكون! »
- « ماهذا الصياح - ايه ؟ الا يجعلك تشعر بأنك مصاب بطفح جلدي ؟ »
قال لي وهو يضع المكنسة جانباً :
- « ما الذي يشغلك ؟ »
- « ليس عندي أية فكرة ، يا ريب . جئت لأسلم عليك فقط » .
- « هل عندك رغبة بالذهاب في جولة بالسيارة ؟ »
- « نعم... هذا إذا كانت لديك دراجة ترادفية أو زوج من الأحصنة السريعة . لا ، ليس هذا اليوم . اليوم للمشي وليس للركوب »
سحبت مرفقي ، قوست عنقي ، وخطوت نحو الباب ، ثم أقفلت راجعاً :
- « انظر ، إن هاتين الساقين ستحملاني بعيداً . لا داعي للسير بسرعة تسعين أو مئة » .
قال لي : « يبدو أنك في مزاج جيد ، فقريباً سوف تسير في شوارع باريس » .
- « باريس ، فيينا ، براغ ، بودابست... وربما وارسو ، موسكو أوديسا - من يدري ؟ »
- « ميلر ، انني حسدك »
ثم ساد الصمت لفترة قصيرة من الزمن .
- « كنت أقول لماذا لا تزور مكسيم غوركي أثناء وجودك هناك » .
- « وهل لا يزال مكسيم غوركي حياً ؟ »
- « بالتأكيد ، وسأحكي لك عن إنسان آخر يجب عليك أن تبحث عنه ، مع أنه صار الآن في عداد الأموات » .
- « من هو ؟ »
- « هنري باربوس » .
- « بالتأكيد إنني أتمنى ذلك ، يا ريب ، لكنك تعرفني - انني جبان

رعديد وعلاوة على ذلك ، أي عذر استطيع أن أسوقه للنزول ضيفاً عليهم ؟ »
صاح قائلاً :
ـ « عذر ؟ ولماذا العذر ، يكفي أنهم سيُسرون بمعرفتك »
ـ « ريب ، إنك تمتلك تصوراً سامياً عني » .
ـ « هراء! إنهم سيرحبون بك ، سيأخذونك بالأحضان » .
ـ « نعم ، سأحفظها في مؤخرة دماغي . سأنصرف الآن ، سأبلغ آخر تحياتي للموتى . إلى اللقاء! »

على بعد أبواب قليلة من حانوته كان صوت المذياع يدوي بدعاية تجارية لأغطية طاولات من ماركة / لاست سبر/ بسعر دولارين للزوج الواحد . اتخذت طريقي على طول شارع ميرتل . كان هذا الشارع الكئيب الموحش مخططاً حتى منتصفه بخط صاعد هادئ . ومن خلال الأربطة والأحزمة الحديدية كانت الشمس تصل أعمدة من النور الذهبي . لم أعد سجيناً ، إذ أن الشارع كان يتخذ مظهراً آخر . لقد صرت سائحاً بعين فضولية على كل شيء . مضى العفريت الكئيب يصغي إلى الميمنة بعبء سأمه أمام المخبز حيث كنت مع أومارا نلعق قطرة من حساء البيض . توقفت برهة لأتفحص واجهة المحل . كانت نفس الكعكات البائتة المفتتة ، ونفس فطائر التفاح في الواجهة مغلفة بنفس الورق القديم المخصص للرزم . كان مخبزاً ألمانياً ـ بالطبع . (كانت العمة ميليا تتحدث دائماً بمودة عن محل الحلويات* التي كانت تزوره في بريمن وهامبورغ . أقول بمودة لأنها كانت تميز قليلاً بين المعجنات والكائنات اللطيفة الأخرى) . ومع ذلك ، لم يكن هذا الشارع بذاك الشيء البغيض إلى الله . ولا حتى لو كنت زائراً من كوكب بلوتو البعيد جداً .

كلما كنت انتقل من مكان إلى آخر كان يخطر ببالي آل بودنبرك** وتونيو كروغر والعزيز توماس مان العجوز . يا له من فنان رائع .

---

* Kondittoreiبالألمانية ، في الأصل (م) .

** آل بودنبروك وتونيو كروغر روايتان للكاتب الألماني توماس مان .

(كان من المفروض بي أن اشتري قطعة كاتو!)

نعم ، لقد كان في الصورة الفوتوغرافية شبيهاً بحانوتي . كان بوسعي أن اتصوره يكتب الروايات في مؤخرة حانوت لبيع الأطايب مع ياردة من النقانق المعقودة الملفوفة حول عنقه . آه ، كم كان سيفيد من شارع ميرتل! اهتف لغوركي عندما تصير عنده ـ ألم يكن ذلك شيئاً خارقاً ؟ كان ذلك أكثر صعوبة من الحصول على مقابلة رسمية مع ملك بلغاريا . لو كان هناك أي مجال للقيام باتصالات هاتفية لأوعزت إلى الرجل أن يختار ايلي افاور . إني استغرب كيف سيتلقاها لو كنت أطلب تقبيل يديه ؟

مرت بقربي حافلة مقعقعة . لمحت بنظرة خاطفة شاربي السائق المتهدلين بينما كانت الحافلة تسير مندفعة بسرعة Presto! قفز الاسم إلى ذهني كومضة ـ إنه كنوت هامسون . فكر به ـ ذاك الروائي الذي حصل أخيراً على جائزة نوبل ـ يقود حافلة في هذه البلاد التي نبذها الله! إذاً ، أين هي شيكاغو ؟

بلى ، شيكاغو . ثم يعود إلى النروج ويكتب رواية (الجوع) . أم أنه في البداية كتب (الجوع) ثم اشتغل سائقاً ؟ على كلٍ ، إنه لم يخفق في شيء . لفت انتباهي وجود مقعد عند الرصيف (وهو الأكثر غرابة) . أخفضت مؤخرتي مثل الملاك جبريل .

ما معنى أن يسير بساقين مخلوعتين ؟ اتكأت إلى الوراء ، فتحت فمي على مصراعيه لأتجرع أشعة الشمس . كيف حالك ـ قلتها قاصداً أميريكا ـ أميريكا الأعمال الدموية كلها ـ بلاد غريبة ، أليس كذلك ؟ لاحظ العصافير! إنها تبدو رثة كئيبة ـ ماذا ؟ أطبقت عيني ، لا لكي أغفو ، بل لكي استجمع صورة البيت السلفي المنحوت من العصور الوسطى . كم كانت ساحرة بهيجة تلك القرية المنسية! متاهة الجدران المسورة بأقنية تجري على نحو افعواني ، تماثيل (للموسيقيين فقط) ، مطارق خشبية ، نافورات ، مربعات ومثلثات ، كل زقاق يقود إلى محور العجلة حيث كان ينتصب بيت العبادة الغريب بأبراجه الشاهقة . كل شيء كان يسير بسرعة الحلزون . طيور البجع كانت تعوم على

السطح الراكد للبحيرة الحمائم تهدل في مأذنة الكنيسة . الرفاريف المقلمة مثل البنطلونات كانت تظلل الشرفات الفسيفسائية ، شيء هادئ بشكل مطلق للغاية ، ريفي للغاية ، حالم للغاية!

فركت عيني . في هذه اللحظة ، اين كنت قد صرت على وجه الأرض ؟ هل كان ذلك بوكستهوده* ربما ؟ (الطريقة التي كان جدي يلفظ بها الكلمة جعلتني أفهمها على أنها اسم لمكان وليس لإنسان .

ـ «لا تدعه يطالع كثيراً ، إن ذلك يضر بعينيه» .

جلست عند حافة طاولته حيث كان يجلس وساقاه ملتفتان ، أصنع المعاطف للسادة من شاكلة اسحق ووكر ، وقرأت له بصوت مرتفع من هانز كريستيان أندرسن .

قال لي بلطف : «ضع الكتاب جانباً ، أخرج وألعب» .

هبطت إلى الباحة الخلفية ، ولما كنت لا أملك شيئاً أكثر أهمية فقد كنت أنسلُّ بين شقوق وفتحات السياج الخشبي الذي كان يفصل ممتلكاتنا عن بيت الدخان . كانت أرتال تلو الأرتال من السمك المتفحم ، المتيبس تواجهني ، وتكاد الرائحة اللاذعة الحادة تطغى على كل شيء . كانت تلك السمكات القاسية الصلبة المرعوبة معلقة من خياشيمها وعيونها الجاحظة تلمع في الظلام مثل الجواهر المبللة .

عند عودتي إلى طاولة جدي كنت أسأله لماذا تكون الأشياء ميتة وقاسية على هذا النحو . وكان يجيبني بقوله :

ـ «لأنه لم يعد فيها أية بهجة» فكنت أسأله :

ـ «ولماذا تركت ألمانيا ؟ »

ـ «لأنني لم أكن أرغب في أن أصبح جندياً» .

ـ «انتظر ، انتظر حتى ينلعلع الرصاص» .

ثم يدندن بلحن صغير بينما يتابع عمل الخياطة .

---

* بوكستهوده : مؤلف موسيقي دانماركي (١٦٣٧ ـ ١٧٠٧) .

ـ « أغرب من هنا ـ لا تضايقني! ماذا ستصبح عندما تكبر ؟ خياطاً مثل والدك ؟ »

فأجيبه بشكل مباغت :

ـ « أتمنى أن أصبح بحاراً ، أريد رؤية العالم » .

ـ « إذاً لا تطالع كثيراً . ستحتاج إلى عينيك إذا صرت بحاراً »

ـ « نعم ، يا Grosspapa* (هكذا نناديه) إلى اللقاء! »

ما زلت أذكر الطريقة التي كان يرمقني بها حينما كنت أسير باتجاه الباب كانت نظرة ساخرة ـ بماذا تراه كان يفكر ؟ هل كان يظن أنني لن أصبح

قطعت هذا الاستذكار للأحداث الماضية مع اقتراب متسكع من اكثر المتسكعين رثاثة ـ كان متسولاً يريد معرفة إن كان بمقدوري الاستغناء عن قطعة نقدية .

قلت له : « بالتأكيد ، بإمكاني الاستغناء عن الكثير إن كنت بحاجة » اتخذت لنفسي أقرب مقعد إليَّ . كان يرتجف كأنه مصاب بالشلل الارتجافي . قدمت له سيجارة واشعلتها له .

قلت له : « أليست ورقة من فئة الدولار أفضل لك من قطعة نقدية معدنية ؟ »

نظر إلي باستغراب كأنه حصان على وشك الإجفال .

قال لي : « ما هو ؟ ما هو المبلغ ؟ »

أشعلت لنفسي سيجارة ، مددت ساقي على طولها ، وببطء كما لو كنت أفك رموز فاتورة شحن ، أجبته :

ـ « عندما يكون الإنسان على وشك القيام برحلة إلى بلاد أجنبية ، حيث يأكل ويشرب حتى الشبع ويتجول كما يحلو له ويستطلع ما شاء من أمكنة ـ ما قيمة دولار زيادة أو نقصاناً ؟ إن ما تحتاج إليه هو جرعة من ويسكي الجاودار ، وها أنذا آخذها . بالنسبة لي ، إن ما أتمناه هو أن أستطيع التكلم

* الجد ، بالألمانية في الأصل . (م)

بالفرنسية والإيطالية والاسبانية والروسية وربما قليلاً من العربية أيضاً . لو كان لي الخيار لأبحرت منذ هذه اللحظة . ولكن لا داعي للقلق من ناحيتك . انظر ، بإمكاني أن أقدم لك دولاراً ، دولارين ، خمس دولارات كحد أعظمي ما لم يكن الـ Banshees* في أثرك . ما قولك ؟ وعليك ألا تنشد أية تراتيل أيضاً » . صار يتصرف بطريقة عصبية وكان ينفر مني بطريقة غريزية كما لوكنت دواءً رديئاً . قال لي :

ـ « يا سيدي ، كل ما احتاجه هو ربع دولار ـ قطعتين نقديتين . وهذا بحد ذاته سيكفيني ، وسأكون ممتناً لك بكل سرور » .

نهض نصف نهضة على قدميه ومد راحة كفه . رجوته بقولي :

ـ « لا تكن متسرعاً . تقول إنك بحاجة لربع دولار . ماذا يفيدك الربع ؟ ما الذي بمقدورك أن تشتريه بربع دولار ؟ لماذا تحب أنصاف الحلول ؟ إنها ليست عادة أميركية . لماذا لا تشتري لنفسك زجاجة من الـ ROTGUT ؟ وما رأيك بحلاقة وقصة شعر أيضاً ؟ أي شيء إلا أن تطلب سيارة رولز رويس . لقد أخبرتك أن الحد الأعظمي هو خمسة . قل هذه الكلمة فقط » .

ـ « بالشرف ، يا سيدي ، إنني لا أحتاج كل هذا المبلغ » .

ـ « لا بل إنك تحتاج كيف تتكلم بهذه الطريقة ؟ إنك بحاجةإلي الكثير من الأشياء ـ إلى الطعام والنوم والصابون والماء ، وإلى مزيد من المرح والعربدة » .

ـ « إنني احتاج إلى دولارين فقط . هذا كل ما احتاجه ، يا سيدي » .

بحثت في جيبي عن ربع دولار ووضعته في راحة يديه . قال لي :

ـ « حسناً . إذا كان ذلك ما تريد »

كان يرتجف لدرجة أن القطعة النقدية انزلقت من يده وتدحرجت إلى البالوعة . وعندما انحنى لكي يلتقطها سحبته إلى الوراء .

قلت له : « دعها تبقى هناك ؛ فقد يأتي شخص آخر ويعثر عليها . إنها مسألة حظ كما تعلم . هاك ، هاك واحدة أخرى ، امسكها! »

---

* البانشيهات : النساء المولولات المخدرات من الموت المحتم في الأساطير (م) .

نهض وعينه ومثبته على القطعة النقدية التي في البالوعة . قال :

- « ألا يمكنني الحصول على تلك الأخرى أيضاً ، يا سيدي ؟ »

- « بالطبع ، يمكنك ذلك ، ولكن ماذا عن زميلك الآخر ، إذاً ؟ »

- « أي زميل آخر ؟ »

- « أي زميل من زملائك القدامى . ما الفرق ؟ »

أمسكته من كمه وقلت له :

- « اهدأ قليلاً . جاءتني فكرةأفضل . دع ذاك الربع حيث هو وسأعطيك كمبيالة بدلاً عنه ، لا مانع لديك من أن تأخذ دولاراً ، ما رأيك » .

سحبت من جيب سروالي رزمة أوراق وأخرجت منها كمبيالة بقيمة دولار واحد . قلت له وأنا أطبق قبضته عليها :

- « قبل أن تحول هذه الكمبيالة إلى سم أكثر استمع إلى ما سأقوله لك ، إنها فكرة جيدة حقاً ، تصور أن بمقدورك ـ عند مرورك غداً في نفس هذه المنطقة ـ أن تتساءل عمن سيعطيك مبلغاً ضئيلاً . وأنا ـ كما ترى ـ لن أكون هنا . إذ أنني سأكون على ILE DE FRANCE* عندها سيجف حلقك وكل شيء فيك . من سيمر بك سوى شخص انيق الثياب عاطل عن العمل ـ مثلي ـ ويرتمي بتثاقل على نفس هذا المقعد . عندها ما الذي ستفعله ؟ ستنهض متجهاً نحوه ـ كما يحدث دائماً ـ وتقول له : « هل تستغني عن دولار يا سيدي ؟ » وسيهز رأسه أن لا . عندها ستكون المفاجأة ، وهنا بيت القصيد من الفكرة التي راودتني . ابتسم ابتسامة لطيفة ، ثم قل له : « يا سيدي ، كنت امزح معك ليس إلا ـ فأنا لست بحاجة لدولار ، هاك قطعة نقدية لك وحماك الله إلى الأبد! » هل ترى ؟ لن يكون ذلك شيئاً رائعاً ؟ »

في لحظة من لحظات الغفلة المذعورة ، نتش الكمبيالة التي كنت امسكها بين أصابعي وخلّصها من قبضتي . قال لي وهو يتراجع إلى الوراء :

- « يا سيدي ، إنك مخبول ، مخبول تماماً .

---

* البر الفرنسي ، بالفرنسية ، في الأصل (م) .

ثم استدار وأسرع الخطى . توقفت على بعد أمتار قليلة وهو يلتفت حواليه . كان يلوح لي بقبضته ويتلوى مثل العاهرة . وصاح بأعلى صوته :

ـ «أنت تافه ومجنون! أنت COCKSUCKER قذر! أبول عليك ، أنت أبله» .

صار يلوح بالكمبيالة في الهواء ويؤدي حركات قذرة ثم يمد لسانه وأخيراً ولى راكضاً . قلت لنفسي :

ـ «ها أنت ، إذاً . لم تتمكن من تحمل مزحة صغيرة . فكيف لو أنني عرضت عليه ستة دولارات» ثم تابعت :

ـ «الآن لو حاولت أن أقلّد مقلباً نتناً في انبوب ترابي لكان ممتناً لي» .

مددت يدي وأخرجت الربع الذي كان في البالوعة . تمتمت لنفسي وأنا أضع القطعة النقدية على المقعد :

ـ «الآن ستحصل له مفاجأة» .

فتحت الجريدة على صفحة المسرح ومسحت بنظرة خاطفة زاوية العروض المسرحية . لا شيء يستحق الذكر في مسرح البالاس . السينما ؟ إنها نفس الـ Chili com carne القديمة ـ المهزلة ؟ إنها مغلقة للإصلاح . يا لهذه المدينة! لم يكن فيها سوى المتاحف والصالات الفنية والأحواض المائية الصنعية .

كنت سكيراً في تلك اللحظة وجاءني شخص يعطيني كمبيالة بقيمة ألف دولار ، ما كنت لأعرف ماذا أفعل بها .

يا لهذا النهار العجيب أيضاً . كانت الشمس تلتهمني مثل مليون كرة من كرات العث ، وكنت مليونيراً في عالم لا قيمة فيه للمال . حاولت أن استذكر فكرة ممتعة . حاولت أن أفكر بأمريكا على أنها ليست اكثر مما قد سمعت به .

ـ «افتح ، باسم يهوه العظيم والمؤتمر القاري!»

انفتح مثل باب دهليز خفي . هناك كانت أمريكا جنة الآلهة ، أمريكا الوادي الكبير في اريزونا ، المداخن الكبيرة . الصحراء المطلية بلا. Mesa Verde ، صحراء موجاڤ ، الكلوندايك ، الصراط المستقيم ، الواباش

البعيد ، هضبة الثعبان العظيم ، وادي القمر ، البحيرة المالحة العظمى ، المونوغاهيلا ، آل اوزارك ، بلد القناة الأم ، حشائش كنتوكي الزرقاء ، أنهار لويزيانا ، أراضي داكوتا القاحلة ، غن غن والوالا ، الـ Ponce de leon ، أورايبي ، جيسي جيمس ، الألامو ، الـ Everglades الـ Okifinokee ، البوني إكسبرس ، الفيتسبورغ . جبل شاستا ، آل تيهاتشيبي ، قلعة تيكونديروغا . بعد غد سيكون يوماً مشهوداً . وأنا واقف عند أعلى مؤخر المركب على متن الباخرة س .س بوفورد قاصداً فرنسا (لقد نسيت فأنا لست منفياً بل ذاهباً لقضاء إجازة في الخارج) . لبرهة من الزمن اعتقدت أنني كنت تلك الفوضوية المحبوبة (إما غولدمان) التي نقل عنها قولها عند اقترابها من بلاد المنفى :

«إني أتوق إلى البلاد (أمريكا) التي جعلتني أعاني . هل صحيح أنني لم أعرف طعم الحب والفرح هناك... ؟»

لقد جاءت هي أيضاً بحثاً عن الحرية مثل الكثيرين غيرها . ألم تكن بلاد الحرية المباركة هذه مفتوحة للجميع لكي ينعموا بها ؟ (الجميع طبعاً ، ما عدا ذوي البشرة الحمراء والسوداء وذوي البطون الصفراء من آسيا) . بهذه المعنويات كان أجدادي وجداتي قد بدأوا الرحلة البحرية الطويلة نحو الوطن ، واستقلوا سفناً مبحرة تسعين أو مائة يوم في البحر مع الديزنطاريا والبري بري والقمل وداء الكلب واليرقان الأصفر والملاريا وبؤس القطط وغيرها من المسرات المتعلقة بعبور المحيطات .

لقد وجد أسلافي الحياة سهلة في أميركا مع أنهم في صراعهم من أجل البقاء ـ بقاء الروح والجسد معاً ـ كانوا قد اندثروا قبل الأوان ، فما تزال قبورهم في حالة جيدة . كانوا قد جاؤوا بعد بضعة عقود من احتلال (ايتان آلن) للتيكونديروغا باسم الإله العظيم يهوه والمؤتمر القاري . أو لنكن أكثر دقة ، فقد جاؤوا في الوقت المناسب تماماً لكي يشهدوا اغتيال ابراهام لنكولن . ثم تلته اغتيالات أخرى ، ولكن لشخصيات أقل شأناً .

وهكذا نجونا من لاعبي الكرابس .

سينطلق المركب في أقرب وقت ، وسيأتي في وقت الوداع . فهل سأفتقد أنا أيضاً هذه البلاد والتي جعلتني أعاني على هذا النحو ؟

لقد أجبت على هذا السؤال من قبل . ولا داعي للقول أنني أرغب في وداع أولئك الذين كانوا ذات يوم يعنون شيئاً بالنسبة لي .

ماذا أقول ؟ أنتم يا من لا تزالون تعنون لي شيئاً!

تقدموا إلى الأمام! ألن تفعلوا ذلك ؟ دعوني أصافحكم! تعالوا أيها الرفاق ، إنها المصافحة الأخيرة!

ها هو يظهر وليام . ف . كودي أول القادمين في الرتل . عزيز ي بوفالو بيل ، أية نهاية مخزية احتفظنا لك بها! وداعاً يا سيد كودي ـ أتمنى لك سرعة إلهية! وهل هذا هو جيسي جيمس ؟ وداعاً يا جيسي جيمس ، لقد كنت قمة شامخة! وداعاً أنت يا آل توسكارو ، يا آل هوبي البواسل المسالمين! وأنت أيها السيد الجنتلمان اللامع ، ذو البشرة الزيتونية واللحية الصغيرة المشذبة ، من المعقول جداً أن تكون بورغهارت دوبوا روح الزنوج ؟

وداعاً يا عزيزي السير المبجَّل ـ أي بطل نبيل قد أصبحت! وأنتم يا من هناك ـ آل جينينغ الذين كنتم ذات مرة في إصلاحية أوهايو ـ تحياتي لكم! وهل يمكن أن تسير في الظلام مع شخص أعظم من اوهنري . وداعاً يا جون براون ، وبوركت شجاعتك الفائقة النادرة! وداعاً يا عزيزي والت العجوز! فلن يوجد مغنٍ آخر مثلك في كل البلاد . وداعاً يا مارتن إدن ، وداعاً يا أونكاس ، وداعاً يا ديفيد كوبرفيلد! وداعاً يا جون باريلكورن! وقل مرحباً لجاك! وداعاً يا راكبي الدراجات لستة أيام متتالية ، فسوف اسبقكم إلى الجحيم! وداعاً يا عزيزي جيم لوندوس ، وأنتم أيها الهرقلات الصغار الصامدون! وداعاً يا أوسكار هامرشتاين . وداعاً يا غاثي كاساتزا ، وأت أيضاً يا رودولف فريمل! والآن وداعاً لكم يا أعضاء جمعية زيركس! Fratres Semper وداعاً يا إلسي جانيس! وداعاً يا جون . ل ، ويا جنتلمان جيم! وداعاً يا كنتوكي

العجوز ، وداعاً يا شمروك العجوز! وداعاً يا مونتزوما ، يا آخر الحكام العظماء للعالم الجديد والقديم! وداعاً يا شرلوك هولمز! وداعاً يا هوديني! وداعاً أنتم أيها المتذبذبون ، ويا كل مخربي التقدم! وداعاً يا سيد ساكو! وداعاً يا سيد فانزيتي! اغفروا لنا أخطاءنا! وداعاً يا مينهاها ، وداعاً يا هيواثا ، وداعاً يا اعزائي آل بوكاهونتا! وداعاً أيها الرواد ، وداعاً لولز فارغو وكل أولئك! وداعاً يا والدن بوند! وداعاً أيها الشيروكيون ويا أنصاف النبلاء! وداعاً ، أنت يا زوارق المسيسبي البخارية! وداعاً يا توماشيفسكي! وداعاً يا ب .ت . ب بارنوم! وداعاً يا ساحة هيرالد! وداعاً يا نافورة الشباب! وداعاً يا دانييل بون! وداعاً يا جداه! وداعاً يا شارع الأحزان المبكرة ، وقد لا تقع عيني عليك بعد الآن! وداعاً لكم جميعاً ... وداعاً الآن . دعوا الأسبيديسترا تطير!

* * *

النهاية